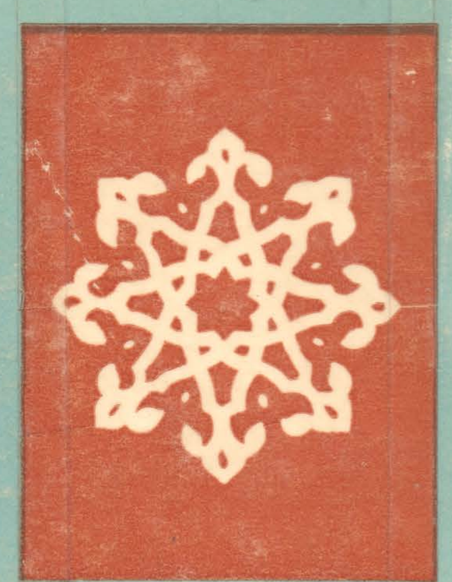
محمد صالح محيي الدين



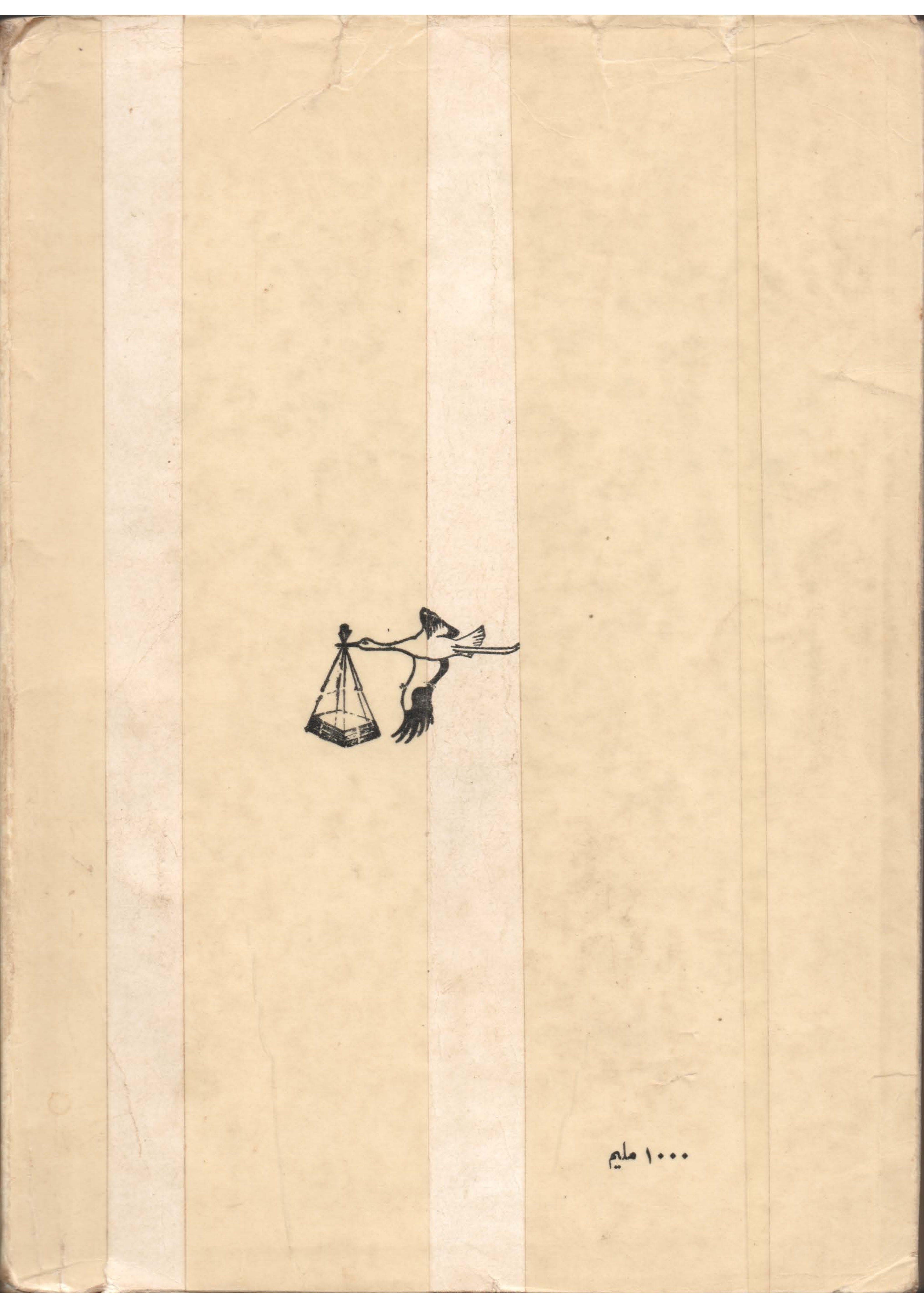


مشيخة العبدلاب

وأثرها في حياة السودان السياسية

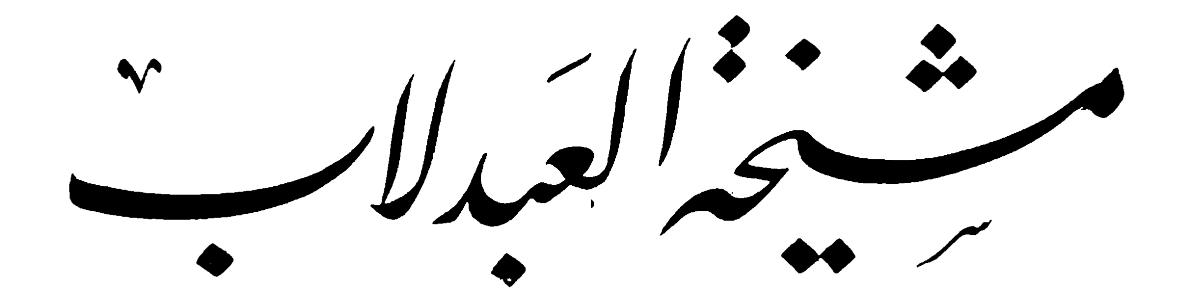
الدار السودانية
الخرطوم

دار الفكر
بيروت


١٠٠٠ مليم



مشيخة العبدلاب



مشيخة العبدلاب

وآثارها في حياة السودان السياسية

٩١٠ - ١٢٣٦ هـ / ١٥٠٤ - ١٨٢١ م

وضع

محمد صالح محيي الدين

الدار السودانية

الطبعة الأولى ١٣٩٢ ﻫ - ١٩٧٢ م

اهداء الكتاب

كان من الجائز ان اصبح زارعا أو عاملا أو كما مهملا منزويا في ركن قصي « بالمقل » احدى قرى المديرية الشمالية لولا عناية من اهدي اليه هذا الكتاب بعد عناية الله ، وذلك حين كنت صغيرا لا أملك من امر نفسي نفعا ولا ضرا .

فالى هذا الاخ الودود الذي غير مجرى حياتي هذا التغيير الجذري ، وكلفه ذلك جزءا من ضروريات حياته وحياة اولاده حينا من الدهر —

الى الاب والاخ والصديق ، السيد علي محي الدين محمد ارفع اولى ثمرات جهده ، وبكر انتاجي ، تقديرا ووفاء .

المؤلف

شكر وتقدير

الان ، وقد منّ الله علي بانجاز هذا البحث على هذه الصورة وجب أن أذكر بالعرفان اولئك النفر الكريم من الاساتذة والاصدقاء الذين قدموا لي عونهم في شتى مناحي البحث ، في سماحة نفس ، وطيب خاطر ، واخص بالثناء العاطر منهم الاستاذ الذي أشرف على هذا البحث منذ ان كان فكرة حتى اصبح حقيقة ماثلة للعيان ، وبذل من ذات نفسه ووقته وماله ما أنا عاجز عن الوفاء بحقه ، وسأظل ذاكره له على امتداد العمر ، اعرف هذا لاستاذي الدكتور صالح احمد العلي ، واعرف له معه ما كبدني من مشاق ـ اثناء البحث ـ كادت تزهدني اول الامر في الدراسات العليا قاطبة ، ثم جنيت ثمرها الان يانعا سخيا .

واذكر بالعرفان الجميل العون الكبير الذي قدمته لي دار الوثائق المركزية بالخرطوم ممثلة في موظفيها بعامة ، وفي مديرها الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم بخاصة ، فقد ابدى هذا الرجل توجيهات سديدة على منهج البحث ، ونبهني الى كثير من مهام الامور .

وأشكر جزيل الشكر شعبة ابحاث السودان وعلى رأسها مديرها الدكتور يوسف فضل حسن ، فقد امدتني بمعلومات بكر عن تاريخ العبدلاب .

وأعرف للاستاذ الدكتور صالح محمد نور رئيس قسم التاريخ

بجامعة الخرطوم (سابقا) واقدر جميله الذي تمثل في مراجعته اصل الرسالة في صورتها النهائية ، وابدائه سديد الملاحظات عليها .

ولن انسى قط ذلك العون الكبير الذي قدمه لي الاخوة الاساتذة عبدالله حميدة الامين ، ويوسف عبدالله يوسف ، وعثمان الشيخ ،وموسى بدوي وتمثل في شؤون الطباعة والترجمة ، كل في مجال تخصصه . لهؤلاء جميعا ، ولكافة من اسدى الي يدا ارفع اجزل شكري واوفى تقديري .

مقدمة الطبعة الأولى



مقدمة عامة

١ ـ اهمية البحث ونطاقه ومشاكله :

ترجع اهمية دولة العبدلاب في تاريخ السودان الى انها تمثل نقطة تحول بارزة فيه ، فقد كانت اول حكومة عربية اسلامية خالصة لا مكان للجدل في عروبتها ، انتقلت بالسودان ـ مع سلطنة الفونج ـ لاول مرة من بلد تسيطر عليه دولة مسيحية زهاء عشرة قرون الى عهد جديد تسود فيه دولة الاسلام .

وهي ـ الى ذلك ـ تمثل جزءا كبيرا من تاريخ السودان لا يجوز ـ مهما كانت مشاكله وصعوبة البحث فيه ـ ان يهمل ، ومع ذلك لم تلق من عناية الباحثين ما يتناسب وهذه الاهمية . لذا رأيت ان اتخذها موضوعا لهذه الرسالة .

وازاء الشح في المصادر ، والقلة في الاخبار ، واهمال الباحثين لتاريخ المشيخة لم يكن عمليا ان اقصر بحثي على حقبة زمنية معينة من تاريخ دولة العبدلاب ، لذا اتخذت موضوعا واحدا على مدى تاريخها الطويل هو الجانب السياسي وحده لدراسته مؤملا ان تكون دراستي هذه اساسا

ضروريا تقوم عليه دراسات تالية اقوم بها او يقوم بها غيري ، تتنـاول النواحي الاقتصاديةوالاجتماعية والثقافية وغيرها •ومن ثم اصبح موضوع بحثي محددا بـ :

(مشيخة العبدلاب واثرها في حياة السودان السياسية)

ولقد اقتصرت على الجانب السياسي وحده لاهميته ، ولعدم امكان استيعاب بقية الجوانب في البحـث ، وفقا لمـا تحـدده متطلبـات دراسة الماجستيـر •

مشاكل البحث :

برزت مشيخة العبدلاب (٩١٠ هـ /١٥٠٤ م ـ ١٢٣٦ هـ /١٨٢١ م) الى الوجود في وقت كانت اجزاء كبيرة من القارة الافريقية وفي مقدمتهـا السودان ـ غير مطروقة من الغربيين ، ولا معروفا عنها الا النذر اليسير ، فالسودان لم يعرفه المؤرخون الاوروبيون معرفة علمية صحيحة الا بعـد الفتح التركي المصري ، أي بعد سقوط دولة العبدلاب • وفيما عدا بـلاد النوبة السودانية وبلاد البجة المتاخمة لحدود مصر الجنوبية فان المؤرخين العرب لم يذكروا لنا شيئا ذا بال عن أي أجزاء اخرى من السودان ، وذلك راجع لوعورة المسالك اليه ، وما يكتنفها من اخطار ، والقليل الذي ذكر من أخبار النوبة ـ بقسميها الشرقي والغربي ـ يتعلق بالاحتكاك المسلح الذي وقع بين اهل هذه البلاد وبين المسلمين في مصر عندما ارادوا فتحها ـ بعد فتح مصر ـ وضمها اليهم •

لم يبق امام الباحث عن اخبار السودان ـ ازاء هذا ـ الا ان يفتش عنها في المؤلفات التاريخية المحلية ، وهذه لا نعرف منها ما يرجع الى ابعـد

من مستهل القرن التاسع عشر الميلادي حين ظهرت قلة قليلة من المؤلفات المحلية • ومما يبعث على الارتياح ــ في هذا الصدد ــ ان يلاحظ المرء هذا الجهد المبذول حديثا من قبل المهتمين بالموضوع عامة ومن دار الوثائق المركزية وشعبة ابحاث السودان بالخرطوم خاصة ، فانهما جندتا عددا من شبابهما لهذا الغرض ، وقد وفقوا في مهمتهم الى حد ، فجمعوا عددا من المخطوطات والوثائق في موضوعات مختلفة ، وحققوا بعضها ونشروه • وقاموا بدراسات ميدانية جمعوا خلالها كثيرا من الروايات الشفوية على جانب كبير من الاهمية • ولكن نصيب هذه الفترة التي ظهرت فيها دولة العبدلاب من كل ذلك قليل •

كذلك قام بعض الاجانب برحلات الى السودان ، نشروا ــ على اثر عودتهم الى بلادهم ــ اخبارها ، وكان اول رائد منهم ــ فيما أعلم ــ هو داود روبيني اليهودي اليماني الذي حدثت رحلته في مستهل القرن السادس عشر الميلادي ، ومملكة الفونج ومشيخة العبدلاب في اعوامها الاولى • غير أنه لم ينبىء بشيء مفيد عن مشيخة العبدلاب •

ثم اعقبه رحالة اخرون (سنفصل اخبارهم) أمكن من خلال رحلاتهم ان نلم ببعض الاخبار وان كانت غامضة ومقتضبة • والى هذا الغموض الذي تميزت به هذه الفترة من تاريخ السودان يشير الدكتور مكي شبيكة[1] « وبالرغم من ان هذه الحقبة من تاريخ السودان قريبة منا نسبيا فان مصادرها قليلة ومشوشة » •

في هذه الفترة ظهرت دولة العبدلاب وكان نصيبها من هذا النذر اليسير من الاخبار قلة جعلت تاريخها غامضا ، ذلك لان معظم تلك الاخبار التي تضمنتها تلك الرحلات ، والتي جاءت في بعض المخطوطات والوثائق

---

(١) السودان عبر القرون (ص ٤٦) وانظر عبد العزيز عبد المجيد : التربية في السودان (ج ١ ، حرف ل)

وما اليها كانت تعنى بالدرجة الاولى بالفونج ومملكة سنار ـ فيما عدا مخطوطات العبدلاب التي سندرسها ـ وذلك لقدم هذه الحكومة نسبيا واشتهارها واقامة اولئك السياح وبعض مؤلفي المخطوطات في بلاطها او تحت نفوذها . ولا يرد ذكر للعبدلاب الا من خلال معالجة تاريخ الفونج بحكم ما بين الدولتين من تحالف قامتا على اساس منه ، وما تبع ذلك من علاقة بينهما بيناها في موضعها من هذا البحث .

ثم انني لا اعلم أن كتابا واحدا صدر حتى الان او دراسة مستقلة نشرت في تاريخ هذه الدولة ، فيما عدا الكتاب الاخير الذي اصدرته شعبة ابحاث السودان بجامعة الخرطوم ، مستمدا من واقع روايات العبدلاب السماعية ، وقدمت له الشعبة بقولها : [٢] « ان الدافع لاختيار قبيلة العبدلاب موضوعا للدراسة ندرة المصادر التاريخية المكتوبة عن هذه القبيلة » .

من هذا كله تظهر الصعوبة البالغة التي واجهتها في معالجة موضوع هذه الرسالة .

٢ ـ تقويم مصادر البحث

أ ـ المصادر المعاصرة :

١ ـ المراجع العربية :

يعتبر ابن عبد الحكم (ت ٢٧٦/ ٨٨٩ م) في كتاب « فتوح مصر واخبارها » من اقدم المصادر التي اشتملت على اخبار اول احتكاك بين العرب المسلمين في مصر واهل السودان في النوبة وبخاصة بلاد عويس

---

(٢) هو كتاب : تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية (ص٤)

المتاخمة لمصر ، فقد فصل فيه الحملات الاولى التي قادها المسلمون لفتح تلك البلاد •

وتطرق البلاذري (ت ٢٧٩/٨٩٢ م) لنفس الموضوع ايضا في «فتوح البلدان » ولكن بقدر اقل • اما اليعقوبي (ت ٢٨٢ هـ) في كتابيه « التاريخ» و « البلدان » فقد ذكر معلومات اوفى نسبيا ، اذ لم يقتصر على اخبار الفتوح الاولى ، بل انبأ ايضا عن صراع القبائل العربية في معادن الذهب بأرض البجة ، واشار الى عدد من المجموعات العربية التي استقرت هناك واثرت جنسيا وحضاريا في تلك المناطق ، كما نقل اخبارا قيمة ــ وان كانت مقتضبة ــ عن مملكة علوة التي ازالها العبدلاب فيما بعد من وسط السودان •

وقد بحث المسعودي (ت ٣٤٦/٩٥٦ م) في « مروج الذهب» دخول العرب لشرق النوبة (منطقة البجة) ، وكانت معلوماته التي اوردها وافية نسبيا خاصة ما كتبه عن معادن الذهب فيها ، ولذا كان من خير المصادر عند دراستي لهذه الناحية •

واذا كان الكندي (ت ٥٣٠ هـ) في « كتاب الولاة وكتاب القضاة » قد ذكر بعض هذه الاخبار فان ابن حوقل (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) في « صورة الارض » كان اكثر تفصيلا ، اذ ذكر معظم الحملات العربية على ارض النوبة والبجة ، وكتب عن العرب الذين استقروا في هذه المناطق، واورد معلومات عن الذهب ليس في بلاد البجة وحسب ــ كما فعل اليعقوبي والمسعودي ــ بل في مملكة علوة ايضا التي انفرد بتقديم بعض التفاصيل عن احوالها • من ذلك اشارته الى قانون وارثة الملك فيها ، وهذا يسر لنا معرفة الاساس الذي قام عليه استيلاء ابناء جهينة ــ ومنهم العبدلاب ــ على مقاليد الحكم هناك •

اما النويري (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م) في كتابه : « نهاية الارب في

فنون الادب » فقد انفرد ببعض الاخبار ذات الشأن في عروبة وسط السودان حيث قامت دولة العبدلاب ، منها تفصيله لاخبار الحملة التي ارسلها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ووصلت بلاد علوة سنة ٧١٦هـ، ولا يزال الجزء الذي فيه هذه الاخبار مخطوطا •

وقد افادنا ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) فائدة لا تجحد عن مدى انتشار قبيلة جهينة الكبيرة في ارجاء متعددة من السودان ، وكيف انها استغلت قانون الوراثة ــ وهي الفكرة التي ذكرها ابن حوقل قبله مجملة ــ فاعتلت عرش النوبة في الشمال وفي الجنوب، ومنها عرب القواسمة، الاصل الذي نرجح تفرع العبدلاب عنه •

وقد قدم المقريزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) في كتابيه « الخطط والسلوك » معلومات اساسية لهذا التمهيد وبعض الفصل الاول ، لانه جمع فيهما اهم ما كتبه ابن سليم الاسواني في كتابه المفقود : « اخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » ولابن سليم اهمية خاصة ، فقد زار مملكة علوة في اواخر القرن العاشر الميلادي ، عضوا في بعثة القائد الفاطمي جوهر الصقلي التي ارسلها للاتصال بأمراء السودان آنذاك ، لهذا استطاع ان يصف مملكة علوة وصفا دقيقا ، وينبىء عن اخبارها باليقين ، هذا الى ما دوّنه من معلومات مفيدة عن النوبة والبجة والمقرة والنيل ، وما للعرب من اثر في تلك الجهات ــ وهذه المعلومات اعطتنا تفسيرا للاسباب التي حملت العرب على الهجرة الى ارض علوة ، حتى بلغت كثرتهم حدا استطاعوا معه ان يقيموا مسجدا ورباطا في عاصمة دولة مسيحية هي « سوبا » ، كما ساعدنا على تفهم الاسباب التي يسرت فتح « سوبا » والاستيلاء عليها •

من المصادر المهمة في تاريخ العلاقات بين العرب والمماليك كتاب « تاريخ مصر » المشهور بـ « بدائع الزهور في وقائع الدهور » لابن اياس الحنفي المصري (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م)، فقد امدني بمعلومات القت ضوءا

على بعض المؤثرات التي حملت العرب ايام المماليك على الهجرة الى السودان •

وبوجه عام فان المصادر المذكورة آنفا قدمت لنا معلومات ذات فائدة في تفهم اصول العرب في السودان •

٢ ـ مصادر العبدلاب :

من أهم مصادر العبدلاب التي تؤرخ لدولتهم مخطوطة : « واضح البيان في ملوك العرب بالسودان ، وملوك العبدلاب من الشيخ عجيب الى تاريخه » من تأليف ابن الارباب الحسن بن شاور بن عجيب بن اونسة بن شمام بن عجيب الثالث احد ملوك العبدلاب ، وقد ذكر المؤلف في مقدمتها ان كثرة الروايات المخالفة للحقيقة بالنسبة لتاريخ العبدلاب هي التي دعته لان يلبي طلب جماعة من اهل الفضل فيؤلف هذا الكتاب •

والمخطوط لا يزال اصله بيد اسرة العبدلاب ، وقد اودعت نسخة مصورة منه بدار الوثائق المركزية بالخرطوم ، وهو لم ينشر بعد ، ولكن نشرت عنه دراسات في عدة حلقات من مجلة الخرطوم ، وقد اشتمل على تاريخ العبدلاب منذ قيام دولتهم حتى سقوطها سنة ١٢٣٦ هـ وما بعد هذا التاريخ بقليل • وقد وصفه الاستاذ صلاح محي الدين بقوله : (١)

« ان المخطوط اثر تاريخي يشكل مصدرا اصليا بالنسبة لمادة تلك الحقبة فيما يختص بملوك العبدلاب وقبيلتهم بوجه خاص ••• وهي مخطوطة توارثها احفاد تلك الشجرة من ملوك العبدلاب ، وحرصوا على احاطتها بالعناية • وانها ، بوصفها مصدرا حيا (First Hand means) تستحق الاحتفال العظيم ، لا سيما في محيط الباحثين والدارسين والمحققين » •

---

(١) مجلة الخرطوم ، يناير (كانون الثاني) ١٩٦٨ م (ص ٢٣ ـ ٢٤)

وهي في الواقع جديرة بهذا التقريظ •

ومن مصادر العبدلاب التي لا يستغني عنها باحث في تاريخهم مخطوط :

Traditional Stories of The Abdullab Tribe collected by A.E.D Penn, Sudan notes and Records, vol . XVII, 1934.

شمل هذا المخطوط ايضا تاريخ دولة العبدلاب منذ نشأتها حتى سقوطها ، وهو كثير الشبه – من حيث المحتويات والخصائص – بمخطوط « واضح البيان » الذي سبقت الاشارة اليه ، لهذا كان – مع سابقه – العمدة في دراستي لمشيخة العبدلاب ، سيما الباب الخاص بترجمة شيوخهم ، على ما فيهما من خلط – احيانا – في ترتيب بعض الاحداث •

وفي خزائن الشيخ عثمان اونسه كبير العبدلاب وقفت على نسخة منقولة من مخطوط مجهول المؤلف يدعى (تاريخ ملوك العبدلاب)ويبدو من صياغته أنه لمؤلف حديث ، وهو ، على اية حال ، لا يخرج عن مضمون سابقيه ، مما يدل على انه مأخوذ من كليهما •

كذلك ظفرت باوراق « نسب العبدلاب » في ملف بدار الوثائق المركزية يحمل الارقام (٦١٥ – ٦٢٨) ، وينسب لابن الحاج حسين ابن شريف الفحل بن ضياب بن أونس بن كليس بن عجيب بن ديومة بن عبدالله جماع • وقد حوت هذه الاوراق معلومات مفصلة عن نسب العبدلاب وبعض اخبار دولتهم •

اما اوراق نسب الشيخ علي محمد الموجودة في دار الوثائق تحت عنوان (متنوعات) فقد شملت معلومات عن وقائع حربية خاضها العبدلاب ضد الشايقية (السواراب) ، كما فصلت بعض تقاليد واعراف ملوك العبدلاب ، ولكن في نطاق ضيق •

ان الروايات السماعية تمثل – بالنسبة لتاريخ العبدلاب – مصادر ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها بحال ، ومن اهم هذا النوع من المصادر

كتاب : « تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية » الذي اصدرته شعبة ابحاث السودان حديثا ، متضمنا روايات الكهول من شيوخ العبدلاب الاحياء • ومنها مخطوط « جوانب من تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية » من تأليف الاستاذ حسن محمد خليل باشا ،ويحتفظ الدكتور يوسف فضل بالنسخة التي رجعت اليها • وهناك روايات سماعية اخرى قمت بتدوينها حين زرت بعض مناطق العبدلاب •

على هذه المخطوطات والروايات ، ومخطوط صغير الفه الشيخ عثمان اونسه ولا يزال بيده ، ولا يخرج محتواه عن سابقيه ـ اعتمدت في باب : « شيوخ العبدلاب ، واهم آثارهم » ، مقارنا ذلك بما جاء في غيرها من المصادر • وهذه المصادر هي التي اشير اليها اثناء دراستي بمصادر العبدلاب •

٣ ـ المصادر السودانية العامة :

يأتي في مقدمة هذه المصادر « كتاب الطبقات في خصوص الاولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان » لمؤلفه محمد ضيف الله بن محمد الجعلي الفضلي (ت ١٢٢٤ هـ) المشهور بـ « طبقات ود ضيف الله » • وقد نشر هذا الكتاب في طبعتين : الاولى بتحقيق سليمان داود منديل ، والثانية ـ وكانت سنة ١٩٣٠ م ـ حققها ابراهيم صديق احمد القاضي الشرعي سابقا بادارة السودان ، ويقوم هذه الايام يوسف فضل حسن بتحقيقه ونشره على نحو جديد اكثر دقة واتقانا •

وترجع اهمية هذا الكتاب الى انه أقدم مصدر سوداني معروف حتى الان ، هذا الى انه معاصر لجزء من مشيخة العبد لاب ، ولا يبعد ان يكون قد نقل الجزء الذي لم يعاصره من مخطوطات اختفت بعد عصره •

ومع ان هذا الكتاب وضع اصلا في تراجم الرجال – كما هو ظاهر من عنوانه – الا انه قدم فائدة كبيرة في معظم اجزاء رسالتي وبخاصة فصلا : علاقات العبدلاب بالفونج ، والقضاء • على اننا نأخذ على مؤلفه تأثره الشديد بالعقلية السائدة في زمانه ، مماجعل كتابه يزخر بخرافات لا يستسيغها فكر قويم ، فقد اقحم فيه كثيرا من خوارق العادات ، باعتبارها كرامات للاولياء الذين ترجم لهم • ومع هذا فهو كتاب لا يستغني عنه باحث في تاريخ السودان •

يلي هذا السفر في الاهمية – بالنسبة لتاريخ السودان عموما – « مخطوطة تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية» ذات النسخ المتعددة، والتي لا يعرف – على وجه القطع – مؤلفها ، ويمكن ان نميز من نسخها ما يلي :

١ – تاريخ ملوك السودان :

وقد جلب هذه النسخة الدكتور مكي شبيكة من المتحف البريطاني بلندن ، وحققها ، وعلق عليها ، ونشرها تحت رقم (١) من منشورات كلية غردون التذكارية (جامعة الخرطوم حاليا) وذلك سنة ١٩٤٧ م ، ورأى أنه اشترك في تأليفها وتنقيحها الشيخ احمد كاتب الشونة ، والزبير عبد القادر الزين المشهور بالزبير ودضوه (ت ١٨٨٢ م) ، والامين الضرير (ت ١٨٨٥) ، والشيخ ابراهيم عبد الدافع : (١٨٠٠ – ١٨٨٢ م) •

٢ – مخطوطة كاتب الشونة :

حقق هذه النسخة الشاطر بصيلي عبد الجليل عن مخطوطة موجودة في دار الكتب المصرية (تحت رقم ١٨ تاريخ) واعتبرها اصل تلك النسخ

جميعا ، وقال انها منقولة عن الاصل المنسوب الى كاتب الشونة ، ولهذا اسماها « مخطوطة كاتب الشونة » الذي هو الشيخ احمد بن الحاج ابو علي ، المولود في بلدة المسلمية سنة ١١٩٩ هـ / ١٧٨٤ م ، وقد نشرتها « الادارة العامة للثقافة بمصر » •

وهناك نسخة ثالثة عنوانها :

٣ ـ تاريخ ملوك السودان واقاليمه الى حكم محمد باشا سعيد :

وهي بدار الكتب المصرية ايضا ، وقد كتبت عليها ـ في فهرست المخطوطات ـ العبارة التالية : « مأخوذة بالتصوير الشمسي عن نسخة خطية محفوظة بالمكتبة الاهلية بباريس » • وهي موضوعة تحت رقم ٢٥٣٧ تاريخ ، وتتألف من ٤٢ لوحا ، وهي مجهولة المؤلف ، غير ان الدكتور عبد العزيز عبد المجيد ذهب الى انها من تاليف الشيخ ابراهيم عبد الدافع (ت ١٨٨٢ م) ، وذهب الشاطر بصيلي الى ان كاتبها هو الشيخ الزبير ودضوه ، وان عبد الدافع انما قام بتنقيحها من ناحية الصياغة • ويبدو ان الدكتور عبد العزيز انما نسبها للشيخ ابراهيم عبد الدافع لهذا الاعتبار •

٤ ـ تاريخ مختص بارض النوبة :

وهي نسخة مودعة بدار الوثائق المركزية (قطعة ١٨٢) ، وتتألف من كتابين : الاول منسوب الى المقريزي وموضوعه « البقط » ، وقد ذكر فيه بعض اخبار حملات المسلمين الاولى على النوبة ، والثاني مجهول المؤلف ، ويغلب على الظن انه نسخة اخرى من مخطوطة كاتب الشونة لتشابه المحتويات •

اما عن المضمون فان هذه النسخ جميعها تتشابه بصورة عامة في موضوعها ، لكنها تختلف في بعض التفاصيل ، وفي حوادث تذكر هنا دون ان يشار اليها هناك ، كما تختلف في الصياغة ، وهي جميعا تؤرخ لدولة الفونج ، فتبدأ بذكر اول ملوكهم « عمارة دنقس .. » ، ثم تتابع تسلسلهم حتى نهاية دولتهم ، وينتقل اكثرها بعد ذلك للحديث عن امتداد الادارة المصرية للسودان ، وهنا يظهر بينها الاختلاف طولا وقصرا .

على انها ـ وان كانت قد وضعت اصلا في تاريخ الفونج ـ امدتني بمعلومات غير يسيرة عن مشيخة العبدلاب ، ذكرت في مناسبات متعددة بحكم المعاصرة ، وبحكم ما بين الدولتين من علائق وارتباطات ، ولا يكاد يخلو فصل من فصول هذه الرسالة من معلومات مستقاة من هذه النسخ. غير انه لما كان مؤلف الاصل لهذه المخطوطات مولودا في بلدة المسلمية الداخلة تحت نفوذ الفونج ، ومنشأ في كنفهم ، ومن اصحاب الحظوة عندهم ، فقد عد ممثلا ـ فيما يكتب من روايات تاريخية ـ لوجهة نظر الفونج ، ومن ثم غدت كتاباته التاريخية ـ فيما يخص تاريخ العبدلاب ـ موضع شك ، ولزم ـ تبعا لذلك ـ ان تؤخذ بحذر شديد .

وترجع قيمة هذه المخطوطات في مجموعها الى معاصرتها لجزء من تاريخ مشيخة العبدلاب المعاصرة للفونج ، يدل على ذلك مولد كاتب الاصل الذي كان سنة ١١٩٩ هـ كما اشرنا قبلا ، وكذلك قوله ـ وهو يتحدث عن ملوك الفونج المتأخرين : ـ « فلما دخلوا سنار عزلوا الملك بادي وهو الموجود الان ، وولوا الملك رانفي » (١)

كما ان السياق في بعض اجزاء (٢) احدى هذه المخطوطات يدل

---

(١) تاريخ ملوك السودان واقاليمه (ص ١٩/أ) .
(٢) انظر مخطوطة كاتب الشونة (ص ٢٩) .

على ان مؤلفها نقل بعض معلوماته من مصدر معاصر •

كذلك استعنت ـ عند تحقيق نسب العبدلاب ـ بمخطوط يظن انه : كتاب « انساب العرب » المفقود الذي الفه الامام السمرقندي بطلب من ملك الفونج عمارة دونقس ، وارسل الى السلطان سليم العثماني ، وجدته في حوزة الاستاذ ابراهيم حاج محمد بمدينة شندي بالسودان ، وهي نسخة بخط يد واضح غير انها ناقصة في الاول والاخر • ومع انها وضعت اصلا في الانساب الا انها اشتملت على بعض الاخبار • وقد اودعت دار الوثائق المركزية نسخة منها • ومثلها في كل ما سبق ـ تقريبا ـ نسخة جعفر حسان التي عثرت على اصلها عند ابنه (حسان) في بلدة (حزيمة) بمديرية الشمالية بالسودان •

ومن المصادر ذات القيمة الكبيرة كتاب : « الفونج والارض » الذي اصدرته شعبة ابحاث السودان التابعة لجامعة الخرطوم بالتعاون مع دار الوثائق المركزية • وقد تضمن هذا الكتاب مجموعة كبيرة من الوثائق المهمة ، قام بتحقيقها ، وشرحها ، والتعليق عليها ، الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم مدير الدار • وكان بعض تلك الوثائق صادرا عن شيوخ العبدلاب وعليها اختامهم الرسمية •

وبرغم ما اخذه عليها الشيخ عثمان اونسه كبير العبدلاب الحالي ـ في مذكرة رفعها لمدير الشعبة ـ من اضطراب بعض التواريخ الواردة في ثنايا بعضها ، ومن اختلاف اسلوب هبة الارض الذي جاء فيها عما هو معروف لدى العبدلاب (على ما يقوله الناقد) ، ومع خلطها في غير ما موضع بين شيوخ قرى وشيوخ الحلفاية ـ فان قيمتها تظل كبيرة، لان هذه امور يمكن ان تختلف فيها وجهات النظر ، وهي قابلة للاخذ والرد •• وقد كانت لي ـ هذه الوثائق ـ خير عون في محاولة تحقيق ازمنة التولية لبعض شيوخ العبدلاب ، اذ كان تاريخ الختم الذي دمغت

به كل وثيقة يشير في الغالب الى زمن تولية كل شيخ ، كما اعتمدت عليها كثيرا في الباب الخاص بنظم الادارة والحكم ، وبعض الاعتماد في فصل القضاء •

بعد هذا تاتي اوراق نسبة كثيرة جمعتها دار الوثائق المركزية تحت عنوان : متنوعات ١/١٦/١٨٤ ، والظاهرة المشتركة بين هذه الاوراق جميعا عنايتها بالدرجة الاولى بنسب بعض القبائل العربية في السودان ، غير انها تصور — مع ذلك — بعض جوانب الحياة السودانية ، وتورد بعض الاخبار التي استعنت بها على فهم بعض الامور المتعلقة بموضوع البحث ، كما امدتني ببعض المعلومات في اماكن متفرقة من الرسالة • ويمكن ان نميز من هذه الاوراق :

١ — « نسبة البكرية وبني العباس » ، جمعها الشيخ ابراهيم الحاج بابكر (ت ١٩٣٠ م) •

٢ — نسبة احمد الازهري •

٣ — « مجموعة من نسب القبائل العربية » كتبها عبد الجليل محمد دفع الله ، لاخيه محمد بن الحاج علي بن الماحي بن مضوي بن دفع الله ، سنة ١٣٢٦ هـ •

٤ — « قبائل العرب » كتبها عمدة الخط الثاني محمد احمد عمر بطلب من مفتش (الكاملين) (عزتلو) افندم •

٥ — اوراق نسب لا يعرف مؤلفها ، في ملف يحمل صفحات : (٤٨٩ — ٥٠٣) وقد وجدت في اخر الاوراق هذه العبارة : « وهذا ما تحرر مسنودا على شجرة وجدت بخط الحسن بن علي اخي السيد احمد البدوي » •

٦ ــ « بعض انساب العرب » ، وهذه وان اتفقت في مضمونها مع اوراق دار الوثائق السابقة الا انني عثرت عليها في خزانة النسابة الشيخ الامين الفكي يوسف المقيم في جامع والده ببلدة شندي •

٤ ــ كتب الرحلات :

انتقل الان الى كتب الرحلات ، وهنا ــ في مقدمتها ــ يبرز كتاب :

The Fung Kingdom of Sennar, By Crawford, Publiched for the auther By John Bellows, Ltd. Gloucester, 1951

وهو كتاب يعد من اهم مصادر هذه الفترة التي يمكن الاعتماد عليها والوثوق ــ الى حد كبير ــ في اخبارها ، ذلك لانه حفظ لنا عددا من الرحلات المهمة ، ومن اهمها (رحلة كرمب) التي قام بها ابان حكم الفونج والعبدلاب سنة (١٧٠١ م) ، وموضع الاهمية في هذه الرحلة ان (كرمب) مكث في البلاط السناري زهاء عام ، ثم زار العبدلاب في عاصمتهم وبقي في بلاطهم نحوا من ثلاثة شهور ، دون اثناءها ادق التفاصيل عن كل ما رأى وسمع • لهذا فقد اعتبرت رحلته التيتضمنها الكتاب السابق مصدرا ثقة في بعض اجزاء باب « نظم الحكم والادارة » ، ونقلت عنه بعض ما رأى من تلك النظم والتقاليد •

ومن الرحلات المهمة المعاصرة :

The Red Sea and adjaeent countries at the close of the seventeenth contury. At Hakluyt Society London 1709 By Poncet Jaques.

التي بدأت من القاهرة في يونيه (حزيران) ١٦١٨ م ، وجاس خلالها معظم الاقاليم التي كانت تخضع للعبدلاب ، فقد ضمن تلك الرحلة اخبارا عن دنقلا ونظم الحكم فيها ، وبين كيف ان الملك يتحصل على الجمارك والضرائب التي جعل ابنه مشرفا عليها • كما تحدث عن عاصمة العبدلاب

« قرى » التي كانت وقتئذ من اهم مراكز الجمارك ، كما كانت محجـرا صحيا ، ثم وصف عاصمتهم الثانية الحلفاية ـ عند مروره بها الى سنار ـ بأنها عامرة ، وان بعض بيوتها من الحجر •

أمـا : Travels in .Nubia, By Johd Lewis Burchardt

التي نقلها الى العربية فؤاد اندراوس ، واصدرتها الجمعية المصريـة للدراسات التاريخية سنة ١٩٥٩ ـ فقد اشتملـت على وصـف للحيـاة السياسية والاجتماعية في مشيخة العبدلاب على عهدها الاخير ، كما اشار فيها المؤلف الى بعض الوحدات الادارية للمشيخةوان نسبها للفونج غلطا، وبين الى اي مدى كان حكام الاقاليم يتمتعون باستقلالهم المحلي ،واشار ـ عرضا ـ الى كثير من المنازعات التي نشأت بين اقاليم المشيخة المختلفة مما يسر لي معرفة احوالها في سنواتها الاخيرة •

ومما يؤخذ على المؤلف جنوحه احيانا الى التعميم .

ومن الرحالة الاجانب العالم الفرنسـي : Cailliaud Fred.

ويعـد كتابه :

Voyage a « Meroe » au Fleuve Blance ou de la de Fazoggi dans le Midida Royaume de Sennar (Paris 1825).

أهم مصدر في اخبار فتح محمد علي للسودان سنة ١٨٢١ الذي إنتهـى بسقوط مشيخة العبدلاب ، وسبب هذه الاهمية هو ان « كايو » استغل مصاحبته للحملة المصرية بقيادة اسماعيل باشا بعد فتح دنقلا ـ استغلالا علميا ، فأخذ عن قائد الجيش المصري كثيرا من المعلومات المتعلقة بعـدده وعدده ، وكل ما يتصل باخبار الحملة العسكرية • كما وصف ـ عنـد مروره باقاليم دولة العبدلاب المختلفة ـ مدى ما وصلت اليه من ضعف • لذا رأيت ان اعتمد عليه في خاتمة البحث الخاصة بسقوط دولة العبدلاب واسبابـه •

يشارك هذا السفر في الاهمية بمقدار ، كتاب :

Narrative of the expedition to Dongola and Sennar under the command of his excellency Ismail Passha Boston 1823

الذي وضعه الضابط الامريكي : English G. B. وهو من الضباط الذين صحبوا الحملة ايضا ، وحاربوا في مدفعيتها ، لذا حوى كتابه معلومات نافعة عن موضوع بحثي •

ب ـ المؤلفات الحديثة :

١ ـ المصادر العربية :

تأتي ـ بعد هذه ـ مصادر ثانوية كثيرة على جانب كبير من الاهمية ، ذلك لانها اعتمدت فيما روته من اخبار على اوثق المصادر ، ثم لمكانة مؤلفيها العلمية في مجال بحوثهم ، ولاشتمال بعضها على روايات سماعية قديمة نسبيا ، ثم لما فيها من تحليلات للاحداث، واستنتاجات على درجة من القيمة تلقي الاضواء على كثير من الامور الغامضة ذات الاهمية ـ وما اكثرها ! ـ في تاريخ هذه الدولة •

في مقدمة هذه المصادر يأتي كتاب الدكتور مكي شبيكة «السودان عبر القرون » اذ هو في الواقع سجل امين لتاريخ السودان منذ ان ظهر له تاريخ والى ما بعد الثورة المهدية • وقد درس فيه تاريخ العبدلاب في النطاق الذي يسمح به كتاب عام ، فكان لي خير معين • اما كتابه الاخر : « مملكة الفونج الاسلامية » فقد كانت مادته محاضرات القيت على طلاب معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، وهو اكثر تخصصا من سابقه ، لانه وضع اساسا ليعالج موضوع الفونج والعبدلاب ، فكانت هذه ميزته الكبرى ، فوق انه لخص فيه المؤلف ومحص كثيرا من الروايات

التي وردت في رحلات الاجانب عن هذه الفترة ، ولو قد اشار الى مصادر معلوماته بالاسم والصحيفة وفق منهج البحث المعروف لاكتملت فائدتي من معلوماته الغزيرة •

اما كتاب الدكتور يوسف فضل :

The Arabs and the Sudan from the Seventh to early Sixteenth Century.

فمع انه ركز على ناحية الهجرة العربية للسودان منذ وقت مبكر حتى الوقت الذي قامت فيه مشيخة العبدلاب ـ الا انه تناول بعض الامور ذات الاهمية في موضوع بحثي ، اذ تحدث عن العلاقة بين العبدلاب والفونج ، واستعرض الروايات التي تعطي العبدلاب الاولوية في اسقاط مملكة علوة ، كما ناقش امورا اخرى منها ما يتعلق بصلة العبدلاب بجهينة ، ومنها ما يختص باستقرار العرب في مملكة علوة حيث كان العبدلاب •

اما الدكتور محمد عوض محمد ـ وان عرف في اوساط الباحثين العرب بريادته في الدراسات الجغرافية في السودان ـ فقد كان كتابه : « السودان الشمالي سكانه وقبائله » خير عون لي في مسائل كثيرة ، يتعلق بعضها باصل العبدلاب ومن اين جاءهم هذا الاسم ؟ ونوع علاقتهم بالفونج ، ومدى استقلالهم ، ويتصل بعضها الاخر بتأكيد عروبتهم ، وانحدارهم من جهينة ، وبيان مناطق استقرارهم قبل قيام دولتهم •

وعول كثير من الباحثين في الدراسات السودانية على مؤلف الاستاذ الشاطر بصيلي : « معالم تاريخ سودان وادي النيل من القرن العاشر الى القرن التاسع عشر الميلادي » ، وذلك لما عرف عن «الشاطر» من صلات واسعة باهل السودان والاقامة بينهم ردحا من الزمان ، فقد حدث عن نفسه في مقدمة هذا الكتاب قائلا : انه امضى في سلك الادارة المدنية في السودان ثلاثة وثلاثين عاما ، جاس خلالها ربوعه المختلفة ،

وتعرف على مظاهر الحياة فيه في صورها الواقعية • ثم قال : « وقد وجهت اهتمامي منذ اللحظة الاولى التي دخلت فيها البلاد الى دراسة تاريخه كما جاء في مختلف المراجع المطبوعة ، وتابعت قراءة ما جاء في الدوريات والنشرات والصحف ، وقارنت بين ما ورد في هذه المطبوعات وبين ما تجمع لدي من روايات ووثائق خطية يحتفظ بها اهل البلد [1] ، لهذا كله كان كتابه السالف الذكر على درجة كبيرة من الثقة • وقد درس فيه المؤلف كل ما وصل الى علمه عن تاريخ العبدلاب ، مما جعله على رأس المصادر التي اعتمدت عليها في اجزاء كثيرة من هذه الرسالة •

يقرب من هذا فيقيمته بالنسبة لموضوعي ،ويفوقه فيتاريخ السودان عموما كتاب نعوم شقير الشامي : « جغرافية وتاريخ السودان » المؤلف من ثلاثة اجزاء ، والذي طبع عدة مرات ، كان اخرها ــ فيما اعلم ــ طبعة دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٧ م • وظروف هذا الكاتب ــ من حيث عمله بالسودان ، والتنقل بين اجزائه ، وجمع مادة كتابه من الاهلين وما الى ذلك مما اسلفناه ــ تشابه تماما ظروف الشاطر بصيلي ، لهذا عد كتابه بحق ــ على ما به من اخطاء تاريخية يسيرة ، واحكام غير دقيقة في بعض الاحيان ــ كتاب السودان ، فقد درس فيه كل ما يتصل بأمة السودان : درس الارض والطبيعة ،والاخلاق والعادات والتقاليد، والاجناس المختلفة ثم استعرض تاريخه منذ القدم حتى القرن العشرين ، وحظي منه تاريخ العبدلاب باهتمام غير قليل

أما عن شرق السودان وعلاقته بالعبدلاب ــ سلما وحربا ــ فان خير مصدر لدراستها ما كتبه مؤرخ هذه المنطقة الشيخ محمد صالح ضرار في كتابه : « تاريخ السودان : البحر الاحمر واقليم البجة » • وترجع اهميته الى ان أهل هذه المنطقة يتحدثون لغة غير العربية لا يحسن اجادتها غيرهم

---

(١) انظر « تعريف » في صدر « معالم تاريخ سودان وادي النيل » .

والمؤلف في مقدمتهم ، كذلك جاء في كتابه قوله : ان بعض اعلام قبيلته يحتفظون بوثائق غاية في الاهمية ، وليس من شك في انه استفاد منها ومن رواياتهم السماعية الى حد كبير .

ومع أن مخطوط « اقتصاد السودان في العهد الفونجي » الذي نال به نسيم مقار درجة الدكتوراه (وتحتفظ دار الوثائق المركزية بنسخة مصورة منه) يدل عنوانه على مادتهفانه وبحكم الفترة التيجرت فيها دراسة مؤلفه، القى بعضالضوء على جوانب مفيدة من تاريخ دولة العبدلاب .

و « رحلة مصر والسودان » التي قام بهاالمؤلف محمد مهري كركوري سنة ١٩٠٩ م تعتبر ــ مع تأخرها زمنا ــ ذات اهمية ، اذ بينما وصف فيها مشاهداته في كل من مصر والسودان ذكر كذلك ــ لمناسبات ترد في السياق ــ بعض الحقائق المتعلقة بفترة الفونج والعبدلاب ، وناقش بعض القضايا التي ترجع الى هذه الفترة ، ولكنه ــ مع فائدته ــ ليس اساسيا في الموضوع .

وكتاب : « سهم الارحام في السودان » لمؤلفه الشيخ عثمان حمدالله من المؤلفات المحلية التي عنيت بأنساب العرب في السودان ، وقد أفرد مؤلفه قسما خاصا بنسب العبدلاب أورد فيه مختلف الروايات كما اشار الى بعض قضايا تاريخ هذه القبيلة ، وركز بصفة خاصة على ملكها الثاني الشيخ عجيب الكبير ، ومسعاه لتنشيط حركة الثقافة الاسلامية .

من التواريخ المحلية ايضا : « العرف المنشوق من تاريخ وأنساب سكان بلدة معتوق بالجزيرة » لمؤلفه الامين محمد زين الناسخ ، وهو الى تواريخ المدن أقرب منه الى التاريخ العام ، وقد جمع فيه بين انساب بعض قبائل السودان وتاريخها ، وحظيت قبيلة العبدلاب منه بنصيب ، من ذلك حديثه عن موطنها الاصلي وفروعها ، والطريق الذي قدمت منه الى السودان .

أما كتاب : « الاسلام والنوبة في العصور الوسطى » الذي وضعه مصطفى محمد مسعد فقد اعتبره الدكتور مكي شبيكة مصدرا أساسيا في كتابه : « السودان عبر القرون » وذلك في القسم الخاص بدويلات النوبة المسيحية ، ودخول العرب السودان ، ولقد افدت منه كثيرا في أجزاء متفرقة من الرسالة ، كما افادني بنوع خاص عند دراسة العرب في مملكتي المقرة وعلوة .

يشارك هذا الكتاب في نفس خصائصه بمقدار كتاب : « الاسلام والثقافة العربية في افريقيا » الذي ألفه حسن أحمد محمود ، ومع انه لم يوضع أصلا في تاريخ السودان ، الا انه أفرد بابا للعروبة والاسلام فيه ، ومن ثم عالج موضوعات تتصل بتاريخ العبدلاب ، على اعتبار ان دولتهم اولى ثمرات الهجرة العربية ، والثقافة الاسلامية في السودان .

٢ ـ المصادر الاعجمية :

أما المراجع الاعجمية ففي مقدمتها ـ بالاضافة الى كتب الرحلات التي عرضت لها في صدر هذه المقدمة ـ :

A History of the Arabs in the Sudan, 2 vols, by H.A. Macmickael Frank Cass and Co. Ltd. 1967 .

وترجع أهمية هذا الكتاب الى أن مؤلفه عاش في السودان فترة خصبة ، استغل خلالها منصبه الرسمي في حكومة السودان فأرضى طموحه في البحث ، وجمع اكبر قدر ممكن من المخطوطات والوثائق ، واستخلص منها مادة كتابه الذي يعتبر بحق مرجعا مهما في انساب قبائل عرب السودان وتاريخها .

يلي هذا في الاهمية :

Islam in the Sudan. By J.S. Trimingham, Frank Cass and Co. Ltd.1965

وقد بدأه المؤلف بالحديث عن ارض السودان وشعوبه ، ثم عرج الى الممالك المسيحية التي قامت فيه ، وانتقل بعد ذلك للحديث عن تاريخ السودان في ظل الحكم الاسلامي . ومع ان هذا القسم هو الذي يهمني

من الكتاب لان فيه بعض المعلومات المتعلقة بالرسالة ـ الا ان حيزه من هذا الكتاب لم يتجاوز العشرين من الصحائف الا بقليل ، وتحدث المؤلف بعد ذلك عن الاسلام الصحيح ، والمعتقدات والشعائر في العقيدة الاسلامية القومية ، ثم الطرق الصوفية ، فالاسلام والسودان الوثني ، وانتهى اخيرا الى الحديث عن تاثير المذاهب الغربية في السودان •

من هذه المصادر أيضا :

A Modern history of the Sudan from Fung Sultanate to the Present dayBy P. M. Holt (London 1963)

وفائدة هذا الكتاب بالنسبة لموضوع البحث محصورة في الصحائف الاولى التي تقل عن العشرين ، وهي التي لخص فيها تاريخ الفونج والعبدلاب • والواقع ان هذا الجزء ـ مع صغر حجمه ـ لا يخلو من بعض الآراء السديدة ، ويلاحظ أنه يذهب في بعضها الى تأييد ما تقول به مصادر العبدلاب •

ولا بد أن أشير هنا ـ وأنا بصدد المراجع الاجنبية ـ الى كتاب :

Tooth of fire, By Jackson H. C. London 1912

لان مؤلفه اعتمد فيه ـ بالدرجة الاولى ـ على ما جاء في مخطوطة ابراهيم ابن عبد الدافع التي عرضنا لها ، محللا ومستخلصا نتائج ينبغي ان تحظى بقدر من الاهتمام • وقد اعتمدت عليه ـ بعض الاعتماد ـ في الفصل الخاص بنظم الحكم والادارة •

كما استفدت الى حد ما من :

The Anglo Egyptian from withio. By Hamilton J. A.

اذ على الرغم من أنه وضع أصلا ـ كما هو واضح من عنوانه ـ لمعالجة تاريخ الفترة التي تلت سقوط مشيخة العبدلاب ـ اذ أن مؤلفه تابع الكثيرين ممن سبقوه ، فكتب عن دخول العرب في السودان وما ترتب على

ذلك من قيام دولتي العبدلاب والفونج ، ثم انتهى الى جوهر موضوعه وهو السودان الانجليزي المصري •

أما عن أصل الفونج ، وعلاقتهم بالعبدلاب ، ومدى ما بين الدولتين من اتفاق أو اختلاف ، وما الى هذا مما جاء في الفصل الاول والثاني من الرسالة فقد استعنت على دراسته بصفة خاصة ــ مع ما سبق ــ بأربعة من الباحثين :

1 - Bruce J. Travels to discover the Sourses of the Nile (Edimbrugh 1805) .

2 - Arkeel. History of the Sudan from the earliest times to 1821 (London 1955)

3 - L. D. P. Chatawaery. Notes on the history of the fung . S. N. R. vol. XIII, Part 11, 1930.

4 - L. F. Nalder. Fung origins, S. N. R., vol. XIV Part 1 . 1931 .

« أما بعد » فانه ليس يسيرا علي ــ ولا أظنه مقبولا أيضا ــ أن أحلل محتويات كل كتاب أفادني في نقطة ، او نقلت عنه نصا أو فكرة ، لان هذا يعني أن اذكر الكثير من المؤلفات ، وهذا مكانه ــ فيما أرى ــ فهرس المراجع وليس مقدمة الموضوع •

٣ ــ مكانة الدراسة الحالية من الدراسات السابقة :

من مادة هذه المصادر ، المبثوثة في ثناياها هنا وهناك حاولت أن اصوغ موضوعا متناسقا ، يؤرخ لجانب الحياة السياسية من هذه الدولة المهمة في تاريخ السودان ، وهو جانب لم تفرد له دراسة مستقلة على هذا النحو حتى الان ، وغاية ما هناك ان جرت دراسته ضمن اطار دولة الفونج التي كان

بينها وبين العبدلاب وفاق ، وطغت بشهرتها على تاريخهم كشركاء في حكم السودان • وطبعي ــ والحالة هذه ــ ان تكون هناك مسائل في حاجة الى مزيد من التفاصيل كي يكون البحث مستوفيا ،واني اذ اعتذر بشح المصادر ارجو ان يكون ما وصلت اليه في بحثي هذا حافزا لدراسات في الموضوع وافية مفصلة ، تنجز على ضوء ما تكشفه الايام والجهود من وثائق ومخطوطات •

٤ ــ **منهج البحث :**

يتألف البحث ــ بعد المقدمة ــ من تمهيد واربعة أبواب ، ينشطر كل منها الى فصلين ، ثم خاتمة للبحث • درست في التمهيد هجرة العرب اولا الى مناطق النوبة وبلاد البجة ، وبينت اثرها في سقوط مملكة المقرة المسيحية ، واستبدال الحكم فيها بحكم اسلامي ، مما فتح ابواب الهجرة واسعة ــ بعد ذلك ــ الى اراضي مملكة علوة المسيحية ، ومن ثم الى سقوطها على يد العرب وبخاصة شعبة القواسمة التي كان منها العبدلاب •

أما الفصل الاول من الباب الاول (سقوط سوبا) فقد قدم تعريفا موجزا لعلوة وعاصمتها (سوبا) التي اسقطها العبدلاب ، ثم عرض لمختلف الاراء التي قيلت في الحلف الذي قام بين هؤلاء وملوك الفونج لسقوطها ، كما عرّف هذا الفصل بالفونج والعبدلاب طرفي الحلف ، وعرض للروايات التي ذكرت سعي عبدالله جماع ــ زعيم العبدلاب ــ الى ملك الفونج في مقره الاول ، واغرائه بالتعاون لاسقاط سوبا ، وقارن بين تلك الروايات ، وناقشها ، ورجح منها ما وجد مسوغا لترجيحه ، كما عرض لما ترتب على سقوط مملكة علوة من توزيع لمناطق النفوذ بين الحليفين •

وفي الفصل الثاني من هذا الباب عرضت مختلف الروايات التي تحدثت عن « قرى » عاصمة العبدلاب الاولى ، وموقعها ، وبداية انشائها واهميتها

والشرائط التي أهلتها لتكون عاصمة في مفهوم العصور الوسطى السودانية ووازنت بين تلك الروايات ، وانتهيت الى النتيجة التي قادتني اليها الشواهد المنطقية .

انتقلت ـ بعد ذلك ـ للباب الثاني ، وفي فصله الأول ـ ومداره علاقات شيوخ العبدلاب بملوك الفونج ـ حاولت أن اتبين الاسس التي كانت تقوم عليها تلك العلاقات ، لكشف ما يكتنفها من غموض ، وهل هي ـ حقيقة ـ علاقة تابع ، هم العبدلاب ، لمتبوع ، هم الفونج كما يظهر من مذكرات الرحالة الاجانب الذين زاروا سنار ، وبعض الباحثين ، أم علاقة دولتين مستقلتين تأرجحت بين التوافق والانسجام ، ثم التنازع والخصام؟ واذا لم تكن هذه او تلك فما هو اذن طابع تلك العلاقات ؟ وما موضعها الصحيح من تاريخ السودان ؟

أما الفصل الثاني من الباب الثاني فقد وقفته على علاقات المشيخة بالممالك والمشيخات التي كانت تخضع لسلطانها ، محاولا تبيان العلاقة الادارية التي كانت سائدة بين العاصمة والاقاليم التابعة لها ، وفي هذا الصدد درست علاقة العبدلاب بالشايقية وغيرهم في الشمال ، والبجة في الشرق ، والشنابلة في الجنوب ، واوضحت طبيعة تلك العلاقات .

اتصل الحديث في الباب الثالث بشيوخ العبدلاب وأهم آثارهم وأعمالهم ، وقد قسمته الى فصلين ، بحثت في الاول تراجم شيوخ العاصمة الاولى « قري » فعرضت لمختلف الروايات التاريخية الواردة في أزمنة توليتهم ، في اعمالهم ، وفي حربهم وسلمهم ، في حياتهم ومماتهم ، باحثا هذه الروايات ، ومقارنا بينها ، ومستخلصا ـ بعد ذلك ـ ما رجح عندي ان وجدت للترجيح مكانا .

اما الفصل الثاني من الباب الثالث فقد وقفته على تراجم شيوخ

العاصمة الثانية « الحلفاية » ، مبينا سبب الانتقال من العاصمة الاولى اليها ودارسا هؤلاء الشيوخ على نفس النهج الذي نحوته في دراسة سابقيهم شيوخ « قرى » •

واذا كان الباب الثالث قد ترجم لملوك العبدلاب فان الباب الرابع (نظم الحكم والادارة) حاول ان يبين ـ في فصله الاول ـ التقاليد التي سار عليها الحكم ، والنظم التي قامت عليها الادارة ، والاسس التي كان يتقلد الشيخ السلطة بمقتضاها • كما ذكر مراسيم تعيين الشيوخ والملوك المحليين الذين يخضعون لشيخ العبدلاب ، ثم عرض هذا الفصل للوحدات الادارية وحكامها وسلطاتهم كما حاول ان يحصى الوظائف الادارية ويشرحها قدر ما سمحت به المادة المعروفة ، كما درس النظام المالي مبينا ـ في ايجاز ـ موارد الدولة ونفقاتها ، وعرض للنصوص الدالة على وجود جيش فناقشها وبين الرأي فيها •

ووقفت الفصل الثاني من الباب الرابع على القضاء ، فترجمت لكثير من أعلامه الذين عينهم شيوخ العبدلاب ، وحاولت ذكر المناطق التي عينوا فيها ان وجدت ، كما بحثت أنواع المحاكم ، واسلوب التقاضي ، والحكم والاستئناف ، وبينت المذهب الذي على أساسه يقوم التقاضي ، كما قدمت نماذج لبعض القضايا والاحكام •

وانتهى البحث بخاتمة موضوعية ، بينت ضعف المشيخة في سنواتها الاخيرة ، واسباب هذا الضعف ، ثم عرضت للاسباب الداخلية والخارجية التي ادت الى سقوطها ، ووصفت كيف حدث هذا السقوط •

تمهيد

دخول العرب في السودان الشمالي ، واثره في سقوط علوة

١ ـ العرب في مملكة المقرة وأوطان البجة

أ ـ الطريق الشمالي والحملات العسكرية :

بعد ان أتم المسلمون فتح مصر سنة (٢٠ هـ/٦٣٩م) فكروا في فتح بلاد النوبة ، للمحافظة على حدود مصر الجنوبية ، ولتأمين طريق التجارة القديم بين البلدين [١] . لهذا ما كاد ينقضي عامان على فتح مصر حتى بادر عمرو بن العاص فأرسل ـ بأمر من عمر بن الخطاب ـ عقبة بن نافع الفهري مع قوة من الفرسان لغزو النوبة ، وذلك سنة (٢١ هـ/ ٦٤١ م) [٢] فدخلت خيولهم ارض النوبة صوائف كصوائف الروم ، غير ان أهل النوبة قاتلوا العرب قتالا شديدا ، فانصرفوا (أي المسلمين) بجراحات كثيرة ، وحدق مفقوءة ، فسموا رماة الحدق [٣] فكان هذا أول احتكاك ـ بعد الفتح ـ

---

١) المسعودي : (علي بن الحسين بن علي ابو الحسن) (ت ٣٤٦ هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر (ج ٣ ، ص ٣٨ ـ ٣٩) ، مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى (ص ١١١) .

(٢) ابن عبد الحكم : (ابو القاسم عبد الرحمن القرشي . ت ٢٧٦ هـ)، فتوح مصر واخبارها ، (ليدن) ص ١٦٩ ـ ١٧٠ ، البلاذري :احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ) ، فتوح البلدان (طبع الكتب العربية) ص ٢٤٥ ، المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٨ ـ ٣٩ ، القلقشندي : ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١ هـ) ، صبح الاعشى في صناعة الانشا (مصر) ج ٥ ، ص ٢٧٦ ، حسن ابراهيم حسن (دكتور) : انتشار الاسلام والعروبة (القاهرة ١٩٥٧ م) ص ١٠ ،٩٤ .

(٣) البلاذري ، نفس المصدر (ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦) ، وابن عبد الحكم : نفس المصدر (ص ١٦٩ ـ ١٧٠) .

بين العرب وبلاد السودان .

ولما ولي عبدالله بن سعد بن ابي سرح امر مصر قاد بنفسه حملة على النوبة سنة (٣١/٥١ ــ ٦٥٢) قوامها خمسة الاف فارس ، توغلت جنوبا حتى « دنقلة » عاصمة مملكة المقرة حيث ضربها جيش المسلمين بالمنجنيق وخرب كنيستها . ولم يجد النوبة ــ الذين لم يكن لهم بالمنجنيق عهد ــ حينئذ بدا من طلب الصلح الذي وقعه عنهم ملكهم قليدوروث (قليدور) ، وهو الصلح الذي عرف « بالبقط » .[١]

ومن أهم ما جاء فيه : النص على حدود المملكة المسيحية التي تشملها الهدنة ، وهي : « من حد ارض اسوان الى حد أرض علوة » ، ومن بنوده أيضا : الا يحارب المسلمون النوبة ولا هم يحاربونهم ، وان يدخل المسلمون بلد النوبة مجتازين غير مقيمين وهم كذلك ، وان يقوم النوبة برعاية المسجد الذي بناه المسلمون في في أرضهم .[٢]

هذا الصلح ــ كما تقول سيدة كاشف[٣] ــ اقرب ما يكون الى

---

(١) يقول المقريزي : « البقط ما يقبض من سبى النوبة في كل عام ويحمل الى مصر ضريبة عليهم (الخطط ج١ ص ١٩٩) ، وانظر عن البقط :

Yousuf Fadl, The Arabs and the Eastern Sudan, (London) 1964 pp. 82 – 91

وانظره في دائرة المعارف الاسلامية في مادة : Bakt

(٢) ابن عبد الحكم (ص ١٨٨ ــ ١٨٩) البلاذري : فتوح البلدان (ص ٢٤٥ ــ ٢٤٦) ، اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب (ت ٢٨٢هـ) التاريخ (ج١ ص ٢١٧ ــ ٢١٨) ، الكندي : ابو عمر محمد بن يوسف المصري (ت ٣٥٠ هـ) ، كتاب الولاة وكتاب القضاة (ص ١٢ ــ ١٣) بيروت (١٩٠٨م) ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧ هـ) : تاريخ ابن الفرات بيروت (ج ٧ ، ص ٤٤ ــ ٤٥) ، المقريزي :تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (ج ١ ص ١٩٩ ــ ٢٠٠) (بولاق ١٢٧٠ هـ) .

(٣) مصر في فجر الاسلام (ص ١٥) .

معاهدة سياسية وتجارية ، اذ بينما شرط على النوبة ان تدفع عددا من الرقيق كل عام الزم حكومة مصر ان تدفع الى النوبة ــ مقابل ذلك ــ قدرا معينا من منتوجات مصر . وقد اتاح هذا الصلح للعرب مجال التوغل السلمي التدريجي في السودان كما يقول ترمنجهام .[٤]

ثم ان البجة أغاروا على صعيد مصر في اواخر القرن الاول الهجري (حول سنة ٧٢٥ م) فسير المسلمون عليهم جيشا بقيادة ابن الحبحاب الذي صالحهم وكتب لهم عقدا [١] نقضوه بعد حين ، وشنوا غارات على قفط بصعيد مصر ، فاستنجد اهلها بحكم النابغة من قيس عيلان ، وكان ذا « يسار وخير وجهاد ، فسار معهم في سنة اثنتي عشرة ومائتين » ، وغزا البجة في ألف رجل من قومه عدا من تبعه من أهل قفط ، وأقام هناك ثلاث سنين يجوس ديارهم ويسبيهم ، ومناخه بالمكان المعروف يومنا هذا بماء حكم ، وهو عن مرحلة من عيذاب » [٢] .

بيد أنه ما كاد يعود الى حوف مصر حتى أغار البجة على اسوان وافتتحوا « أنبوا » مدينة من الصعيد كان بينها وبين أسوان مرحلة ، فجرد عليهم الخليفة المأمون سنة (٢١٦ هـ) حملة بقيادة عبدالله بن الجهم انتهت بكتابة عهد جديد بين ابن الجهم وكنون ابن عبد العزيز رئيسهم . ومن شروطه :

١ ــ اذا دخل أحد المسلمين في بلاد البجة للتجارة او الاقامة او مجتازا للحج فهو آمن لاخر حده .

---

(٤) Islam in the Sudan, p. 62.

(٢) ابن عبد الحكم (ص ١٨٩) ، وانظر : التربية في السودان ج١ ، ص ١٩ ، وانتشار الاسلام والعروبة (ص ٦٩) .

(٣) ابن حوقل : (ت ٣٨٠ هـ ــ ٩٩٠ م) ، صورة الارض (ص ٥٧) ، بيروت .

٢ ـ الا يهدموا شيئا من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر .

٣ ـ على كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من اسلم منهم .

٤ ـ ان تكون بلاد البجة من حد أسوان الى ما بين دهلك وباضع[1] ملكا للخليفة ، وأن كنون بن عبد العزيز وأهل بلده عبيد لامير المؤمنين ، على ان يبقى كنون ملكا عليهم .

غير أن البجة لم يحترموا هذه المعاهدة ـ شأن سابقتها ـ فتكررت حملات العرب والمسلمين عليهم ، ففي عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ) توجهت حملة اليهم بقيادة محمد بن عبدالله القمي قوامها عشرون الفا من الجند المتطوعة ، سارت الى اسوان ، ثم اتت العلاقي[2] ، وهناك صحبها من قبائل ربيعة ومضر واليمن ثلاثة الاف رجل من كل بطن ألف[3] ،

---

(١) قال الدمشقي في : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (ص ١٥١) عن دهلك :

« ... ثم بلاد البجة ، وهناك جزيرة بها تسمى جزيرة دهلك ،منسوبة الى مدينة بها ملك البجة » . وقال يوسف فضل : « ولا اريد ان ابالغ في اهمية هذا الاتصال ، فدهلك هذه (او مصوع) ميناء الجزء الشمالي من الحبشة » (المعالم الرئيسية في الهجرة الى السودان ص ١٠٨) ، وهي على اية حال جزيرة مشهورة في البحر الاحمر . أما باضع فقد كان مدخلا رئيسيا لارض البجة ، واندثر حول القرن الحادي عشر الميلادي . (يوسف فضل ن. المصدر ص ١٠٨ ـ ١١٨) .

(٢) وادي العلاقي احد معادن الذهب الرئيسية المشهورة في ارض البجة .

(٣) البلاذري : كتاب فتوح البلدان (ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨) ، وانظر : الطبري (ليدن) (ج ٣ ، ص ١٤٢٩) صورة الارض (ص ٥٣ ، و ص ٥٨) طبعة بيروت .

والتحم (القمى) مع « علي بابا » ملك البجة في معركة انتهت بهزيمة البجة، وعلى اثرها طلب ملكهم الصلح على دفع الخراج ، والسماح للمسلمين بالعمل في المعادن ، » على ان يطأ علي بابا بساط الخليفة في « سر من رأى » ،وذلك سنة ٢٤١ هـ [١] .

غير أن البجة ما لبثوا ان خرقوا هذا الاتفاق ، وعاودوا غاراتهم على المسلمين ، وأفزعوهم عن صلاتهم يوم العيد ، فعادت الحملات العربية الاسلامية لاخضاعهم ،وخرج اليهم العمري في جيشه غضبا لله وللمسلمين[٢] حدث المقريزي فقال : وقدم عليهم (يقصد البجة) ابو عبدالرحمن عبدالله بن عبد الحميد العمري بعد محاربته النوبة في سنة خمس وخمسين ومائتين، ومعه ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب ، فكثرت بهم العمارة في البجة حتى صارت الرواحل التي تحمل المسيرة اليهم من أسوان ، ستين راحلة غير الجلاب [٣] التي تحمل من القلزم الى عيذاب ، ومالت البجة الى ربيعة وتروحوا اليهم [٤] .

في هذا النص عدة حقائق منها :

١ ـ أن اعدادا كبيرة من العرب كانت تشترك في الحملات الاسلامية التي تسير على بلاد النوبة والبجة ، وفي مقدمتها جهينة وربيعة .

---

(١) البلاذري : نفس المصدر (ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧) وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٣٠ م) ج ٢ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٨ وابن الفرات (ج ٧ ، ص ٤٩) ، وخطط المقريزي (ج١ ، ص ١٩٦) .

(٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (مصر ١٣٤٨ هـ) ج ٥ ص ٣٦٩ .

(٣) الجلاب : بكسر الجيم نوع من السفن الشراعية (تعرف في شرق السودان بالسنابيك) .

(٤) خطط المقريزي (ج١ ، ص ١٩٦) وانظر ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر (مصر ١٢٨٤ هـ) (ج ٤، ص ٣٠٢) .

٢ ــ ان مجموعات من العرب تؤثر البقاء ــ اثر كل حملة ــ في ارض البجة او النوبــة .

وقد أرجع المقريزي اسباب هذه الحملة الى رغبة العمري في الكشف عن مناطق جديدة للذهب في ارض البجة ، ورغبة العرب الذين اشتركوا فيها في ايجاد مواطن جديدة تسعهم بعد ان ضاقت بهم مصر بسبب ما لاقوه من الحكم التركي فيها . [١]

تابع الاخشيديون حين حكموا مصر (٣٢٣ ــ ٣٥٨ هـ) ، سياسـة تسيير الحملات على بلاد النوبة ، فقد ذكر المقريزي أن « أنوجور بـن الاخشيد » (٩٥٧/٣٤٥) سير حملة بقيادة محمد بن عبدالله الـخازن ، توغلت جنوبا حتى وصلت « ابريم » ،وعادت بكثير من الاسرى النوبيين [٢]

وفي عهد الفاطميين في مصر (٣٥٨ ــ ٥٦٧ هـ) قامت امارة عربية قوية اتخذت من أسوان عاصمة لها ، وشمل نفوذها معادن الذهب في العلاقي ، ثم مدت حدودها جنوبا في ارض مريس [٣] . وكان مؤسس هذه الامارة زعيم من ربيعة يدعى : « ابو مروان بشر بن اسحق » الذي ذكره المسعودي بقوله : « وصاحب المعدن في وقتنا هذا ــ وهو سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة ــ ابو مروان بشر بن اسحق وهو من ربيعة ، يركب في ثلاثة الاف من ربيعة

---

(١) كتاب المقفى الكبير (مخطوط) (ج ٤ ، ص ١٦٤ ب) .

(٢) خطط المقريزي (ج ١ ، ص ١٩٨) .

(٣) ذكر المسعودي (مروج الذهب) (ج٢ ، ص ١٨) ، وابن حوقل صورة الارض (ص ٦٢) ، وابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان (ص ٧٤) ، ان المصريين كانوا يطلقون كلمة « مريس» على النطاق المكاني الواقع بين اسوان في الشمال وشمال حدود المقرة في الجنوب ، وكانوا يسمون ريح الجنـوب بالريح المريسية . وهي التي وصفها ابن سليم بأنها المنطقة التي يتصرف فيها المسلمون ، ولهم فيها املاك (خطط المقريزي ، ج١ ، ص ١٩٠) . وحاكمها من قبل ملك المقرة ولقبه : صاحب الجبل، وكان يقيم في « نجراش » (فرس الحالية) وهي عاصمة المريس . (نفس المصدر والصفحة) .

واحلافها من مضر واليمن ، وثلاثين الف حراب على النجب من البجة [١].

وقد ذكر ابن حوقل ان امارة كنز الدولة هذه حاضرتها « المحدثة » ، وأنها محادة لاسوان ،مما يعتبر تاكيدا لسيطرتهاعلى ارض مريس [٢] وهذا يظهر مدى ما وصل اليه العرب من قوة في ارض المقرة والبجة . لهـذا ، ولتعاون الامارة مع الفاطميين ــ حيث قبض أميرها على الثائر الامــوي الذي يدعونه « أبو ركوة » ــ اعترف بها الفاطميون ، واسبغ الحاكم بأمر الله على اميرها « ابي المكارم هبة الله » لقب : كنز الدولة ، مكافأة له [٣]، واصبح هذا اللقب متوارثا في هذه الاسرة منذ ذلك التاريخ ، كما اصبحت هذه الامارة قوة عربية ذات شأن [٤] في عروبة السودان واسلامه كمـا سيظهر بعد .

خلف الايوبيون (٥٦٧ ــ ٦٤٨ هـ) الفاطميون على مصر ، وفي العام الثاني من حكمهم (٥٦٨ هـ) أرسل صلاح الدين أخاه شمس الدين توران شاه على رأس حملة للنوبة لحرب بني كنز وصلت حتى (ابريم) [٥] .

وقد ارجع القلقشندي اسباب هذه الحملة الى شيء آخر غير التشيع للفاطميين الذي زعمه ابن‌خلدون [٦] فقال:« ولما خاف بنو أيوب نور الدين الشهيد صاحب الشام على انفسهم حين همّ بقصدهم بعث صلاح الديــن

---

(١) مروج الذهب (٢ / ١٨) .
(٢) صورة الارض (ص ٥٨) .
(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ (ليدن) ١٣٩/٩ ، المقريزي :البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب (ص ٤٤ ــ ٤٦) ، وعبد المجيد عابدين: دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل (نفس المجلد) ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .
(٤) يوسف فضل : العالم الرئيسية ص ١١٧ .
(٥) تاريخ ابن الفرات ج ٧ ، ص ٤٥ ــ ٤٦ ، وابن خلدون : العبر ج ٥، ص ٢٨٨ ، البيان والاعراب دراسات في تاريخ العروبة ص ١٢٥ .
(٦) انظر العبر ج ٥ ، ص ٢٨٨ .

أخاه شمس الدين الى النوبة ليأخذها لتكون موئلا لهم اذا قصدهم » [١].
كما كان من اهدافها تحصيل (البقط) المفروض على النوبة [٢] . هذا فضلا عن حرمان الفاطميين من اخر ملجأ قد يلجأون اليه . ومنذ ذلك الحين ظلت العلاقات بين اولاد كنز وحكام مصر في مد وجزر ، حتى سقطت دولة المقرة في ايدي أولاد الكنز بعد ان ملكوا البلاد [٣] .

وفي عهد حكم المماليك مصر (٦٤٨ ــ ٩٢٣ هـ) تكررت الحملات على النوبة ، فقد أرسل السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس حملة بقيادة والي قوص سنة ٦٧١ هـ للقبض على داود ملك المقرة في عاصمة ملكه (دنقلة) ، ولكنها عادت دون ان تحقق غرضها [٤] . وفي سنة (٦٧٤/١٢٧٦ م) ارسل بيبرس ايضا حملة اخرى بقيادة الاميرين : شمس الدين اقسنقر الفارقاني استاذ الدار ، وعز الدين ايبك الافرم امير جاندار ، ومعهما عربان الوجه القبلي ، وأوغل الجيش المملوكي في بلاد النوبة حتى وصل الى دنقلة التي غادرها داود ملك النوبة الى « الابواب » [٥] .

لم تقتصر آثار هذه الحملة على مملكة المقرة وحدها ، بل امتدت الى الجزء الشمالي من مملكة علوة في منطقة « الابواب » حيث أثارت مخاوف ملكها على بلاده من المماليك ، لذا فانه عندما لجأ اليه الملك داود ملك مقرة رفض قبوله في مملكته ، بل لم يكتف بهذا ولكنه قاتله وقبض

---

(١) القلقشندي صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٢٧٦ .
(٢) عبد العزيز عبد المجيد : التربية في السودان ١ / ٢٨ .
(٣) المقريزي : السلوك ، لمعرفة دول الملوك ج ٢ ، القسم الاول ص ٢٥٠ .
(٤) تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٤٦ ــ ٤٧ ، صبح الاعشى ج ٥ ، ص ٢٧٦ ــ ٢٧٧ ، خطط المقريزي ج١ ، ص ٢٠٢ .
(٥) نفس المصادر صفحات : ٤٧ ــ ٤٩ ، ٢٧٧ ــ ٢٧٨ ، ٢٠٢ على الترتيب ، والابواب هي مدينة كبوشية الحالية تقريبا .

عليه وارسله الى القاهرة حيث قضى بقية عمره سجينا بالقلعة . [1]

وتابع المماليك ارسال الحملات الى مملكة المقرة ، فأرسل السلطان قلاون سنة ٦٨٥ هـ حملة حربية كبيرة بقيادة الامير سنجر المسروري المعروف بالخياط والى القاهرة ، والامير عز الدين الكوراني . وعندما وصلت الى قوص انضم اليها واليها الامير عز الدين ايدمر السلاح دار ومن معه من المماليك والاجناد ، كما انضم اليها العربان وهم اولاد ابي بكر ، واولاد عمر ، واولاد شريف ، واولاد شيبان ، واولاد الكنز ، وبنو هلال . واستطاع الجيش المملوكي ـ بعد ان هزم جنود النوبة في دنقلة ـ ان يتتبع (سمامون) ملك دنقلة خمسة عشر يوما جنوب دنقلا . [2]

ولم تحقق هذه الحملة اهداف قلاون باخضاع « سمامون » لذا أرسل عام ٦٨٨ هـ حملة كبيرة قوامها اربعون الفا [3] فيهم من عربان الوجهين القبلي والبحري ، قاصدة النوبة بقيادة عز الدين ايبك الافرم ، وقد تعاون مع هذه الحملة بنو كنز في نطاق امارتهم مريس ، وسارت الحملة هذه المرة ايضا خمسة عشر يوما جنوب دنقلا ، ولم تستطع القبض على سمامون الذي التجأ ـ مرة اخرى ـ الى ملك الابواب . [4]

ومن الحملات المملوكية ايضا الحملة الناصرية الاولى سنة (٧١٦ / ١٣١٥ م) الى بلاد النوبة ، وكانت بغرض القبض على (كرنبس) الذي

---

(١) النويري : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب ، ت ٧٣٢ هـ ، نهاية الارب في فنون الادب ، مخطوط ، ج ٢٨ ، ص ١٠٩ ، ٢٥٩ ب ، وابن الفرات ج ٧ ، ص ٤٩ ـ ٥٠ ، ابن خلدون : العبر ج ٥ ، ص ٤٠٠ ، صبح الاعشى ج٥ ، ص٢٧٨ ، السلوك ج١ القسم الثاني ص ١٢٢ .

(٢) المقريزي : السلوك ج١ ، القسم الثالث ص ٧٣٦ ـ ٧٣٧ .

(٣) انني أشك ان يكون الجيش بهذه الضخامة في تلك الظروف .

(٤) المصدر السابق ص ٧٤٩ ـ ٧٥١ .

تملك النوبة في وقت سابق على اثر مقتل أخيه (اماي) سنة ٧١١ هـ ثم امتنع عن دفع الجزية للمماليك ، ولكن (كرنبس ــ ملك المقرة ــ هرب الى مملكة الابواب أيضا ، غير ان ملكها سلمه الى الملك الناصر ، وهناك أسلم وعاد ملكا على دنقلا سنة ٧١٩ هـ ٠) [١]

وبعد حروب طويلة بين المماليك والقوى المحلية تم الامر لكنز الدولة سنة ١٣٢٣ م ، « فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة ، وملكوه عليهم ، فملك البلاد حينئذ ، ولبس تاج الملك واشتغل بالمملكة ، وضم اليه العرب واستعان بهم على من ناوأه » [٢] ٠

على أن الناصر محمد خشي ــ ان هو سكت على ملك بني الكنز ــ أن يفلت زمام الامر في دنقلا من يده نهائيا ، لذا سير حملة أخرى على النوبة في نفس السنة (٧٢٣ / ١٣٢٣ م) بقيادة الامير علاء الدين بن علي قراقسنقر لخلع كنز الدولة عن ملك دنقلا ، وقد نجحت الحملة في خلعه واجلاس كرنبس ــ الذي حاز على تأييد المماليك ــ على عرش النوبة ،بيد أنه ما كادت الحملة تغادر دنقلا الى القاهرة حتى ظهر كنز الدولة من جديد، وحارب « كرنبس » « وملك منه البلاد » [٣] ٠

وهكذا ــ باستيلاء كنز الدولة على السلطة هذه المرة ــ انتقل الملك من ايدي ملوك النوبة المسيحيين الى أيدي بني كنز العرب المسلمين سنة (٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م) ٠ وقد جاء في القلقشندي ــ نقلا عن مسالك الابصار

---

(١) العبر ج ٥ ، ص ٤٢٩ ، صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٧٨ ، السلوك ج ٢ القسم الاول ، ص ١٠٧ ، ١٤٥ ــ ١٤٦ .

(٢) يوسف فضل : المعالم الرئيسية في الهجرة ص١٢٧ نقلا عنالنويري وانظر مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٦٥ ــ ١٧٠ .

(٣) المقريزي : السلوك ج ٢ القسم الاول ، ص ٢٥٠ .

ـ في وصف حال دنقلا وملكها بعد أن آلت مقاليد الامور فيها الى بني كنز الدولة قوله : « ان ملكها الان مسلم من اولاد كنز الدولة • قال واولاد الكنز هؤلاء اهل بيت ثارت لهم ثوائر مرات •• وقد ذكر في مسالك الابصار ان سلطانهم كواحد من العامة ، وأنه يأوى الغرباء الى جامع دنقلا، فيرسل اليهم فيأتونه فيضيفهم وينعم عليهم هو وامراؤه ، وان غالب عطائهم الدكاديك وهي أكسية غلاظ ،غالبها سود ،وربما أعطوا عبدا او جارية»(١)

وقد اعتبر عدد من الباحثين (٢) هذا الحدث نهاية لمملكة المقرة المسيحية • يقول شيني : « وبانهزام كدنبس Kudanbs (في المصادر العربية : كرنبس) اخر ملك على مملكة دنقلا أمام كنز الدولة سنة ١٣٢٣م انتهت الدولة المسيحية • » (٣)

وبزوال مملكة المقرة المسيحية من بلاد النوبة اتسع المجال أمام القبائل العربية لتنتشر جنوبا في كثير من أجزاء السودان ، ولم يعد الشلال الثاني ـ كما كان سابقا ـ حاجزا يقف في وجه تدفقها على ما يليه جنوبا ، ومن ثم تسنى للعرب انشاء حكومات القبائل على النيل ، وقد تكوّن منها الحلف العربي فيما بعد ـ بقيادة زعيم عرب القواسمة : عبدالله جماع • انتشر اولئك الاعراب في ممالك علوة ، وأدى انتشارهم فيها الى سقوطها وقيام مشيخة العبدلاب على ما سنبينه في موضعه من هذا البحث •

هذا ، وقد عقب الدكتور مصطفى محمد مسعد على هذه الحملات

---

(١) صبح الاعشى ج ٥ ، ص ٢٧٨ •

(٢) انظر : مكي شبيكة (دكتور) : السودان عبر القرون ، التربية في السودان ج ١ ، ص ٣٢ ،

Macmichael, H.A. Hisrory of the Arabs in, the Sudan, Vol. 1. P. 186.and Arkell. A. J. Fung origins, S. N. R. XV, part 11, p. 204

(٣) بلاد النوبة في العصور الوسطى ص ١٠ •

فقال : « واذا كانت الحملات العربية التأديبية التي وجهها ولاة مصر ضد البجة اتاحت الفرصة لبعض الجماعات العربية للتعرف على خصائص البيئة البجاوية ، فاستقرت فيها ، واختلطت بسكانها ، فضلا عن وضع هذه الجهات من الناحية الرسمية ضمن النفوذ الاسلامي فان ثمة حملات حربية وجهها ولاة مصر المسلمون الى بلاد النوبة كذلك لمثل هذا الغرض ، وكانت هذه ايضا فرصة لبعض الجماعات العربية للاستقرار الى جوار النوبيين والاختلاط بهم [1] . ومضى ــ في موضع اخر من كتابه ــ يقول : «ومن هذه الجماعات بني بكر ، وبني عمر ، وبني شيبان ، وبني هلال ، وغيرهم كثير . وربما كان الدافع لهم على البقاء في بلاد النوبة (عقب كل انسحاب للقوات المملوكية الى مصر) شدة الضغط المملوكي عليهم في مصر » . [2]

ب ــ الطريق الشرقي والهجرات السلمية :

يذكر ابن بطوطة (٧٠١ ــ ٧٧٨/١٣٠٢ ــ ١٣٧٧ م) أنه عندما وصل الى جزيرة سواكن وجدها تحت حكم شريف مكي آلت اليه من قبل البجة أخواله ، وكان لدى هذا الشريف جيش مؤلف من البجة وأولاد كاهل وعرب جهينة [3] .

يدل هذا النص على وصول عدد غير يسير من عرب الحجاز لمواطن البجة قبل زمن ابن بطوطة بوقت طويل ، حتى أنه عندما وصل الى سواكن في القرن الرابع عشر الميلادي وجد ابن الاخت ــ وهو الشريف المكي ــ

---

(١) الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٢٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٧٠ ــ ١٧١ ، وراجع في هذا الموضوع مكي شبيكة في كتابه : تاريخ شعوب وادي النيل ص ٣١٦ .

(٣) تحفة النظار ، في غرائب الامصار باريس ١٨٩٣ م ، ج٢ ، ص ١٦٠ ــ ١٦٣ .

وانظر الطبعة الاولى من رحلة ابن بطوطة (مصر ١٣٢٢ هـ) ج١ ، ص١٨٣

يحكم ، ووجد اولاد كاهل عارفين بلسان البجة [1]. فلا بد ــ اذن ــ قبل الوصول الى هذه الحال ان يكون العرب قد استقروا امدا غير قصير تم خلاله تعلم اللسان البجاوي ، وتمت خلاله مصاهرة القبائل العربيــة لقبائل البجة وتوالدها ، ونمو ولد البنت البجاوية حتى يبلغ من الكبر ما يمكنه من ممارسة سلطات حاكم مدينة سواكن ، والهيمنــة على جيش خليط من العرب والبجة [2] .

ويتحدث ابن خلدون عن وصول جهينة من الشرق ، وانتشارها في اراضي السودان فيقول : « فجهينة ما بين الينبع ويثرب الى الآن في متسع من برية الحجاز ، وفي شماليهم الى عقبة أيلة مواطن بلى » ، وكلاهما على العدوة الشرقية من بحر القلزم ، وأجاز منهم امم الى العــدوة الغربيــة ، وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وكثروا هنالك سائر الامم ، وغلبوا على بلاد النوبة ، وفرقوا كلمتهم ، وأزالوا ملكهم ، وحاربــوا الحبشة فأرهقوهم الى هذا العهد [3] .

يدل هذا النص على الطريق الذي عبرت منه جهينة (وربما بلى) الى السودان ، فهي كانت اولا في ينبع على الضفة الشرقية للبحر الاحمر ، ثم عبرت الى الضفة الغربية في منطقة البجة ، ومن ثم انتشرت في بقية اجزاء السودان حيث اسقطت حكم النوبة ، وحاربت الحبشة فأرهقتهم . واذا كنا نعلم ان « بلاد الحبشة » اصطلاح عند المسعودي وابن خلدون وغيرهم من الكتاب العرب ــ كما تدل مؤلفاتهم ــ يشمل ما نسميه اليوم السودان

---

(١) اكد ابن بطوطة في رحلته طبعة مصر ١٩٣٨ م ، ج١ ، ص ١٥٤ معرفة أولاد كاهل بلسان البجة عند وصوله الى سواكن في القرن الرابع عشر الميلادي

(٢) انظر : ابن بطوطة طبعة باريس ج٢ ، ص ١٦٠ ــ ١٦٣ . وانظــر الاسلام والنوبة ص ١٩٦ .

(٣) العبر ، المجلد الثاني ، ص ٥١٦ .

والحبشة [1] ـ جاز لنا ان نفترض ان ابن خلدون كان يقصد ـ فيما يقصد ـ ان عرب جهينة دخلوا في صراع مع مملكة علوة المسيحية ايضا ، وهو احتمال تؤيده وقائع تاريخية اخرى ، نعرض لها في موضعها من هذا البحث .

وتقول بعض المصادر الحديثة ان السودان الشرقي والوسط عرف العروبة قبل غيره من اجزاء السودان عن طريق الحبشة ، وهؤلاء في معظمهم من عرب اليمن ، ففي الالفي سنة قبل الميلاد وفدت الى الحبشة جماعات عربية من جنوب غرب الجزيرة العربية ، وامتزجوا مع اهلها ، ونشروا بين السكان الثقافة العربية كما يدل على ذلك الخط الحبشي الذي يرجع بأصله الى الخط الحميري [2] .

ونرجح أنه فيما بين ١٥٠٠ ـ ٣٠٠ ق.م. ـ على عهد دولتي معين وسبأ ـ وصل تجار اليمن في البحر الاحمر غربا الى وادي النيل ، ونتج عن هذه الحركة التجارية ان نشط استقرار جماعات غير يسيرة من العرب في اجزاء مختلفة من حوض النيل ، فكانوا نواة لمن اتى بعدهم ، « وفي القرنين السابقين للميلاد عبر عدد كبير من الحميريين مضيق باب المندب ، فاستقر بعضهم في الحبشة ، وتحرك بعضهم الآخر متتبعا النيل الازرق ونهر اتبرا ليصلوا عن هذا الطريق الى بلاد النوبة » [3] .

وعند ظهور الاسلام هاجر بعض المسلمين الى الحبشة طلبا للعافية،

---

(١) انظر : عبد المجيد عابدين : دراسات في تاريخ العروبة ص ١٣١ في نفس جلد البيان والاعراب الذي حققه .

(٢) محمد عوض محمد : السلالات والشعوب الافريقية ص ٣١٢ ، محمد عبد الرحيم : العروبة في السودان ص ١٦ ، ماكمايكل : دخول العرب في السودان (معرب) ص ٧ ـ ٨ ، التربية في السودان ج١ ، ص ٢٠٠ ، محمد محمود الصياد واخر (السودان ص ١٥٨) .

(٣) الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

وخوفا من ان يفتنوا في دينهم ، ثم جاءت حروب الردة بعد ذلك فازدادت الهجرة من جزيرة العرب ــ في اغلب الظن ــ تحت ضغط جيش ابي بكر الصديق . على ان قراصنة البحر الاحمر الافارقة الذين كانوا يهاجمون تجارة العرب في البحر الاحمر كانوا ــ على ما يبدو ــ سببا في استيلاء العرب على بعض المناطق الهامة لحماية مصالحهم التجارية [1] . وبمرور الزمن تمكن العرب من انشاء ولايات اسلامية في نطاق الوطن الاثيوبي نفسه [2] .

أدى هذا كله ــ في الارجح ــ الى هجرات عربية واسعة لشرق السودان المجاور للحبشة ، ومن ثم الى اعماق البلاد ، « واهم القبائل التي هاجرت الى السودان اذ ذاك هي : ربيعة ، ومضر وكنانة وجهينة وقليل من بني هاشم » [3] .

« اما الحضارمة فمن المعروف ان هجرتهم الى شرق السودان قديمة، ومنهم الحداربة (لفظ محرف من الحضارمة) الذين نزحوا الى شرق السودان منذ القرن الاول الهجري ، وكان لهم شأن ونفوذ في بلاد

---

(1) أنظر الطبري (ليدن) ٢٥٩٥/١ ، الفكهاني : محمد بن اسحق : كتاب المنتقى ٤٤/٢ ، القنائي : احمد بن محمد : الجواهر الحسان ص ١٥ . وقال الدكتور يوسف فضل (المعالم الرئيسية في الهجرة ص ١٠٨) . عن هذه المسألة : « وفي ذلك العهد المبكر حدثت اشتباكات بين القراصنة الاحباش والمسلمين ، وقد هاجم الاولون ميناء جدة .. وكرر الاحباش هجماتهم في خلافة سليمان بن عبد الملك الذي امر باحتلال مركزهم ، وهو يتكون من مجموعة جزر دهلك ليضع حدا لنشاطهم ، وبذلك يكون هذا الاحتلال بمثابة رأس الجسر للنفوذ العربي في الساحل الغربي » .

(2) حسن سليمان (دكتور) : تاريخ السودان من اقدم العصور الى الان ص ٢٧ .

(3) محمد عبد الرحيم : العروبة في السودان ص ١٦ .

البجة »[1] يدل عليه سيادتهم على تلك البلاد منذ ذلك التاريخ .

وينقل مصطفى مسعد[2] عن « بول » في كتابه : « تاريخ قبائل البجة في السودان » ان جماعة من عرب هوازن عبرت البحر الاحمر في القرن الاول الهجري (السابع الميلادي) واستقرت في ارض البجة حيث عرفوا باسم الحلانقة ، ثم انتقلت الى منطقة التاكة (كسلا الحالية) ، وهم من اوائل العرب المسلمين الذين استقروا في الوطن البجاوي . ومن المعتقد ان يكون هؤلاء هم « هلنكة » الذين حاربتهم حملة الناصر محمد قلاون في جبل التاكا سنة ٧١٦ هـ.[3]

وتشير « مارجريت شيني » الى قدم هذا الباب الشرقي ، وولوج العرب منه الى شرق السودان فتقول : « وقد كثر دخول العرب الى السودان عن طريق البحر الاحمر خلال الجزء الاكبر من هذا العصر[4] ، فقد عثر على بعض الشواهد في مقابر المسافرين من العرب في هضاب البحر الاحمر التي يرجع تاريخها الى سنة ٩٠٠ ، وهي اقدم النقوش العربية في السودان[5] .

ويؤيد الصياد والمسعودي حقيقة قدم الهجرة العربية عبر البحر الاحمر الى بلاد السودان فيقولان : « وهنا لا بد ان نشير الى ان

---

(١) عبد المجيد عابدين : من اصول اللهجات العربية في السودان ص ٢٢ . وقد ايد هذه الفكرة الدكتور مصطفى محمد مسعد (الاسلام والنوبة ص ١٢٨) نقلا عن « بول » حين قال : أن الحداربة هم الحضارمة ، وجاءوا من بلاد العرب حول القرن السادس الميلادي.

(٢) الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١١٨ .

(٣) انظر : النويري : نهاية الارب (مخطوط) ج ٣٠ ، ص ٩٦ ــ ٩٨ .

(٤) تقصد المؤلفة العصر المسيحي في السودان ، الواقع بين ٥٤٠ ــ ١٥٠٤ م ، راجع ص ٨ من : موجز لتاريخ السودان للمؤلفة .

(٥) موجز لتاريخ السودان ص ٩ .

الجماعات العربية لا ترجع هجرتها الى السودان الى القرن السابع الميلادي، أي الى وقت ظهور الاسلام في السودان فحسب » وانما تعود الى زمن ابعد من هذا بكثير ، « فقد عرف العرب هذه المناطق قبل الاسلام ، اذ وصلوا مصر والسودان للتجارة ، باحثين عن الذهب والعاج والبهارات وغيرها ، وكثيرا ما عبروا بوغاز باب المندب او برزخ السويس او عبروا البحر الاحمر ، وقد استقر بعض هؤلاء دون شك في البلاد » [1] .

اننا نعتقد ان الرابطة بين ساحلي البحر الاحمر كانت قوية منذ أقدم العصور عن طريق باب المندب الذي لا يتجاوز عرضه عشرة اميال ، واذا عرفنا ان هذا « البوغاز » كان قريبا لشرق افريقيا فالسودان سهل علينا ان ندرك كونه معبرا رئيسيا للسودان في تلك العصور الجاهلية [2] ،ومن المرجح — عندئذ — أن يكون قد هاجر منه عدد غير قليل من العناصر العربية الى أجزاء مختلفة من حوض النيل لا سيما الجهات الشرقية من السودان ،ومن المرجح ايضا ان يكون قد لحق بهذا الرعيل الاول من العرب عدد قليل او كثير من اقاربهم واهليهم [3] ، وهنا لا يبعد ان يكون بعض هؤلاء — وقد قيل انهم حميريون — هم النواة الاولى لقبيلة رفاعة ، ورفاعة — في الارجح — من جهينة ، وجهينة — في قول [4] — من حمير ، ولا يبعد

---

(١) محمد محمود الصياد (دكتور) واخر :السودان :دراسة في الوضع الطبيعي ، والكيان البشري ، والبناء الاقتصادي ص ١٥٨ ، التربية في السودان ج ١ ص ٢٠٠ ، ماكمايكل : دخول العرب في السودان ص ٧ — ٨ .

(٢) البيان والاعراب ص ١٤٣ .

(٣) الاسلام والنوبة ص ١٠٧ — ١٠٨ ، السودان : دراسة في الوضع الطبيعي ... (ص ١٤٨) .

(٤) انظر : ابن دريد : الاشتقاق ٢/٥٣٦ ، ابن حزم : الجمهرة ص ٤٤٠ ، ٤٤٣ — ٤٤٤ — ٤٨٥ ، ابن عبد البر : الانباه على قبائل الرواة ص ٦٠ — ٦٢ — ١٢٧ .

البكري : معجم ما استعجم ١/٣٠ ، السمعاني : الانساب ٣ — ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ابن خلدون : العبر ٢ /٥١٦ ، القلقشندي : قلائد الجمان ص ٤٣ .

كذلك أن تكون هذه النواة الرفاعية هي السبب في استعمار شعبة رفاعة لمعظم الجهات الشرقية من السودان ، بسبب اغرائها بعض فروعها في الجزيرة العربية بالقدوم الى السودان . يرشدنا الى شيء من هذا ما رواه بوركهارت في رحلته حين قال : [1] : « نزل شندى [2] حين كنت بها عربي قادم من سواكن ، وكان من عشيرة رفاعة التي تنتسب الى قبيلة كبيرة تجاور « ينبع » هي قبيلة جهينة ، واخبرني الرجل أن من أبناء عشيرته رفاعة — فيما سمع — قوم نزلوا جنوب سنار ، وانه ينوي ان يلم بهم طلبا لعطاياهم ، لانهم كانوا يعطفون على ذوي قرباهم بالحجاز ، لا سيما الذين يتجشمون منهم مشقة الرحلة للسلام عليهم ، وكان على علم باسم أحد مشايخ رفاعة وبموطنه من شاطىء النهر على نحو ستة ايام من سنار » . [3]

موضع الدلالة في هذا النص ما ذكره هذا العربي الرفاعي لبوركهارت من وصول جماعات عربية في زمن سابق الى السودان هم قبيلة رفاعة ، وتوغل هذه الجماعة الى جنوب سنار ، واندماجها في السكان ، واشتهارها بالكرم حتى وصلت اخبارها الى موطنها الاول في « ينبع » ، فقصدها بعض من ينتمون اليها . وقد اتخذ يوسف فضل من رواية بوركهارت هذه دليلا على ان قبيلة رفاعة قطعت البحر الاحمر ، ولم تأت عن طريق مصر للسودان ، وعلل لهجرة هذا البعض الى جنوب سنار بازدحام البطانة بالمهاجرين الاوائل . [4]

---

(١) تقتضى الامانة العلمية الاشارة الى ان هذه الرحلة كانت متأخرة زمنا ، اذ حدثت سنة ١٨١٤ م ، ولكن هذا لا يمنع ابدا من الاستدلال بالنص.

(٢) شندي مدينة تقع في شمال خط العرض السادس عشر ، وعلى خط الطول الرابع والثلاثين ، وتتوسط المساحة الواقعة بين مدينتي عطبرة والخرطوم ، وتتدرج — اداريا — في المديرية الشمالية التي جابها هذا الرحالة

(٣) جون لويس بوركهارت ت ١٨١٧م : رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان ، ترجمة فؤاد اندراوس ص ٢٥١ .

٤ — Yousuf Fadl Hassan, The Arabs and The Sudan, p. 160

ولعل في النص التالي ما يعرب بأوضح بيان عن هذه النقطة ، ويعد دليلا اخر على ما رأيناه من قدم رفاعة في هذا الاقليم ، قدما يعود بأصولها الاولى الى عشرات المئات من السنين • يقول محمد عوض محمد : [١]
« وبوجه عام يعتبر الرفاعة والمحس اصحاب الديار الاصليين على ضفتي النيل الازرق ـ كما يقول ماكمايكل ـ فان صح هذا ، ونحن نعلم قدم المحس في هذا الاقليم ، فمعنى ذلك ان الرفاعة استقروا منذ زمن طويل »•

ننتهي من كل ما سبق الى نتيجة لا تقبل الجدل في تصورنا ، وهي ان العرب قد عرفوا الطريق الشرقي ـ ملاحة على البحر الاحمر حتى سواكن ومنها الى داخل السودان ـ منذ وقت موغل في القدم ، واستمرت هجراتهم منه الى السودان الى ما بعد ظهور الاسلام •

ج ـ نتائج الحملات والهجرات السلمية :

كان من نتائج الحملات الحربية التي قادها المسلمون على بلاد النوبة والبجة ، ومن ثمرات الهجرات السلمية الى تلك المناطق مما عرضنا له في ايجاز على الصفحات الماضية ما يأتي :

اولا ـ استيطان العرب في أوطان البجة :

جاء في اليعقوبي قوله : ••• ومن الخربة الى معدن يقال له رحم معدن تبر ثلاث مراحل ، وبرحم قوم من بليّ وجهينة وغيرهم من أخلاط الناس يقصدون للتجارات •• والى معدن يقال له الاخشاب مرحلتان ،والى معدن يقال له ميزاب تنزله بلى وجهينة اربع مراحل [٢] •

وفي موضع اخر من كتابه يتحدث عن العرب الذين استقروا في وادي

---

(١) السودان الشمالي ص ٢١٦ •
(٢) كتاب البلدان (نشر دي غويه ، ليدن ١٨٩١ م) ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ •

العلاقي ــ من غير بلى وجهينة الذين مر ذكرهــم ــ فيقــول : « ووادي العلاقي كالمدينة العظيمة به خلق من الناس •• واكثر من باعلاقي قوم من ربيعة من بني حنيفة من اهل اليمامة ، انتقلوا اليها بالعيالات والذرية » [1]

وجاء المسعودي بعده فأيد وجود هذه الجماعات العربية التي ساكنت البجة في معادن الذهب ، وأضاف ان المصاهرة التي تمت بين الفريقين ادت الى ان يتقوى كل منهما بالاخر على خصمه • قال المسعودي : « وسكــن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقي وعيذاب ، وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن مسعد بن عدنان ، فاشتــدت شوكتهم ، وتزوجوا في البجة ، فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعــة ، وقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مضر ابن نزار ممن سكن تلك الديار » [2] •

وذكر ابن حوقل ان عددا من الذين اشتركوا في حملة ابن الجهم ضد البجة بقوا في العلاقي رغبة في العمل في معادن الذهب ، وفي عام (٢٣٨ / ٨٣٧) أي بعد ست سنوات من حملة ابن الجهم على البجة وفدت جماعات اخرى من جهينة وربيعة الى وادي العلاقي تلبية لدواعي الطمع في الحصول على الذهب الذي اشتهر به هذا الوادي • يرشدنا الى هذا قوله : « وكان في بعض اصحابه من عاين التبر وآثار العمل فيه للروم بالجزيرة عند اول دخولهم مع عبيد بن جهم مولى المأمون ، فنكصوا الى البلد من سنتهم •• وتكامل بالعلاقى قبائل ربيعة ومضر وهم جميع أهل اليمامة في سنة ثمان وثلاثين ومائتين • » [3]

وقبل هذا وبعده تدل الاشارة ــ الواردة في معاهــدة العرب مــع

---

(١) نفس المصدر ص ٣٣٤ •
(٢) مروج الذهب ٢ / ١٨ ، انظر خطط المقريزي ١ ــ ١٩٧ •
(٣) صورة الارض (بيروت) صفحة ٥٥ ــ ٥٨ •

البجة [١] ـ الى وجود مساجد ، والى جمع الصدقة من المسلمين ، على ان العرب قد دخلوا في وقت مبكر ، وفي أعداد كبيرة نشرت الاسلام في أوطان البجة ، كما ان اسم رئيسهم : كنون بن عبد العزيز فيه الدلالة على قوة الاثر العربي ، والنص في صلب هذه المعاهدة على ان اللذين قامابترجمتها الى البجاوية عربيان أحدهما من جدة والاخر قرشي دليل اخر على قدم العروبة في هذه الاوطان • [٢]

ثانيا ـ امتلاك العرب الارض في النوبة :

قال المسعودي : « ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة في ارض النوبة ، يؤدون خراجها الى ملك النوبة ، ابتيعت هذه الضياع من النوبة في صدر الزمان في دولة بني امية ، وبني العباس • وقد كان ملك النوبة استعدى الى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفدهم الى الفسطاط »[٣] الى ان يقول : وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس • وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك في نوعين نوع ممن وصفنا أحرار غير عبيد ، والنوع الاخر من أهل مملكته عبيد ، وهم من سكن بالنوبة في غير هذه البلاد المجاورة لاسوان ، وهي بلاد مريس » [٤]

ان في هذا النص اشارة واضحة الى المدى الواسع الذي بلغه انتشار العرب في مملكة المقرة الى الحد الذي يصبحون فيه من أهل البلاد ، يمتلكون فيها الاراضي ، وتنتقل بالميراث من بعدهم لابنائهم وذراريهم ،

---

(١) انظر صفحة ٢٧ من هذا البحث .
(٢) انظر : يوسف فضل : المعالم الرئيسية في الهجرة صفحة ١١٣ .
(٣) مروج الذهب ٣/٤١ ، وانظر خطط المقريزي ١ ـ ١٩٠ .
(٤) مروج الذهب ٣ ـ ٤١ ، وانظر خطط المقريزي ١ ـ ١٩٠ .

ويحاجون فيها ملك البلاد لدى الخليفة العباسي المأمون ، فتكون الغلبة اخر الامر لهم [١]

ثالثا ــ السيطرة السياسية :

جاءت سيطرة العرب السياسية على بلاد النوبة والبجة نتيجة طبيعية لاستقرارهم بتلك الصورة التي بسطناها ، ولامتلاكهم الاراضي على النحو الذي بيناه . وقد شرح ابن خلدون في دقة ووضوح مدى هذه السيطرة السياسية ، وكيف ان الحكم انتقل من اهل البلاد الاصليين الى هذا العنصر العربي الوافد . قال ابن خلدون : « ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة في بلادهم [٢]، واستوطنوها وملكوها وملؤوها عبثا وفسادا، وذهب ملوك النوبة الى مدافعتهم فعجزوا ، ثم ساروا الى مصانعتهم بالصهرفافترق ملكهم ، وصار لبعض ابناء جهينة من امهاتهم على عادة الاعاجم في تمليك الاخت وابن الاخت ، فتمزق ملكهم ، واستولى اعراب جهينة على بلادهم وليس في طريقه شيء من السياسة الملوكية للآفة التي تمنع من انقيادهم بعضهم الى بعض ، فصاروا شيعا لهذا العهد ، ولم يبق لبلادهم رسم للملك، وانما الان رحالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بوادي الاعراب [٣] .

د ــ اسباب الهجرة العربية للسودان :

اما الاسباب التي ادت الى استقرار العرب في المناطق التي اشرنا اليها

---

(١) المصدر السابق صفحة ٤١ وما بعدها .

(٢) يقصد بلاد النوبة وقت أن كان يحكمها كرنبس الذي اسلم هو ومن معه وبذلك انقطعت الجزية عن بلاد النوبة قبيل سقوط دولة المقرة المسيحية (راجع المجلد الخامس ص ٩٢٢ من كتاب العبر) .

(٣) العبرة ج ٥ ، ص ٩٢٢ ــ ٩٢٣ ، كان وصفه هذا لحالة النوبة سنة ٧١٩ هـ ، وقد نقل منه القلقشندي هذا النص بتصرف صبح الاعشى ٥ ــ ٢٧٨ .

فيما سبق من ارض السودان نتيجة للحملات العسكرية الاتية من الشمال ، أو ثمرة للهجرات السلمية الوافدة من الشرق ، فتتلخص فيما يلي :

١ ـ الرغبة في الحصول على الذهب من معادنه في اوطان البجة : (١)

ذاعت انباء وجود الذهب في بلاد البجة فطبقت الافاق ، وكتب عن هذا الذهب عدد غير قليل من جغرافيّ ومؤرخي العرب ، فقد اشار اليه اليعقوبي ، والمسعودي ، والاصطخري ، وابن حوقل ، وابن الفرات ، والقلقشندي ، وابن الفقيه [٢] ، وغيرهم ، وكانت هذه الشهرة سببا في هجرة خلق من العرب والعجم ـ كما يقول اليعقوبي [٣] الى تلك البلاد .

غير ان احدا من اولئك الجغرافيين والمؤرخين لم يذكر شيئا مفصلا عن كمية هذا الذهب ومقداره ، وغاية ما هنالك ان يقول احدهم [٤] : ويجبلها معدن ذهب يتحصل منه بقدر ما ينفق في استخراجه .

كذلك لم يشرح واحد من اولئك الجغرافيين والمؤرخين كيف كان يستخرج الذهب من تلك المعادن فيما عدا اليعقوبي الذي اوجز عملية التعدين بقوله : « ولكل قوم من التجار وغير التجار عبيد سودان يعملون في الحفر ، ثم يخرجون التبر كالزرنيخ الاصفر ، ثم يسبك » . [٥]

وحتى الباحثين المحدثين لم يصلوا في بحثهم عن ذهب السودان ـ

---

(١) المقريزي : كتاب المقفى الكبير ج ٤ ، ص ١٦٤ ، تاريخ شعوب وادي النيل ص ٣١٦ .

(٢) التاريخ ١ ـ ٢١٨ ، البلدان ص ٣٣٠ ـ ٣٣٥ ، مروج الذهب ٢ ـ ١٨ المسالك والممالك ص ٣١ ـ ٣٢ ، صورة الارض ص ٥٥ ، تاريخ ابن الفرات ٧ ـ ٤٩ ـ ٥٠ ، صبح الاعشى ٥ ـ ٢٧٤ ، مختصر كتاب البلدان ص ٧٨ .

(٣) كتاب البلدان ص ٣٣٤ .

(٤) القلقشندي (صبح الاعشى) (٥ ـ ٢٧٤) .

(٥) كتاب البلدان (ص ٣٣٤) .

بعد ـ الى ما يشفي العليل ، فالصياد [1] يقول عن ذهب البجة : « كان الذهب أهم ما لفت الانظار الى السودان في العصور القديمة ، ولكنه الان لا يسهم في اقتصاديات السودان الا بقدر ضئيل ، واهم مناطق تعدينه في جهات « جبيت » في جبال البحر الاحمر » . ثم يقول عن كميته : « ويبلغ متوسط انتاجها السنوي نحو ١٥ الف جنيه » [2] .

ومهما يكن من امر فان اشتهار بلاد البجة بالذهب كان على رأس الاسباب التي دفعت اجزاء كبيرة من قبائل العرب ـ مثل ربيعة وبلى وجهينة ومضر وبني سليم كما سبق ان اشرنا ـ الى الاقامة في تلك الاوطان . [3]

٢ ـ ومن اسباب الهجرة العربية الى السودان :

غلبة العنصر التركي في مصر منذ عهد الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) :

ففي عهده بدا أن النفوذ العربي قد تلاشى تماما ، فعلى حين لم يعد حكام مصر يختارون من العرب اصبح أغلب جند الدولة من العجم الموالي، واقصي العرب من مكانتهم المرموقة ، وحرموا كافة امتيازاتهم ، فانقرضت دولتهم في مصر [4] . ولا بد ان هذا حمل عددا منهم على الهجرة جنوبا الى بلاد السودان تخلصا من قبضة الاعاجم [5] . والى هذا السبب نفسه اشار

---

(١) محمد محمود الصياد (دكتور) واخر ،السودان :دراسة في الوضع الطبيعي الخ (ص ٢٦٨) .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) انظر اليعقوبي في : البلدان (ص ٣٣٥) .
(٤) خطط المقريزي (ج١ ، ص ٩٤) .
(٥) حسن ابراهيم حسن :انتشار الاسلام في القارة الافريقية (ص١٩٦)

ماكمايكل : فكانت هذه مصيبة على العرب .. لانه لم يعد يهتم بهم احد ، اذ عدوا فضوليين ثقلاء الظل ، واصبحوا محتقرين من الحكام . ولهذا بارح العرب القطر المصري تخلصا من المهانة والذلة والظلم [1] . ولخص يوسف فضل الامر كله بقوله :«وباختصار فان السياسة التي اختطها المعتصم في تجنيد الترك تعتبر في نظري العامل الاساسي الذي شجع العرب على الهجرة الى السودان ، فكلما زادت قبضة الاتراك على الحكومة والجيش في مصر اضطر العرب الى الهجرة نحو السودان » [2] .

٣ ـ الضغط الاقتصادي الذي انزله الخليفة المعتصم بالعرب :

وقد تمثل هذا الضغط في القرار الذي اصدره المعتصم بقطع العطاء عن العرب في مصر . قال ابن تغري بردى : ثم عقيب ذلك ورد على كيدر (ابن نصر الصغدي) كتاب المعتصم ببيعته ، ويأمره باسقاط من في الديوان من العرب ، وقطع العطاء عنهم ، ففعل كيدر ذلك ، فخرج يحيى بن الوزير الجروى في جمع من لخم وجزام عن الطاعة [3] ، واعلن امام كيدر : هذا امر لا يقوم فينا اعضل منه ، لانا منعنا حقنا وفيئنا [4] . فلم يمنع كيدر من حرب ابن الجروي الا منيته التي وافته سنة ٢١٩ هـ . ولما آل امر مصر لابنه المظفر تجهز لحرب يحيى بن الوزير ، وكانت بين الفريقين وقعة هائلة كتب النصر فيها لمظفر [5] . فلا بد ان يكون قد ترتب على هذا القرار احساس

---

(١) دخول العرب في السودان (معرب) (ص ٢١ ــ ٢٢) .
(٢) المعالم الرئيسية في الهجرة الى السودان (ص ١١٢) .
(٣) النجوم الزاهرة (٢ ــ ٢٢٢ ــ ٢٢٣) خطط المقريزي (١ ــ ٩٤) المعالم .. (ص ١١٢) .
(٤) خطط المقريزي (١ ــ ٩٤) .
(٥) النجوم الزاهرة (٢ ــ ٢٩٩) والمقريزي نفس المصدر والصفحة .

العرب بشح في مصادر رزقهم مما اضطرهم الى الهجرة جنوبا بحثا عن مورد للرزق جديد • [1]

٤ ـ الاضطهاد السياسي والاقتصادي الذي عاناه العرب ايام المماليك :

ولما جاء المماليك حاولوا اقصاء العناصر العربية كذلك عن وظائف الدولة باعتبارهم عنصرا غير مرغوب فيه ، وارهقوقهم بمضاعفة الضرائب لمقابلة نفقات الضغط المغولي على سوريا ، وابتدعوا من وسائل الاضطهاد ما حمل العرب على الهجرة من مصر [2] • هـا هنا بدأ التذمر العربي من المماليك ، وما لبث ان عبر عن نفسه في ثورات عارمة متلاحقة بدأت منذ سنة (٦٥١ هـ ـ ١٢٥٣ م) حين ثارت عربان مصر على عز الدين ايبك التركماني سلطان مصر ، وبزعامة الشريف حصن الدين ثعلب بن نجم الدين الجعفري ، ودارت بين الفريقين حروب انتهت بالقبض على الشريف واصحابه • [3]

وفي سنة ٧٥٤ هـ قادت بطن من قبيلة جهينة حركة اخرى ضد المماليك انتهت بهزيمتها ، واخراج معظم من بقي حيا في مصر منها الى بلاد السودان والصومال • يقول ابن اياس : «ثم دخلت سنة اربع وخمسين وسبعمائة •• وفي هذه السنة جاءت الاخبار من بلاد الصعيد بان العربان اظهروا الفساد، وعصوا ونهبوا جميع الغلال ، وقتلوا العمال • وكان كبير العربان شخصا

---

(١) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام (ص ٢٥٧) •

(٢) البيان والاعراب (مع دراسة) صفحات ١١٥ ـ ١٢٢ ، بالمعالم ... (ص ١٢٣) •

(٣) البيان والاعراب (ص ٩ ـ ١٠) •

يسمى ابن الاحدب شيخ[١] قبيلة عرك[٢] ، فاجتمع عليه قبائل كثيرة من العربان حتى سدوا الفضاء ، فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت الاحوال ، وخرج اليهم السلطان بنفسه وسائر الامراء قاطبة ... فلما تقدموا امام العسكر وقع بينهم وبين العربان واقعة عظيمة .. وانكسر شيخهم ابن الاحدب .. ثم ان الامراء مشوا وراء العربان الذين هربوا مسيرة سبعة ايام حتى دخلوا اطراف بلاد الزنج » [٣]

ومجمل القول : ان جهينة على عهد المماليك كان لها ـ بصفة خاصة ـ دور بارز في المقاومة العربية ، « وان هذه الحركة انتهت بكثير منهم الى بلاد السودان » [٤]

وقد اورد محمد صالح ضرار نموذجا لما كان يعانيه العرب من اضطهاد سياسي على عهد المماليك ، فذكر ان احد سلاطينهم اصدر امره الى الجنود بقتل العرب وحرق ديارهم ، فاستنبطوا حيلة لا يمكن للعربي ان يفلت منها ، وهي انهم كانوا يقولون للعربي قل دقيق ، فان نطقها صحيحة بالقاف قتلوه ، وان نطقها خطأ بأن قال « دئيء » كما هو النطق المصري تركوه لانه غير عربي . وكانت هذه الحيلة والاضطهاد من اهم اسباب هجرة العرب الى القطر السوداني فرارا من مصر » [٥]

---

(١) هو محمد بن واصل العركي ، وعرك بطن من جهينة تسكن معها في جبال بالحجاز تدعى : « القبلية » (انظر ياقوت ١ / ٢،٧٥٠ / ٣٣٩ ، ٤ / ٣٢ ـ ٣٣) .

(٢) انظر ياقوت الحموي في معجم البلدان ٣٢/٤ ـ ٣٣ مادة القبلية . وانظر كون جهينة أكثر عرب الصعيد ، وان من بلادها اسيوط ومنفلوط واخميم وقاو الخراب الى عيذاب حيث قامت هذه الثورات : في قلائد الجمان ص ٤٤ البيان والاعراب ص ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ـ ٣٣ .

(٣) ابن اياس : محمد بن احمد بن اياس الحنفي المصري : كتاب تاريخ مصر (١ ـ ٢٠٠) .

(٤) البيان والاعراب ص ١٣١ .

(٥) تاريخ السودان : البحر الاحمر واقليم البجة ص ٤٠ ـ ٤١ ، الشاطر بصيلي عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٤٨ ـ ٤٩

يتبين مما تقدم ان السياسة التي انتهجها المماليك مع عرب مصر لم تدع لهم خيارا غير الهروب لبلاد السودان ، « وفوق هذا فان المجاعات المتكررة ، وموجات الطاعون التي لازمت العهد المملوكي الاول شجعت كثيرا من العرب على الهروب الى بلاد النوبة خوف الموت » [١] .

٥ ــ الكثافة السكانية في مصر ، مع فقرها وعدم صلاحيتها للبداوة ، من حيث ندرة الامطار ، ورغبة العرب القاطنين فيها في عيش انعم وحياة أرفه :

وصلاحية السودان لذلك بحكم ان اراضيه شاسعة ، مشابهة كثيرا لارض الجزيرة العربية التي هاجروا اصلا منها ، ذلك لان البحر الاحمر ما هو « في الحقيقة الا فلق عرضي اهتزت الطبيعة فاحدثته بين جزئين من ارض واحدة لا فرق بينهما » [٢] .

٦ ــ منذ القدم ظل البحر الاحمر احد طريقين هامين يصلان الشرق بحوض البحر المتوسط ، وعندما جاء الاسلام واخذ القراصنة الاحباش يهاجمون تجارة المسلمين فيه ــ كما مر ــ انشأ المسلمون ثلاث موانىء على ساحله السوداني هي باضع ، وعيذاب ، وسواكن ، اسهمت كل منها في توسيع نطاق التجارة والهجرة العربية بين شرقي هذا البحر وغربيه [٣] فالتجارة اذن بين السودان وشبه الجزيرة العربية كانت اهم سبب لهذا الاتصال ، فقد كان الذهب والعاج والصمغ واللبان من اشهر السلع المتبادلة بين شبه جزيرة العرب وكل من الحبشة والسودان عن طريق موانىء هذه البلاد » [٤] .

---

(١) المعالم الرئيسية في الهجرة ص ١٢٤ .

(٢) ماكمايكل : دخول العرب في السودان ص ١٨ ــ ٢٢ ، تاريخ شعوب وادي النيل ٣١٦ ، انتشار الاسلام والعروبة ص ٩ ــ ١٠ ، والمعالم الرئيسية ص ١١٢ .

(٣) المعالم الرئيسية في الهجرة ص ١١٨ .

(٤) Mac Micheal, H, A, Ahistory . of The Arabs, Vol. 1, p p 3 - 4

وقد استقر كثير من هؤلاء التجار في اجزاء مختلفة من السودان ، وليس صدفة ان نجد الان غالبية التجار الاجانب في السودان من ذوي الدخول المتوسطة من اصل يماني ، وينتشرون في أرجاء كثيرة من مدنه ، ويروون ان اجداد اجدادهم مولودون في السودان ، وقد نال كثير منهم صفة المواطنة الشرعية .

٧ ــ ولما كانت الجزيرة العربية ذات امكانيات غذائية ورعوية محدودة وكانت كثيرا ما تعاني الجدب والقحط والزيادة ــ غير المتكافئة مع موارد الغذاء ــ في السكان فقد اندفع العرب ، بسبب هذا ، « في دورات متباعدة للهجرة عبر حدودها طلبا للغذاء والكلأ . ومن نافلة القول أن اضيف أن عددا من هؤلاء المهاجرين قد شقوا طريقهم الى السودان » (١) .

٨ ــ ونرجح ان حرمان العرب في الجزيرة العربية من العطاء كان على رأس الاسباب التي حملت طوائف منهم لا الى الهجرة الى السودان وحسب ــ فهذا سبب عام ــ بل والى مصر والشام والعراق ايضا . ولما كان البحر الاحمر ضيقا نسبيا عند السودان فقد كان من السهل على بعض هذه الطوائف اجتيازه حتى بالسفن الصغيرة وقد «سلكته السلالات والاجناس الى القارة الافريقية منذ عشرات الالاف من السنين .» (٢)

٢ ــ العرب في مملكة علوة المسيحية

يقول الدكتور مصطفى محمد مسعد بحق :

« واذا اشار المؤلفون المسلمون الى هجرة بعض الجماعات العربية من مصر الى بلاد النوبة الشمالية (مقرة) وأوطان البجة (٣) ، فان احدا من

(١) يوسف فضل : المعالم الرئيسية في الهجرة ص ١٠٣ .

(٢) محمد عوض محمد : السودان ووادي النيل ص ٢٨ ، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٠٦ ــ ١٠٧ .

(٣) انظر هجرة العرب الى بلاد النوبة واوطان البجة في قسم (١) من هذا البحث .

اولئك المؤلفين لم يشر الى مثل هذه الهجرات الى بلاد علوة ، بل ان اخبار هذه الهجرات ، واستقرار الجماعات المختلفة فيها جاء من مصادر سودانية ، وهي عبارة عن اوراق النسبة التي تحتفظ بها كثير من الاسرات السودانية في الوقت الحاضر » [١] .

ويرجع هذا الاهمال ــ في تقديري مع ذكر اخبار مملكة المقرة والبجة ــ الى بعد ديار اولئك المؤرخين ــ في مصر وما بعدها ــ عن مملكة علوة ومناطق نفوذها ، بالاضافة الى وعورة المسالك اليها ، وبدائية وسائل النقل آنذاك ، في حين كانت دولة المقرة واوطان البجة ملاصقة لديار الاسلام ، ولهذا امكنهم الالمام باخبارها .

غير ان بعض المؤلفين المسلمين ــ للحقيقة ــ اشاروا الى علوة ،ولكنها اشارات مقتضبة لا تكاد تبين ، ولا تحوى شيئا مفيدا عن العربية فيها [٢]، فيما عدا اليعقوبي الذي قال : « والمسلمون يختلفون اليها [٣] ، والنويري الذي قدم أخبارا مفصلة عن حملة مملوكية واحدة سيرها الناصر محمد قلاون سنة (٧١٦ هـ) على العربان وصلت بلاد علوة ، وخرجت فيها ثلة من الامراء ، » وسبعة من مقدمي الحلقة المنصورية [٤] .

وقد توجهت هذه الحملة في خمسمائة فارس ، فسارت الى عيذاب ، فسواكن ، ثم انتهت الى منطقة نفوذ علوة في التاكة (كسلا الحالية) ، ثم مضت في ارض علوة ــ ونهر عطبرة على يمينها ــ حتى التقت بنهر النيل بعد

---

(١) الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٨٧ ــ ١٨٨ .

(٢) انظر : ابن حوقل : صورة الارض ص ٦١ ــ ٦٢ ، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٧٨ ، والدمشقي : نخبة الدهر ، بطربورغ ١٨٦٥م ص ٢٦٨ .

(٣) كتاب البلدان ص ٣٣٥ ــ ٣٣٦ ، ايضا في تاريخ اليعقوبي ٢١٧/١ ــ ٢١٨ .

(٤) نهاية الارب مخطوط ، ج ٣٠ ، ص ٩٦ ــ ٩٨ .

ان قاتلت « هلنكة » [1] ، ومن ثم عادت الى مصر عن طريق دنقلة والنيل بعد ان جاست اراضي علوة ، واستغرقت مسيرتها ستة اشهر [2] .

غير ان بعض الامور تدل ــ وتؤيدها مصادر السودانيين ــ على ان أعدادا كبيرة من العرب ــ وبخاصة جهينة التي ينتسب اليها العبدلاب ــ قد استقرت في مملكة علوة المسيحية ، مما أدى الى انتقال السلطة ،تدريجيا من يد سكان علوة الاصليين الى العرب المهاجرين في الممالك الصغيرة التي كانت تابعة لعلوة ، ثم ادى هذا الاستقرار الكثيف للعرب حول « سوبا » ــ اخر الامر ــ الى سقوط المملكة كلها على يدي عبدالله جماع وحده ، او هو وعمارة دونقس على خلاف في الروايات ، وقامت على انقاضهامشيخة العبدلاب ومملكة سنار سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م كما سيجيء . وفيما يلي شواهد استقرار العرب في علوة :

١ ــ يرى الدكتور مصطفى مسعد ان ابن خلدون حين كتب عن انتشار احياء العرب من جهينة في بلاد النوبة ، واستيطانهم فيها ، وملكهم لها بعد مصاهرتهم لملوك النوبة عن طريق مبدأ تمليك الاخت وابن الاخت الذي يدينون به الى اخر ما قال [3] انما كان يعني بهذا الكلام ايضا ملوك علوة المسيحية . [4] وهذا رأي نقره ونتمسك به لسببين :

الاول : أن « النوبة » كانت مملكتين : مملكة المقرة المتاخمة لمصر ، وتسمى : النوبة السفلى ، ومملكة علوة التي عاصمتها « سوبا » جنوب الخرطوم وتدعى : النوبة العليا .[5] فكلام ابن خلدون على هذا الاساس،

---

(١) « هلنكة » يبدو انها قبائل « الحلانقة » المعروفة الان في تلك الجهات

(٢) نهاية الارب القسم المخطوط ، ج ٣٠ ، ص ٩٦ ــ ٩٨ .

(٣) انظر نص ابن خلدون ص ٤٦ من هذا البحث .

(٤) الاسلام والنوبة ص ٢٠٢ .

(٥) انظر تقسيم النوبة على هذا النحو في : تاريخ اليعقوبي ٢١٧/١ ــ ٢١٨ وكتاب البلدان (النجف) ص ٩٠ ، وانظر ايضا مروج الذهب ١٧/٢ ، الدمشقي في نخبة الدهر ص ٢٦٨ .

ينطبق على علوة ايضا لانها « نوبة » .

والثاني : ان ابن حوقل قال : (عند حديثه عن مملكة علوة المسيحية): « ومن سنة جميع السودان اذا هلك الملك ان يقعد ابن اخته دون كل قريب وحميم من ولد وأهل » [1] . ومنه اقتبس ابن خلدون ـ في الارجح ـ ما قاله عن نظام وراثة الحكم ، مما يؤكد أن المقصود من نصه ـ في المكان الاول ـ مملكة علوة المسيحية . وهذا يعني ان عرب جهينة وغيرهم نزلوا باعداد كبيرة الى عدد من أقاليم مملكة علوة ، فوق تكاثرهم في عاصمة المملكة « سوبا » وسنرى ، بعد قليل ، نتائج هذا التكاثر .

٢ ـ وصف ابن سليم الاسواني (ت ٩٧٥ م) مؤرخ النوبة في كتابه المفقود : « اخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » فيما نقل عنه المقريزي في خططه ـ عاصمة علوة سوبا وصفا دقيقا كان منه : « ومتملك علوة اكثر مالا من متملك المقرة واعظم جيشا وعنده من الخيل ما ليس عند المقري ، وبلده اخصب واوسع ، والنخل والكرم عندهم يسير ، واكثر حبوبهم الذرة البيضاء .. واللحم عندهم كثير لكثرة المواشي والمروج الواسعة العظيمة السعة ، حتى انه لا يوصل الى الجبل الا في ايام ، وعندهم خيل عتاق ، وجمال صهب عراب » [2] .

فاذا كانت سوبا عاصمة علوة في ذلك الوقت على تلك الحال التي وصفها مؤرخ النوبة من السعة والخصب والامان ورغد العيش ، واذا كانت دواعي الهجرة عند الاعراب في كل زمان ومكان لا تخرج كثيرا عما وصفه ابن سليم ، وكانت مصر وبلاد النوبة السفلى على ما وصفنا سابقا [3] من فقر البيئة ، وكثرة الاضطرابات ، زيادة على ما لقيه العرب في مصر من

---

(١) صورة الارض ص ٦١ .
(٢) خطط المقريزي ج١ ، ص ١٩٣ .
(٣) انظر الصفحة : ٥٢ من هذا البحث .

امتهان واضطهاد في خلافة المعتصم وحكم المماليك ، ثم كانت النزاعات التي قامت بين العرب انفسهم في النوبة بسبب السلطة ، وفي ارض البجة تكالبا على الذهب [1] فان هجرة العرب الى مملكة علوة تصبح امرا مؤكدا ليس فيه خلاف .

وقد قرر الدكتور مكي شبيكة هذا المعنى نفسه فأكد ان عناصر عربية كثيرة هاجرت الى ارض علوة بعد ان كانت قد استقرت في النوبة السفلى أي مملكة المقرة . وعلل لهذه الهجرة بنفس السبب الذي بسطناه آنفا فقال : « فاتساع رقعة علوة ، وهطول الامطار فيها ، وتوفر المراعي والزراعة المطرية يجعلها من الناحية الزراعية والرعوية مجالا حيويا لحشود القبائل العربية المتدفقة من الشمال ، وطبيعة اراضي علوة تناسبهم اكثر من رقعة دنقلة الضيقة » . [2]

٣ ـ ينقل المقريزي عن ابن سليم الاسواني : « ولها (عاصمة علوة) رباط فيه جماعة من المسلمين » [3] . وفي موضع اخر يقول : « وعندهم خيل عتاق ، وجمال صهب عراب [4] » . فاذا جاز لنا ان نشك في دلالة الجمال العراب على وجود العرب في « سوبا » أفيجوز لنا مثل هذا الشك في دلالة الرباط الذي فيه جماعة من المسلمين ؟ قال (آرنولد) في هذا المعنى : « وزاد عدد العرب القاطنين على ضفاف النيل الازرق ، كما زادت ثروتهم زيادة كبيرة في القرن العاشر ، حتى انهم استطاعوا ان يلتمسوا الاذن ببناء مسجد في « سوبة » عاصمة المملكة المسيحية » [5].

---

(١) انظر المقريزي : السلوك ج١ ، القسم الثالث ص ٧٠٠ ، والسودان عبر القرون ص ٤٢ .

(٢) السودان عبر القرون ص ٤٢ ، وانظر لنفس المؤلف : مملكة الفونج الاسلامية ص ١٥ .

(٣) خطط المقريزي ج١ ، ص ١٩٣ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) سيرتوماس ارنولد ، الدعوة الى الاسلام ص٩٨ ، تعريب د. حسن ابراهيم حسن واخر .

٤ ـ ذكر هاملتون انه في القرنين السابقين للميلاد عبرت هجرات كبيرة من أهل اليمن مضيق باب المندب ، واستقر بعضها في الحبشة ، وسار بعضها الاخر بحذاء النيل الازرق ونهر العطبرة اي في ارض علوة منتشرا شمالا في ارض النوبة . [١]

٥ ـ ونقل مصطفى مسعد عن « دي فيار » قوله : « وليس بمستبعد ان الاسرة المالكة النوبية (وعلوة تسمى النوبة العليا كما مر) ترجع في أصلها الى جنوبي الجزيرة العربية ، اذ عبر الحميريون البحر الاحمر واستقروا في السودان حيث نقلوا اسماء اجدادهم مثل : كوة، دراو ، سبأ . ولا يبعد ان تكون الاخيرة حرفت الى سوبا العاصمة » [٢] أي عاصمة مملكة علوة .

٦ ـ وقد مر بنا قول « شينى » : انه بانهزام « كرنبس » اخر ملك على مملكة النوبة المسيحية امام كنز الدولة سنة ١٣٢٣ م انتهت الدولة المسيحية ، « وصارت البلاد مفتوحة امام العرب ، وانتشر الاسلام بسرعة بزوال العامل الذي كان يقف امام انتشاره» [٣] . وكانت الحدود الجنوبية لمملكة المقرة المسيحية المنهارة هي منطقة الابواب (كبوشية الحالية) وهي الحدود الشمالية لعلوة كما هو نص معاهدة « البقط » [٤] .واذا كان ذلك كذلك فان البلاد التي صارت مفتوحة امام العرب بعد سقوط مقرة كما يقول النص لم تكن سوى مملكة علوة الممتدة من حدود المقرة الجنوبية في

---

(١) Hamilton, j. A. The Anglo-Egyptian Sudan From With in p. 42 .

(٢) الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ٨٢ ، العروبة في السودان ص ١٤ ، الفكر الصوفي ص ٣٦ .

(٣) بلاد النوبة في العصور الوسطى ص ١٠ ، التربية في السودان ١/ ٣٤ اقتباسا من كتاب السمرقندي المفقود ، انظر ماكمايكل : دخول العرب في السودان ص ١٢ ـ ١٣ ، الاسلام والثقافة العربية في افريقية ج١ ، ص ٢٩٨ .

(٤) راجع ص ٢٦ من هذا البحث .

الشمال حتى « القطينة » على النيل الأبيض ، وبعض جهات دارفور وكردفان في الغرب والجنوب ، وحتى حدود السودان مع الحبشة في الشرق كما يدل قول ابن حوقل والمقريزي .[1]

ويعلق الدكتور شبيكة على نص جاء في معاهدة البقط التي وقعت بين المسلمين والعرب بعيد فتح مصر بين النوبة وابن ابي السرح ، يبيح – هذا النص – للمسلمين ان يجتازوا مملكة المقرة جنوبا ويحرم عليهم الاقامة فيها [2] قائلا : ان في اواسط السودان منطقة نفوذ مملكة علوة متسع للجميع ، فالاراضي فسيحة والمراعي متوفرة ، وكلما ذهب فريق تبعه فريق اخر .. ولذلك لم تكن هناك ضرورة لاشتباك او حروب مع مملكة علوة [3] . وهذا يعني ان هجرة العرب الى اراضي علوة بدأت منذ السنوات الاولى لفتح العرب مصر ، وفي نفس الوقت الذي أخذت فيه جماعات منهم تستقر في اراضي المقرة والبجة .

٧ – ومن الامور ذات الدلالة الواضحة على استقرار العرب في مملكة علوة : انشاء العرب لمدينة اربجي [4] سنة (٨٨٠ هـ / ١٤٧٤ م)

---

(١) صور الارض ص ٦١ – ٦٣ ، خطط المقريزي ١٩٣/١ ، وانظر حدود مملكة علوة في :

Crawford, The Fung Rigdom of Sennar, p. 25 .

(٢) راجع ص ٢٦ من هذا البحث .

(٣) تاريخ شعوب وادي النيل ص ٣١٦ ، السودان عبر القرون ص٤٢

(٤) تقع اربجى على الشاطىء الغربي للنيل الازرق ، او الضفة اليسرى منه ويحيط بها النيل من جانبين على شكل قوس ، وهي جنوب شرقي الحصاحيصا الواقعة جنوب خط العرض ١٥ ، وعلى بعد حوالي ميلين منها ، ولا تزال تحتفظ اربجى باسمها القديم وتتبع لمجلس ريفي الحصاحيصا ، وتعتبر اربجى اول مدينة عربية تجارية ادارية في السودان ، اذ يرجع تاريخ انشائها الى سنة ٨٨٠ / ١٤٧٤ م اي قبيل انشاء مدينة « قرى » عاصمة العبدلاب ، وسنار عاصمة الفونج بنحو ثلاثين عاما . فقد قال ود ضيف الله في « طبقاته » ص ٥ : « وخطت مدينة اربجى قبلها – اي سنار – بثلاثين سنة

←

قرب الحدود الجنوبية لمملكة علوة ، وانشاؤها على يد العرب ان صح ـ وهو صحيح ـ يدل على انهم عرفوا معظم اراضي علوة ، اذ هم آتون في معظمهم من الشرق عبر البحر الاحمر فأرض البجة ، ومن الشمال من مصر عبر اراضي مملكة مقرة المسيحية ، لذا فلا بد ـ نظريا ـ ان يكون قد استقر بعض منهم ـ قليل او كثير ـ في الاجزاء الشمالية من مملكةعلوة ، وبخاصة عاصمتها سوبا قبل ان يصلوا الى موقع مدينة اربجى التي أنشأوها

اما الدليل على ان العرب هم الذين انشأوا « اربجى » قبل سقوط مملكة علوة فنستمده من مصدرين : الأول مقروء ، وهو مخطوطة كاتب الشونة التي جاء فيها : « وخطت مدينة اربجى قبلها (أي سنار) [1] بثلاثين سنة ، خطها حجازي بن معين ، وعلى هذا يتضح ان عمارة اربجي في مدة العنج [2] . والثاني : دلالة الاحرف التي يتركب منها اسم اربجى ، ذلك لان هذه الكلمة تعني في اللغة النوبية « بلد العرب » [3] ، « وهذا يؤيد

خطاها حجازي بن معين » ، وظلت مزدهرة حتى خربت في عهد الملك عدلان الثاني تاسع عشر ملوك الفونج في سنار (رحلة مصر والسودان ص ٣٤٣) .

وقد قمت بزيارة لها يوم ٢/٤/١٩٦٩م ، فلم اجد من اطلالها الا ركامات متفرقة هنا وهناك من بقايا او ان فخارية قيل انها من النوع الفونجاوي ـ اي ترجع لزمن مشيخةالعبدلاب ـ ،وبقايا بعض قباب ومشاهد لثلاثة من الفقهاء الاولياء هم : ابو سنينة ، والقاضي دشين ، والقبة الجنوبية القصوى لابي زيد . انظر كراوفورد في : مملكة الفونج في سنار ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(١) خطت مدينة سنار سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م عقب سقوط سوبا .

(٢) احمد ابو علي ، (كان حيا سنة ١٢٥٤ م) : مخطوطة كاتب الشونة ، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل ص ٤ ـ ٥ ، وانظر : ابراهيم عبد الدافع ١٨٨٢ م تاريخ ملوك السودان واقاليمه (مخطوط) ص ٢ . والمقصود بالعنج ملوك علوة .

(٣) قال الدكتور شبيكة : « وحسب تفسير الاستاذ محمد متولي بدر في كتابه : اللغة النوبية » فان اربجى معناها بالنوبية (بلد العرب) مملكة الفونج الاسلامية ص ٢٢ . وقد حدثني الشاطر بصيلي عندما التقيت به في الجمعية التاريخية المصرية سنة ١٩٦٨ عن معنى اربجى بمثل هذا تماما .

تأسيسها في عهد كان سكان البلاد ـ وهم يتحدثون بلهجتهم ـ شاهدوا مدينة تجارية قامت على النيل الأزرق بالقرب من الحصاحيصا الحالية وسموها « بلد العرب » ، ولكن نسبة تأسيسها لحجازي بن معين ـ وهو كما ورد في أخباره نشأ في عهد متأخر ـ يدخل شكا وبلبلة ... ولكني ارجح تأسيسها الى ما قبل قيام دولة الفونج »[1] .

٨ ـ ويستفاد مما كتبه الدكتور حسن ابراهيم حسن ان القبائل العربية عندما استقرت في بلاد النوبة السفلى وبلاد البجة ووجهت بحقيقتين مختلفتين باختلاف المناطق : الاولى ان بلاد النوبة السفلى ليست مما يستطاب البقاء فيه « لانها لا تستطيع ان تعول عددا كبيرا من البدو » بسبب قحطها وجفافها وقلة مراعيها .[2] والثانية « ان الصحراء الشرقية كان يسكنها شعب محارب هو شعب البجة وبعض القبائل العربية التي نزحت اليها منذ وقت بعيد[3] » ، وهذا أمر لا بد ان يترتب عليه احتكاك حربي من نوع ما ، وقد حدث بالفعل نزاع بين عرب جهينة ورفاعة في صحراء عيذاب سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م[4] .

لذلك هجر كثير من العرب هذه المواطن ، وساروا مع النيل « حتى وصلوا الى اقليم المراعي ، ثم اتجهوا نحو الجنوب الغربي أي نحو كردفان، والى الجنوب الشرقي نحو عطبرة والنيل الازرق ثم في الجزيرة »[5] . فلعله يتضح من هذا ان اراضي مملكة علوة كانت هدفا اساسيا لتلك الهجرات .

٩ ـ أجمل الدكتور يوسف فضل عوامل اخرى أدت الى هجرة بعض

---

(١) مملكة الفونج الاسلامية ص ٢٢ ـ ٢٤ .
(٢) انتشار الاسلام في القارة الافريقية ص ١٥٢ .
(٣) انتشار الاسلام في القارة الافريقية ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .
(٤) تاريخ ابن الفرات ٧/٢٢٦ .
(٥) انتشار الاسلام في القارة الافريقية ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .

العرب الذين كانوا قد استقروا في أوطان البجة وبلاد العلاقى واقتتلوا عليها ، ثم زهدوا فيها فتركوها الى ارض علوة فقال : « وبتوقف التعدين، وانتقال طريق قوافل الحج ، وتدهور عيذاب ، واضطراب قوافل التجارة الشرقية توقف النشاط الاقتصادي الذي اعتمد عليه كثير من العرب ، فاضطرت أغلبيتهم الى السير داخل السودان .. حتى بلغوا ارض البطانة، ثم الجزيرة ، وعبر بعضهم النيل الى كردفان . »[1]

١٠ ـ تواترت الروايات التاريخية على ان سوبا عاصمة علوة المسيحية كان سقوطها في اوائل القرن السادس عشر الميلادي على أيدي جماعة من الفنج كانت تقيم اول امرها في جبال « لولو » ، ثم انتقلت منها الى سنار ، وجماعة اخرى من عرب القواسمة ـ وهم من أصل جهني ـ كانوا يقيمون حول سوبا ، وعلى انقاض علوة قامت «قرى » « وسنار »[2] أفلا يلزم ـ عمليا ـ من هذا السقوط الذي احدثه العرب بمملكة علوة انه مسبوق بوصول جماعات عربية كبيرة وكثيفة الى هذه الديار ؟ اعداد عربية من الوفرة بحيث يتسنى لها طبع هذه البلاد بطابع عربي اسلامي يمثل العامل الحاسم في انهاء دولة مسيحية استنفدت اغراضها بتحول اهلها الى الاسلام ؟!

يتبين مما سبق ان استقرار العرب في مملكة علوة المسيحية ،وتدرجهم في الاستيلاء على السلطة الزمنية فيها تم على النحو التالي :

انحدرت الهجرات العربية الى مملكة علوة في الجنوب بعد سقوط مملكة مقرة في الشمال في اوائل القرن الرابع عشر الميلادي ، وانهيار السد المنيع الذي كان يحول دون دخول العرب من طريق وادي النيل [3] وكانت

---

(١) المعالم الرئيسية في الهجرة ص ١٢٠ ، ١٢٨ .
(٢) ستكون هذه الخلاصة موضوع فصل كامل يلي هذا التمهيد .
(٣) المعالم الرئيسية في الهجرة ص ١٢٨ .

أكبر تلك الهجرات قبائل جهينة وقبائل عربية اخرى • وقد انسابت هـذه القبائل الى علوة من طرق اهمها : الطريق الشرقي عبر اوطـان البجـة ، والطريق الشمالي ملاحة في النيل وبحذائه • ويستخلص من صمت المصادر عن ذكر معارك دارت بين العرب المهاجرين وأهل علوة ان تسلل العرب اليها كان سلميا [١] • ولدى وصولها السودان احتلت اراضي مملكـة علوة ، واستقر بعضها بها ــ وبخاصة جهينة ــ في الجزء الاكبر من سهل البطانـة بين النيل الازرق والعطبرة وحتى الحبشة حيث نجد الشكرية وقسم مـن قبيلة رفاعة الجهنية ، كما اقام بعض اخر على شواطىء النيل الابيض ، وفي اقليم الجزيرة (حوض النيل الازرق) • ومدت بعض الجماعات العربيـة هجرتها ــ وخاصة التي قدمت من مصر عن طريق « كورتي » و « الدبة » ــ الى اقليم كردفان ودار فور ، هذا بالاضافة الى الجماعات التي استقرت في صحراء « بيوضة » [٢] •

وهكذا نجد ان التيار العربي لم يقف عند حدود مملكة علوة وحدها، بل تجاوزها الى مناطق عدة من السودان •

ونستطيع ان نتبين المدى الذي وصلت اليه الكثرة العربية في ارض علوة من قول كثير من المصادر السودانية : ان قبائل جهينة وحدها حـول

---

(١) الاسلام والنوبة ص ١٩١ ، ٢٠٢ ، الاسلام والثقافة العربيـة ٢٩٨/١ ــ ٢٩٩ . وانظر : محمد عبد الرحيم ، العروبة في السودان ص ١٦، والريح العيدروسي (دكتور) : تقويم السودان لسنة ١٩٤٩ ، ص ٤٧ .

(٢) الشعوب والسلالات الافريقية ص ٣٢٢ ، ماكمايكل : دخول العرب في السودان ص ٣٠ ــ ٣١ ، الاسلام والنوبة ص ٢٠١ ، الاسلام والثقافـة العربية ج١ ، ص ٢٩٨ .

« سوبا » عاصمة مملكة علوة بلغت اثنتين وخمسين قبيلة .[1]

استقرت هذه الجماعات العربية « على شكل مجموعات متفرقة تحت سلطان ملوك علوة ، محافظة على نظامها القبلي ، ولا بد أنهم كانوا يدفعون أتاوة لملوك علوة »[2] ويفهم من نص ذكره واحد من أحفاد الشيخ عبدالله جماع مؤسس دولة العبدلاب ان الشيخ عبدالله هذا (حكم من ٩١٠ — ٩٧٠ هـ) هو الذي كان يتولى — في هذا الابان — جمع الاتاوات من العرب ويدفعها لخزينة مملكة علوة — فقد جاء في مخطوط هذا الحفيد ما نصه : « ولقد كان الشيخ عبدالله جماع مقدما على العرب يدفع خراجهم للنوبة المسيحية » . وجاء في موضع اخر من المخطوط : « فتجمعوا (أي العرب) تحت امرة رجل منهم يدعى عبدالله بن محمد الباقر ، وكان صاحب الرأي في العرب والمشورة ، والوسيط بين النوبة والعرب في كل الشؤون »[3]

« ولم يحاول المهاجرون انتزاع السلطان من الاسرات الحاكمة المحلية بقوة السيف ، بل تركوا الامر ليأخذ طريقه العادي ، وشغلوا انفسهم بتوطيد اقدامهم في الارض الجديدة موضعا موضعا ، فمنهم من اشتغل بالزراعة وممارسة الحرف في المدن وفي مواطن الخصب ، واختلط بذلك

---

(١) دار الوثائق المركزية : متنوعات ١ — ١٦ — ١٨٤ ، اوراق نسب جمعها محمد بن الحاج علي بن دفع الله ، نسخة ابراهيم حاج محمد عن : انساب العرب ص ١٩ ، نسخة جعفر حسان في الانسان ص ١٨ ، وانظر ماكمايكل : Ahistory of the Arabs in the Sudan, 1 , p . 238 .

(٢) الاسلام والنوبة ص ٢٠٢ ، الاسلام والثقافة العربية في افريقية ج١ ص ٢٩٨ .

(٣) الشيخ عثمان اونسة : تاريخ مشيخة العبدلاب مخطوط بيده ، ص ٦ ، ١٢ .

مع السكان اختلاطا كاملا » [١] ، ومنهم من استهواه ان يسبح في الصحراء وراء ابله طلبا لمواطن الرعى انى كانت ، ومنهم من نقل التجارة على ابله عبر الطرق الصحراوية بين النيل وموانىء البحر الاحمر ومصر والمناطق المجاورة . [٢]

كذلك لم يحاول هؤلاء العرب ان يقوموا بعمل جماعي مباشر يهدف الى نشر الدين الاسلامي بين السكان ، « بل اكتفوا بمساكنة السكان الاصليين كل على دينه» الى ان انتشر بينهم بالتدريج بعد المعايشة والمصاهرة والاختلاط[٣] ، بل ان العرب لم يطالبوا بحكم ذاتي ، او مملكة خاصة ، « ولكن كانت لهم احياؤهم الخاصة في المدن الكبيرة ، ولهم قراهم الخاصة » . [٤]

بيد ان هذا لم يكن في حقيقة الامر الا الخطوة السابقة لاستيلاء العرب على السلطة ، اذ ما كادت شوكتهم تقوى بوصول هجرات جديدة على مر السنين حتى اشرأبوا بأعناقهم الى ما لم يكن لهم فيه اي مطمع ،هنا فقط ادرك ملوك علوة مبلغ ما تردوا فيه من اخطاء ، ولم يكن من المستطاع ـ عندئذ ـ مدافعة العرب او صدهم ـ كما يقول ابن خلدون ـ بسبب ما اصاب المملكة حينئذ من انقسام وما اعتراها من ضعف ، نتيجة حروبها مع المقرة من جهة ، وغارات الزغاوة الاتية من « برنو » عبر دارفور من

---

(١) الشاطر بصيلي : معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٥٠ ، وانظر مكي شبيكة : مملكة الفونج الاسلامية ص ١٦ ـ ١٧ .

(٢) معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٥٠ .

(٣) مملكة الفونج الاسلامية ص ١٩ ، الاسلام والثقافة العربية ج١ ، ص ٢٩٨ .

(٤) مملكة الفونج الاسلامية ص ١٩ .

جهة ثانية ، فلم يكن بد من الاصهار الى زعماء جهينة وغيرهم .[1]

وهكذا انتقل الملك « لبعض ابناء جهينة من امهاتهم على عادة الاعاجم في تمليك الاخت وابن الاخت ، فتمزق ملكهم، واستولى اعراب جهينة على بلادهم » .[2] ومن ثم استولى العرب الجهنيون على الممالك الصغيرة التي كانت تتألف منها « علوة » وكانت خاضعة للملك الكبير في سوبا[3]، ثم تلى ذلك استيلاؤهم على العاصمة « سوبا » نفسها على ما يأتي بيانه في الفصل التالي .

---

(١) الاسلام والثقافةالعربية في افريقية ج١، ص ٢٩٩ ،الاسلام والنوبة ص ٢٠٢ ومعالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٤٩ .

(٢) ابن خلدون : العبر : ج ٥ ، ص ٩٢٢ ــ ٩٢٣ .

(٣) الاسلام والنوبة ص ٢٠٢ وهذه الممالك الصغيرة هي : بارة ــ التاكة ــ كدروا ــ دنقوا ــ اری ــ بغال ــ الانج ــ كرسة .انظر مخطوط تاريخ قلاون ج٢ ص ٢٩٣ (أ) والاسلام والثقافة العربية في افريقيا ج١ ، ص ٢٧٨ .

الباب الاول

سقوط سوبا وقيام قرى

الفَصْل الأوّل

سقوط سوبا ، ودور العبدلاب فيه

سوبا : عاصمة علوة المسيحية[1]

رأينا في التمهيد كيف استقر العرب بتزايد في مملكة علوة المسيحية حتى استولوا على السلطة في أقاليمها المختلفة الواحد بعد الآخر . وفي هذا الفصل نتحدث عن زحفهم على عاصمة علوة ذاتها (سوبا) واستيلائهم عليها ، وقيام مملكة العبدلاب على أنقاضها .

موقع سوبا : مملكة علوة هي إحدى الممالك المسيحية الثلاث التي قامت في السودان الشمالي في العصور الوسطى [2] ، وتقع عاصمتها سوبا على الضفة

---

(١) تقديم معلومات موجزة عن مملكة علوة أمر تقتضيه ضرورة كونها قد غدت بعد سقوطها جزءاً من مشيخة العبدلاب .

(٢) بعد سقوط « مملكة مروى » في القرن الرابع الميلادي على يد ملك أكسوم الحبشي : « عيزانا » قامت ثلاث ممالك نوبية :

أ) كانت في الشمال بين الشلال الأول والثالث ، وتدعى مملكة « نوباديا » أو المريس وعاصمتها « فرس » .

ب) ومن الشلال الثالث حتى السادس عند « قرى الأبواب » كانت مملكة المقرة وعاصمتها : دنقلا العجوز .

جـ) وفي حدود المقرة الجنوبية هذه وما يليها قامت مملكة علوة (خطط المقريزي ج ١ ، ص ١٩٢ ، وترمنجهام : الاسلام في السودان ص ٤٩ ، مملكة الفونج الاسلامية ص ٧ - ٨ ، شيني : بلاد النوبة في العصور الوسطى ص ٢ - ٣ ،تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٢٥ - ٢٦) وقد رجح شيني (بلاد النوبة ص ٦) أن الوحدة السياسية بين المقرة ونوباديا تمت فيما بين ٦٥٠ - ٧١٠ م على أن المؤكد أنه عندما غزا المسلمون أرض النوبة بعد فتح مصر كانت هناك مملكتان نوبيتان لا ثلاث ، الأولى - بنص عهد الصلح الذي كتب بين المسلمين والنوبة بعد حملة ابن أبي السرح عليهم سنة ٦٥٢ م - تمتد من أسوان الى حد أرض علوة . والثانية تليها جنوباً وهي مملكة علوة ،ولا ذكر لدولة نوباديا مما يدل على وحدتها مع المقرة.(خطط المقريزي ١/ ٢٠٠ ،) (الاسلام والنوبة ٧٢ - ٧٣) .

اليمنى للنيل الأزرق على بعـد نحو عشرة أميال جنوبي شرقي الخرطوم [١] .
وهي الآن عبارة عن أكوام رملية ، « فوقها قطع من الطوب الأحمر، وشظايا الفخار التي يرجع تاريخ بعضها إلى عهد مدينة مروى التي ازدهرت قبل الدور المسيحي . أما الآثار الظاهرة اليوم فهي أعمدة من حجر الصوان وقد سقط أحد تيجان الأعمدة وعليه صليب قبطي مما يدل على أنه أثر كنيسة » [٢] .

٢ – موجز تاريخها قبل سقوطها :

ذكرت علوة – التي تطلق دائماً ويراد بها عاصمتها سوبا – لأول مرة في التاريخ في القرن الرابع قبل الميلاد [٣] .

وذكر « ان بلقيسا ملكة سبأ ولدت ولداً ، ولخوفهـا عليه بعثته إلى السودان ، فربي بمدينة سوبا التي كان اسمهـا « سبأ » وحرف الاسم لتقادم العهد » [٤] .

وجاء في بحث للدكتور عبد المجيد عابدين « إن سوبا التي تقع قريبـاً من الخرطوم هي بلد أسسه عرب الآرميين الذين هاجروا من مصر قبـل ميلاد المسيح ببضعة قرون » [٥] .

---

(١) ف. أديسون : الدليل الموجز الى مخلفات السودان الانجليزي المصري التاريخية (معرب) (ص ٢٦) وتعرف هذه العاصمة دائماً بسوبا الشرقية تمييزاً لها عن سوبا الغربية التي تقع على الضفة الأخرى للنيل .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) P. L. Shinnie, F. S. A Exavation at Soba. PP. 11 - 12.

وقد جاء ذكرها كذلك في بعض مؤلفات المؤرخين المسلمين ، فذكرها اليعقوبي في : (البلدان ص ٣٣٥ – ٣٣٦) ، وابن حوقل : (صورة الأرض ص ٦١ – ٦٢) . ابن الفقيـه : (كتاب البـلدان ص ٧٨) ، الدمشقي : (نخبة الدهر ص ٢٦٨) ، المقريزي : (خطط ج ١ ، ص ١٩٣) .

(٤) محمد عبد الرحيم : العروبة في السودان (ص ١٤) .

(٥) دراسات سودانية (ص ٢٣) .

وقال الدكتور عبد القادر محمود : « أما المملكتان الكبيرتان اللتان كانتا في السودان فهما مملكة علوة في الجنوب وعاصمتها سوبا ، ولعل لهذه العاصمة ارتباطا حضاريا بحضارة سبأ اليمنية القديمة ، ومن هنا كان نقل الاسم محرفا » . (١)

وقد أشرنا في مناسبة سابقة الى احتمال «دي فيار» القائل بعبور جماعات حميرية للبحر الأحمر ، واستقرارها في السودان ونقل أسماء أجدادها معها مثل : «كوة» و «سبأ» التي حرفت الى سوبا العاصمة . (٢)

وعندما بدأ تسلل العرب السلمي للسودان كانت سوبا تتخذ النصرانية دينا ، تقول مرجريت شيني :

«أرسلت ثيودورا امبراطورة بيزنطة بعوثا تبشيرية الى السودان في سنة ٥٤٠ م لدعوة الناس الى اعتناق المسيحية فنجحوا في رسالتهم . وفي وقت قصير نشأ في السودان دولتان قويتان دينهما الرسمي المسيحية » (٣) وهاتان الدولتان هما : مملكة المقرة في الشمال ، وعلوة في الجنوب .

«وفي عام ٥٨٠ م خلف لونجينوس المبشر الأصلي القسيس جوليان وذهب من نوباتيا لتنصير أهل علوة بطلب من ملك نوباتيا (٤) وقد لاقى من الصعاب في سفره بسبب ذلك (٥) ما اضطره لترك طريق النهر وسلوك الطريق البري

---

(١) الفكر الصوفي في السودان (ص ٣٦) . (٢) أنظر (ص ٥٨) من هذا البحث .

(٣) موجز لتاريخ السودان (ص ٨) ، وأنظر : التربية في السودان (١/ ١٠) ، الاسلام والنوبة (ص ٥٦ — ٥٨) ، معالم تاريخ السودان (ص ٥٢) .

(٤) جاء في : « بلاد النوبة في العصور الوسطي ص ٤ » ان سفر لونجينوس لعلوة كان بناء على رجاء قدمه ملكها لملك نوباتيا ليعلم الناس الانجيل .

(٥) أي بسبب الأوامر التي أصدرها الامبراطور جستنيان صاحب البعثة التبشيرية الأخرى التي تدعو لمذهب مسيحي مخالف لمذهب بعثة زوجته « ثيودورا » هذه .

(أنظر Exavation at Soba PP. 11 - 12.) وكذلك : بلاد النوبة في العصور الوسطى ص ٤ ، السودان عبر القرون (ص ١٥ — ١٦) .

عبر الصحراء الشرقية تحت حماية ملك بليمس (ملك البجة) . واستعمل البدو للتغلب على مراقبي ملك المقرة الى أن قابله ممثل ملك علوة ... وقد نجح لونجينوس في مهمته »[1]

« وهكذا صارت المسيحية الدين الرسمي للسودان الشمالي في سنة ٥٨٠م»[2]

أما عن المذهب المسيحي الذي كان سائداً قبيل فتح العرب لعلوة فقد ذكر المسعودي ما يفهم منه انه مذهب اليعاقبة . قال :

« والغالب على نصارى مصر ... وما يليها من أرض النوبة والأحباش رأي اليعقوبية »[3] ، ونص ابن الفقيه[4] أيضاً على أن أهل علوة يعاقبة ، أما مملكة المقرة فقد ساد فيها مذهب الملكانيين[5] .

تدلنا النصوص التي أوردناها آنفاً على جملة حقائق منها :

١ - كانت سوبا عاصمة مملكة علوة ، منذ انشائها قبل بضعة قرون سابقة لميلاد المسيح وحتى القرن السادس الميلادي ، وثنية ، مما حمل ملكها أن يطلب من القس الذي أرسلته « ثيودورا » أن يأتي الى علوة ليعلم الناس الإنجيل .

٢ - بينما أصبحت مملكة النوبة الشمالية «المقرة» تدين بالمذهب الأرثوذكسي

---

(١) Exavation At Soba, PP. 11 - 12.
وأنظر : بلاد النوبة في العصور (ص ٤) ، السودان عبر القرون (ص ١٥ - ١٦) .
(٢) بلاد النوبة في العصور الوسطى .
(٣) التنبيه والاشراف (ص ١٥١) (ليدن ١٨٦٧ م ، نشر دي غويه) .
(٤) مختصر كتاب البلدان (ص ٧٧) ، وأنظر: السودان عبر القرون (ص ١٥ - ١٦).
(٥) السودان عبر القرون (ص ١٦) وأنظر :
Exavation At Soba, P. 12,

مذهب الامبراطور البيزنطي « جستنيان » ، كانت مملكة علوة قد تنصرت على مذهب اليعاقبة الذي اضطلعت بعبء نشره في النوبة الامبراطورة ثيودورا زوجة جستنيان . وعلى هذه الحال وجدهـا العرب المسلمون ومنهم شعبة العبدلاب .

هذا وقد وصف ابن حوقل « مملكة علوة » هذه وصفاً يدل على عمرانها وازدهارها في عهده فقال : « ومن أعمر بلادهم نواحي علوة ، وهي ناحية لها قرى متصلة ، وعبارات مشتبكة ، حتى أن السائر ليجتاز في المرحلة الواحدة بقرى عدة غير منقطعة الحدود ، ذوات مياه متصلة بسواق من النيل ، وكان ملكهم ـ وأنا بالناحية ـ « أسابيوس كرجوه جوتي » وقد خلا له في ملكه سبع عشرة سنة ... وطول بلده من ناحية المقرة الذي هو آخر ملك دنقلة في طاعة العلوي الى بلد كرسي آخذاً على النيل ، ومسافة ذلك بالطول شهر واحد ، وعرضه من النيل الى «تفلين» يكون ذلك ثماني مراحل مشرقة»[1].

٣ ـ **ولايات علوة وحدها** : كانت مملكة علوة تضم عدداً من الولايات التي يحكمها نواب عن الملك أهمهم والي الأبواب، وله من المكانة مثلما «لصاحب الجبل » في مملكة مقرة [2] ، وقد ذكر المقريزي أن حد علوة من ناحيـة الشمال عند قرى تعرف « بالأبواب »[3] وهي جزء من علوة ، ولكن المصادر لا تنبئنا ـ على التأكيد ـ عن حدود لهذه المملكة من الشرق والغرب والجنوب، سوى أن ابن حوقل ذكر ـ وقد مر ـ أنّ طولها نحو شهر ، وعرضها ـ ما

---

(١) صورة الأرض (بيروت) (ص ٦١) .

(٢) الاسلام والثقافة العربية في افريقيا (ج ١ ، ص ٢٨١) .

(٣) خطط المقريزي (ج ١ ، ص ١٩٢) وقد رأى كروفورد في : مملكة الفونج في سنار (ص ٢٤) ان الأبواب هي كبوشية الحالية .

بين النيل وحدودها الشرقية ـ ثماني مراحل[١] . وذكر في موضع آخر كلاماً يفهم منه أن حدودها الشرقية تمتد حتى بلاد الحبشة [٢] . وجـاء المقريزي بعده فذكر أن بعضاً من سكان علوة يقيمون في جهاتها الشرقية ، ثم قال بعد ذلك : « وبعد هؤلاء أول بلاد الحبشة »[٣] ممـا يؤكد امتدادها إلى هناك .

أما مخطوط تاريخ قلاون [٤] فقد ذكر بعض الأقاليم التابعة لعلوة ومنها: باره ـ التاكة ـ كدروا ـ دنفوا ـ آوى ـ بغال ـ الأنج ـ كرسه ، إلا أننا باستثناء « بارة » التي قد تكون لهـا علاقة بالمدينة الموجودة حالياً في غرب السودان ، وتتبع لمديرية كردفان ، وتعرف بهذا الاسم ، « والتاكة » التي هي الآن جزء كبير من مديرية السودان الشرقية : كسلا ـ لم نهتد الى معرفة شيء عن هذه الأقاليم .

« وعلى كل حال فالراجح أن مملكة علوة امتدت من « الأبواب » شمالاً الى « القطينة » على النيل الأبيض جنوباً ، وشملت جهات الأتبرا ، والنيل الأزرق حتى حدود الحبشة شرقاً،وبعض جهات دارفور و كردفان غرباً»[٥].

مما سبق يتبين أن مملكة علوة ـالتي أصبحت فيما بعد مشيخة العبدلاب ـ سيطرت على منطقة واسعة من السودان ، وعاشت حقبة طويلة من تاريخـه امتدت من القرن الرابـع قبل الميلاد الى السادس عشر الميلادي حين سقطت على أيدي العبدلاب . وقد يجوز أن نفترض أن موقعهـا من السودان ومن

---

(١) صورة الأرض (بيروت) (ص ٦١) .
(٢) نفس المصدو (ص ٦١ – ٦٣) .
(٣) خطط المقريزي (١/١٩٣) .
(٤) مجهول المؤلف ، وقد نسب بأخرة لابن عبد الظاهر ، (ج ٢ ، ص ٢٩٣ أ ، ب).
(٥) Crawford, O. G. S. The Fung Kingdom of Senner, P, 25,
وأنظر : مرجريت شيني : موجز لتاريخ السودان (ص ٨) .

أفريقيا على العموم ، وما قد يترتب عليه من اتخاذها مركزاً للتبشير بالدين المسيحي في أفريقيا كان السبب الأساسي الذي نبه العبدلاب الى خطورتها ، وحملهم على السعي لإسقاطها .

أسباب ضعف سوبا وسقوطها :

أ) أسباب الضعف :

تضافرت عدة عوامل أدت لإضعاف سوبا ، ثم سقوطها في أيدي العبدلاب. ومن أهمها :

١) النزاع المستمر بين مملكة علوة وجيرانها في المقرة والحبشة والزغاوة.

ففي مخطوط تاريخ قلاون أن «أدور» ملك الأبواب أرسل سفراءه الى السلطان قلاون سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٧ م يعوضون عليه شكوى ملك الأبواب مما يلاقيه من ملك دنقلا ، وأن السلطان أوفد مبعوثيه الى مواطن النزاع لتقصي الحقائق [١] . كما أن ملك الأبواب نفسه شكى من تعرض بلاد الأنج – وهي تتبع لمملكة علوة كما مر – لغزو أمير أجنبي ، رجح مصطفى مسعد أنه أمير الزغاوة . [٢]

٢) تكاثر القبائل العربية في السودان عموما ، وأرض علوة على الخصوص ، ثم استيلائها على أقاليم المملكة بعد الإصهار الى البيت المالك .

فقد ذكرت روايات أحفاد العبدلاب الأوائل – الذين ملك أجدادهم

---

(١) منسوب لابن عبد الظاهر (ج ٢ ، ص ٢٩٠ ، ٣١٠)، وأنظر : معالم تاريخ سودان وادي النيل (ص ٤٥ – ٤٦) ، الاسلام والنوبة (ص ١٨٣ – ١٨٤) .

(٢) الاسلام والنوبة (ص ١٨٤) (امتدت مملكة الزغاوة حسبما ورد في المهلبي من بحيرة تشاد في الغرب الى أطراف النوبة في الشرق . (هامش نفس الصفحة) .

علوة ـ عن سبب سواد أجسامهم أن أجدادهم الأوائل كانوا بيضاً حين وفدوا من الحجاز ، ولكن زواجهم من النوبة في سوبا وهم سود ، واختلاطهم بهم نقل السواد الى أجسامهم فصاروا سودا [١] . فالعبرة في هذه الرواية ما تدل عليه من حدوث تزاوج بين العرب الوافدين وأهل البلاد الأصليين في سوبا ، وهذا يؤيد ما ذهب إليه ابن حوقل وابن خلدون من أن سبب انتقال الملك لأبناء جهينة في السودان ـ ومنهم العبدلاب ـ كان من المصاهرة والاختلاط بين ملوك علوة والمقرة من جهة ، والعرب الوافدين إليها من جهة ثانية [٢] .

٣) قطع العلاقات الدينية بين الكنيسة المصرية في الاسكندرية، وكنائس النوبة في علوة منذ وفاة أسقف النوبة البطريرك «سيريل» سنة ١٢٣٥ م . فقد صعب ارسال أساقفة يخلفونه منذ ذلك الحين بسبب الحروب التي كانت دائرة بين القبائل العربية في مملكة مقرة ، ثم تضاعفت الصعوبات بسقوطها [٣] . فأحدث هذا الانفصام الروحي أثراً خطيراً في حياة سكان «علوة» المسيحيين الدينية على نحو ما ذكره الفاريز فيما نقل عنه مكي شبيكة حين قال : «أما فرنسسكو الفاريز فهو يكتب ما ترامى إليه من أخبار علوة عندما كان البرتغاليون في المحيط الهندي والبحر الأحمر . يقول : إن أولئك النوبيين يجهلون دينهم ، فلا هم بالمسيحيين ، ولا هم بالمسلمين أو اليهود ، ويقال إنهم كانوا على النصرانية ، غير أنهم فقدوا دينهم ولم تبق لهم عقيدة ، وهم يعيشون بأمل أنهم مسيحيون » [٤]

---

(١) أحمد عبد الرحيم نصر : تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية (ص ١٠١) .

(٢) أنظر التمهيد (ص ٤٦ ، ٤٧) ، وأنظر كذلك : مكي شبيكة في : مملكة الفونج الاسلامية (ص ٢١) .

(٣) موجز لتاريخ السودان (ص ٩) ، وحسن محمد الفاتح : التصوف في السودان الى نهاية عهد الفونج (ص ٢١ - ٢٢) ، والاسلام والنوبة (ص ١٨٥ - ١٨٦) .

(٤) مكي شبيكة : مملكة الفونج الاسلامية (ص ١٨) ، ولم يدلنا شبيكة على كتاب الفاريز هذا جرياً وراء عادته في عدم ذكر مراجع في آخر كتبه ، ولم يثمر جهدنا في معرفته .

ب) السقوط وأسبابه :

في وقت لم تحدده المصادر ، لكنه ـ على أية حال ـ لا يتأخر عن القرن الخامس عشر الميلادي عقب سقوط مملكة المقرة المسيحية ، وتدفق الهجرات العربية عن طريق النيل جنوباً ـ قامت ممالك ومشيخات صغيرة من القبائل العربية التي اختارت كل منها ـ من أرض السودان ـ ما يتناسب مع بيئتها الأولى ، بالقدر الذي قدمته الظروف المحلية في الوطن الجديد ، وأخذت الزعامات القبلية العربية في تكوين ديارها التي أخذت في التوسع بانضواء المجموعات القليلة العدد الضعيفة الجانب في حمى هذه القبيلة أو تلك، وتمكنت الزعامة العربية من السيطرة الكاملة على مصير الوطن الجديد في مختلف مناطقه الاقليمية في البادية وفي الحضر وفي الريف » [١] .

امتدت هذه الممالك والمشيخات [٢] على ضفتي النيل الأعظم من الشلال الثالث تقريباً في الشمال حتى مدينة أربجي – وما بعدها بقليل في الجنوب، ومنها قام – فيما يراه بعض الباحثين – الحلف السناري الذي عد السبب المباشر لسقوط مملكة علوة ، قام بين الفونج وبين هذه الممالك والمشيخات تحت زعامة الشيخ عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة . على حين رأى البعض الآخر أن طرفي الحلف هم الفونج وعرب القواسمة وحدهم بقيادة جماع ، وأن هذه الممالك والمشيخات ضمت لسلطان العبدلاب بعد سقوط علوة وقيام قرى وسنار ، وأصبحت الوحدات الادارية لمشيخة العبدلاب . وأنكر فريق ثالث أن تكون « سوبا » قد سقطت نتيجة حلف بين الفونج والعبدلاب من أي نوع كان . وهذه خلاصة الآراء :

---

(١) معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٤٩ ، أنظر : محجوب زيادة : الاسلام في السودان (ص ٣٥ – ٣٦)، عبدالله حسين: السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية (٤٧/١).
(٢) سنذكرها بالتفصيل في باب : نظم الحكم والادارة .

رأي الفريق الأول :

أبنا فيما سبق انتشار عرب القواسمة – ومنهم شعبة العبدلاب – في كثير من أقاليم مملكة علوة بخاصة الرقعـــة الممتدة بين مدينة أريجي في الجنوب والشلال السادس في الشمال بما في ذلك عاصمة المملكة المسيحية سوبا نفسها . وقد ساعد هذا الانتشار العبدلاب بقيادة زعيمهم عبد الله جماع على الالمـــام بحالة الضعف والتدهور اللذين ترديت فيها علوة ، ثم تحسس رغبات العرب – قواسمة وغيرهم – التي تمثلت في الثورة على حكم العنج [1] والتخلص منه ، بهدف إقامـــة حكم عربي اسلامي على أنقاضه بعد توفر كل الظروف المواتية لذلك [2] .

وقد عزا الدكتور يوسف فضل أسباب هـــذه الثورة التي جعلت العرب يقررون اسقاط سوبا الى عاملين اثنين :

---

(١) العنج هم : ملوك ورعايا دولة علوة المسيحية التي كانت عاصمتها سوبا ، وفي أصلهم يقول الدكتور شبيكة : « أما العنج فهو لفظ يطلقه السكان في السودان على المجتمع الذي كان قائماً قبل تأسيس دولة الفونج على حوض النيل وكردفان » (مملكة الفونج الاسلامية ص ٢٤ ، وأنظر : مخطوطة كاتب الشونة هامش ٤ – ٥) .

ويذكر آركل أن لفظ العنج يدل على سكان السودان قبل دخول العرب ، ويرى أن لهم علاقة بالطوارق المعروفين في شمال افريقيا ، ويزعم – ترجيحاً – أن أصل الطوارق يرجع الى بعض فروع القبائل ذوات الابل بالسودان (راجع : مقترحات لبعض طرق البحث العلمي في السودان (معرب ص ١١) .

وأنظر : السودان عبر القرون (ص ١٨) ، وما كما يكل في :

A Histroy of The Arabs in The Sudan, vol, I, PP, 40 - 51,

(٢) واضح البيان (ص ١ – ٢) ،

السودان في رسائل ومدونات (مج ١٧ ، ص ٦٠ – ٦١) ،

تاريخ مشيخة العبدلاب (ص ٦) ،

ما كايكل : دخول العرب في السودان (معرب ص ٣٢) .

أحدهما :

تذمرهم – كمسلمين – من كونهم أصبحوا كثرة ومع ذلك يحكمون بواسطة ملوك مسيحيين .

ثانيهما :

الضغط الاقتصادي الذي تمثل في دفع الضرائب للمملكة المسيحية ، ثم الضغط السياسي الذي حملهم على اطاعة قوانين علوة . وقال : ان هذين هما السببان اللذان جعلا العرب يهربون من حكام المماليك القساة [1] . لهذا دعا عبد الله جماع العناصر العربية للوحدة ، فلبت الدعوة ، واتحدت مع عرب القواسمة والعبدلاب بزعامته ، وهو الذي امتاز بثقابة الفكر، وسداد الرأي، وقوة الشكيمة ، والغيرة الدينية ، ومن هنا أطلق عليه « جماع » بسبب جمعه هذا لمختلف القبائل [2] .

وبعد أن نجح في توحيد القبائل العربية التي كانت تقيم حول « سوبا » وأيقن بصدق عزمها على حرب العنج رأى أن يستعين بقوة عسكرية قائمة بالفعل ومنظمة وتعتنق الإسلام ، تلك هي قوة الفونج الذين كانوا قد أسسوا في وقت سابق مملكة لهم في « لولو » ثم انتقلوا بها الى « جبل موية » الكائن غربي مدينة سنار ، وعلى بعد ثمانية أميال من الروصيرص [3] .

---

(١) Yousuf Fadl, The Arabs and The sudan, P, 133,

(٢) الأرباب الحسن بن شاور: واضح البيان (ص ١ – ٢) ، السودان في رسائل ومدونات (فج ١٧ ، ص ٦٠ – ٦١) دخول العرب في السودان (ص ٣٢) ، تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية (ص ١٥). (في هذا الأخير تفصيل لسبب تسمية عبدالله بجماع وللقبائل التي جمعها) .

(٣) أنظر : تاريخ ملوك السودان (ص ١) ، وأنظر : ابراهيم مصطفى عربي في جريدة الثورة السودانية ، العدد (٥١٦) بتاريخ ١٥/٦/١٩٦٢ بحث عنوانه : شخصيات وقبائل من التاريخ .

وتشير رواية سماعية [١] الى أن عبد الله جماع شرع في مراسلة رئيس تلك القوى « عمارة دونقس » ليبلو أخباره، وليرى امكانية عقد اتفاق بين الفونج وعرب القواسمة ومن اتحد معهم للقضاء على ملوك سوبا أو عدمها [٢] . ويبدو أن عبد الله جماع وجد من ملك الفونج قبولاً وتشجيعاً ، لهذا نراه يشد اليه الرحال ، ويجتمع به في عاصمة ملكه « بجبل مويه » [٣] ، وهناك يعرض عليه – كما تدل قرائن الأحوال– حال مملكة علوة وحال السكان بها، وكيف أنها تعيش في تدهور واضطراب ، والى أي مدى سيطر العنصر العربي عليها فأصبح سقوطها من أيسر الأمور [٤] .

أمام هذه المغريات لم يجد عمارة دونقس – وهو حاكم مسلم – ما يمنعه من قبول ما عرض عليه . وهكذا تم الاتفاق بين الرجلين « على محاربة النوبة وهم ملوك العنج ملوك سوبا وملوك القرى [٥] »،وقام ما عرف في تاريخ السودان الوسيط « بالحلف السناري » ، طرفه الأول عرب القواسمة بقيادة عبد الله جماع ، وطرفه الثاني الفونج بقيادة عمارة دونقس . والى ذلك يشير الشيخ ابراهيم بن عبد الدافع بقوله : « وانتقل الفونج من جبال الجنوب الى جبل مويه ... وكان كبيرهم عمارة دونقس ، وفي جوارهم قبيلة من عرب جهينة تعرف بالقواسمة وعليها شيخ شديد البأس يقال له عبد الله جماع، فاتحد عمارة

---

(١) صاحبها الشيخ عثمان أونسه كبير العبدلاب الآن .

(٢) ما كايكل : (دخول العرب في السودان ص ٣٢) .

(٣) تاريخ ملوك السودان (ص ١) ، مخطوطة كاتب الشونة (ص ٦) ، تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ٥ – ٦) .

(٤) السودان في رسائل (مج ١٧ ، ص ٦٠ – ٦١) ، واضح البيان (ص ٢) ، تاريخ مشيخة العبدلاب (ص ٦) .

(٥) تاريخ ملوك السودان (ص ١) ، وأنظر : مخطوطة كاتب الشونة (ص ٦ – ٧) ، تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ٥ – ٦) ، تاريخ مختص بأرض النوبة (ص ٢) ، السودان في رسائل (مج ١٧ ، ص ٦١) ما كايكل:تاريخ العرب في السودان (ج ٢،ص٣٥٨).

وعبد الله المذكوران على ضم كلمة المسلمين ومحاربة النوبة ... فحشدا الجيوش وهاجما العنج في سوبا » [١] .

من دراسة هذا النص يظهر أنه لم يشر – في أية جملة من جمله – الى تحالف قام أولا بين حكومات القبائل العربية التي مر ذكرها وبين العبدلاب ثم تلاه تحالف هؤلاء جميعاً مع الفونج – على نحو ما يراه بعض الباحثين وسيأتي – ، وإنما النص صريح على أن التحالف إنما تم بين عرب القواسمة بقيـــادة عبدالله جماع ، وبين الفونج بقيادة عمارة أو عميرة دونقس . وقد ساند هـذا الرأي عدد من الباحثين المحدثين منهم : ماكايكل ، ومحمد عوض ، وعبـــد العزيز عبد المجيد ، ومصطفى مسعد ، وحسن احمد محمود ، ومندور المهدي . [٢] ويكفي أن نورد نصاً واحداً لمندور المهدي نظنه يمثل تمثيلا واضحاً وجهـة نظر الآخرين يقول :

« فالثابت أنه في أوائل القرن السادس عشر حوالي سنة ١٥٠٥ م تحالفت قبيلة القواسمة العربية – التي كانت تحوم حول اقليم الجزيرة تبحث عن وطن – مع الفونج على أن يقضوا على دولة علوة المسيحية التي كانت تلفظ أنفاسهـــا الأخيرة ، وكان على رأس قبيلة القواسمة شيخ يدعى عبدالله جماع ... وكان

---

(١) هذا النص نقله نعوم شقير . كتابه : جغرافية وتاريخ السودان (٣٨٦/٢) من نسخة لم أعثر عليها ، غير ان النسخ المعروفة من هذا المخطوط يتفق محتواها – لاألفاظها – تماماً مـــع هذا النص (انظر : تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ٥ – ٦) ، مخطوطة كاتب الشونة (ص ٦ – ٧ ، ١٢٩) ، تاريخ ملوك السودان (ص ١) ، تاريخ مختص بأرض النوبة (ص ٢).

(٢) مؤلفاتهم على التوالي هي : A Hist.of The Arabs, Vol, I, P, 245,

وانظر نفس المؤلف في : دخول العرب في السودان (معرب) (ص ٣١ – ٣٢) السودان الشمالي (ص ٢٥٢) ، التربية في السودان (٣٥/١ – ٢٨)، الاسلام والنوبة (ص ٢٠٦)، الاسلام والثقافة العربية (٣١٦/١ – ٣١٧) ، السودان من أقدم العصور الى قيام الأحزاب (ص ٦٢ – ٦٤) .

في الجانب الآخر على رأس الفونج عمارة دونقس ويظن أنه كان ملكاً للفونج » [١] .

وعن حكومات القبائل وبداية صلتها بدولة العبدلاب يقول في موضع آخر من نفس المصدر : « وقد وكل الى عبدالله جماع إخضاع القبائل القاطنة شمالي المنطقة المفتوحة ، وعلى جانبيها لسلاطين الفونج ، وادارتها نيابة عنهم » [٢] .

واضح من هذا أن إخضاع حكومات القبائل في الأقاليم إنما تم بعد فتح سوبا على يد عبدالله جماع ومن عاونه . «ثم أخذت الدولة تتوسع في بقية أجزاء السودان ، فضم مشايخ «قرى» منطقة شندي ، ونصبوا الرئيس المحلي حاكماً من قبلهم ومن قبل سلاطين الفونج ، كما تقدموا شمالاً حتى دنقلا وأدخلوا الشايقية في ملكهم لفترة لم تطل » [٣] .

إن النصوص التي أثبتت في الفقرات السابقة من وضوح الدلالة على حصر عناصر الحلف السناري في عرب القواسمة بزعامة عبدالله جماع ، والفونج بقيادة عمارة دونقس ، بحيث لا أحتاج الى شرح واستنتاج . وفيها أيضا الدلالة الكافية على أن سقوط سوبا إنما حدث نتيجة لهذا التوافق بين الحليفين. وكان هذا الحلف قد قام على شروط منها :

١) أن يقود عبدالله جماع الجيش ، ويمده حليفه عمارة بالعسكر والمؤن. [٤]

---

(١) نفس المصدر (ص ٦٢) ، (٢) نفس المصدر (ص ٦٢ - ٦٣) .
(٣) مندور المهدي : السودان من أقدم العصور (ص ٦٣ - ٦٤) .
(٤) واضح البيان (ص ٢) ، السودان في رسائل (مج ١٧ ، ص ٦٠ - ٦١) تاريخ السودان حتى قيام الأحزاب (ص ٦٢)

٢) إن العرب الموجودين في منطقة الفونج يخدمهم [١] شيخ دارولدجماع.

٣) النجدة عند الحاجة بالقوة والمال إذا اعتدت دولة أخرى على الجزء الذي يحكمه العرب ، أو الجزء الذي يحكمه الفونج .

٤) الجزء الذي يحكمه الفونج هو منطقة الجزيرة الواقعة بين النيلين الأبيض والأزرق ، وبقية السودان من نصيب العبدلاب . [٢]

٥) التولية لأي رئيس جديد في سنار أو في قرى لا تتم إلا بحضور مفوضين من العاصمتين ، والكبير في السن — من أبناء الشيخ عبدالله جماع أو أو الملك عمارة دونقس — هو صاحب الكلمة فيها .

٦) إذا حضر ولد جماع بسنار (عاصمة الفونج) لا يدق نحاس مع نحاسه. وكذلك الحال بقرى (عاصمة العبدلاب) لا يدق نحاس مع نحاس ملك الفونج. [٣]

٧) رؤساء قبائل العرب الذين هم أهل الطواقى (شارات الملك) أو المشيخات ... تكون توليتهم في قرى [٤] وكان ابرام هذا الاتفاق سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤م باتفاق الروايات . [٥]

---

(١) خدمة العرب معناها : جمع الضرائب منهم ، (تاريخ ملوك السودان (ص ٩) من التعليقات) .

(٢) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية (ص ٢١) .

(٣) يقصد بالنحاس : طبل القبيلة الذي يدق في مناسباتها المختلفة ، وهو هنا أشبه ما يكون بالسلام الملكي أو الجمهوري السائد الآن .

(٤) عثمان أونسة : تاريخ مشيخة العبدلاب (ص ٨) .

(٥) انظر : مكي شبيكة : مملكة الفونج الإسلامية (ص ٤١) ، تاريخ السودان الى قيام الأحزاب (ص ٦٢) ، عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب (ص ١٦٤) الصياد وآخر : السودان (ص ١٦٢) ، الفكر الصوفي في السودان (ص ٣٦ — ٣٧) ، الاسلام والنوبة (ص ٢٠٦)، التربية في السودان (١/٣٥)، دخول العرب في السودان (ص ٣١ — ٣٢).

ولعلّ من الضروري أن نلاحظ أن بنود هذا الاتفاق لم ترد إلا في بعض مصادر العبدلاب. غير أنه لا ينبغي – في نظرنا – أن نستنتج من صمت مصادر غير العبدلاب أن ما جاء في مصادرهم غير واقع لمجرد أن المصادر الأخرى سكتت عن ذكره. وذلك لما يلي :

أولاً :

تقول بعض هذه المصادر إن عدم ذكرها لتاريخ العبدلاب مفصلا يرجع الى جهلها بأخبار مملكتهم.[1]

ثانياً :

يرجع سبب جهل مؤلفي تلك المصادر بأخبار العبدلاب الى أن معظمهم لا يعيش في منطقة شيوخ العبدلاب.

ثالثاً :

ان معظم المؤرخين كانوا يعيشون تحت النفوذ المباشر للفونج، ولهذا عنوا بأخبارهم وعظموا من شأنها، وأهملوا أخبار منافسيهم، وحطوا من قدرها.

وبالمثل لا ينبغي أن نقبل روايات العبدلاب على علاتها، خاصة وأن كثيراً منها كتب بأخرة على أيدي الأحفاد الذين يحرصون، دون شك، على أن يذيع صيت أجدادهم وصيتهم بهم، وأن تعظم أقدارهم في أعين الناس فهم – لذلك – موضع شبهة فيما يكتبون.

أخذاً مما تقدم نلخص هذا الرأي في النقاط التالية :

---

(١) نص كاتب الشونة في مخطوطته على ذلك بقوله : « وأما دولة العبدلاب والسعداب عدم ذكرنا لهم لعدم اطلاعنا على أحوالهم (ص ٨٣).

١ – في مستهل القرن السادس عشر وقع حلف بين الفونج والعبدلاب في « جبل موية » يهدف إلى إسقاط مملكة علوة المسيحية .

٢ – كانت المبادأة لعقد هذا الحلف من عرب القواسمة بقيادة عبدالله جماع.

٣ – من أهم ما اتفق عليه الطرفان أن يقوم عمارة دونقس – بالاضافة إلى تقديم الجنود – بتوفير المعدات العسكرية ، والمؤن الضرورية للجيش .

٤ – لم تكن حكومات القبائل التي خضعت فيما بعد للعبدلاب طرفاً في الحلف .

٢ – رأي الفريق الثاني :

يتزعم هذا الفريق من الباحثين الشاطر بصيلي فيقرر قيام حلف بين الممالك والمشيخات بزعامة عبدالله جماع من جهة ، وبين الفونج من الجهة الأخرى ، ويرى أن سقوط سوبا كان ثمرة لهذا الاتحاد . يقول : « وانتهت هذه الحال بدخول الزعامات القبلية للمجموعات الإقليمية في اتحاد تزعمه السلطان السناري الذي انتقل إلى عاصمته الجديدة ... وكان قيام هذا الحلف بين المشيخات المحلية والسلطان السناري أمراً قررته الاستجابة لعراك حياة مجتمع في صورة جديدة تمخض عنه ذلك الصراع الخفي بين المجموعات العربية التي دخلت البلاد في طرف ، وبين السكان من أهالي البلاد في طرف آخر[١] » .

ثم يعود في مكان آخر من نفس المرجع فيكون أكثر وضوحاً في تحديد رأيه ، فيبدي عدم علمه اليقيني بالأسس التي قام عليها ذلك الحلف ، الى أن يقول : « والثابت أن هذا الحلف قد تدرج في مراحل متعددة لم تلبث أن أخذت صورتها النهائية في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادي

---

(١) معالم تاريخ سودان وادي النيل (ص ٤٧) .

بقيام حلف من المشيخات والشيخ عبدالله جماع شيخ العبدلاب بوصفه أقوى الزعماء المحليين في تلك الفترة من الزمن ، والذي دخل بدوره في حلف مع السلطان عميرة ، وبهذا تم الحلف الاتحادي في صورته الأخيرة [١] » .

وقد ساند الدكتور عبد القادر محمود هذا الرأي فأكد اشتراك جميع « القبائل العربية الراسخة بالسودان على يد زعيم عربي يدعى عبدالله جماع شيخ قبيلة العبدلاب [٢] » في هذا الحلف السناري .

كذلك يفهم هذا المعنى من أثر تاريخي مخطوط كتبه أحد العبدلاب وذكر فيه أن مؤسس دولتهم – عبدالله جماع – « استطاع بما أوتي من الرأي السديد، والغيرة الدينية استمالة جميع قبائل العرب الموجودة بالسودان وتوحيد كلمتهم ، ثم هزم بهم – مع الفونج – ملوك سوبا المسيحية [٣] » .

٣ – رأي الفريق الثالث :

يرى هذا الفريق أن سقوط سوبا لم يتم إلا بجهد العبدلاب ومن جاورهم في دارهم من العرب، ولم يكن للفونج أو حكومات القبائل في الشمال أي نصيب في إحداثه . تقول إحدى الروايات : بعد أن تجمع العرب بأعداد كبيرة في السودان ، عن طريق مصر والحبشة والبحر الأحمر ، ورأوا ضعف مملكة علوة مع قوتهم قرروا أن يرموا بثقلهم تجاه العاصمة الضعيفة سوبا [٤] ، وأن

---

(١) نفس المصدر (ص ٧٠) .

(٢) الفكر الصوفي في السودان (ص ٣٦ – ٣٧) .

(٣) الأرباب الحسن بن شاور : واضح البيان في ملوك العرب بالسودان ، وملوك العبدلاب من الشيخ عجيب الى تاريخه (ص ١ – ٢) .

(٤) Yousif Fadl, The Arabs and the Sudan P, 132,
وانظر : تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ١٦ – ١٩) .

يحاربوا ملك العنج الذي يدعونه « الغز [1] » . وقد قام بهذه الحركة رجل يدعى عبدالله جماع من عرب القواسمة الذين يمثلون أحد فروع القبيلة العربية رفاعـــة .

حرّض عبدالله رجال القبائل العربية على التخلص من طغيان العنج وظلمهم، فبايعوه على ذلك ، وأقسموا – على المصاحف والسيوف – قسم الولاء له ، ثم ساروا تحت إمرته ، وهاجموا ملك العنج في سوبا [2] ، « وبعد مساجلات عدة قتلوا الملك وانتصروا » . وليس هناك ذكر في هذه الرواية التاريخيـة لمشاركة الفونج في هـــذه الحوادث . « وكان مما غنمه العبدلاب بعد الحرب تاج ملك العنج المرصع بالجواهر ، وأصبح – عندئذ – ميراثاً لهم في ذريتهم دون الفونج [3] » .

« ومع نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) صار العرب هم حكام مملكة علوة [4] » ، ويبدو أن سلطان العبدلاب قد امتد سريعاً في الجنوب ، فشمل المنطقة حتى سنار بمـــا في ذلك مدينة أربجي ، وذلك في وقت سابق لقدوم الفونج لسنار . يدل على ذلك ما جاء في إحدى الروايات من أن الفونج عندما دخلوا السودان وأتوا إلى سنار وجدوها تحت حكم الملك عجيب ، فنزلوا في « لولو » مزارعين ، ثم أصهروا الى البيت المالك ، إلى

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ١٦) .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) The Arabs and The Sudan, p p· 133 - 134

وانظر : الباشا : جوانب من تاريخ العبدلاب (ص١٦ – ١٩) ، هولت : تاريخ السودان الحديث (ص ١٨) وانظره ايضـــاً في : B, S, O, A, S, XXIII, P,10/11 وآركل في : السودان في رسائل ومدونات : أصل الفونج (مج ١٥ ، ص ٢١١ – ٢١٢) .

(٤) The Arabs and The Sudan, pp, 133 - 134

أن دارت الأيام في عهد عمارة دونقس » ، واستولوا على الحكم إثر تدهور العبدلاب .[1]

وبدأت متاعب العبدلاب والعرب مع بداية القرن العاشر الهجري ، إذ كان عليهم في هذا الإبان أن يواجهوا عـــدواً خطيراً هم الفونج الذين ظهروا فجأة على مسرح الأحداث ، « وحقيقة أن ظهور هذه الجماعـــة الفجائي لا يزال طي الحجب ، وفقدان المدونات المعاصرة يضاعف صعوبـــة هذه المسألة » .[2]

ومهما يكن من أمر فان من المحتمل أن يكون الفونج – بعـــد أن نزلوا سنار – سعوا لمنافسة العرب على المرعى ، فأخذوا يتقدمون شمالا مع النيل الأزرق حتى وصلوا أربجي سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م . وهنـــا يصل أصحاب هذا الرأي مذهبهم برواية «بروس» التي تقول : إنه في سنة ١٥٠٤ م أتت قبيلة أو أمة من السود في مجموعـــة كبيرة من الزوارق في غارة على الاقليم المأهول بالعرب من منطقة الجزيرة ، وبالقرب من أربجي حدثت بينهم وبـين ولد عجيب واقعة انتهت بنصر السود الذين أملوا – على إثرها – شروطـــاً احتفظ بمقتضاها ود عجيب بسيادته السابقة على ما يملك لقاء التعهد باستخدام القوة متى ما كان ذلك ضروريا لحمل العرب المقيمين بعيداً على دفع الجزية . وقد قلص هذا الاتفاق مكانة العبدلاب ، فأنزلهم الى مقام النيابة بعد أن كانوا ملوكا . ولم يسع ود عجيب إلا الموافقة على هذه الشروط .[3]

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ٢٠) .

(٢) The Arabs and The Sudan, p. 134,
وانظر : تاريخ الثقافة العربية (ص ٤٨) .

(٣) Bruce : Travels to Discover The Sources of the Nile, vol. 4. p. 548. See Arkell, Fung origins,(S.N. R.) vol. XV, pp. 201 - 250. The Arabs and The Sudan. p. 134.

وبعد أن حقق الفونج سيطرتهم على هذا النحو عادوا أدراجهم الى سنار التي غدت عاصمة الملك ومقر الحكومة ، ومارسوا سلطانهم من هناك . [١]

واضح أن هذا الرأي ينفي أن يكون قد قام بـــين العبدلاب والفونج تحالف الندين ، بقدر ما يقرر أنها كانت «معاهدة صلح» بين غالب ومغلوب. وظاهر من دلالته أن علوة لم تسقط نتيجة لتعاون بين الفونج والعبدلاب – كما هو الرأي الأول والثاني – ، وإنما أسقطها العبدلاب وحدهم ، ثم زحف عليها الفونج بعد ذلك . [٢]

على أن هذا الرأي لا أعول عليه لعدة أسباب :

منها : بطلانه في بعض أجزائه ، وهو الجزء الخاص برأي «بروس» عند حديثه في أصل الفونج . [٣]

ومنها : مناقضته لما قررته مصادر قديمة شبه معاصرة وموثوق بها من أن سقوط سوبا قام به العبدلاب والفونج مجتمعين سنة ٩١٠ هـ .

ومنها : ضعف المصادر التي قام عليها ، وهي لا تعدو – في الأغلب –

---

(١) LOC. Cit,

(٢) يقول الباشا في هذه المسألة : « من كل ما تقدم نستطيع أن نخلص إلى القول بأن دور العبدلاب في سقوط مملكة علوة كان دوراً رئيسياً ، وان السقوط تم على يد القبائل العربية بقيادة عبدالله جماع . ثم حدثت بعد ذلك موقعة اربجي والتي انهزم فيها العرب ، ومن ثم كان خضوعهم للفونج » . (جوانب من تاريخ العبدلاب ص ٢١) .

(٣) قوبل رأى « بروس » بهجوم شديد سنفصله عند حديثنا عن أصل الفونج ، وقال عنه عبد المجيد عابدين انه استبعد ، ووصف من قبل بعض الباحثين بأنه غـــير صحيح . (تاريخ الثقافة العربية ص ٤٨) .

ومما يدل على بطلان هذا الرأي ايضاً ان تاريخ مدينة اربجي – منذ تأسيسها سنة ٨٨٠ هـ – لا يشير الى قتال وقع فيها في هذا التاريخ الذي حدده « بروس » .

انظر (ملخص تاريخ اربجي ص ٢٥٦ – ٢٦٠) من : معالم تاريخ سودان وادي النيل ، الملحق الثالث ، نقلاً عن مخطوط شيوخ اربجي) .

أن تكون مجرد استنتاجات ، فيها كثير من الخلط والتناقض .

على أنني أرجح من كل ما سبق :

أولاً : أن الحلف السناري كان بين العبدلاب – عرب القواسمة – ومن تبعهم من القبائل التي كانت تساكنهم في دارهم [1] وتتبع لهم دون أن يكون لها أي سلطان سياسي . هذا طرف والطرف الثاني هم الفونج . أما حكومات القبائل التي أشرنا إليها فانها ضمت الى نفوذ العبدلاب – ربما بالقوة – بعد سقوط سوبا وقيام قرى وسنار ، ولم يكن لها دور في أحداث السقوط ، بل أصبحت – بعد ذلك – الوحدات الادارية لمشيخة العبدلاب . وأستأنس لهذا الرأي بما يلي :

١) لم تتحدث المصادر عن جيوش تتبع لحكومات القبائل اشتركت في إسقاط دولة علوة ، وإنما قصرت مهمة إسقاط سوبا ، بل وعلوة كلها على عرب القواسمة ومن جاورهم دارهم ، ثم الفونج .

٢) إذا كان هناك اتحاد قام بين الفونج وحكومات القبائل بزعامة العبدلاب – على نحو ما ذكر – بمحض ارادة هذه الحكومات المحلية فان ذلك يستلزم بالضرورة أن تكون لها حقوق وامتيازات كما كان للعبدلاب ، وهو ما لم تذكره المصادر .

ومما يدل على أن هذه الممالك والمشيخات ضمت قسرا فيما بعد كونها ما فَتِئَتْ تشن الحروب على العبدلاب كلما أنست من نفسها قوة ، على نحو ما هو معروف من حروب الشايقية والشكرية والجعليين .

---

(١) دار العبدلاب جنوب شندي حتى شمال بلدة اريجي ... ومركزها بلدة قرى حيث أقام عبدالله جماع الذي مارس سلطاته المباشرة على هذه المجموعة ... واحتفظت دار العبدلاب في حدودها على ما كانت عليه علوة » (معالم تاريخ سودان .. (ص ٣٧ – ٣٨) . اقتصاد السودان في العهد الفونجي (ص ٦) .

وأرجح ثانياً : أنه في أواخر القرن الخامس عشر أو أوائل السادس عشر الميلاديين – على أقوى الاحتمالات – قام حلف بين قوتين كبيرتين : إحداهما في جنوب مملكة علوة ، وثانيتهما على أرض علوة نفسها حول سوبا وشماليها ، وتدعى القوة الأولى بالفونج ، والثانية بالقواسمة (العبدلاب فيما بعد) ، وكان هدف هذا الاتحاد إسقاط مملكة النوبة المسيحية العليا (علوة) بعد أن تهيأت كافة الظروف لهذا السقوط ، وأنه ما كاد يتم الاتفاق حتى توجه جيش الحليفين : عبدالله جماع وعمارة دونقس الى سوبا العاصمة الكبرى لعلوة ، ودارت بين الجيش المهاجم وجيش علوة المدافع حرب انتهت بقتل ملك علوة ، [1] وهزيمة جيشه ، وتخريب سوبا خرابا أصبح مثلا في السودان ، [2] وذلك بعد حصار دام عدة أيام أبدى خلاله جندها مقاومة شديدة . [3]

وهكذا كان الحلف بين العبدلاب والفونج هو السبب المباشر لإحداث هذا التغيير العميق الذي غير وجه الحياة في السودان [4] . فمن هم العبدلاب ومن هم الفونج الذين جرى على أيديهم هذا التغيير الخطير ؟!

---

(١) تذكر الروايات ان اسمه « الغز » (تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية ص ٦)، وتقول اخرى ان اسمه « علوة » (واضح البيان ص ٢) .

(٢) طبقات ود ضيف الله (ص ٥) ، تاريخ ملوك السودان (ص ١) ، واضح البيان (ص ٢) ، السودان في رسائل (مج ١٧ ، ص ٦١) ، تاريخ ملوك السودان واقاليمه (ص ٦) ، تاريخ مختص بأرض النوبة (ص ٢) ، مخطوطة كاتب الشونة (ص ٧) .

(٣) تاريخ مشيخة العبدلاب (ص ٦) .

(٤) انظر الصفحات (٧٤ – ٨٠) من هذا البحث ، وانظر ما كايكل: دخول العرب في السودان (ص ٣١ – ٣٢) ، شيني : بلاد النوبة في العصور الوسطى (ص ١٠ – ١١) .

العبدلاب والفونج

أ) أصل العبدلاب وموطنهم الأول :

قسم النسابة [1] في السودان عربه الى شعبتين رئيسيتين ترجعان في أصلها إلى قحطان وعدنان أصلي الجنس العربي في جزيرته ، وهاتان الشعبتان هما : مجموعة جهينة ، ويرمز بها إلى عرب الجنوب أو القحطانيين، والمجموعة الجعلية أو العباسية ، ويشار بها الى عرب الشمال أو العدنانيين [2] .

وإذا اختلفت المصادر الوطنية في السودان اختلافاً يسيراً في الأصل الذي ينتمي إليه العبدلاب من هاتين الشعبتين فإن هذه المصادر – ومعها جميع الباحثين في شؤون العروبة في السودان الذين وقفت على آثارهم التاريخية – تجمع على رأي واحد لا خلاف عليه هو عروبة العبدلاب . ونعرض فيما يلي مختلف الروايات الواردة في نسبهم :

أولاً – روايات العبدلاب أنفسهم :

تذكر مخطوطات العبدلاب ورواياتهم السماعية أنهم عدنانية يتصل نسبهم بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. فقد جاء في إحدى مخطوطاتهم [3] ما نصه: «ثم اعلم أن عبدالله هذا جد العبدلاب والده حمد بن رافع بن عامر بن صعصع،

---

(١) انظر مجموعة ماكايكل الخطية في دار الوثائق المركزية بالخرطوم تحت عنوان: متنوعات (١٨٤/١٦/١) ، وانظر كذلك : مخطوط ابراهيم حاج محمد وجعفر حسان في النسب بنفس الدار ، وكتاب : A History of The Arabs. By Macmichael.

(٢) محمد عوض محمد (دكتور) : السودان الشمالي سكانه وقبائله (ص ١٤) .

(٣) نسب العبدلاب ، كتبه ابن الحاج حسن بن الشريف الفحل بن ضباب بن أونسه في ملف يحمل الصفحات (٦١٥ – ٦٢٨) ، دار الوثائق المركزية ، متنوعات (١٨٤/١٦/١) .

المعلوم هذا هو المشهور في نسبه ، المسموع من الآباء ، ولكن الصحيح – كما وجد مقرراً في أمهات الأنساب – أن والده السيد الباقر ، وأمه (حسنى) « بنت [1] حمد بن رافع ، ومن ذلـك توهم بعض أهل الأنساب فنسبه بأمه لرفاعة (وبالتالي لجهينة) ، وذلك وهم باطل كما وجدت بخط من نقل هـذا النسب قائلاً : إن والده السيد الباقر بن السيد محمد بن السيد علي بن السيد جبل بن السيد عبد الله بن السيد بركات بن السيد قاسم » ، ويمضي صاحب النسبة في تعداد أجداد عبدالله جماع حتى يصلهم بالإمام علي رضي الله عنه[2].

غير أن روايات العبدلاب السماعية التي دونت حديثاً تذكر أن السيد الباقر هذا لم يكن أباً لعبد الله جماع وإنما هو جده ، وتضيف بعض هذه الروايات – مؤكدة نسب عبد الله إلى جهينة من جهة أمه – قائلة : إن السيد الباقر تزوج بنت الشيخ عبد الله الجهني : « رائد زمام جهينة » ، وقد أنجب منهـا ابنه رافع والد عبد الله جماع الذي ما كاد يشب عن الطوق حتى اختارتـه قبيلة جهينة ملكاً لها في مكان جده لأمه ، فصار ملكاً في الحجاز ، ثم خلفه على الملك السيد الباقر وتلاه بعد ذلك عبد الله جماع [3] . وهذا يعني أن

(١) تؤيد هذا بعض روايات العبدلاب السماعية في الجملة دون التفصيل ، فتذكر أن جـد عبدالله جماع هو حمد الذي توفي في « أبي حمد » الحالية ، وهي بلدة كائنة في منطقة الرباطاب ، وسميت باسمه . (تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ١٥) . وعلى أية حال فان في « أبي حمد » هذه فقيه بهذا الاسم ، لا زال محط آمال كثير من زائريه !

(٢) ابن الحاج حسن بن الشريف الفحل : المصدر نفسه والصفحات . وانظر من مخطوطات العبدلاب ايضاً الشيخ اونسه : تاريخ مشيخة العبدلاب (ص ١١ – ١٢) . وقد زرت هـذا الشيخ وهو كبير العبدلاب الآن ، في منزله الكائن بشمبات ظهر يوم ١٩٦٩/٣/١٦ م) فأكد لي ان العبدلاب اشراف من نسل علي بن أبي طالب من جهة أبيهم ، وهم جهينيون من جهة امهم حسبما ورد في هذا النص . وانظر من مخطوطات العبدلاب المهمة ايضاً . « واضح البيان في ملوك العرب بالسودان » للأرباب الحسن بن شاور (ص ١) ، و بن في : السودان في رسائل ومدونات (S. N. R.) (مج ١٧ ، ص ٦٠ وما بعدها) .

(٣) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ١٤) ، وانظر : حسن محمد خليـل باشا : جوانب من تاريخ العبدلاب من رواياتهم السماعية (مخطوط ، ص ٢٣ – ٢٤) .

عبد الله جماع شريف علوي من جهة أبيه ، جهني من جهة أمه ، كما يعني أنه كان شيخاً في الحجاز على قبيلة جهينة ، ولهذا تطلع الى تزعمهـا عندما هاجر إلى السودان ، وفاز بذلك

على أنني لا أستطيع أن أفهم كيف يخلف الأب ابنه في الملك مثلما خلف السيد الباقر ابنه رافع في هذه الرواية ، وهذا يرجع عندي أن السيد الباقر هو والد عبد الله جماع كما جاء في نسبة ابن الحاج حسن بن ضباب المشار اليها، وأن رافعاً لا يعدو في الحقيقة ، أن يكون لقباً للسيد الباقر وليس اسماً لمسمى آخر ، وان جد جماع الذي تزوج بنت عبد الله الجهني إنما هو عامر كما تقول إحدى الروايات [1]

ويروي صاحب « العرف المنشوق » [2] في نسب العبدلاب رواية طويلة مؤداها : أن الأشراف خرجوا من أرض الحجاز تحت ضغط العباسيين بعد قيام دولتهم ، ومن هؤلاء ذرية الامام موسى الكاظم التي ينتسب إليهـا العركيون أيضاً ، فعبرت البحر بناحية السويس ، ثم جاءت إلى السودان عن طريق النيل ، ثم ذهبت إلى شرق السودان، وقصدت جماعة منها المغرب ومنه دخلوا – عن الطريق الغربي – للسودان . وكان من هذه الذرية محمد بن رافع ، ومن ذريته في السودان الآن القواسمة والعبدلاب [3] .

ظاهر من هذه الرواية أنها تطابق ما جاء في مخطوطات العبدلاب ورواياتهم السماعية خاصاً بانتسابهم الى البيت العلوي كما أسلفناه ، غير أنها تخالف تلك الروايات في الطريق الذي سلكه العبدلاب الى السودان ، ذلك لأن روايات العبدلاب السماعية – بعد أن قررت ثلاث منهـا أن عبد الله جماع شريف

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (هامش ص ١٥) .
(٢) هو الأمين محمد زين الناسخ .
(٣) العرف المنشوق (ص ٤٦ – ٤٧) .

حسيني[1] - أجمعت أربع عشرة روايــة أخرى على أنه أتى من الشرق أو الشروق الذي يعني أرض الحجاز ، وحددت موطنه فيها بمكة أو المدينة أو الطائف على خلاف الروايات ، ثم ذكرت طريق هجرة العبدلاب الى السودان بأنه « سواكن » - عبر البحر الأحمر - ومنها الى أبي حمد ، فدنقلا حيث ترك هناك بعض ذريته وهم « الأدركوجاب » [2] ، ولا يبعد أن يكون هذا صحيحاً ، فإن هذا الطريق هو نفسه تقريباً الذي هربت منه فلول الأمويين إلى الحجاز عند قيام الدولة العباسية كما يقول المقريزي [3] . وتمضي روايات العبدلاب قائلة : ومن دنقلا أتوا بربر « فأب زليق » القريب من « قرى » - حيث كان يحكم العنج ، وحيث بدأ تجمع العرب - ومن ثم أتوا الى «قرى» نفسها واتخذوها عاصمة لهم بعد أن أسقطوا دولة العنج هنا وهناك [4] .

على أنه يمكن التوفيق بين رواية صاحب العرف المنشوق والروايات التي أسلفناها اذا جاز لنا أن نفترض أن محمد بن رافع هذا شقيق لعبد الله جماع ، استناداً على ما رجحناه [5] من أن « رافعاً » لقب للسيد الباقر والد عبد الله جماع كما تقول إحدى الروايات [6] ، وقد ارتأى أن يسلك بذريتـــه طريقاً مغايراً للذي سار فيه أخوه عبد الله جماع ، وهنا - في السودان - كون مع ذرية جماع عرب القواسمة الذين غلب عليهم - فيما بعد - اسم زعيمهم عبد الله فعرفوا بالعبدلاب .

ويوافق عثمان حمد الله العبدلاب في ادعائهم الانحدار من البيت العلوي[7]،

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ١٤) .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) الخطط (١٩١/١) .
(٤) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ١٦ - ١٧ ، ١٩ ، ٢٢) .
(٥) انظر (ص ١١٠) من هذا البحث .
(٦) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ١٥) .
(٧) في كتابه : سهم الارحام في السودان (ص ٢٠٥ - ٢٠٦) .

كما يساندهم « بروس » فيقرر أن عبد الله جماع أمير قرشي ، غير أنه لا ينص على تحدره من بيت علي بن أبي طالب [1] .

إلا أنني – مع هذا كله – لا أحس اطمئناناً لروايات العبدلاب هذه ومن شايعهم فيها ، وذلك للأسباب التالية :

١ – إنه ما من قبيلة في السودان – في الأغلب الأعم – إلا ادعت أنها تنحدر من أصل شريف ، ابتغاء اجلال الناس وتقديرهم ، فالعركيون مثلاً في « أبي حراز » ، والمراغنة في الخرطوم بحري ، ومديرية كسلا ، والشكرية في رفاعة ، وآل المهدي والهندي ، والفادنية في أوطانهم المختلفة كل يدعي أنه ينحدر من بيت علي بن أبي طالب ، إن حقاً وإن باطلاً .

٢ – اضطراب هذه الروايات: فهي في الوقت الذي تصر على صلة العبدلاب بالبيت العلوي تزعم أن العبدلاب جهنيون أيضاً من جهة أمهم ، وذلك ليظفروا بشرف آخر هو انتماؤهم الى الصحابي الجليل عبد الله الجهني. يظهر هذا – فوق ما تقدم – من النص التالي : « والقواسمة – أصل العبدلاب – أبناء السيد رافع المعروف في قبائل رفاعة المتعددة ، لأن اسم رافع في قبائل رفاعة اثنين: رافع الجهني ، ورافع ابن بنته الذي هو شريف من ولد الحسين بن علي » [2] .

وكأنّ هذا الحفيد العبدلابي أحس باضطراب النص وعدم اقناعه ، فلجأ الى تعمية أكثر عمقاً وأردف يقول : « والشيخ عبد الله جماع أمه السيدة حسنى بنت عبد الله القريني سيد قبائل جهينة كلها . وعلى العموم فقبائل رفاعة كلها ، وجهينة كلها ، وما تفرع منها من القبائل هم أهل الشيخ عبد الله جماع وعشيرته » [3] ظاهر من صياغة هذه النصوص مبلغ الحرص على الانتساب

---

(١) Travels to discover... vol. 4. PP. 456 - 458.

(٢) تاريخ مشيخة العبدلاب (ص ١١) .

(٣) نفس المصدر (ص ١٢) .

لأشرف أصول ، وقديماً قيل : كثرة الحرص على ادعاء شيء دليل على نفيه .

٣ - إن مصادر الشيعة - وقد أشارت الى تنقلات أهل البيت إلى أرجاء مختلفة من الوطن الاسلامي - لم تشر الى أن واحداً من ذرية الامام موسى الكاظم أو غيره من آل البيت العلوي قد هاجر الى السودان [١] .

وبالجملة فإن هذه الرواية - رواية العبدلاب ومن شايعهم - لا تنهض دليلاً على ما يزعمونه من الانتساب الى البيت العلوي الشريف، والراجح - كما سيأتي - أنهم عرب جهنيون .

يقول الباشا في ذلك : وخلاصة حديثي « عن أصل العبدلاب أرى أنه ليس هناك ما يجعلنا نشك في أن العبدلاب ينتسبون إلى المجموعة التي تعرف بمجموعة جهينة ، ورواياتهم تشير الى ذلك ، وفي نفس الوقت تحاول أن تنتسب الى الأشراف شأنهم في ذلك شأن كثير من القبائل السودانية، ومجموعة جهينة من عرب الجنوب، ولذلك فلا محل لربط الأصل الجهني بالأصل الشريفي، أو بعلي بن أبي طالب كما جاء في رواياتهم ... وفيما يختص بفرع العبدلاب بالذات فمن المرجح أنهم كانوا من أقسام جهينة التي عاشت في الشرق ، وأتت منه الى وادي[٢] النيل » .

---

(١) راجع : « ابو اسماعيل الشريف النسابة ابراهيم بن ناصر بن طباطبا : منتقلة الطالبية ، تحقيق السيد محمد مهدي السيد حسن الخراساني طبعة النجف الاشرف . فقد تحدث فيه المؤلف عن آل أبي طالب الذين انتقلوا الى بعض البلاد الاسلامية ، ومن بينها مصر والمغرب ، ولم ترد فيه اشارة واحدة الى انتقال بعضهم الى السودان ، بل ان محققه اشار الى انه تابع هذا الموضوع فلم يجد احداً منهم هاجر الى السودان بمعناه المعروف اليوم .

(٢) جوانب من تاريخ العبدلاب (ص ٢٩ - ٣٠) .

ثانياً – رواية نسختي ابراهيم حاج محمد وجعفر حسان : [١]

تتفق النسختان على أن العبدلاب من عرب القواسمة الذين يتصل نسبهم – آخر الأمر – بجهينة ، ذلك لأن عرب جهينة في السودان ينقسمون الى الشعب الرئيسية التالية :

الشعبة الأولى :

وتشتمل على رفاعة (وأقربائها من القواسمة والعبدلاب والعركيين) واللحويين، والحلويين ، والعوامرة ، والخوالدة ، والشكرية ، ومن إليهم .

الشعبة الثانية :

شعبة فزارة . ومن فروعها دار حامد ، وبني جرار ، والزيادية والبزعة، والشنابلة ، والمعاليا .

الشعبة الثالثة :

وقد اشتملت على الدويحية ، والمسلمية ، والبقارة – بفروعها المختلفـــة

---

(١) زرت السيد / ابراهيم حاج محمد (ناظر عموم الجعليين سابقاً) في منزله بشندي في مستهل مارس (آذار) سنة ١٩٦٩ م ، وبعد بحث طويل في خزائن كتب أجداده عثرت على نسخة من مخطوط كنت قد سمعت به قيل : انه كتاب انساب عرب السودان للامـــام السمرقندي الذي وضعه في بداية عصر الفونج والعبدلاب . (انظر ص ٦٨ من كتاب : تاريخ السودان : البحر الاحمر واقليم البجة ، تأليف محمد صالح ضرار) .

اما نسخة جعفر حسان فقد وجدتها – بعد بحث مستفيض ايضاً – عند ابنه حسان ببلدة حزيمة ، في مركز مروى ، بالمديرية الشمالية ، وذلك عند زيارتي له في يوم ١٩٦٩/٤/١٩ .

وكلا النسختين في انساب العرب مع احتوائها بعض الاخبار التاريخية . وقد اودعت من كلا المخطوطين نسخة مصورة بدار الوثائق المركزية بالخرطوم .

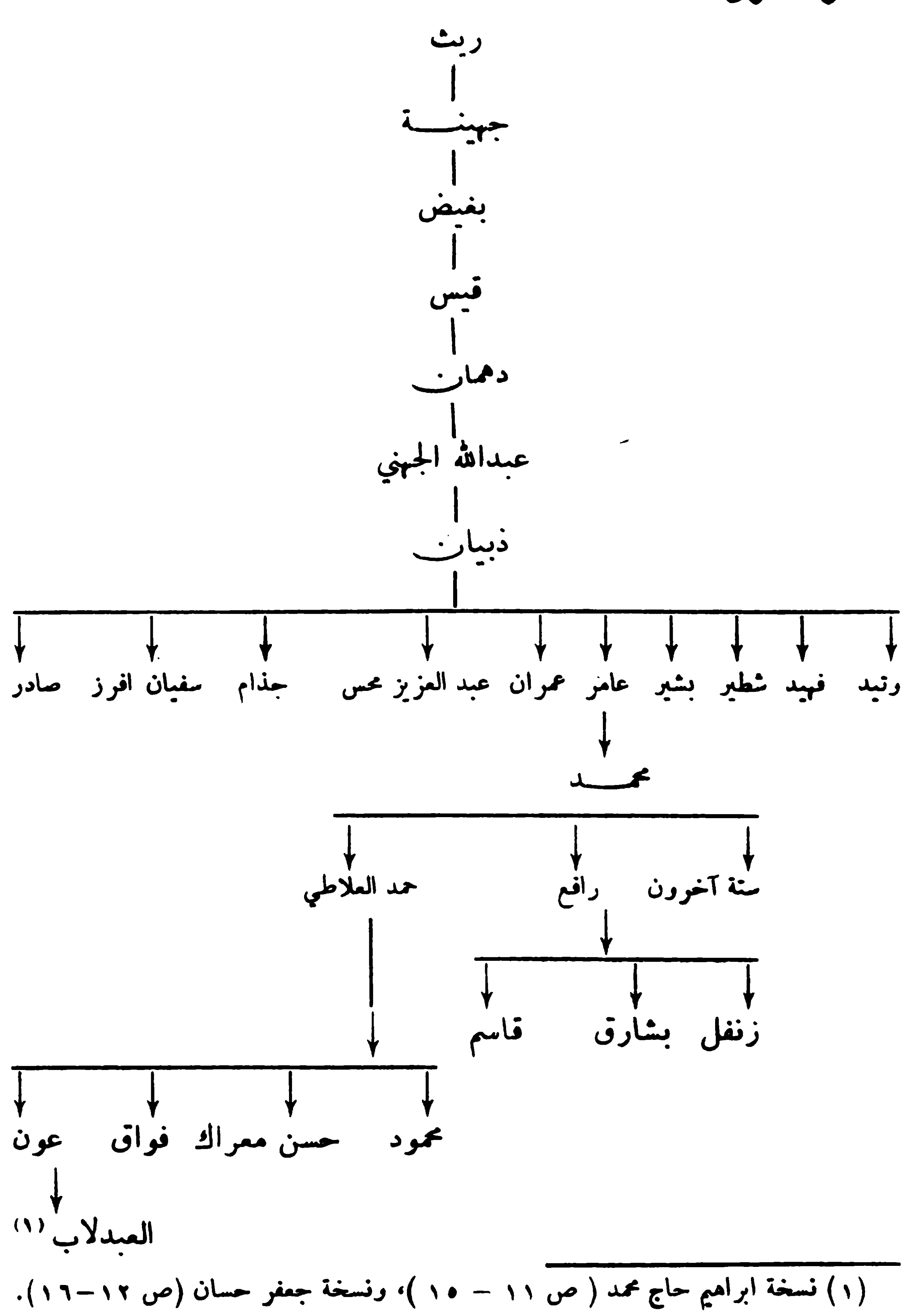
– والحاميد ، والماهرية ، والكبابيش ، والمغاربة ، والحمر . [1]

على أن النسختين تتفقان على تفاصيل ما بهما من معلومات ممـا يدل على أحد أمرين : إما أنهما منقولان من أصل واحد مفقود ، أو أن احداهمامنقولة عن الأخرى . ويمكن أن نرسم منهما شجرة نسب على النحو التالي :

---

(١) ,Macmichael, H,A,:A History of The Arabs Vol, I, pp.239-248
والأسلام والنوبة (ص ٢٠١) ، تاريخ الثقافة العربية (ص ٣٠) .
والاسلام والثقافة العربية (١/٣٠٥ - ٣٠٦) وتاريخ السودان من اقـدم العصور الى الآن (ص ٣٠) .
محمد مهري : رحلة مصر والسودان (ص ٣٩١ - ٣٩٣) .
تاريخ السودان الى قيام الاحزاب (ص ٥٨) .
السودان حقائق ووثائق (ص ١٣) .

الشجرة الأولى :



(١) نسخة ابراهيم حاج محمد (ص ١١ – ١٥)، ونسخة جعفر حسان (ص ١٢–١٦).

يقول مؤلف نسخة جعفر حسان – وهو ينسب العبدلاب الى عون ابن حمد العلاطي – : «أما عون أخيه فأولاده ثابت وصابر وسارب وحرقان ومسير ومعتوق . ومن أولاده الترابئة والشقلاب والشكراب والعبدلاب والتنجر ... وكلهم أولاد عون بن حمد العلاطي » . [1]

ثالثاً : رواية هارولد ماكايكل [2]

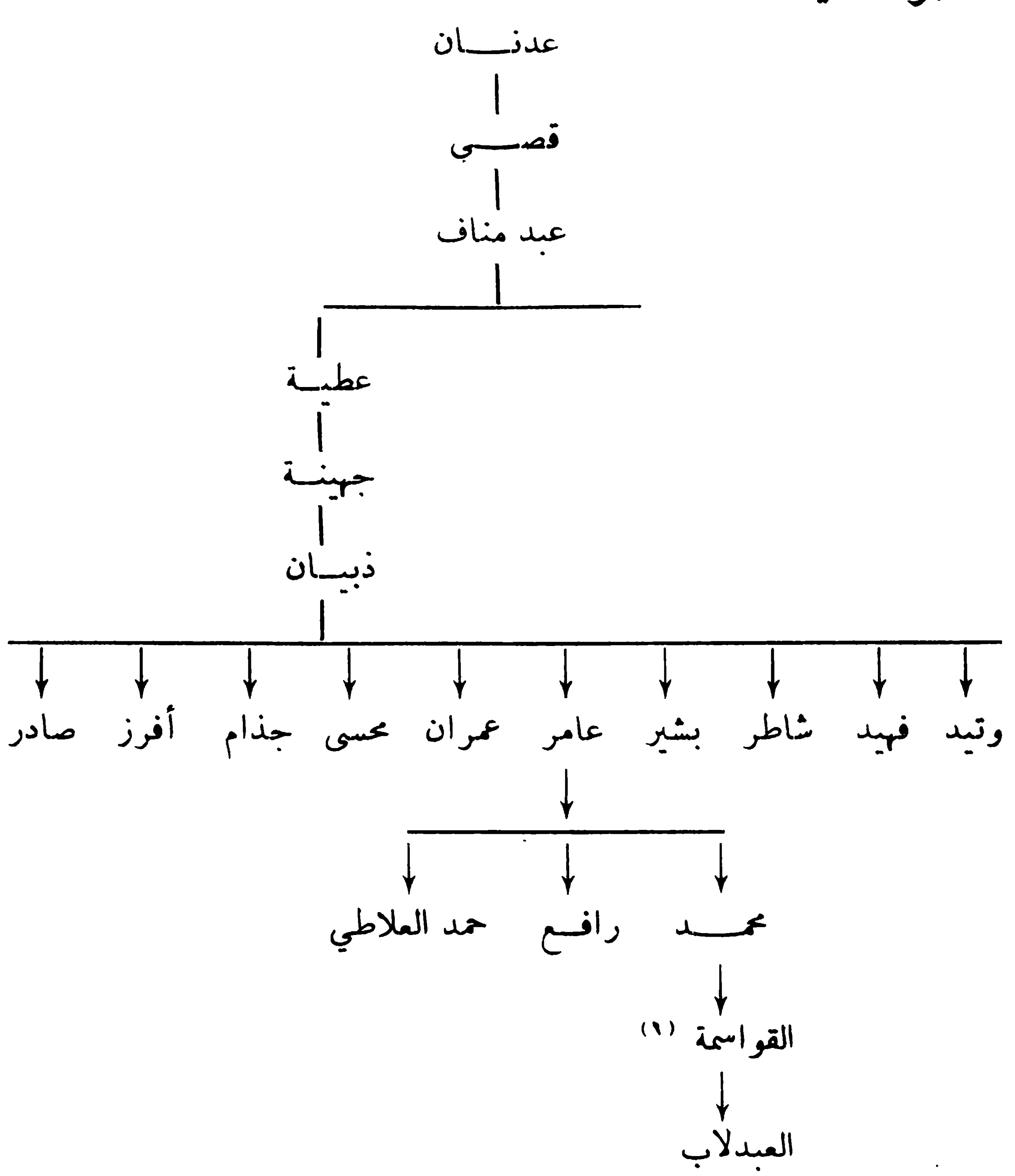
تتفق هذه الرواية مع سابقتيها في إلحاق نسب العبدلاب بجهينة دون البيت العلوي ، وتخالفها في أمور . وهذا هو الجزء الذي يعنينا من شجرة النسب التي رسمها وفقا لروايته :

---

(١) نسخة جعفر حسان (ص ١٤ - ١٥) .

(٢) اعتمد المؤلف في روايته هذه على اوراق نسب غير يسيرة ، جمعها من الاهلين، ثم روايات سماعية قام بتدوينها منهم .

الشجرة الثانية



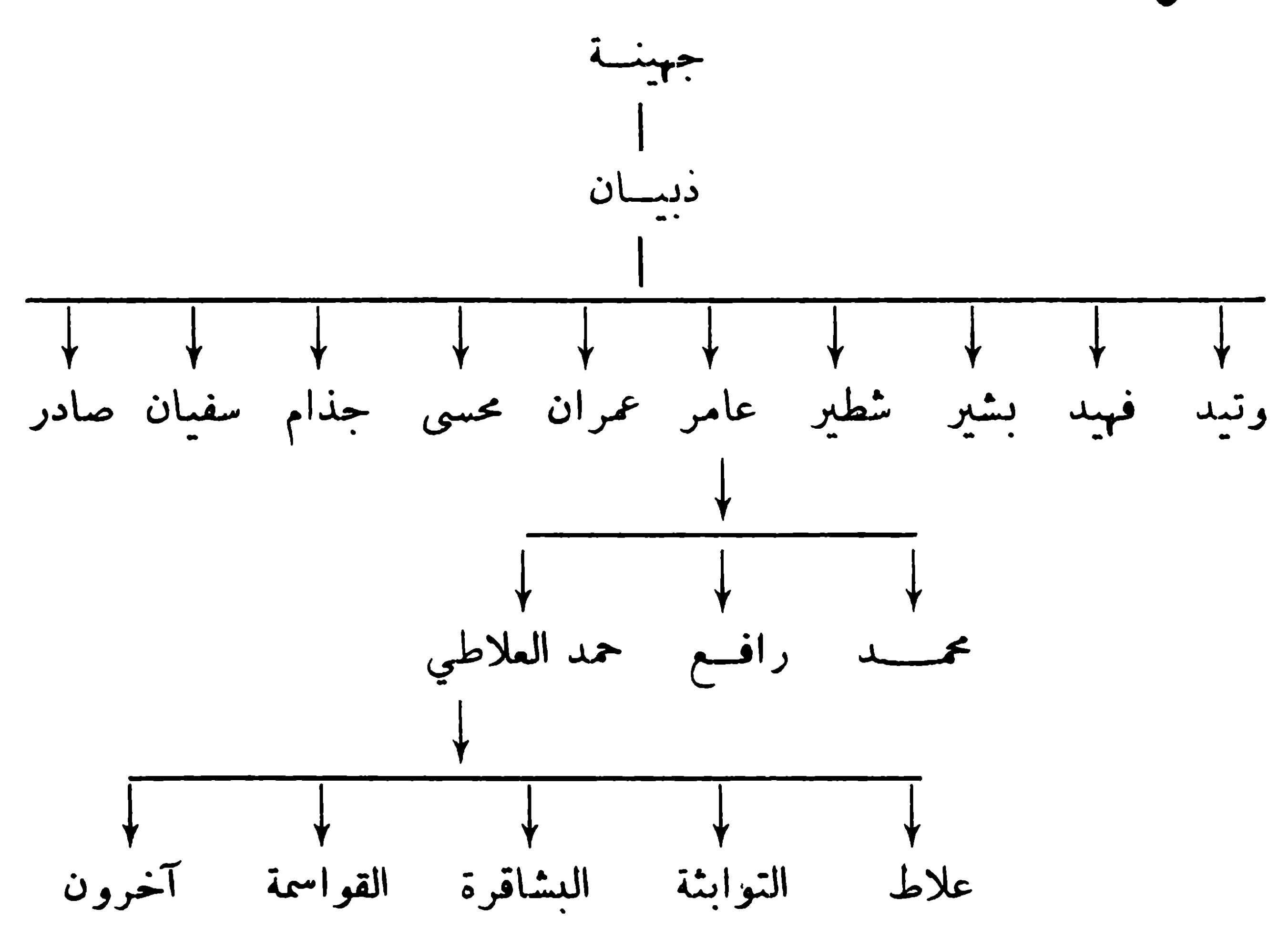
(١) Macmichael : A History of Arabs,vol 2, P: 80

أخذ هذا الجزء من شجرة النسب المقابلة لهذه الصفحة . ولما كايكل في هذا الكتاب أكثر من شجرة نسب ، غير أننا لم نأخذ منهـــا إلا ما له صلة بموضوعنا . ولم يأت اسم العبدلاب في الشجرة التي رسمها ما كايكل ، ولكننا أضفناه بناء على ما ذكره هو نفسه في متن كتابه (انظر ج ١ ، ص ١٣٨ - ١٤١) . وهناك نسخة في دار الوثائق المركزية (متنوعات ١ / ١٦ / ١٨٤) صاحبها أحمد الأزهري تتفق تماماً مع شجرة ما كايكل هذه (ص ٣٤ - ٣٥) .

رابعاً – رواية محمد بن الحاج علي بن الماحي بن مضوي بن دفع الله[1]

ان مضمون هذه الرواية لا يختلف – من حيث إلحاق العبدلاب بجهينة – عن سابقاتها ، فيما عدا رواية العبدلاب ومن شايعهم ، ولكنها تختلف في أمور أخرى . ويمكن أن نرسم منها شجرة نسب على الشكل الآتي :

الشجرة الثالثة :



دراسة هذه الشجرات :

بالتأمل في هذه الشجرات يتضح أن هناك نقاط اتفاق ونقاط اختلاف فيما بينها ، يرجع أهمها الى ما يلي :

---

(١) في أوراق نسب له ، توجد في ملف يحمل الارقام من (٤٣٤ – ٤٣٩) دار الوثائق المركزية ، متنوعات (١/١٦/١٨٤) .

١) **تسلسل النسب بين جهينة وذبيان** : ففي الوقت الذي يكون فيه ذبيان هو ابن عبدالله الجهني ، وجهينة هو ابن ريث في الشجرة الأولى نجد ذبيان في الشجرة الثانية والثالثة هو ابن جهينة ، وجهينة في الشجرة الثانية هو ابن عطية .

٢) **أولاد ذبيان العشرة** : واذا كان أحد أولاد ذبيان في الشجرة الأولى والثالثة هو شطير ، فإنه في الشجرة الثانية شاطر .

٣) **أولاد عامر** : وبينما نجد في الشجرة الاولى أن لعامر ولداً واحداً هو محمد إذا بالشجرة الثانية والثالثة تعطيانه ثلاثة من الأبناء هم : حمد العلاطي ، ورافع ، ومحمد .

٤) وحين تجعل الشجرة الاولى رافعا وحمد العلاطي أبناء لمحمد مع ستة آخرين ، ثم تمضي فتجعل قاسما (جد القواسمة) ابناً لرافع مع اثنين آخرين ، وحمد العلاطي أباً لأربعة أبناء ينحدر العبدلاب من أحدهم وهو عون، وبذلك تجعل هذه الشجرة من العبدلاب أبناء عمومة مع القواسمة ينحدرون جميعا من أصل واحد ، تنزل الشجرة الثانية القواسمة منزلة الاصل للعبدلاب ، فتجعلهم من نسل محمد ابن عامر ، على حين تجعل الشجرة الثالثة القواسمة أبناء لحمد العلاطي ، ولا تذكر لنا شيئاً عن العبدلاب مما يجوز معه أن يستنتج أنهم فرع من القواسمة .

بتأمل هذه الشجرات يترجح للناظر أن العبدلاب جهنيون . أما أمر علاقتهم بالقواسمة فيبدو من العسير الوصول – منها – الى خبر يقين ، ومن ثم وجب التوجه الى المصادر الحديثة ، الوطنية منها والاجنبية بغية محاولة توضيح الصلة بين القواسمة والعبدلاب ، وبين القواسمة وجهينة لأنها أساس دراستنا لهذا الموضوع .

هنا أيضاً يبدو أن الباحثين المحدثين أوقعتهم الاخبار التاريخية المتناقضة في لبس وغموض ، فلم يتبينوا حقيقة الصلة بين القواسمة والعبدلاب ، لهذا ذهبوا في تقديرهم مذهبين : اكتفى بعضهم بايحاءات النصوص فعمم الامر وقال : « القواسمة وأقرباؤهم العبدلاب» دون أن يحدد نوع هذه القرابة ، واستنتج الفريق الآخر أن العبدلاب فرع القواسمة فقال به .

من الفريق الاول عثمان حمدالله الذي بين أن من فروع قبيلة رفاعة الام القواسمة والشبارقة ... والعبدلاب . [1] ومنهم حسن سليمان فقد أوضح عند حديثه عن المجموعة الجهنية في السودان أنها تشمل قبائل رفاعة وأقربائها القواسمة والعبدلاب واللحويين وغيرهم [2] . فكأن العبدلاب عندهما مجموعة مستقلة كالشبارقة ، واللحويين تتصل رأسا بالقبيلة الام : رفاعة . ومنهم عبد القادر محمود في قوله : «ومجاميعها – يقصد جهينة في السودان – رفاعة وخيوطها القواسمة والعبدلاب والعركيون» [3] . فتعبيره – مع كونه أكثر غموضاً – يدل على أن العبدلاب يستوون مع القواسمة في الانتماء الى رفاعة ، والتفرع منها .

أما الفريق الآخر الذي استنتج أن القواسمة أصل ، والعبدلاب فرع منهم ، ففي مقدمته الدكتور محمد عوض محمد [4] الذي يقول :

« وكان هذا الفتح[5] نتيجة لتحالف القواسمة وعلى الأخص شعبةالعبدلاب

---

(١) التعارف والعشيرة (ص ٤٧) .
(٢) تاريخ السودان من أقدم العصور الى الآن (ص ٣٠) .
(٣) الفكر الصوفي في السودان (ص ٤٤) .
(٤) السودان الشمالي (ص ٢٥٢) .
(٥) يعني استيلاء المسلمين على سوبا .

برئاسة أميرها عبد الله جماع » . فكلماتــه واضحة الدلالة على أن القواسمة أصل تحته فروع منهم العبدلاب .

ومنهم محمد عبد الرحيم، فقد قال: « ٨٦ — عبد اللاب من عرب القواسمة، حضر يقيمون في قرى في يمين النيل عند جبل الرويان [١] » . فتعبيره يدل على أن العبدلاب جزء من كل هو القواسمة .

ومنهم الرحالة محمد مهري كركوري [٢] الذي دوّن في رحلته : «القواسمة — وهم أشهر قبائل سنار — ... ومنهم العبدلاب » ومن هـذا الفريق أيضاً نعوم شقير الشامي الذي أورد نفس العبارة تقريبـاً [٣] وفصّل ما كا يكل قليلاً فبين — بعد أن أكد تفرع العبدلاب من شجرة القواسمة — أن القواسمة شعبة من رفاعة التي تناسلت من رفاعي الذي انحدر من جهينة ، وأوضح أن بين عبد الله جماع و « رفاعي » هذا ثلاثة أجيال من الزمان [٤] .

وقد كان مندور المهدي أوضح الجميع في تقرير علاقة العبدلاب بالقواسمة . يقول : « ثم سار جيش الفونج إلى عاصمـة علوة الأخرى بنواحي شلال السبلوقة ، واستولوا عليهـا ، وهناك استقر فرع هام من عرب القواسمة ، وامتزج بالسكان وأدخلهم في دينه ، فتلاشوا فيهم دماً وثقافة ، وتكون القسم من السكان المعروف بالعبدلاب نسبة الى عبد الله جماع » [٥] .

لهذا النص أهمية كبرى ، إذ أنه — بالإضافة الى إثباته تفرع العبدلاب

---

(١) العروبة في السودان (ص ٣٤) .

(٢) رحلة مصر والسودان (ص ٣٩١) .

(٣) جغرافية وتاريخ السودان (ج ١ ، ص ٦٦) .

(٤) A History of The Arabs in the Sudan, vol. I, pp. 238 - 245.

(٥) تاريخ السودان الى قيام الاحزاب (ص ٦٣) .

من القواسمة - بين - لأول مرة - أن العبدلاب لم يعرفوا بهذا الاسم في التاريخ إلا بعد تأسيسهم مشيختهم في عاصمتهم « قرى » ، أما قبل ذلك فكانوا يعرفون بالقواسمة كغيرهم من فروع تلك الشعبة الكبيرة وإذا صح هذا - وهو عندي صحيح - رجح أن نطمئن الى رأي الفريق الثاني من الباحثين وصفوته : أن العبدلاب جزء من شعبة عربية كبيرة هم القواسمة وليسوا مجرد أقرباء لهم يجتمعون معهم في جد بعيد .

ومهما يكن من أمر القرابة بين القواسمة والعبدلاب فإن هناك أمراً لا خلاف عليه ، وهو أنه كان بين الفريقين - في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي - صلات رحم قوية تمثلت في انتماء الشعبتين إلى قبيلة رفاعة العربية المعتبرة فرعاً من جهينة كما تؤكد ذلك جملة من المصادر [1] ، وكان هناك من الوفاق والتلاحم بينهما ما مكن مؤسس شعبة العبدلاب : عبد الله جماع من أن يقود كتائب القواسمة في هجوم مشهور أدى الى سقوط عاصمة مملكة علوة الأولى « سوبا » ، ثم عاصمتها الثانية « قرى » ، حيث استطاع بعد ذلك أن يكون من القواسمة بيت ملك استمر في الحكم على مدى ثلاثة قرون من الزمان ، وتلك هي أسرة العبدلاب .

أما كلمة « العبدلاب » فإنها تعني القبيلة او الجماعة التي تنتسب الى عبد الله جماع ، ذلك لأن لفظ « آب » الذي تنتهي به أسماء كثير من القبائل العربية في السودان يعني في مدلوله : عائلة أو قبيلة [2] .

---

(١) انظر : ابن حزم . جمهرة انساب العرب (٢/٤٤٤) ، ابن طباطبا ، منتقلة الطالبية (ص ٣٨٠) ، عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة (٤٣٩/٢) ، السودان الشمالي (ص ٢١٨) ، التعارف والعشيرة (ص ٤٧) .

(٢) السودان الشمالي (ص ٢٣٤)، رحلة مصر والسودان (ص ٣٩٠) ، تقويم السودان لسنة ١٩٤٩ (ص ١٠٣) ، جغرافية وتاريخ السودان (٦٤/١) ، دائرة المعارف الاسلامية (٣٣٧/١٢) .

وقد اختلف الباحثون في أصله ، أهو لفظ حامي أم عربي ؟ من أنصار الرأي الاول دائرة المعارف الاسلامية ، فقد جاء فيها :

« واستخدام المقطع (الحامي) الاخير «آب» لتكوين اسم للأسر والقبائل ينسب الى الجد الاعلى (ربا طاب ، عالياب الخ ...) يمكن أن يقال فيها إنها ليست من أصل عربي[1] » .

والدكتور محمد عوض محمد الذي يميل الى الاخذ به فيقول :

« وإلحاق مقطع آب في آخر الاسم يرجع الى مؤثرات لغوية (لعلها حامية) قديمة وأثرها واضح في اقليم النيل الابيض والازرق ، والنيل الاعظم ، والجهات المجاورة للنهر ، ويمتد هذا التأثير شرقاً الى البحر الاحمر ، ويبدو بوضوح في قبائل البجة ، وهو مؤثر ثقافي وليس مؤثراً جنسياً ... وقد لاحظنا أن الكبابيش هم القبيلة الجهنية الوحيدة التي نجد فيها تلك المؤثرات التي تبدو في أسماء بعض بطونها ، وموقعها الجغرافي في شمال كردفان ، وقربها من بلاد النوبة وصحراء بيوضة أي الجهات التي تأثرت بالثقافة الحامية يجعلها بمثابة الشذوذ الذي يثبت القاعدة العامة[2] » .

ظاهر أن النص السابق حاول – بعد أن رجح حامية مقطع آب – أن يلتمس الاسباب لوجوده لدى بعض القبائل العربية في السودان ، وانتهى من ذلك الى القول بأن السبب هو وجودها في مناطق الحاميين ، ومن ثم تأثرت بلسانهم .

وقد أيد حامية المقطع أيضاً كل من : نعوم شقير[3] ، والريح

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية (ج ١٢ ، ص ٣٣٧) .
(٢) السودان الشمالي (ص ٢٣٤ – ٢٣٥) .
(٣) جغرافية وتاريخ السودان (٦٤/١) .

العيدروسي[1] ، ومحمد مهري كركوري[2] . غير أنهم ذهبوا إلى أنه مأخوذ من اللغة البجاوية . واستعمل العيدروسي تعبير الذي يشك في الامر فقال : «قيل إنها مأخوذة من اللغة البجاوية» كما أنه لم يستبعد أن تكون عربية[3].

وقد نقل الدكتور محمد عوض محمد عن « سليجمان » قوله : « إن كل اسم ينتهي بآب يدل على تأثير بجاوي[4] » .

بيد انني أرى أن مقطع آب «لفظ» عربي ، وعليه فإن معنى «رباطاب» مثلاً القبلية التي ابوها رباط ، فاللفظ هنا يتكون من رباط و « أب » وقد أبدلت الهمزة إلى مد في الكلمة الأخيرة تسهيلاً للنطق . وهكذا في بقية القبائل ، وهي نسبة عربية دارجة ابتدعها أهل السودان العرب ، ولم تكن حامية (نوبية أو بجاوية) بحال . يظهر ذلك واضحاً مما يلي :

يعتمد القائلون بأن لفظ « آب » حامي على استنتاج هو : أن كل قبيلة في آخرها هذا المقطع إما أن تكون قد أقامت في بلاد البجة عند هجرتها من الجزيرة العربية عن طريق البحر الاحمر ، أو عاشت في بلاد النوبة . وكلا المنطقتين بها عناصر حامية كانت لهما الغلبة قبل هجرة العناصر العربية اليها من مصر أو من الجزيرة العربية إليهـا مباشرة . وهذا الاساس لا يقوى على الثبات عند مناقشته ، وذلك للأسباب التالية :

أولاً : معظم القبائل الجعلية التي تعيش على ضفتي النيل من الشلال الثالث

---

(١) تقويم السودان لسنة ١٩٤٩ م (ص ١٠٣) .

(٢) رحلة مصر والسودان (ص ٣٩٠) .

(٣) العيدروسي : المرجع السابق والصفحة .

(٤) السودان الشمالي (ص ١٥٥) ولم يذكر لنـا الدكتور عوض المرجع الذي استقى منـه رأى سليجمان هذا . وقد رجعت الى كتاب سليجمان : (السلالات البشرية في افريقية) ترجمة يوسف خليل نشر مكتبة العالم العربي فلم اجد فيه هذا الرأي ، فلعله ورد في كتاب له آخر .

حتى السادس يصعب تصور عبورهم أرض البجة في ترحالهم من مهجرهم القديم في صعيد مصر إلى موطنهم الجديد في السودان ، ولم يقل بذلك أحد فيما أعلم، ولهـذا ليس محتملاً أن يكونوا قد أقاموا هناك حتى كسبوا هذا المقطع من البجاويين ، ومع هذا فمعظم قبائلهم تنتهي بهذا المقطع . مثال ذلـــك : الحنكاب ، النافعاب ، الرباطاب ، الأنقريباب وما إليهم .

ثانياً : هناك مجموعة عربية كبيرة هي : الكواهلة كانت لها أوطان تقيم فيها في أرض البجة بشرق السودان ، ومع هذا ليس في أواخر أسماء قبائلها هذا المقطع : « آب » [١] .

ثالثاً : وإذا كان هناك احتمال ببقاء القبائل العربية المهاجرة من مصر إلى السودان في أوطان النوبة زمناً طال أم قصر ، ومن ثم تأثروا بالحامين فجاء في قبائلهم لفظ « آب » كما هو رأي القائلين به فان الرد على هذه المسألة يأتي في القول بأننا لم نسمع – ولا نسمع الآن – مجموعات حاميـــة ، أو قبائل عربية في أرض النوبة الشمالية تلحق بآخر اسمها هذا المقطع . لا قبل دخول العرب الى هذه المنطقة ، ولا عند دخولهم إليها وتكوينهم الممالك والمشيخات فيها ، ولكننا نسمعهم يقولون : الدناقـــلة والمحس والكنوز أو بنو الكنز والفادنية وما الى ذلك ، وإذا فمتى كانت بلاد النوبة (الحامية) تعرف هـذا المقطع ؟ ومتى أصبحت بلاد النوبة (المستعربة) تلحقه بأسماء قبائلها للدلالة على النسبة ؟!

رابعاً : نلاحظ أن الدكتور عوض نفسه يهدم أساسه الذي بنى عليـــه حامية مقطع آب ، وذلك حين يقرر أن السودان كلـــه – فيما خلا دارفور وكردفان – لا تخلو قبيلة فيه لا يوجد بينها بطن أو أكثر يتجرد عن هـذه

---

(١) السودان الشمالي (ص ٢٣٤) .

الظاهرة ، وذلك حين يقول : « فإن الرأي الذي ذهب إليه «سلجمان » بأن كل اسم ينتهي بآب يدل على تأثير بجاوي رأي سطحي ، ولو جاريناه فيه لما كان هناك عرب خالصون في جميع السودان فيما عدا دارفورو كردفان، لأننا لا نكاد نجد قبيلة عربية ليس بين بطونها أو أكثر له هذه الصفة ، وكلها ليس لدينا دليل على أنها من أصل بجاوي » . [1]

إننا لا نظن أن الدكتور عوض يحصر طرق الهجرة الى السودان في البابين الشمالي والشرقي ، ولا نظنه كذلك يعتقد أن كل الذين وفدوا عن هذين الطريقين أقاموا في البجة والنوبة وقتاً يكفي لنقل المؤثرات الحامية إليهم . على أننا نعلم جميعاً أن العرب هم الذين نقلوا المؤثرات العربية والاسلامية – وبخاصة الثقافية منها والجنسية – الى سكان البلاد الاصليين في البجة والنوبة وأي مكان حلوا فيه .

من هذا كله يظهر أن الاساس الذي بنى عليه أصحاب القول بحامية « آب » نظريتهم غير سليم ، وأن مقطع « آب » هذا – في حقيقة الامر – ليس حامياً ، ولا هو أثر لغوي للبجة ، وإنما هي نسبة عربية دارجة – كما أشرنا – جرت على ألسنة العامة من السودانيين لسهولتها ، ودلت على معنى القبيلة التي أبوها فلان [2] .

ب) أصل الفونج : [3]

اختلف الباحثون في أصل الفونج ، فذهب بعضهم الى انهم من أصل زنجي

---

(١) السودان الشمالي (١٥٥) .

(٢) انظر تقويم السودان لسنة ١٩٤٩ فان واضعه لا يستبعد مثل هذا الاستنتاج .

(٣) لم أتناول أصل الفونج هنا الا بالقدر الذي اقتضاه اقتران اسم العبدلاب باسمهم ، كطرف في الحلف الذي أسقط مملكة علوة .

هو الشلك ، وقال آخرون بأنهم من البرنو ، وادعى فريق ثالث أنهم عرب أمويون . ولنبدأ بأقدم الروايات :

١) **القول بأنهم من الشلك** : زار الرحالة الاسكتلندي «جيمس بروس» سنار عاصمة الفونج حول سنة ١٧٧٢ م ، ثم كتب مذكراته بعد ذلك، وفيها زعم أن الفونج زنوج ينحدرون من قبيلة الشلك التي جاءت من جهة النيل الأبيض على زوارق ، واستولت على حوض النيل الأزرق بعد أن خاضت معركة فاصلة مع جيش ود عجيب شيخ العرب انتهت بهزيمته ورضوخه للشروط التي أمليت عليه ، ومن بينها أن يضمن خضوع العرب للشلك ، وأن يتكفل بتقديم نصف ماشية العرب لهم [١] .

وحين استهدفت هذه النظرية لنقد شديد من الباحثين دافع عنها آركل لفترة من الزمن ، بحسبانها النظرية المثلى لأصل الفونج ، ثم عاد فعدل عنها الى رأي جديد . [٢]

ومن هذا الفريق أيضا هارولد ماكايكل ، فقد قرر صراحة أن قبيلة الفونج – بحكامها – زنجية ، وذلك في قوله : « بعد مرور ١٠٠ سنة على سقوط دنقلا الاخير ... نجد زعيم ربيعة ... يعقد معاهدة رسمية مع سلطان قبيلة الفونج الزنجية المسلم ، الذي جعل ، وهو سائر من الجنوب – عاصمة ملكه في سنار على النيل الأزرق . [٣]

---

(١) Bruce, J, Travels to discover the Sources of the Nile, vol.4. pp. 548 - 549.

(٢) Arkell, Fung origins, S, N, R, vol, XVII,pp, 208 - 243.
وانظر : تاريخ الثقافة العربية في السودان (٥١) .

(٣) دخول العرب في السودان (معرب) (ص٣١ – ٣٢) .

٢) الفونج من البرنو :

انتهى آركل – بعد أن ووجه رأي بروس السابق بنقد قوي كما أشرنا – الى رأي جديــد مؤداه : أن الفونج من البرنو جاؤوا من بحيرة تشاد حيث موطن البرنو ، ذلك لأن صلات سنار بدارفور وبرنو وثيقة ، وأن تاريخ برنو الذي كتب في عهد ماي ادريس ملك برنو (١٥٧١ – ١٦٠٣) يؤكد امتداد برنو شرقاً الى وادي النيل . كما أن الروايات المحليــة تشير الى أن مؤسس السلطنة السنارية إنما هو ماي عثمان الذي طرد من برنو حول سنة ١٤٨٦ م . وإذا كان لفظ «عمارة» يرد في جداول أسماء ملوك برنو فانما يدل ذلك على انحدار عمارة دونقس من سلالة ماي عثمان هذا . [١]

ويمضي آركل الى افتراض كون ماي عثمان المطرود قد صحب معه جماعات من البرنو نزل بهم على النيل الابيض حيث كان الشلك ، وتحالف الفريقان على حرب العبدلاب عند « أربجي[٢]» . وقد أيّد عبد المجيد عابدين هــذا الرأي بتحفظ فقال : «ولا يسع المتأمل في تاريخ الثقافة في عهد الفونج إلا أن يؤيد آركل في بعض ما ذهب إليه » . [٣]

٣) الفونج من أصل عربي :

تقول بهذا الرأي روايات الوطنيين ، وثلة من الباحثين المحدثين ، فكاتب الشونة يعبر عن عروبة الفونج بقوله : «قيل إنهم من بني أميــة» هربوا الى بلاد النوبة والبجة عندما تعقبهم سيف عبدالله السفاح ، وجاء منهم رجلان

---

(١) Fung Origins, S. N. R. vol. XV, pp. 201 - 250.

A History of the Sudan from the Earlied Times to 1821,pp. 206-207.

(٢) Loc, Cit.

وانظر : معالم تاريخ سودان وادي النيل (ص٢٧ – ٢٨)،حسن ابراهيم حسن (دكتور): انتشار الاسلام والعروبة (ص١٠٨) .

(٣) تاريخ الثقافة العربية في السودان (ص٥١) .

الى «لولو» [١] ، ومن طريق مصاهرتها لأهل تلك البلاد انتقل إليها الملك ومن ذريتها ملكوك الفونج .

ويذكر نفس المصدر رأياً آخر يقرر فيه أيضاً أنهم عرب ولكن من بني هلال ، جاء أحدهم من السافل [٢] إلى « لولو » فتفاءل به أهلهـا وزوجوه بنت ملكهم ، فأنجب منها ولداً ورث عرش أجداده . وهكذا انتقل الملك للفونج العرب عن طريق توريث ابن البنت ، على عادتهم [٣] .

وأكد مؤلف مجهول يفهم من متن النص أنه معاصر : أن الامويين الذين هربوا إلى السودان على عهد الخليفة عبد الله السفاح هم « سلطنة السودان الآن ، وهم أهل الدولة ببلاد الهمج ... ويشتهرون بالغنج » [٤] . وقد هربوا أولاً من وجه العباسيين إلى بلاد الحبشة حيث أقاموا بها زمناً ، فلمـا جد السفاح في طلبهم هناك غادروها وجاء زعيمهم الى « لولو » حيث تزوج بنت ملك السودان الكائن بالصعيد [٥] . أي سنار ، واستولدهـا ولدين انتقلت الدولة اليهم بعد وفاة جدهم الملك « تقوا »، فصاروا ملوك السودان المعروفين بالغنج ... فأول « ملك منهم السلطان عمارة دونقس »[٦] .

---

(١) « لولو » هي اقليم فازوغلي . يقول الدكتور شبيكة : «ولو صح ان لامول التي ذكرها روبيني ، ولولو التي ذكرها الشيخ أحمد كاتب الشونة هما اسمان لمكان واحد مع تحريف احداهما لاشارت كل الدلائـل على ان موطن الفونج الاول ... هو اقليم فازوغلي» ، السودان عبر القرون (ص٥٢) .

(٢) السافل هو المدى المكاني الذي يبدأ من شمال امدرمان وينتهي عنـد الشلال الثالث . (انظر خارطة رقم (٢) ص٢٨٦ من معالم تاريخ السودان) .

(٣) أحمد بن الحاج أبو علي ، مخطوطة كاتب الشونة ، حرفا ط ، ي .

(٤) الامين الفكي يوسف : مجموعـة من أنساب عرب السودان (ص٦ – ٧) . ويفهم من السياق في هذا الكتيب أن معلوماته مستقاة من كتاب السمرقندي المفقود (انظر ص٥ منه).

(٥) الصعيد هو منطقة الجزيرة التي تمتد من مقرن النيلين شمالاً حتى حدود السودان الجنوبية وتشمل احواض : الرهد والدندر والنيل الازرق والابيض شرقاً . (انظر : معالم تاريخ سودان وادي النيل ص٢٨٦) .

(٦) مجموعة انساب عرب السودان (ص٦ – ٧) .

وكتب أحد سلاطين الفونج – وهو محمد بادي عجيب (١٦١٢ – ١٦١٩) تقريباً – الى امراء القوم بمدينة دنقلا يذكر لهم أنه – وآل بيته الفونج – من أهل الملك العريق : بني أمية ، ثم يسرد لهم نسبه هو وبعض آل بيتـه السلاطين حتى يصله بأمية جد الأمويين [١] .

أما الباحثون المحدثون الذين أيدوا عروبة الفونج وانحدارهم من بني أمية فمنهم كروفورد الذي ادعى أن الأمير الأموي الهارب وفد من الحجاز أولاً إلى اثيوبيا ، غير أن مقامه فيها لم يطب ،فغادرها الى شمال ارتريا حيث تزوج في « كرن » من بنت ملكها التي كان من نسلهـــا عمارة دونقس أول ملوك الفونج [٢] ، ونفى أن يكون الفونج من الشلك بدليل أن لغتهم عربية ، وأن قدومهم في القوارب من غرب النيل الابيض – وفق مـا ادعاه بروس – لم يثبت بدليل [٣] .

ومن الذين قالوا بعروبة الفونج أيضاً شاتاوي [٤] ونادلر[٥]. ومنهم الشاطر بصيلي ، فقد أيد هذه العروبة بقوله : « وسواء كانت تلك الأسرة من بني أمية أو من البليّ فهي عربية الأصل على أي حال » [٦] . كذلـــك أعرب عبد القادر محمود عن يقينه بعروبة الفونج ، وشاركه في ذلك نسيم مقار[٧] .

---

(١) انظر الملحق السابع من كتاب : معالم تاريخ سودان وادي النيل (ص ٢٧٠ – ٢٧١) حيث خطاب السلطان .

(٢) The Fung Kingdom of Sennar, P. 145.

(٣) Ibid, PP. 143 - 144.

(٤) I. D. P. Chatawaey, Notes on the History of The Fung, vol. XIII, S. N. R. 1930, Part 2, PP. 247 - 250.

(٥) L, F, Nalder, Fung Origins, S. N. R. VoL.XIV, 1930, Part 1, pp. 61 - 66.

(٦) معالم تاريخ سودان وادي النيل (٣١) .

(٧) الفكر الصوفي في السودان (ص ٣٦ – ٣٧) .
اقتصاد السودان (مخطوط) (ص ٣) .

ونص محمد عبد الرحيم على عروبة الفونج – في معرض حديثه عن القبائل العربية في السودان : « ٧ – فونج ، هؤلاء من بني أمية ، فروا من سيف السفاح للحبشة »[١] .

أما أحمد حسن محمود فإنه لا يكتفي بالقول بعروبتهم ، بل يرجح: « أن الفونج ارستقراطية عربية ذات نسب أموي »[٢] .

ويلخص الدكتور مكي شبيكة محصلة هذا الرأي فيقول : « والجدل لا يزال قائماً عن أصل الفونج ، ولكنهم يدعون النسب الى بني أمية ، وما تذكره المصادر العربية عن هروب بعض الأمويين لبلاد البجة والنوبة من مصر عند انهيار دولة بني أمية وقيام الدولة العباسية يمدهم بدليل لهذا الادعاء ... ويحتمل زواج هؤلاء الأمراء الأمويين من افريقيات في تلك المدة في ارتريا والحبشة مما جعل ألوانهم وبعض تقاطيع أجسامهم مماثلة للعناصر الافريقية »[٣] .

والحق أن ما أشارت اليه بعض المصادر السودانية ، والروايات المحلية ، وأشار اليه بعض الباحثين المحدثين من هجرات أموية الى بلاد السودان أمر محقق الوقوع ، أيدته مؤلفات المسلمين ، فقد ذكره اليعقوبي ، والطبري[٤] ، والمسعودي[٥] ، وابن تغري بردي[٦] ، والمقريزي[٧] . وبين أقدمهم[٨] أن عبد الله وعبيد الله ابنا مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية توجها – ليلة قتل أبوهما – « نحو الصعيد ، ثم صارا الى بلاد النوبة ، وتلاحق بهما جماعة من أصحاب مروان فصاروا زهاء أربعة آلاف ... ووافى القوم بلاد النوبة

---

(١) العروبة في السودان (ص ٤١) .

(٢) الاسلام والثقافة العربية (ج ١ ، ص ٣١٨) .

(٣) مختصر تاريخ السودان الحديث (ص ٥) .

(٤) تاريخ الرسل والملوك . (نشر دي غويه ، ليدن) (٣/٤٦) .

(٥) التنبيه والإشراف (ليدن) (ص ٣٢٩ – ٣٣٠) .

(٦) النجوم الزاهرة (١/٣١٩) .

(٧) الخطط (١/١٩١) .

(٨) اليعقوبي في تاريخه (طبعة النجف ١٣٥٨ هـ) (٣/٨٤ – ٨٥) .

فأكرمهم عظيم النوبة، ثم قالوا نقر في بعض هذه الحصون التي في بلاد النوبة فلعلنا نتخذ منها معقلاً ونقاتل من يلينا من العدو ، وندعو إلى طاعتنا ، لعل الله أن يرد علينا بعض ما أخذ منا . فقال لهم عظيم النوبة: إن هذه الأغربة - يريد السودان - كثير عددها قليل سلبها ، وإني لا آمن عليكم أن تصابوا فيقال أنت قتلتهم »[1] .

على إثر هذه المحاجة غادروا بلاد النوبة إلى أوطان البجـة ثم الحبشة ، ولقوا من الأهوال والشدائد - بين النوبة والبجـة والحبشة - ما فت في عضدهم ، وأفنى الكثير منهم ، وما بقي حياً منهم قطع إلى بلاد اليمن ، أو « جدة » من أرض الحجاز [2] . وليس بمستبعد أن يكون قد بقي بعضهم في أرض السودان .

وقد اعتبرت وثيقة مقابر الفونج في شرق السودان التي حررها « كارلو كونتي روسيني » دليلاً على مرور هؤلاء الأمويين - أثناء تيههم - بهذه المنطقة حيث دار قتال بينهم وبين قبائل البجة لحقت فيه بهؤلاء الأمويين هزيمـة منكرة غادروا على أثرها للحبشة [3] .

ولا يملك المرء - إزاء توافر الشواهد العديدة للرأي الأخير - إلا أن يرجح أن الفونج - حلفاء العبدلاب - جنس من العرب ، دون حاجة - بعد ذلك - الى التقيد ببني أمية أو غيرهم من الأصول العربية ، ومع هذا فربما كان الأصوب أن نقول مع الدكتور شبيكة : « ومهما كان من أمر فالفونج في ادعائهم النسبة لبني أمية يستوون مع كثير من القبائل السودانية الحالية في ادعاء النسبة إما لآل البيت ، أو للعباس عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو لبعض كبار الصحابة » [4] .

---

(١) اليعقوبي في تاريخه (طبعة النجف ١٣٥٨ هـ) (٨٤/٣ - ٨٥) .
(٢) نفس المصدر السابق والصفحات ، وانظر التنبيه والاشراف (ص ٣٢٩ - ٣٣٠) .
(٣) معالم تاريخ سودان وادي النيل (ص ٣٠ ، ٢٥٥) .
(٤) مملكة الفونج الاسلامية (ص ١٠١) .

٦ – مناطق العبدلاب الآن :

ينتشر العبدلاب الآن في خمس من مديريات السودان التسع على النحوالتالي:

١ – المديرية الشمالية :

يقيم الأدركوجاب أبنـــاء أحمد ادركوجة بنواحي دنقلا وحفيرمشو وتنقسي الجزيرة ، كما يقيم الانقريات أبناء ادريس الأنقير ابن عبد الله جماع في عموديتي أرتولي والباوقة التابعتين لمركز بربر ، ويقطن الديوماب أبنـــاء محمد ديومة جهة جبل جاري ومرنات .

٢ – مديرية الخرطوم :

يسكن في بلدة الجيلي السباب أبناء محمد سبة . ويقال إن محطـــة الجيلي الحالية سميت باسم أحد أجدادهم . أمـا في شمبات والحلفاية والحديفي فقد استقر العجيباب والشاباب وبعض ذرية محمد العقيل . وأقام الحماداب أبنـاء حماد بن عجيب في الشجرة ، وحلتهم تعرف إلى الآن باسمهم ، كذلك يعيش المسامير والشاميم في دبك ، وذرية محمد عنتر بدبة ود العجيل .

٣ – مديرية النيل الأزرق :

يقطن في الكاملين من العبدلاب الشاميم والمسامير، ويقال إن اسمها مشتق في الأصل منهم ، كما يسكنون أيضاً في عد الشيخ جماع وبرانكو والسعداب والهلالية، وفي الأخيرة يقيم أيضاً الاسيداب أبناء الإسيد، ويعيش العريباب، أبناء الشيخ عريبي بن الشيخ عجيب ، في بلدة العريباب بجهـــة رفاعة قرب الهلالية ، وكذلك العبوداب في عبود .

٤ – مديرية كسلا :

في مدينة القضارف التابعة لهذه المديرية يقيم الشاوراب أبناء الشيخ شاور،

أما العتامنة أبنـــاء الشيخ عثمان بن الشيخ عجيب المانجلك فانهم يقطنون في منطقة البحر الاحمر، وينتشرون من محطة مسمار إلى حدود مصر وإلى طوكر وحلايب وبور سودان، و «محمد قول»، وأهم مراكزهم ديم عرب ببورسودان، ولهم ناظر وشيخ خط وسبع عشرة عمودية وعدد كبير من الشيوخ .

ويقطن أولاد محمد الباقر نواحي مدينة كسلا ، ومنهم الشيخ علي بيتاي المشهور بتعليم القرآن الكريم هناك هذه الأيام . [١]

٥) مديرية كردفان :

إبان حرب المسبعات [٢] أخذت بطون من العبدلاب تدخل منطقة جبال النوبة ، واستقرت في جبال الضباب الى وقتنا هذا ، وشاركتهم سكناهم بعض القبائل العربية ، وصاروا يعرفون الآن باسم الشوابنة نسبة لجبل شيبون، وسكن بعضهم في منطقة «تيري – مندى» شمال نقطة «تالودي» ، والعقبة غرب هيبان التي سميت بذلك تيمنا بعقبة قرى عاصمة العبدلاب الاولى . ومنهم جماعة كبيرة أنشأت قرية في مدينة كادقلي تسمى «الشمة» . أما في شمال جبال النوبا فقد اتخذوا أسماء متعددة ، من أشهرها اسم «الفونج» على سبيل المجاز للعلاقة التي كانت بين العبدلاب والفونج قديماً ، وقد اتجه نفر منهم الى هذه الناحية حيث استقر الرجل الاول منهم – واسمه الحاج احمد– في جبال الكدرو من أعمال مدينة الدلنج ، وما لبث أن أسس قبيلة كاملة

---

(١) انظر تفاصيل مـــا سبق في : الباشا : جوانب من تاريخ العبدلاب (٢٤ ، ٢٧) ، وانظر كذلك جريدة الثورة السودانية بتاريخ ١٩٦٢/٦/٢٩ م في بحث عنوانـــه : شخصيات وقبائل من التاريخ للاستاذ ابراهيم مصطفى عريبي . وانظر : احمد عبد الرحيم . تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية (ص ١٠٥ – ١١١) . اما عن : « العتامنة » فقد زرت الشيـــخ محمد عثمان عيسى هلال أحد كبار رجالات العبدلاب العتامنة الآن ببور سودان بتاريخ ٢١/٦/ ١٩٧٠ فأكد لي صحة ما ذكرته عنهم من معلومات .

(٢) سيأتي الحديث مفصلاً عنها في موضعها من هذا البحث .

تعرف اليوم بأولاد جبريل . ومنهم «المسعوديـــة» وكبير هؤلاء القوم اليوم الشيخ هجين ناصر نقدالله ، وهو صاحب الككر المتنازع عليـــه اليوم ... ومنهم جماعة استقروا في ديار بني جازم» .

كذلك توجد بطون من العبدلاب في منطقة شرق الجبال «تقلى» كما أكد ذلك ابراهيم عباس ضابط تعليم مركز «الفولة» سنة ١٩٦٥م بمدينة «كادقلي».

وفي منطقـــة شمال كردفان عدد من ذراري العبدلاب وخصوصاً في مدينة «بارا» .

«ومجمل القول فان العبدلاب ينتشرون في عرض الجبال وطولها،ويتخذون أسماء مختلفة حسب البيئات التي يعيشون فيها » [1]

---

(١) راجع موضوع : العبدلاب في مديرية كردفان ، مفصـــلاً في بحث الاستاذ : الجزولي ناصر التجاني (ص ٤ - ٦) ، والبحث موجود بيد الاستاذ الدكتور يوسف فضل حسن مدير شعبة ابحاث السودان بجامعة الخرطوم .

الفصل الثاني

قيام «قرى» عاصمة العبدلاب

١ – موقع قرى ووصفها :

تقع قرى في الحد الادنى للمنطقة المطرية المدارية ، وتقرب من النقطة التي تلتقي فيها القوافل التجارية المصرية بخط عبور النيل الى صحراء بيوضة ومنها الى مصر عن طريق دنقلة – مشو – واحة سليمة .[١] وهي على خانق سبلوقة ، أو ما يعرف بالشلال السادس في طرفه الجنوبي ، وعلى الضفة الشرقية للنيل ، وتقوم على قاعدة «عقبة» نسبت إليها فقيل «عقبة قرى» تبعد عن النيل بنحو ربع ميل ، وتقوم قرى على أرض مسطحة تتكون من حفر متداخلة منعدمة الشكل ، ربما كانت بقايا جدران منازل طينية ولكن ليس فيها شيء يشبه خارطة المنازل .[٢]

وقد مكن هذا الموقع الممتاز لقرى الذين يقبضون زمام السلطة الزمنية فيها من جمع «الجمارك» التي تدرها تجارة المرور ، كما أمكنهم أن يسيطروا على كل العرب الذين يتجمعون في الاراضي المطرية الخصبة وبخاصة في سهل البطانة ، ويجمعوا منهم ما عليهم من ديون .[٣]

في جنوبي قرى وبالقرب منها يرتفع قبر الشيخ عجيب الكبير ، وقبل

---

(١) Macmichael, History of the Arabs, Vol. I. P. 246,
Crawford, the Fung Kingdom of Sennar, PP. 65 - 66,
والباشا : جوانب من تاريخ العبدلاب (ص ٢٢) .

(٢) Crawford, PP. 66 - 67,

(٣) والباشا : نفس المصدر والصفحة Macmichael, OP - cit, p. 246,

عهد ليس بعيداً كانت قد انهارت عليه القبة التي كانت قد نصبت عليه ، كما كانت ترقد عليه أيضا جذوع النخل التي اتخذت دعائم ترتكز عليها تلك القبة . والقبر – وهو أبرز المعالم في قرى – يتكون من سور طويل تابوتي الشكل من الطوب الاحمر ، ويلحق بالقبة من جهة الشرق سور صغير يليه من الخارج حائط من الحجارة الغليظة ، وعلى مسافة لا تبعد كثيراً من قرى القديمة هذه وشرقها ساحة صغيرة بها قبة قديمة لا تزال قائمة تنسب لأحد شيوخ الركابية . (١)

ويبدو أن قرى عند نشأتها الاولى كانت تجمعاً صغيراً من البيوت أقيم حول منزل الشيخ ، ذلك لأنها كانت في عهد «بروس» (١٧٧٢م)قرية تتكون من نحو مائة واربعين منزلا ، لا يزيد ارتفاع الواحد منها عن طابق واحد ، وكانت نظيفة جيدة البناء ، مسطحة السقوف ، مبنية من نفس التراب الملون القائمة عليه ، لهذا تصعب رؤيتها من بعيد (٢) . وليس يعرف إن كان ذلك لغرض عسكري ، ام هي المصادفة بلا تدبير .

٢ – نشأتها :

لا يعرف شيء عن قرى خلال الفترة المسيحية من تاريخ السودان ، ولم يذكرها الرحالة اليهودي اليماني روبيني – الذي ذكر مملكة جعل – عندما مر بهذه المنطقة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي (٣) ، ولكنه ربما

---

(١) Grawford, Op- cit P. 67

عندما زرت قرى في العام الماضي وجدت أن الوضع بالنسبة للقبة آخذ في التغيير ، فقد شرع الشيخ عثمان أونسة كبير العبدلاب في بناء قبة على القبر من الطوب الاحمر .

(٢) Ibid, pp. 66-67

وانظر : مملكة الفونج الاسلامية (ص ٤٠) .

(٣) Ibid,p.65

تجنب المرور بها عن قصد [١] ، لأنها لم تكن موجودة آنئــذ كما استنتج الدكتور مكي شبيكة [٢] .

أما بونسيه فقد ذكر انه اجتازها بعد أن عبر النيل عندهــا في مستهل سنة ١٦٩٩ م ، وقد أطلق عليها « مقر الحاكم » الذي وظيفته الرئيسية أن يتحقق من خلو جميع القوافل الآتية من الشمال والشرق من مرض الجدري الذي كان منتشراً في ذلك الإبان في تلك الجهات ، كما كانت من مهامــه الرئيسية – على ما رواه بونسيه – تحصيل الضرائب «الجمركية» من التجارة.[٣]

والسؤال الصعب الذي عسرت الاجابة عليه – يقينا – حتى الآن هو : متى غدت «قرى» هذه عاصمة لدولة العبدلاب ؟ هل كان ذلك بعد سقوط سوبا كما هي الرواية المشهورة ؟ أم كان قبله بوقت قصير أو طويل .؟؟ هاتان روايتان نعرض تفاصيلها فيما يلي :

الرأي الأول :

يقرر هذا الرأي انه بعد أن أسقط الجيش المتحالف – جيش العبدلاب والفونج – عاصمة علوة الاولى «سوبا» – على نحو ما أبناه في الفصل الاول – توجه الى عاصمة العنج الثانية «قرى» التي تشير المصادر القديمة الى ملكها تارة «بملك الغرب» وطوراً «بملك القرى» [٤] . ومرة أخرى يكتب النصر للجيش المتحد ، فتسقط قرى كما سقطت قبلها سوبا ، ويقضى بذلك على آخر معقل

---

(١) Ibid , P - 56

(٢) مكى شبيكة : مملكة الفونج الاسلامية (ص ٤٠ – ٤١) .

(٣) Poncet , Jacques , The Red Sea and adjacent Countries at The Close of The Seventeenth Century - P . 16 .

(٤) تاريخ ملوك السودان (ص ١) ، واضح البيــان (ص ٢) ، السودان في رسائــل ومدونات (مج ١٧ ، ص ٦١ – ٦٢) ، تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ٦) ، تاريخ مختص بالنوبة (ص ٢ – ٣) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٧) .

مهم للمسيحية المتمثلة في دولة علوة بالسودان [١] ، ويسود فيه – على أنقاضها – نظام حكم جديد تقوم أسسه على مبادىء الاسلام .

وهذا يعني أن قرى عندما ظهر العبدلاب كقوة مؤثرة في الحياة السياسية في السودان كانت قائمة بالفعل ولم ينشئها العبدلاب ، وإنما اقتصر دورهم على على انتزاع السلطة الزمنية من أيدي العنج ملوك علوة المسيحية الذين كانوا يسيطرون عليها .

وقد أعطت روايات العبدلاب مزيدا من التفاصيل عن نهاية مملكة علوة وانتقال السلطة في قرى الى أيدي العبدلاب فذكرت أنه بعد أن تم الاستيلاء على «سوبا» انهزم جيش العنج الذي كان يقوده رجل يدعى حسب الله ، الى قرى التي أحاطها بسور عظيم ، وبنى داخله حصوناً قوية نزلها بجيشه وتحصن فيها . وهنا تختلف روايات العبدلاب ، فبعضها [٢] يقرر أن الذي تبع حسب الله من العبدلاب وحاصره حصاراً شديداً حتى استسلم في النهاية كان عبدالله جماع ، وبعضها الآخر يذهب الى أن الذي حاصر «قرى» واستولى عليها إنما هو ابن عبدالله جماع الشيخ عجيب الكبير . [٣]

---

(١) نفس المصادر بصفحاتها . وانظر : تاريخ السودان الى قيام الاحزاب (ص ٦٣) ، شيني : حفريات سوبا (ص ١٤ – ١٥) ، تقويم السودان لسنة ١٩٤٩ م (ص ٤٨) ، بلاد النوبة في العصور الوسطى (ص ١٠ – ١١) التربية في السودان (١/٣٥) ، السودان دراسة ... (ص ١٦٢) ، عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب (ص ١٦٤) ، الفكر الصوفي في السودان (ص ٣٧) .

(٢) السودان في رسائل ومدونات (مج ١٧ ، ص ٦١) ، واضح البيان (ص ٢) (وعلى هذين المصدرين المعول لقدمهما النسبي) ، وانظر : تاريخ مشيخة العبدلاب (مخطوط)(ص٦)، وكذلك جريدة الثورة السودانية العدد (٥٦١ بتاريخ ١٩٦٢/٦/١٥ م) بحث بعنوان : شخصيات وقبائل من التاريخ ، للاستاذ ابراهيم مصطفى عربي .

(٣) تاريخ مشيخة العبدلاب (ص ٦) . وقد تمت في ١٩٦٩/٥/١ م بزيارة الى « قرى » هذه بغرض تاريخي هو مشاهدة قبة الشيخ عجيب الكبير ثاني ملوك العبدلاب ، ومشاهدة ←

وتتفق الروايات على أن قرى سقطت ، بعد المقاومة ، في يد العبدلاب .

← حصون العنج هذه التي اشارت لها بعض المصادر السودانية ، وعندما وصلنا قرية « دبك » (وهي من قرى العبدلاب الى الآن) ساخت قوائم سيارتنا في الرمل ، فاستغثنا بالمزارعين ، فكان منهم رجل متقدم في السن من أسرة العبدلاب سألنا عن وجهتنا فلما أعلمته قال : اذا كنتم تعنون بدراسة تاريخ أجدادكم فزوروا « سور حسب الله العنجاوي » . فقلت للشيخ : ما قصة هذا السور ؟ قال : سور بناه قائد العنج حسب الله (أو قال ملكهم) ليتحصن به من الجيش بعد أن هزم في سوبا ، وأراد الشيخ عجيب أن يتعرف عليه وعلى مدى قوة العنج المتحصنة فيه – وذلك قبل خراب سوبا – فتزوج من ابنة حسب الله ـ قائد العنج ـ وبهذا أمكنه أن يدخل السور ويبلو أخباره ، ولكن حسب الله أدرك مرامي الزعيم العبدلابي ، فسأل ابنته عن أمرها معه ، وعن مدى اعجابه بما أعد له من روائع الزينات في بيت عرسه ، فأجابت أباها أنه غير عابىء بكل ذلك . هنا تيقن حسب الله أن مصاهرة عجيب كان غرضها التجسس . وقد استطاع عجيب بهذه الحيلة أن يقف على جوانب الضعف في السور والحصون والجيش ، وأفادته هذه المعلومات بعد سقوط سوبا فداهم الحصون ، واستولى عليها .

وعندما وصلت قرى ذهبت الى منطقة الحصون في معية خبير من أبناء القرية يقارب عمره الستين ، وله المام واسع بتاريخ قرى، اسمه : عبدالوهاب ابراهيم محمد الخضر ، ولدى وصولنا الى جبال شواهق وقفت لاسمع اليه يقول : في هذه الجبال الضخمة التي أنت بينها الآن أقام حسب الله العنجاوي حصونه الثلاثة التي ترى اثنين منها الآن : هذا هو الحصن الأول ، ويلتقي بالنيل في مكان اسمه « النبرو » ، وهذا هو الحصن الثاني ، وموضع التقائه بالنهر يسمى « الرميلات » . أما الحصن الثالث فان التقاءه بالنيل في المكان المعروف « بالكردا » .

نظرت حولي فوجدت أن الحصن عبارة عن منخفض من الأرض تحيط به الجبال من الجهات الأربع تقريباً ، وقد أغلقت الجوانب الضعيفة التي تمثل فتحات في هذه الجبال بأسوار ضخمة من الحجارة الصلبة التي أحكم رصفها باتقان بديع ، وجعل في كل حصن فتحة اتصلت بالنهر على نحو يفهم منه ـ زيادة على تصريح الخبير بذلك ـ أنهم اتخذوا من النهر درعاً واقياً لهم من الأخطار ، وفي الوقت نفسه ليكون لهم مندوحة للهرب اذا دعت الحاجة اليه . وقد روى الخبير ـ وأمن على روايته من اجتمع حولنا من أهل القرية ـ ان قائد العنج ورجاله هربوا بالفعل من حصونهم عن طريق النهر الى ضفته الغربية ، ومن ثمّ توجهوا الى جبال النوبا عند دهم جيش العبدلاب لهم . قال الخبير ووراء هذه الحصون كانت منازل العنج . وقد رأيت بالعين المجردة ـ من بعيد ـ شيئاً يشبه آثار المنازل الا أنني لا أستطيع أن أقطع بشيء .

هذا وقد اتفقت ست روايات أخرى للعبدلاب على حدوث هذه الواقعة من الشيخ عجيب الكبير ، ولكنها اختلفت مع هذه الرواية في التفاصيل (انظر : تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية ص ٢٢ وما بعدها) .

وتقول بعض الروايات : إن حسب الله العنجي سلم «قرى» للعبدلاب ونجا بنفسه هرباً عبر النهر الى الغرب ، ثم الى جبال النوبا – كما تقول رواية شيخ «قرى» – حيث استقر وجماعته الباقية في «الحرازة ام قد» [١] .

وهكذا انتهت دولة النوبة العليا «علوة» بعد أن ظلت تحكم جزءاً كبيراً من السودان زهاء عشرة قرون ، وحلت محلها دولة اسلامية متحدة : عاصمة اقليمها الجنوبي «سنار» وعاصمة اقليمها الشمالي «قرى» التي أضحت منذئذ حاضرة لمشيخة العبدلاب .

الرأي الثانى :

يعود هذا الرأي بسيطرة العبدلاب على قرى إلى وقت سابق لسنة ١٥٠٤م حين وقع الاتفاق بين العبدلاب والفونج ، ويبدو أنه نشأ عند المحدثين كرجع صدى لرواية بروس التي سبق أن لخصناها ، والتي تذكر فيما تذكر أن الحلف الذي قام بين العبدلاب والفونج سنة ١٥٠٤ م كان إثر هزيمة العبدلاب الذين كانوا يسيطرون على مدينة أربجي وحاولوا أن يتوسعوا منها جنوباً . وقد ترتب على هذه الهزيمة أن نقل عمارة دنقس مركز العبدلاب إلى أربجي فأصبحت عاصمة لهم ، وكان يبغي من وراء ذلك أن يكونوا تحت مراقبته المباشرة [٢]. وقد وصفها بروس بقوله : كانت أربجي عاصمة ود عجيب قرية لطيفة كبيرة ، ولكنها قليلة السكان [٣] . وهذا يعني أن قرى كانت قائمة قبل هذا الإبان أي قبل سنة ١٥٠٤ م حين دارت المعركة بين ود عجيب والسود في أربجي ،

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ٢٤ – ٢٥ ، ١٠٩) ، وانظر رواية شيخ « دبك » التي سردناها وشيكاً في هامش الصفحة السابقة .

(٢) Bruce , vol . VI , P . 371

(٣) Loc , Cit

وكانت عاصمة للعبدلاب، ولم تخضع لهم بعد هزيمة العنج في سوبا كما هي الرواية الشائعة ، ونص بروس يدل على ذلك ، فهو يقول : « إن أمير هذه البلاد من قريش ، ويلقب بود عجيب ، وهو زعيم العرب جميعهم ، ومقر الامير قرى، وكان يجمع الضرائب من العرب واستمر الحال هكذا . . حتى بداية القرن السادس عشر حين توجه في سنة ١٥٠٤ م شعب أسود الخ .. » [١] .

ولما كان من الحقائق المعروفة أن قرى ظلت تحت سيطرة العبدلاب الكاملة خلال الحقبة التي عرفت « بعهد الفونج » فقد رجح كروفورد أن أربجي لم تكن إلا مركزاً حضارياً للادارة حينما جاء بروس الى هذه المنطقة سنة ١٧٠١ م ، وأن ود عجيب أو شيخ العبدلاب كان – عندئذ – هناك ولم يكن في عاصمته قرى [٢] . ومن هنا جاء اللبس باعتبار اربجي – عنده – عاصمة للعبدلاب .

وقد نصّ « هولت » على أن قرى كانت قائمة ، وكانت تسيطر على رقعة واسعة من مملكة علوة عند مجيء الفونج سنة ١٥٠٤ م . يقول ما نصه : « عند مجيء الفونج كانت هناك قبائل عربية في شمال الجزيرة ، وعند ملتقى النيلين تحت سلطة العبدلاب وعاصمتهم قرى » [٣] .

وقد حظي هذا الرأي – القائل بقدم قرى كعاصمة للعبدلاب وكونها سابقة في وجودها لأحداث سقوط سوبا–بتأييد من روايات العبدلاب السماعية التي سجلت بأخرة ، فقد قررت هذه الروايات – على خلاف في التفاصيل – أن عبد الله جماع بعد أن وصل من الحجاز عن طريق سواكن فدنقلا

---

(١) Bruce, Vol. VI, pp. 456 ff.
(٢) Crawford, The Fung Kingdom. PP. 66 - 67.
(٣) Holt, A Modern Hist. of the Sudan, P. 19.

فأبي حمد فبربر – على ما ذكرنا – انتهى به المطاف أخيراً الى موضع يقال له « أب زليق » قريباً من قرى ، ومنه تردد على ملك العنج المدعو « الجحمان» أو عبد الله أفادق ، أو سليمان أو المناع – على خلاف في الروايات – وهو في عاصمته قرى ، وكان مبتغى عبد الله جماع من هـذا التردد – في الظاهر – الزواج من ابنة الملك التي كانت بأيديها مفاتح خزانة السيوف والمهمات الحربية للمملكة ، فلما تم لعبد الله جماع ما أراد وزفت اليه الاميرة لم يولها اهتماماً ، بل شغل نفسه بمعاينة الحصون والسيوف وأدوات الحرب ، وعلم الملك ذلك من ابنته فأيقن بالهلاك الذي ما لبث أن حاق به ، واستولى جماع على عاصمة ملكه قرى [١] . ومن ثم بدأ يجمع حوله القبائل العربية في جبل الرويان لمهاجمة « سوبا » وليس في « جبل مويه » كما هو شائع . ولعل التشابـه بين كلمتي : « الرويان » و « مويه » هو علة الالتباس في هذا الموضوع [٢] .

وقد رجح الباشا سبق استيلاء العبدلاب على قرى لسقوط سوبا عن طريق المصاهرة بقوله : « ومـا تذكره الروايات عن زواج عبد الله جماع من ابنة العنجاوي أو ملك قرى له مـا يؤيده في تاريخ النوبة ، فقد تزاوج العرب المهاجرون من الأسرات الحاكمة ، أو الزعامات المحلية في النوبة ووصلوا الى مراكز السلطة كما فعل بنو الكنز في دنقلة... ومن المحتمل أن يكون عبد الله جماع قد تزوج من ابنة زعيم محلي كان بقرى ، ووصل الى مركز السلطة قبل أن يجمع العرب حوله ويتقدم بهم لسوبا » [٣] .

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ٢٢) . وسبق أن نقلنا رواية عن أحد شيوخ العبدلاب في قرية « دبك » تنسب هذه الواقعة للشيخ عجيب ونقلنا كذلك موافقة ست روايات للعبدلاب على ما جاء في هذه الرواية الخاصة بنسبة الواقعـة للشيخ عجيب الكبير (انظر ص ١٤٢ – ١٤٣ من هذا البحث) .

(٢) انظر : الباشا : جوانب من تاريخ العبدلاب (ص ٢٠) نقلاً عن « هولت » .

(٣) الباشا : المصدر السابق (ص ٩) .

محصلة هـــذا الرأي أن السلطة في قرى آلت الى العبدلاب قبل سقوط « سوبا » بوقت ليس بالقصير ، وكان ذلك عن طريق مصاهرة عبد الله جماع لملوك العنج في قرى وان اختلف أسلوب السيطرة – بعـــد المصاهرة – في بعض الروايات .

يبقى بعد هذا أن نقول : إن ترجيح أحد هذين الرأيين على الآخر أمر بالغ الصعوبة ، بسبب قلة الشواهد والأدلة اليقينية ، وقصارى ما يقدر المرء عليه أن يقول : إن الرأي الاول أشار إليـــه أقدم ما نعرف من المصادر السودانية ، كما قال به عدد غير قليل من الباحثين المحدثين ، على حين أن الرأي الثاني انبنى هيكله العام على فكرة بروس ، مع أنها ووجهت بنقدقوي من الباحثين واستبعدت ، وطعن في الأمانة العلمية لصاحبها .[1]

٣ – أسباب اختيار قرى :

أما عن أسباب اختيار قرى دون سوبا عاصمة للعبدلاب فقد رجح بعض الباحثين أنها تعود الى :

أ) تجمع العرب بأعداد كبيرة فيها تحت جبل الرويان .

ب) وقوعها المباشر في خط عبور النيل الى صحراء بيوضة والطريق المؤدي الى دنقلة ومصر . وبعبارة أخرى لتحكم موقعها في تجارة المرور ممـا يمكنها من تحصيل مكوس (جمارك) تزيد من دخلها القومي .

جـ) لأن وقوعها في الحد الأدنى للمنطقة المطرية المدارية يمكنهـــا من

---

(١) انظر (ص ١٢٨) من هذا البحث ، ومكي شبيكة في : مملكة الفونج الاسلاميـــة (ص ٩٥ – ٩٧) .

السيطرة على العرب في سهل البطانة ، أولئك الاعراب الذين يتجمعون في الاراضي المطرية الخصبة ، ويساعدها على تحصيل ما يسمى بالجزية منهم .

د) وقد يكون سبب رفض العبدلاب أن تكون سوبا عاصمة لهم راجعاً الى توجسهم خيفة من أن تقوم عليهم بعض العناصر المحلية القديمة وتنتقم منهم ، ساعية لاعادة العاصمة القديمة .

هـ) أو لأن سوبا دمرت على نحو لم تعد معه صالحة للاقامةوالسكنى[1].

يقول الباشا – بعد أن ذكر السببين الاخيرين – : « وزيادة على ذلك كله فقد أشار كل من كروفورد وهولت ويوسف فضل الى أهمية قرى كملتقى للطرق التجارية ، وامكانية سيطرة حاكمها على القوافل التجارية التي تسير محاذية لشاطىء النيل الشرقي ، وكذلك القوافل التي تأتي من دنقلا عبر صحراء بيوضة ، وتعبر النيل في المنطقة الواقعة بالقرب من قرى . كما يبدو أن اختيار قرى يعزى الى اتصالها بالبطانة حيث العرب الرحل . »[2]

٤ – حد دولة العبدلاب ومناطق نفوذها :

كان من نتائج انتصارات الفونج والعبدلاب على مملكة علوة المسيحية ، واقصائها – نهائياً – غن مسرح التاريخ السوداني أن تقسم الحليفان السودان بينهما شأن الحلفاء المنتصرين في كل زمان . وقد عقب صاحب : تاريخ ملوك السودان على تلك الانتصارات فقال : «ثم اتفق رأيهم على أن يكون عمارة ملكا عوضاً عن ملك علوة التي هي سوبا كونه هو الكبير ، وأن عبدالله جماع

---

(١) Macmichael, A Hist. of the Arabs, vol. 1, P. 246, Yusuf Fadl, The Arabs and the Sudan, P. 133.

(٢) جوانب من تاريخ العبدلاب (ص ٢١ – ٢٢) .

يكون في مكان ملك الغرب ، فتوجه واختط مدينة قرى الكائنة عند جبل الرويان بالشرق ، وجعلها كرسي ملكه ، وكذلك عمارة اختط مدينة سنار... وجعلها كرسي ملكه ، وذلك سنة ٩١٠ هـ . [١]

لم يتعرض هذا النص - كما هو ظاهر - لتحديد المناطق التابعة لكل من الفونج والعبدلاب ، ولكنه اكتفى بتحديد العاصمة للمناطق التي تتبع كل دولة .

غير أن مصادر العبدلاب أعطت تفصيلا أوفى في هذا الشأن ، فذكرت أنه عقب انتهاء الحرب اتفق الطرفان على أن يحرز عمارة دونقس منطقة الجزيرة الواقعة بين النيلين الأبيض والازرق ، ولذلك نقل عاصمته من جبال الفونج الى سنار . أما بقية السودان فقد آل الى حكم الشيخ عبدالله وذريته من بعده ، فاختار مدينة قرى - عاصمة علوة الثانية سابقاً - عاصمة لمملكته ، واستقر بها ، ومنها أخذ يوجه جيوشه شمالاً وشرقاً لتوسيع رقعة مملكته ، حتى امتدت الى حدود الحبشة وسواكن في الشرق ، والى «كاب بلول» عند حدود سلطنة الفور في الغرب ، والى أربجي - التي اعتبرت حداً فاصلاً بين نفوذ العبدلاب ونفوذ الفونج - في الجنوب . أما في الشمال فتزعم رواية العبدلاب ان حدهم أسوان . [٢]

وهناك وثيقة وقف [٣] لأحد مشايخ العبدلاب يرجع تاريخها الى وقت

---

(١) احمد ابو علي الحاج وآخرين (ص ١) . وانظر : طبقات ود ضيف الله (ص ٥) ، تاريخ مختص بالنوبة (ص ٢) ، مخطوطة كاتب الشونة (ص ٧) وتاريخ ملوك السودان واقاليمه (ص ٦) .

(٢) السودان في رسائل ومدونات (مج ١٧ ، ص ٦١ - ٦٢)، واضح البيان(ص ٢ - ٣)، تاريخ العبدلاب (مخطوط مجهول المؤلف) (ص ٢) ، وانظر : تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ٢١) .

(٣) الوقف في مدينة الرسول الكريم ، والوثيقة انظر نصها في الملحق الثاني .

مبكر من حكمهم ، إذ هي صادرة عن الشيخ دياب بن بادي ابن الشيخ عجيب الذي حكم بين سنة ١١١٤ – ١١٢٣ هـ على احدى الروايات ،[١] تضمنت هذه الوثيقة نصاً يؤيد هذه الحدود ، فقد جاء فيها : « ومعرفة حد البرابرة المستحقة للوقف المذكور من جهة الغرب «الكاب» ، وشرقاً سواكن ، ومن جهة الصعيد الحبشة ، وشاما بند اسوان ، يكون داخلا في الحد لا داخلا في الوقف » .

ظاهر هذا النص – وفق تفسير العبدلاب[٢] – صحة ما ذكرته مصادرهم السابقة بشأن هذه الحدود ، وبخاصة الشمالي منها .

على أن « كايو » يرى أن حدود المشيخة الجنوبية لا تقف عند اريجي ، ولكنها تمتد على الضفة الشرقية للنيل الأزرق حتى الدندر[٣] . ويشاركه في هذا الرأي حسن احمد محمود فيقول : « وامتد ملكهم من مصب دنـدر الى بلاد دنقله[٤] » . وقد أكد مكي شبيكة هذا المعنى فذكر أن حدود العبدلاب امتدت من اريجي « الى الحدود الشمالية مع مصر[٥] » .

ومهما يكن من أمر فإن الحد الشمالي من المشيخة ما لبث أن تغير بعد أن فتح السلطان سليم العثماني مصر سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م ، إذ صارت البـلاد الواقعة بين الشلال الأول (عند أسوان) والشلال الثالث (عند « ابو فاطمة »

---

(١) ستأتي هذه الرواية في صدر الفصل الاول من الباب الثالث من هذا البحث .

(٢) سألت الشيخ عثمان اونسة كبير العبدلاب الآن عما يعنيه النص من الوثيقة ، فأوضح لي انه يشير الى حدود مشيخة العبدلاب .

(٣) Cailliaud, Fred, Voyage à Meroe, vol. 2, p. 198

(٤) الاسلام والثقافة العربية (ج ١ ، ص ٣٠٧) ، وانظر : تاريخ الثقافة العربيـة في السودان (ص ٥٥ ، ١٠١) .

(٥) مملكة الفونج الاسلامية (ص ٤٨) ، وانظر : التربيـة في السودان (١/ ٣٨) ، والحكم المصري في السودان (ص ١٤) ، ومعالم تاريخ سودان .. (ص ٣٨) .

شمال كرمة) منذ سنة ١٥٢٠ م بيد الكشاف الأتراك [١] .

وقد أيد القول بامتداد مشيخة العبدلاب في الشمال الى الشلال الثالث ، وفي الجنوب الى اربجي العيدروسي[٢] ، ونسيم مقار الذي قال : « وكان لها السيادة على جميع البلاد من اربجي الى الشلال الثالث وتضم بعض المشيخات المتفرقة على حوض النيل[٣] » . كما ذكر نفس الرأي كروفورد ، وأضاف أن حدودها الشمالية شملت صحراء بيوضة وحنية النيل[٤] . ويؤكد كونيق امتداد حدّها الغربي ليشمل كردفان فيقول : « تقول بعض الروايات إن سلاطين دارفور فقدوا سيطرتهم على كردفان لفترة ، وعند غزو احمد المعقور كانت تلك المديرية تحت ظل الإسلام وتتبع لممتلكات ود عجيب الذي كان يحكم كل المنطقة الواقعة بين دنقلا العجوز وسواكن ... ومنطقة جبال الوثنيين في الجنوب[٥] » .

أما حدود المشيخة الشرقية فقد أشار اليها مؤرخ شرق السودان محمد صالح ضرار بقوله : « امتدت سلطة السلطنة الزرقاء الى سواكن [٦] أيام عمارة دونقس ، واشتبكت جيوشها مع أمير سواكن وهو من الحدارب الذين انهزموا ورحلوا من سواكن وتفرقوا في البوادي المحاذية لجبال «سنكات» و«أركويت» ، فعيّن قائد جيش الفونج « وهو من العبدلاب » الأمير عبد الله بوش الأرتيقي أميراً على مدينة سواكن ، وكان قد أبلى في القتال أحسن بلاء وكذلك أهله... وخضعت بادية اقليم البجة للسلطنة الزرقاء إلا الهدندوة فانهم تحصنوا بالجبال

(١) التربية في السودان (١/٣/٣٨) ، عبدالله حسين : السودان القديم والجديد (ص ٥٧) ، السودان عبر القرون (ص ٤٩) ، الاسلام والثقافة العربية في افريقيا (١/٣٤٨) .

(٢) تقويم السودان لسنة ١٩٤٩ م (ص ٤٨) .

(٣) اقتصاد السودان في العهد الفونجي (مخطوط ، ص ٦) .

(٤) The Fung Kingdom. P. 66.

(٥) De Cadalvene et De Breuvery, Vol. I, P. 200.

(٦) انظر كذلك كروفورد الذي اكد امتداد حدود دولة العبدلاب الشرقية حتى البحر الاحمر وسواكن في : (The Fung, P, 66,) ، ومكي شبيكة الذي قال : « والى سواكن على البحر الاحمر » . (مملكة الفونج الاسلامية ص ٤٨) .

من خيالة الفونج، واستمرت فتوحات القائد نحو الجنوب حتى وصل مصوع[1].

ويقول الشاطر بصيلي : « تقول الروايات المتداولة في شرق السودان إن الفونج قد أرسلوا قواتهم لقتال « البلى » و « الأرتيقة » وقد حصلت الموقعة الفاصلة عند أبواب ميناء سواكن في السنة السادسة من القرن السادس عشر الميلادي ، وأسفر القتال عن هزيمة « البلى » و « الأرتيقة » »[2] .

ويقول مكي شبيكة : « وعندما يتحدث سكان شرقي السودان في رواياتهم المحليـة عن الفونج فانهم يقصدون العبدلاب وكلاء الفونج على تلك المنطقة . وما يقال عن قتال حدث بين قبائل شرق السودان والفونج... فهم يقصدون بذلك العبدلاب »[3] .

بدراسة النصوص السابقة ، وتأمل مـا ذكره شبيكة عن سكان شرق السودان الذين يطلقون الفونج ويريدون العبدلاب للعلاقة التي كانت بينهما ، نستنتج ما يأتي :

١ - حارب العبدلاب بعض قبائل شرق السودان ، وهزموهم ، واستولوا على مدينة سواكن منهم ، وعينوا عليها أميراً من قبلهم .

٢ - كانت هذه الحرب - ومن ثم خضوع سواكن للعبدلاب - في السنة الثانية أو الثالثة من قيام مشيخة العبدلاب، أي في بداية عهد الشيخ عبد الله جماع ، فقد كانت الحرب في السنة السادسة من القرن السادس عشر الميلادي، وحكم « جماع » منذ السنة الرابعة من هذا القرن حتى بداية النصف الثاني منه على أقل تقدير[4] .

وخلاصة ذلك كله أن مشيخة العبدلاب امتدت شرقاً إلى سواكن وبلاد الحبشة في عهد الشيخ عبد الله جماع ، ومن المحتمل أن يكون القائد العبدلابي الذي تم على يديه فتح سواكن هو ابنه الشيخ عجيب الكبير .

---

(١) تاريخ السودان : البحر الاحمر واقليم البجة (ص ٦٥) .

(٢) معالم تاريخ سودان وادي النيل (ص ٣٠) .

(٣) مملكة الفونج الاسلامية (ص ٥٦) .

(٤) انظر قائمة شيوخ العبدلاب في صدر الفصل الأول من الباب الثالث من هذا البحث .

الباب الثاني

علاقات المشيخة السياسية

الفَصْل الأوَلْ

العلاقات السياسية بين العبدلاب والفونج

لم تلق هذة العلاقة حتى الآن تقويمـاً عادلاً ودقيقاً من الباحثين ، ومنشأ هذا – في الأرجح – ندرة المصادر الأصلية التي تناولت هذا الموضوع ، بل إنه حتى المعروف منها الآن لا يكاد يبين .

والرحالة الأجانب الغربيون الذين زاروا سنار وصفوا علاقة العبدلاب بالفونج بأنها علاقة تابع ومتبوع ، ورأوا أن صلة ملك الفونج بشيخ العبدلاب ليست سوى صلة ملـك بنائبه أو وكيله أو وزيره . وجاء بعدهم عدد كبير من الباحثين المحدثين فردد هذا الرأي (١) حتى أصبح الآن شائعاً بين جمهور الدارسين .

---

(١) جذبت سنار بشهرتها كثيراً من الرحالة الأجانب الذين قصدوها لاغراض مختلفة ، ومن أبرز هؤلاء : كرمب ، وبونسيه ، وبروس ، وبوركهارت ، وكايو . وقد لقوا ترحيباً وتكريماً بالغين في بلاط سنار مما يمكن ان يعد عامل شك قوى في صحة ما دونوه في رحلاتهم من أخبـار عن الفونج وسلطانهم . هذا الى ان معظم هذه المعلومات جاءتهم عن طريق سلاطين الفونج أنفسهم على سبيل الفخر والمباهاة ، او عن طريق وزرائهم وأقرب المقربين اليهم . (انظر : و . نكولز: الشايقية ، ص ٢٢ – معرب) . ونشير في هذا الصدد الى مثال واحـد هو « بروس » الذي جمع معظم معلوماته من احمد سيد القوم الذي يحسب من افراد البيت المالك ، وقد اوقع هـذا الرجل « بروس » في كثير من الاخطاء التاريخية . لذا يمكن ان تعد اخبار هؤلاء الرحالة ممثلة لوجهة نظر ملوك الفونـج في حكمهم وتاريخهم ، ومن ثم كان الروح المسيطر على هذه الرحلات ينطق بسلطان الفونج على شيوخ العبدلاب ، ولا يستطيع القارىء لها الا ان يخرج بانطباع واحد هو : سيطرة الفونج الفعلية على السودان من الشلال الثالث في الشمال الى نواحي فازوغلي في الجنوب.

اما الباحثون المحدثون الذين تابعوهم في الرأي فكثيرون ، نكتفي بأن نذكر منهم : الدكتور محمد عوض محمد ، فقد وصف شيخ العبدلاب تارة بالعضـد الاكبر لملك الفونج ، وطوراً بنائب الملك (السودان الشمالي ص ٢١٨ – ٢٥٢)، والدكتور الريح العيدروسي الذي وصف عبدالله ←

غير ان مصادر العبدلاب تتخذ موقفاً مغايراً كل المغـايرة لهذا الرأي ، وتذهب في مخالفتـــه الى حد التضاد في بعض التفاصيل . لذا كان ضرورياً تلخيص رأيهم قبل محاولة الوصول الى رأي نراه جديراً بالترجيح .

١ - رأي مصادر العبدلاب :

ترجـع مصادر العبدلاب الفضل كله في إسقاط مملكة علوة المسيحيـة ، وقيام مملكة سنار ومشيخة العبدلاب على انقاضها الى الشيخ عبدالله جماع ، وترى انه - بما اوتي من الرأي السديد ، والغيرة الدينية - استطاع ان يستميل كل القبائل العربية المجاورة لدار العبدلاب ، [1] القريبة منها، ويوحد كلمتها تحت رئاسته ، ويأخذ عليها يمين الولاء والبيعة على محاربة العنج ، ثم يقود هذه القبائل ، ويفتح بها مدن مملكة علوة الواحدة تلو الأخرى . [2] فكأن الفكرة الاولى في إسقاط مملكة النوبة المسيحية (علوة) نشأت أصلاً عند العبدلاب ، وشرعوا بالفعل في تنفيذها ، وحققوا شيئاً من الانتصارات . وكل هذا تمهيد للقول - بعد ذلك - بأنهم ملوك البلاد الحقيقيين .

← جماع بأنه وزير عمارة دونقس المحبوب (تقويم السودان لسنة ١٩٤٩ م ، ص ٤٨) ، وقال بهذا الرأي ايضاً : حسن الفاتح قريب الله في التصوف في السودان (ص ١٢٥) ، والدكتور عبد العزيز عبد المجيد في : التربية في السودان (ج ١ ، ص ٣٨) والدكتور حسن سليمان في تاريخ السودان ص ٣٨ - ٣٩ ، والدكتور نسيم مقار في اقتصـــاد السودان في العهد الفونجي (ص ٦) ، وفريق آخر غيرهم من العرب والاجانب .

(١) دار العبدلاب - وليست منطقـــة سيطرتهم - ذكرها الشاطر بصيلي بقوله : « دار العبدلاب - جنوب شندي حتى شمال بلدة اريجي ، وضمت هذه بعض المشيخات المتفرقـــة على حوض النيل وفي شمـــال الجزيرة : ومركزها بلدة قرى حيث أقام عبدالله جماع الذي مارس سلطاته المباشرة على هذه المجموعة ... واحتفظت دار العبدلاب في حدودها على ما كانت عليه علوة » . (معالم تاريخ سودان .. ص ٣٧ - ٣٨) .

(٢) واضح البيان (ص ١ - ٢) .

أما عن دور عمارة دونقس زعيم الفونج في هذه الفتوحات الاسلامية فقد أشارت اليها هذه المصادر بقولها : « ثم رأى (اي جماع) انه من الأوفق أن يتعاهد مع ملك الفونج المسمى عمـارة دونقس ... وتعاهدا على أن يمده ملك الفونج بنجدة من عساكره »[1] . فدور عمارة - إذن - لم يتجاوز في هذا الصراع دور المساعد والمعين الذي يرسل المدد العسكري لقائـد فاتح استعان به . وتمضي رواية العبدلاب في اعطـاء صورة لتفردهم بالأمر قائلة : « وجالدهم (اي العنج) في عدة مواقع يطول شرحها ، حتى انتصر عليهم وفتح البـلاد من كل جهة ، في الشمال الى « سوبا » وقتل ملكهم المسمى « علوة[2] » . فالشخصية الرئيسية - إذن - وراء هـذه الوقائع كلها هي شخصية عبدالله جمـاع ، والجنود الذين قاتلوا جيش علوة حتى استولوا على عاصمتها « سوبا » هم عرب القواسمة ، ولا ذكر هنا - بتة - لعمارة دونقس أو جيشه، فيما عدا النجدةالعسكرية التي تم الاتفاق عليها قبلاً بينالزعيمين[3].

ثم تقول هذه الرواية : « وكان لملك العنج قائد عظيم يسمى حسب الله ، ففر ببقية الجيش الى « قرى » التي بهـا سور عظيم في الجبال ، فتحصن به ، ثم لحقه عبدالله جماع وحاصره حتى سلـّم » ، ولم يشترك عمارة أيضاً في هذه الأحداث، وهكذا خضعت له جميع بلاد السودان إلا جهة الصبح : شواطىء البحر الأحمر التي فتحها ابنه الشيخ عجيب[4] » .

---

(١) واضح البيان (ص ١ - ٢) ، السودان في رسائل ومدونات (مج ١٧ ، ص ٦٠ - ٦١) ، تاريخ ملوك العبدلاب (ص١ - ٢) (مجهول المؤلف) .

(٢) ابن الارباب الحسن بن شاور : واضح البيان (ص ١ - ٢) ، السودان في رسائـل ومدونات (مج ١٧ ، ص ٦٠ - ٦١) تاريخ ملوك العبدلاب (مجهول المؤلف، ص ١-٢).

(٣) انظر: Yusuf Fadl, The Arabs and the Sudan, pp. 132 - 133,

(٤) واضح البيان (ص١ - ٢) ، السودان في رسائل ومدونات (مج ١٧ . ص٦٠ - ٦١) ، تاريخ ملوك العبدلاب (ص ١ - ٢) .

ولما انتهت الحرب ، واستقر الأمر « لجماع » كافأ حليفه عمارة الذي مده بالجيش فأعطـاه شطراً من مملكته الواسعة ، وراعى ان تكون هذه الرقعة قريبة من « جبـال الفونج » و « لولو » حيث كان « عمارة » بقومه يقيم . يدل على ذلك قوله : « ثم اقتسما الملك فكانت الجزيرة فقط لعمارة دونقس الذي انتقل من الجنوب أي من جبال الفونج مقر مملكته واختط سنار عاصمة له ، وجميع أجزاء السودان الأخرى للشيخ عبدالله جماع ، فاختار مدينـــة قرى عاصمة لمملكته الشاسعة [1] » .

يتبين من هذا أن المكانة الأولى في الدولة الاسلامية الجديدة كانت — في نظر العبدلاب — لزعيمهم « جماع » لبلائه الحسن في تأسيسها ، وأن عمارة لم يكن — في معظم ما يملك — إلا أحد صنائع عبدالله جماع . وتشير الى هذه الواقعة — مع اختلاف يسير — إحدى رواياتهم السماعية فتقول: بعد أن أزال العبدلاب بمساعدة الفونج مملكة النوبة المسيحية اتفق الفريقان على ان يعطى الفونج « سنار » وما يليهـا جنوباً ، وتبقى بقية المملكة للعبدلاب ، كل في مكانه ، على ان يسود مبدأ الشورى بين الفريقين [2] .

ويوضح واحد من أحفاد العبدلاب تصورهم للعلاقة التي كانت بينهم وبين الفونج فيقول : « ومن هنا يتبين للقارىء صورة الدولة والحكم الذي كان قائمـــاً في السودان في الفترة التي بين التسعمائة وعشرة الى سنة ١٢١٦ من الهجرة ، وهي دولة لها قاعدتان : إحداهما سنار وزعامتها على السود وبطن الجزيرة وشواطىء النيل الأزرق الى الروصيرص والكرمك والجبال المتاخمة للحبشة . والقاعدة الثانيـة في « قرى » ... وزعامتها على العرب من حدود

---

(١) واضح البيان (ص١ — ٢) السودان في رسائـــل ومدونات (مج ١٧ ، ص٦٠ — ٦١) تاريخ ملوك العبدلاب (ص ١ — ٢) .

(٢) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ٢١) .

الحبشة جنوباً الى أسوان شمالاً الى سواكن شرقاً والى « كاب بلول » أمـــام سلطنة الفور غرباً [1] » .

ويقول هـــذا الحفيد في موضع آخر مؤكداً استقلال العبدلاب الكامل بالمنطقة التي تحت سيطرتهم ، وتفردهم بالتصرف في شؤونها : « ولم يحدث أن مر أحد من ملوك الفونج في الجزء الذي يحكمه العبدلاب من ابتداء الدولة الى نهايتهـــا ... وكانت كل دولة كاملة السيادة تربطها بالدولة الأخرى المصالح المشتركة ، فالفونـــج في منطقتهم ، والعبدلاب والعرب في منطقتهم لا سلطان لأحدهما على الآخر إلا التفاهم على الأمور الخارجية التي تهدد البلاد بخطر[2]» .

غير أن بعض رواياتهم لا تكتفي بهـــذه المساواة التي يقررها الحفيد ، ولكنها تذهب الى أن عبدالله جماع أكبر في مكانته وأعظم من ملـــك سنار عمارة ، ألم يكن هو الذي فتح البلاد الى الغرب : للمسبعات ، لكنجارة ، للصعيد [3] ؟!

وتذكر رواية أخرى في مجال تقييم هذه العلاقة ، أن العبدلاب حين أتوا « دنقلة » أحضروا معهم الفونج ، وعينوا منهم وزراء[4] ، مما يوحي للقارىء بأن الرياسة الحقيقية كانت في يد العبدلاب ، كما فيها مخالفة ظاهرة لما هو ثابت ومشهور من قدم ملـــك الفونج على ملك العبدلاب . وتؤيدها رواية أخرى فتقرر أن «سنار» كانت أصلاً تحت حكم العبدلاب ، ولم تنتقل سيادتها للفونج

---

(١) تاريخ مشيخة العبدلاب (ص ٤) .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) تاريخ العبدلاب من خلال (ص ٢١) ، وقد شرحنا فيما سبق معنى : الصعيد ، أمـــا « كنجارة » فهي قبائل تسكن على الحدود في غرب السودان . أما « مسبعات » فانها اسم يطلق على بيت حاكم دارفور ، جده السلطان « دالي » ، انظر (مخطوطة كاتب الشونة ص ٢٤) .
(٤) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ٢٠) .

إلا عن طريق مصاهرتهم لشيوخ العبدلاب بعد أن عاشوا حيناً في « لولو » رعايا لدولة العبدلاب[1] .

وتذهب أكثر من رواية الى أن استحالة العلاقــات بين الفونج والعبدلاب حرباً وخصاماً بعد أن كانت وداً ووئاماً إنما جاءت نتيجة لزعم ملك الفونج – في عهد عجيب – أن هناك اتفاقاً يمنح الفونج حق التقدمة على العبدلاب، ولم يكن في وسع عجيب إلا أن ينكر ويؤكد أنه الملك الاوحد ، ثم يسوق جيشه ويطرد الفونج من سنار[2] .

وصفوة ما تقول به مصادر العبدلاب – أخذاً مما تقدم – في صدد تقويم العلاقة بينهم وبين الفونج هو :

١ – إن العبدلاب هم الذين جمعوا كلمة العرب على حرب العنج ملوك علوة وإزالتهم ، وتأسيس دولة إسلامية على أنقاض ملكهم .

٢ – إن عبدالله جمــاع هو الذي أخذ زمام المبادأة في الامر ، ولم يفعل « عمارة » أكثر من تقديم عون تمثل في جنود وعتاد .

٣ – وبعد أن فرغ « جماع » من أمر علوة كافأ ملك الفونج على حسن صنيعه ، فمنحه منطقة الجزيرة – لقاء ما قدم من مؤن وجنود – ليقيم عليها مملكته الصغيرة ، فاتخذ « عمارة » من سنار عاصمة له لتوسطها المنطقة . على حين استأثر « جماع » ببقية أجزاء السودان ، واتخذ حاضرته في « قرى » .

٤ – وبهذا أصبحت صورة الحكم في السودان المسلم : دولة ذات قاعدتين: إحداهما في « سنار » وزعامتها على الجزيرة وما يلي سنار جنوباً ، وثانيتها في « قرى » وزعامتها على بقية السودان الشمالي حتى حدود مصر .

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ٢٠ ، ٤٧) .
(٢) المصدر نفسه (ص ٤٦) .

٥ – وبموجب الاتفاق الذي كتبه العبدلاب باختيارهم وقضى بأن يمنح عبد الله جماع ساعده الأيمن عمارة دونقس منطقة الجزيرة ظلت كل دولة تحافظ على سيادتها في أراضيهـا ، مرتبطة مع الأخرى بروابط المصالح المشتركة ، وملتزمة الدفاع عنها إن هي دوهمت بخطر خارجي .

* * *

وفوق هذا فقد انتهيت من نظر مصادر العبدلاب المخطوطـة التي عثرت عليها الى أنها تسلك – في سردها لوقائع التاريخ التي تعرضت لهـا – نهجاً خاصاً يجعل كل واقعة تاريخية وكل جزئية في السياق تنطق بالاستقلال الكامل للعبدلاب ، بل بقيادتهم لدولة السودان الاسلامية بقسميها الفونج والعبدلاب ، ومن ثم تنفي أية تبعية لشيوخ العبدلاب لأي كان ، كما يفسر منهج هذه المصادر كافة حوادث التاريخ بما يتفق ومعاني هذه القيادة والاستقلال [١] .

ومن شواهد ذلك ما تقوله عن حرب نشبت بين الفونج و « مسبعات »[٢] واشترك فيها بعض الملوك المحليين ، وذلك سنة ١١٦٠هـ ، فقد صورتها مصادر العبدلاب على أنها نشأت أصلاً بينهم وبين « مسبعات » على اعتبار أن « كردفان » التي كانت تابعـة للعبدلاب – على ما يرون – تعرضت لغزو « مسبعات » ، فوجب عليهم الدفاع عنهـا ، ومن هنا ذهب شيخ العبدلاب لطردهم فقتل ، وقتل معه أخوه وابن أخيه . ولما سمع سلطان سنار بذلك

---

(١) راجع : مخطوطة واضح البيان في ملوك العرب بالسودان ، والقصص التاريخية المتداولة، لقبيلة العبدلاب نشر أ.أ. بن في (S. N. R.) (مج ١٧ ص ٥٩ وما بعدها) ومخطوط تاريخ ملوك العبدلاب (مجهول المؤلف) ، وتاريخ مشيخة العبدلاب عند الشيخ عثمان أونسه في « شمبات » . وانظر تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية .

(٢) انظر معنى « مسبعات » في (ص ١٦١ ، هامش ٣) من هذا البحث ، ومزيـداً من المعلومات عنها في : تاريخ دارفور السياسي للاستاذ موسى المبارك (ص ٤٦ ، مخطوط بجامعة الخرطوم) ، ومجلة امدرمان ، العدد الثالث ، السنة الأولى ، ١٩٣٦ م (ص ٧٩ – ٨٠) .

خشي أن يقوم شيخ العبدلاب الجديد –وهو حدث – بعمل غير رشيد أخذاً بثأر أبيه وعمه وابن عمه، لذا تدخل ملك الفونج في القتال الى جانب العبدلاب تنفيذاً لما بين الحكومتين من عهود [1] .

وهكذا يستبين بجلاء أن مصادر العبدلاب عكست الصورة الشائعة بين كثير من الباحثين للعلاقة التي كانت سائدة بين العبدلاب والفونج ، واستبدلت بالنفوذ الذي كان للفونج على العبدلاب – في تقدير بعض الباحثين كما مرّ – بنفوذ للعبدلاب على الفونج ، أو تحرر العبدلاب من كل نفوذ، على أقل تقدير.

* * *

الرأي الآخر :

ولا شك عندي أن شيوخ العبدلاب كانوا يتمتعون بقدر وافر وعظيم من الاستقلال الذاتي ، في ادارة شؤون الأقاليم التي كانت تخضع لسلطانهم ، ولكنهم في نفس الوقت كانوا يدينون بنوع من الولاء لملوك الفونج ، على أقل تقدير حتى سنة ١٧٧٠ م حيث تتحدث بعض المصادر عن استقلالهم التام وسيادتهم الكاملة آنئذ. ولا ينبغي أن يعزب عن البال أن هذا الولاء لم يكن يرقى – في أي شكل من أشكاله ، وفي أية فترة من الفترات – إلى الدرجة التي يصبح فيها غلاً آسراً في أعناق العبدلاب ، ويصبحون بموجبه نواباً أو وزراء أو وكلاء لملوك الفونج بالمعنى الدقيق لهذه الكلمات .

هذه دعوى ، وفيما يلي أحاول تقديم أدلة الإثبات . وينبغي أن أوضح منذ البداية أن هذه الأدلة مستوحاة من نصوص قديمة في معظمها وضعت

---

(١) واضح البيان (ص ٩ – ١١) . السودان في رسائل (مج ١٧ ص ٦٩ – ٧٠) ، تاريخ ملوك العبدلاب (ص ١٣ – ١٤) .

أساساً لتعالج أموراً أخرى غير علاقة الفونج والعبدلاب ، فهي لهذا عرضة لمختلف التفسيرات والتأويلات ، ومجال للرفض والقبول .

أ) ظاهرة الاستقلال ومداه :

يقول صاحب « الطبقات »[1] وهو يعدد العلماء الذين قدموا للسودان : « وقدم الشيخ عبد الرزاق أبو قرون من دار الصعيد الى دار الأبواب ، وقدومهم في دولة الملـــك **بادي ابو رباط** ، وفي « **قرى** » الأمر دائر بين « **قنيص وعجيب** ولدي عربي ولد عجيب » .

ويقول في ترجمة الشيخ النور بن موسى أبو قصه: « أعطاه الله القبول عند الملوك والسلاطين ، وملوك **الفونج والعرب** »[2] .

ويترجم للشيخ بدر الدين أم بارك قائلاً : « هو أحد الأئمة الاربعة الذين كانوا في عصر واحد ، وانقادت لهم **العرب والعجم** »[3] .

ويتحدث عن شجاعة « بدوي ابو دليق » فيقول : « المظلوم والمرقوب من سنار وقرى ما تجد من يقوي قلبه إلا ود أبو دليق »[4] .

ثم عندما تحدث عن مقدم الشيخ تاج الدين البهاري قال : « وقدومه أول النصف الثاني من القرن العاشر ، أول ملك الشيخ عجيب **المانجلك** »[5] .

فمـــاذا يقر في الذهن من تأمل النص على : العرب والعجم ، والعرب

---

(١) محمد ضيف الله (ص ٥ – ٦) .
(٢) المصدر نفسه (ص ٢٧) .
(٣) المصدر السابق (ص ٣٧) .
(٤) المصدر السابق (ص ٤٤) .
(٥) المصدر السابق والصفحة .

والفونج ، وسنار وقرى ؟ وماذا يفهم من التأريخ – لقدوم أهل العلم – بزمن حكم أحد ملوك سنار وأحد شيوخ قرى في آن ، دون الاكتفاء بملك سنار ؟

يقيني أن هذا النص من كاتب معاصر دليل على أن في السودان – في هذا الوقت – دولتين مستقلتين عن بعضها تمام الاستقلال ، إذ لو كان الامر على خلاف ذلك ، وكان العبدلاب جزءاً من الفونج لاكتفى صاحب النص بذكر الفونج دون العرب ، أو سنار دون قرى ، ولأرخ بمدة حكم رئيس هذه الدولة الواحدة «الملك بادي أبو رباط» دون حاجة الى النص على نائبه ! شيخ قرى الذي لم يستقر بعد رأي أهله عليه .

ثم اذا لم تكن لدولة العبدلاب شخصية متمايزة تمام التمايز عن دولة الفونج فما هو المسوغ لأن يؤرخ المؤلف لحادثة قدوم تاج الدين البهاري بمدة ملك الشيخ عجيب الذي وصف غلطاً بأنه «نائب» ، ويدع التأريخ بمدة حكم الملك القائم ؟! ألا يدل هذا على أن شيخ العبدلاب – مع استقلاله الكامل بدولته – كان أوسع شهرة من ملك الفونج الذي كان معاصراً له ؟

وتتوالى نصوص « الطبقات » مؤكدة وجود حكومتين منفصلتين في السودان ، فعند الترجمة للشيخ حسن ود حسونه يقول المؤلف : « الخيل المعبدات يجلبوهن الى «تقلى» و«دار برقو» ، و «دارفور» وسنار ، وأولاد عجيب » ، ثم يقول رجل للشيخ حسن : «يا سيدي أنت ظلمتني في ديني الفلاني ، ولد عجيب ما يجيب منك ، ملك الفونج ما يجيب منك » . [1]

وتجدر الاشارة هنا الى ان «تقلى» في هذا الإبان كانت مملكة مستقلة عن كل نفوذ . كذلك الحال بالنسبة لدار برقو . وطبيعي ان تلازم صفة الاستقلال كذلك كلا من سنار وعاصمة أولاد عجيب قرى ، وإلا لما كان هناك وجه لهذا

---

(١) الطبقات « ص ٤٩ » .

الاقتران . وأغلب الظن أن الاشارة الى ولد عجيب – وقد عرف العبدلاب بأولاد عجيب أيضاً – ثم الى ملك الفونج كلا على حدة مقصود بها الدلالة على أنهما ملكان مستقلان معروفان بالسطوة ، ومع ذلك لا يستطيعان أن يردا لمظلوم حقه من «سيد الاولياء» – كما يعتقد الناس آنئذ ، بل والى الآن – الشيخ حسن ود حسونة ، خوفاً من غضبه ودعائه الذي لا يخيب .

ثم يمضي صاحب «الطبقات» ليعبر – من حيث لا يقصد – عما قرّ في أذهان الناس من وجود حكومتين ، إحداهما للعرب بقيادة ولد عجيب ، والاخرى للفونج بقيادة ملوكهم فيقول وهو يترجم للشيخ حمد بن الشيخ ادريس ود الارباب : «ولي الخلافة بعد أبيه ، وقام مقامه في الهيبة والقبول، والسكينة والوقار .. وحجز العرب والفونج » . [1] ثم يقول – وهو يترجم للشيخ قاقم بن ابراهيم ودبري – : « الشيخ بدوي تهدي له سنار وقرى ... وقاقم عنده ٥٠٠ فقير (طالب) يعشيهم ويغديهم» . [2] وسنار حاضرة الفونج ، وقرى عاصمة العبدلاب ، وبهما يشار الى الدولتين .

ثم يعقد المؤلف مناسبة بين عواصم دول ثلاث كانت تحكم السودان وقت كتابة ذلك النص أو قبله بقليل – على ما يبدو – فيقول مشيداً بصلاح الشيخ خليل بن الرومي وكراماته : «ومنها أن ملك الفونج (بادي الاحمر) لما خرجت عليه العساكر جميعها من «قرى» وسنار وأليس [3] وأحاطت بـه

---

(١) الطبقات (ص ٥٨) .

(٢) المصدر نفسه (ص ١٤٧) .

(٣) قال الدكتور مكي شبيكة في تحقيق لمخطوط « تاريخ ملوك السودان » (ص ٢) من التعليقات عن « أليس » ما نصه : « الليس هو الاسم الذي يطلق على مدينة خرائبها بالقرب من « الكوة » الحالية ، وقيل كانت عاصمة الشلك عندما كانوا يحتلون معظم النيل الأبيض ، وانظر كذلك : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى (ص ٢١٢) .

من كل جانب اختفى منهم في حوش كميربنت الملك أخته، التي «وقعت[1]» على الشيخ خليل بن الرومي لينصر أخاها فنصره » . [2]

ومن الواضح ان التمييز الدائم بين الفونج وأولاد عجيب – وخاصة حين يستعمل في مواطن خاصة – إنما يشار به ، في الارجح، الى مكانة حكومتيهما في نفوس الناس ، وتمايزهما عندهم . مثال ذلك قوله عن الشيخ محمد بن ضيف الله : «وكان ورعاً تقياً زاهداً ، وكان مهـــابا عند الفونج وأولاد عجيب ، وعند الخاص والعام » . [3] فما بين الفونج والعبدلاب من تمايز كما بين الخاص والعام من فروق .

فظاهرة الاستقلال غير المنقوص التي تميزت بها حكومة العبدلاب تبـدو جلية واضحة – وفق ما أرى – عند النظرة الفاحصة لهـذه النصوص التي سقناها . فالنص على الفونج والعرب مقترنين ، او العرب والعجم ، أوالفونج وأولاد عجيب ، أو ملوك الفونج وملوك العرب ، أو قرى وسنار وأليس ، وداربرقو ، ودارفور إنما المقصود منها عند كاتب معاصر كصاحب الطبقات إعطاء صورة لما كان معروفاً من حكومات ذات سيادة في العصور الوسطى .

وتبدو ظـــاهرة الاستقلال في الحـكم أكثر وضوحاً عندما يمارس شيخ العبدلاب سلطاته في العزل والتولية لمن شاء من حكام الاقاليم المحليين التابعين له دون أي رجوع لملك الفونج ، ودون أن يبدي ملك الفونج أي اعتراض . فقد جاء في «الطبقات» عن كرامة الشيخ «عووضة شكال القارح» : إن ولد عجيب أرسل رسلا لعزل ود قنديل شيخ «دنقلة» من الدولة ، ولما سمع بذلك مشى الى الشيخ عووضة وأخبره «فطلب منه أن يأتيه بمبلغ من المال ينفقه

---

(١) « وقعت » كلمة تستعمل دارجاً للتعبير عن معنى الاستغاثة ، كما هو ظاهر .

(٢) الطبقات (ص ٤٨) .

(٣) المصدر نفسه (ص ١٧٥) .

على طلاب يدرسون القرآن عنده ، فلما جاءه به أعطاه «جبته» مشيراً عليه بارتدائها عند قدوم رسل العزل عليه ، فلما جاءت الرسل لبسها واستقبلهم ، فلم ينبس واحد منهم ببنت شفة ، واستمر الحال هكذا حتى أتاهم جمل من «قرى» بالتأكيد له ، وتركه في منصبه » . [١]

فبغض النظر عن صحة هذه الواقعة — تاريخياً — على هذا النحو أو عدمها فان امكانية حدوثها من شيخ العبدلاب -- وهو أقل ما يدل عليه النص — لحاكم ولاية دنقلة التي تمثل الحد الشمالي لمشيخة العبدلاب دون إشارة الى سلطة الفونج دليل قوي على تفرد العبدلاب بالحكم في منطقة نفوذهم .

غير أنني — مع هذا التحفظ — أميل الى قبول حدوث هذه الواقعة دون النظر الى المؤثر الحقيقي — خفياً كان أم ظاهراً — في نية العزل أولاً ، ثم العدول عنه بعد ذلك وتثبيت حاكم الاقليم . أستأنس لذلك بقول الباحث الانجليزي «نكولز» وهو يتصدى لتقييم علاقة ملوك الفونج بولاية دنقلة في شمال السودان . قال : «وليس لدينا دليل على أن أمراء الفونج قد تدخلوا أي نوع من التدخل في تولية أمراء «دنقلة» على اختلافهم ، أو أن أية خدمة عسكرية قد طلب إليهم أن يؤدوها ، ولا يشير أي مصدر من المصادر التاريخية الى أنه كان للفونج أفراد أو عملاء يقيمون في أي قصر من قصور دنقلة على اختلافها ، أو أن ملوك الفونج قد تدخلوا في شؤون دنقلةالداخلية ، أو عاقبوا أحداً من الدناقلة لأنه رفض أداء الجزية » . [٢]

ووجه الدلالة في هذا النص أنه طالما كانت يد الفونج مغلولة عن ممارسة أية سلطة الى هذا الحد بالنسبة لولاية دنقلا ، ولم تدع جهة أخرى خضوع

---

(١) الطبقات (ص ١٢٥) .
(٢) و. نكولز ، الشايقية ، ترجمة الدكتور عبدالمجيد عابدين (ص ٢٣) .

هذه الولاية لها غير العبدلاب ، فمن المرجح - والحال هذه - أن تكون قد وقعت تلك الحادثة على ذلك النحو ، وليس مهما كما أشرت - أن يكون شيخ العبدلاب قد عدل عن العزل لأي سبب .

وهناك دليل آخر قوي على أن تلك الحادثة يمكن أن تكون قد وقعت بذات الصورة التي جاءت في الطبقـــات . يقول كروفورد : «ويترك وكلاء الحكام النهريين منفردين بمجرد تعيينهم ، لكنهم قد يعزلون بارادة شيخ قرى الذي له سلطة مطلقة على ملوك النوبة ودنقلا » . [١]

ومن مظاهر الاستقلال لشيوخ دولة العبدلاب كذلك ، حرية التصرف في أراضي المنطقة الواقعة تحت سيطرتهم : بهبة الأرض ، أو هبة غلتها ، أو هبتها معاً ، أو إسقاط حق الدولة في جباية خراج أرض كان قد قرر عليها خراج . جاء في «الطبقات» أن الشيخ حمد بن محمد بن علي المشيخي المعروف «بود أم مريوم» كانت له أرض زراعية مفروض عليها نصف الخراج. فلما حمل ما عليها ، ذات يوم ، الى «شيخ الدار» ، وحمله هذا بدوره الى شيخ العبدلاب عجيب ود العجيل سأل الاخير عن صاحب هذا الخراج ، فلما أعلم أنه فقيه متصوف يدعى «ولد ام مريوم» قال شيخ العبدلاب : الأرض وغلتها تصدقنا بها عليه . [٢]

ومن هذا النوع أيضاً - مع يسير اختلاف - ما جاء في وثيقة يرجع تاريخها الى سنة ١٠٩٥ هـ حيث كانت دولة العبدلاب في عهد ازدهارها، وعلى رأس « قرى » حينئذ الشيخ مسمار بن عجيب ، فقد جاء في هذه الوثيقة :

---

(١) نقلاً عن Krump, p, 265 ، وهذا يمنح الخبر قوة وتـأكيداً لأن « كرمب » - كما سبق أن أشرنا - كان معاصراً لدولة العبدلاب .

(٢) طبقات ود ضيف الله (ص ٦٧) .

« ... أما بعد الى كل من يقف على هذه الوثيقة من الشيوخ والمقاديم والعمال وأولاد قنديل خصوصاً ملوك الدفار وحواريهم وخدامهم ... من جهة ذرية الفقيه ابراهيم ولد الزين ، جوهتهم وثيقة جدي عجيب وأنا تممت لهم الجاه على قديمهم ... وأشهد من حيث أنهم مراتب الدفار وقضاتها ، ما عليهم دم ولا مواد ولا خراج ولا علوق ، سالمين مسلمين من جميع السبل والمضار ، جاهاً لله ورسوله ... وحتى حبلهم المرمي في الارض لا يتعرضوه أبداً أبداً ، وضراعهم سالم وجميع ديارهم سالمة ، وإن ساقوا أرض الغير فما عليهم إلا خراج الدار فقط ... » [1] .

ومن العلامات البارزة لاستقلال العبدلاب أيضاً أن يتقيد ملوك الفونج بأراضي المنطقة التي تحت نفوذهم وسلطانهم المباشر دون تجاوزها لدولة العبدلاب ، وذلك حين يهبون أو يتصدقون ، حتى ولو كان المتصدق عليه من رعايا دولة العبدلاب . حدّث صاحب « الطبقات » فقال ، وهو يترجم للشيخ علي ولد عشيب : « وبنى له الشيخ عجيب الكبير مسجداً ، وتصدق عليه ملك الفونج بديار كثيرة في الشرق والهوى في دار المطر » [2] .

وتتوالى نصوص «الطبقات» لتعطينا الدليل تلو الدليل على التباين الواضح بين دولتي العبدلاب والفونج ، ولتشير – في غير خفاء – الى أن إحداهما لم تكن تابعة للأخرى .

---

(١) صاحب الوثيقة الأصلي هو : الفقيه محمد عثمان بن محمد بن حمد بن محمود عبد الكريم من بلدة حسين نارتي بمركز الدبة ، وهي صادرة في « قرى » سنة ١٠٩٥ هـ. وقام بنشرها الاستاذ ابراهيم مصطفى عريبي ضمن بحث له في جريدة الثورة السودانية بتاريخ ٢٩ يونية سنة ١٩٦٢ بعنوان : شخصيات وقبائل من التاريخ .

(٢) طبقات ود ضيف الله (ص ١١٤) . وبالنسبة لهذه النقطة ، أي تصرف العبدلاب وحدهم في الأراضي التي تتبع لمشيختهم ، انظر كذلك : وثائق ملوك الفونج وشيوخ العبدلاب في كتاب : « الفونج والأرض » ، ففيه الغناء كل الغناء .

تذكر «الطبقات» أن محمد بن أبي خنجر ذهب من «الحلفايـــة» – وهي العاصمة الثانية للعبدلاب – الى «سنار» ليطلب من عالمها الشيخ عمار بن عبد الحفيظ شفاعته (وكان العلماء لا ترد لهم شفاعة عند شيوخ العبدلاب) لدى الشيخ عجيب شيخ العبدلاب ، بغية أن يعفيـــه من الخراج الذي فرض على أرضه [١] . فاذا لم يكن للعبدلاب سلطان فعلي على مشيختهم ، لا يشاركهم فيه أحد ، فكيف تجاوز هذا المستغيث في طلبه ملك الفونج وهو في عاصمته الى شيخ العبدلاب البعيد عنه آنئذ ، وهو يدرك أن المتصرف الحقيقي هو رئيس الدولة ملك الفونج وليس شيخ العبـــدلاب نائب الملك او وزيره ؟!! أليس هذا دليلاً على أن المتصرف الحقيقي في دولة العبدلاب بفرض الخراج او الاعفاء منه إنما هو شيخها دون سواه ؟؟.

وهناك دليل لا نحسبه محل شبهة ، يؤكد سلامة استنتاجنا الخاص باستقلال العبدلاب وسيادتهم على أراضيهم ، واقتصار سلطان الفونج على أرض الجزيرة دون سواها ، أورده كاتب الشونة الذي عاصر مملكة الفونج في عهدهـــا الأخير ، فقال : «وقد ذكروا أربعة كانوا في عصر واحد ، وهم الشيخ ناصر بسنار ، والسلطان عبد الرحيم بدارفور ، ومراد بك بمصر ، وأحمد الجزار بالشام . وكان ناصر أفرطهم لضيق ملكـــه ، لأن ذلك مختصر على بعض الجزيرة . » [٢]

فنص مؤرخ الفونج قاطع في أن مملكة الفونج – التي كانت قد انتقلت السلطة فيها الى شيوخ الهمج [٣] وناصر هذا رابعهم – كانت تقتصر على بعض

---

(١) طبقات ود ضيف الله (ص ١١٧ – ١١٨) .

(٢) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٣٩) .

(٣) الهمج جنس مختلف فيه ، فقيل إنهم « طائفة من ذراري العرب المتناسلين من الأنواب (النوبة) وقيل إنهم فرع من الجمليين العوضية » . (تاريخ ملوك السودان ص ٦) وقد =

الجزيرة . وفي هذا اعتراف صريح باستقلال العبدلاب لأنهم خارج الجزيرة ، وفيه اعتراف ضمني بامتداد سلطانهم الى بعض الجزيرة الآخر وهو الامتداد المكاني الواقع بين الخرطوم وحدود أريجي الجنوبية .

وفيه تأكيد قاطع على أن شيوخ العبدلاب لم يكونوا وكلاء أو نواباً أو وزراء للفونج ، أو نحو ذلك مما يقول به بعض المؤلفين المحدثين [١] ، إذ لو كانوا كذلك لما انحصر ملك الفونج في الجزيرة - كما شهد مؤرخهم - بل لامتد الى آخر مناطق وكلائهم ونوابهم في دنقلة والشلال الثالث في الشمال حيث تنتهي حدود العبدلاب .

ونستنتج من نص آخر للمؤلف أن ملوك الفونج كانوا يعتقدون في مساواة شيوخ العبدلاب لهم ، ولا يتحرجون في إظهار هذا الاعتقاد ، وإلا لما ميزهم «بادي ابو دقن [٢]» عن سائر الحكام والملوك ، حتى ملوك الدول التي لم يشك أحد في استقلالها عنهم ، فمنحهم نفس الامتياز الذي أعطاه لنفسه . يقول المؤلف : « وأما الباب التاسع (من أبواب القصر الذي بناه ملك الفونج بادي أبو دقن) فلا يدخل منه أحد ولا يخرج إلا الملك نفسه ، أو ولد عجيب [٣] » الذي هو شيخ العبدلاب .

=مزج الدكتور شبيكة بين الرأيين فقال إن الأصل الذي تحدر منه كبيرهم محمد ابو لكيلك كان زواجاً من جعلي عوضي من نساء الأ نواب » (نفس المصدر ص ٦ من التعليقات) . وقال محمد مهري : « والأرجح انهم سود متعربون » (رحلة مصر والسودان ص ٣٩٣) .

(١) انظر تفاصيل هذا الرأي في أول هذا الفصل (ص ١٣٠ - ١٣١) .

(٢) هو أحد ملوك الفونج ، وكان حكمه بين ١٠٥٢ - ١٠٨٨ هـ .

(٣) مخطوطة كاتب الشونة (ص ١٠) .

كذلك يحدثنا «كرمب[1]» – الرحالة الذي عاش عامـا كاملا في بلاط سنار ، واعتبر طبيباً خاصاً للملك وإن لم يكن طبيباً في الأصل – أنه أرسل قسراً رغم مرضه لمعالجة شيخ العبدلاب الذي كان قد بعث في طلبه مندوبا . ولم يسع ملك الفونج إلا أن يلبي الطلب ، تقديراً لشيخ العبدلاب ، ورعايـة للمودة والعلاقة الخالصة التي كانت تربط بين الدولتين . وقد وصل «كرمب» قرى في ١٧٠١/٧/٢٢ م رغم ما كان يعاني من مرض لم تجد في علاجـه أصناف العقاقير .

هذا ما تقول به أوثق المصادر القديمة المعروفة الى الآن . وقـد أبرزت بعض المصادر الحديثة قيادة عبدالله جماع – منذ البداية – لدولة العبدلاب ، وبينت أنه صاحب الفضل الاول – كما تقول مصادر العبدلاب – في قيـام الحـكم الاسلامي في السودان . يقول «هولت» : «أما مملكة علوة فان حظها لم يكن كحظ المقرة ، إذ عاشت الى أن أسقطها القائد العربي «عبدالله جماع»، وانتقلت بذلك عاصمة البلاد من «سوبا» الى «قرى» [2] . فهو هنا يتجـاهل عمارة دونقس ودوره ، مما ينم عن استخفافه بشأن الفونج وسلطانهم، وبذلك يلتقي مع روايات العبدلاب التي لا تخلو من مبالغة وتهويل .

---

(١) See : The Fung Kingdom of Sennar, pp. 221, ff.

يقول كروفورد في ذلك: « ولكن كل أماني كرمب في الراحة ضاعت عندما جاءه «مرسال» من شيخ قرى يطلب حضوره ليعتني به ، ولم تجده احتجاجاته ، وذكر له الملك أن تغيير الهواء سيفيده... وفي الثامن من يوليو غادر سنار يصحبه ابن نائب الملك الملك« علي » كرسال ومعهم عشرة من راكبي الجمال المسلحين وأعطاه الملك أيضاً جملاً حسناً وبغلته الخاصـة .. ومرض كرمب في الطريق ... فقرر أن يعود الى سنار ولكنـه وضع فوق البغل بالقوة وأجبر على عبور النهر » (ص ٢٢١ ...) وما بعدها .

(٢) P. M. Holt, A modern History of The Sudan, p. 17.

ويستدل «هولت» على تفرد العبدلاب بالامر [١] بما تقول به رواياتهم من أنهم استولوا – نتيجة لانتصاراتهم على العنج في سوبا – على أسلاب كثيرة ، حوت ، فيما حوت ، تاج ملك العنج المرصع بالجواهر ، وعقداً من الاحجار الكريمة ، توارثوها الى آخر ملكهم ، ولم يكن لملوك الفونج من ذلك نصيب[٢].

كذلك نري شاتاوي يشير في وضوح الى أن دور عمـــارة مؤسس دولة الفونج في الزحف على سوبا وأسقاطها لم يكن يتجاوز دور المساعد المعين ، وإن اختلفت أغراض من حملوه على تقديم المساعــــدة والعون عن أغراض العبدلاب . يقول شاتاوي : « إن الفونج قد أرسلوا بواسطة حكام الحبشـــة لـــكي يتعاونوا مع العبدلاب بغرض تحطيم القبائل العربية المختلفة التي اعتادت النهب ، وذلك للمحافظة على طرق المواصلات بين الحبشة والاسكندرية»[٣]. ولكن المعروف ان الفونج تعاونوا مع العبدلاب لا لتحطيم القبائل العربيـــة – كما يرى شاتاوي – وإنما لتحطيم العنج في «سوبه» ، وهذا ما دفع «نادلر» الى التصدي لرأي «شاتاوي» هذا قائلا : «إن هذه النظرية تبدو صعبـــة الادراك بالنسبة للحقيقة التي قاموا بها ، وهي تحطيم مملكة سوبا المسيحية ، والتي كان حكام الحبشة يستعجلون إنقاذها . » [٤]

إلا أن موضع العبرة في رأي «شاتاوي» – بالنسبة لما نحن بصدده – هو أنه أعطى العبدلاب شهرة بلغت حكام الحبشـــة ، وجعلتهم يحملون الفونج الخاضعين لنفوذهم على التعاون مع شيوخ العبدلاب .

---

(١) A Modern History of The Sudan, p. 18.

(٢) السودان في رسائل ومدونات (مج ١٧ ، ص ٦١) . وانظر : جوانب من تاريـــخ العبدلاب (ص ١٠ – ١١) .

(٣) Notes on the Hist. of The Fung, vol. XIII, (S. N. R.) 1930, pp. 247 - 250.

(٤) See : Fung Origins, (S. N. R.) vol. XIV, pp. 61 - 66.

وبعد هذا وذاك يأتي «ماكمايكل» ليقرر ان سلطان الفونج لم يكن ليمتد الى البلاد الواقعة بين النيلين الازرق والابيض لولا قيام الحلف الذي دعا إليه العبدلاب ، وأسهموا في إنجاحه بنصيب كبير .[1] فكأن «ماكمايكل» يرى أن الفونج مدينون بتوسيع رقعة دولتهم للعبدلاب، بل إنه يذهب – ولمذهبه وزن خاص – الى أبعد من هذا فيقرر – مع «شاتاوي» – أن العبدلاب هم الاصل والفونج فرع[2] – على نحو ما أسلفناه في روايات العبدلاب – أسسوا مملكتهم عرضاً نتيجة الحلف الذي دعا إليه العبدلاب . قال : « بعد مرور ٢٠٠ سنة على سقوط دنقلة الأخير ... نجد زعيم ربيعة ، ذلك الزعيم القوي الذي جعل مقر مملكته بالقرب من قرى ... يعقد معاهدة رسمية مع سلطان قبيلة الفونج الزنجية المسلم الذي جعل وهو سائر من الجنوب ، عاصمة مملكته في «سنار» على النيل الازرق ، وبذا أسس عرضاً عائلة مالكة دامت الى الفتح التركي المصري سنة ١٨٢١ م . ويلوح لي أن السبب الاول في عقد هذه المعاهدة هي رغبة العرب في استئصال شأفة الوطنيين الاصليين . »[3]

على أنني لا أجد ما يحملني على مشاطرة «هولت» و«شاتاوي» و«ماكايكل» رأيهم هذا الذي يسمو بمكانة العبدلاب على الفونج درجات مثلما قررته مصادر العبدلاب تماماً ، وأرى أنه اشتمل على شيء من التطرف والمبالغة غير قليل . ولكني أميل الى الاعتقاد – أخذاً مما تقدم – بأن العبدلاب كانوا أصحاب الطول والحول في إدارة مشيختهم دون أي تأثير أو تدخل من ملوك الفونج أو شيوخ الهمج الذين خلفوهم على ملك سنار .

---

(١) دخول العرب في السودان (ص ٣٢ – ٣٣) (محاضرة معربة منشورة ، ويعتبر رأيه هذا الذي نشره سنة ١٩٣٠ م أحدث من رأيه الذي تضمن عكس هذا ، ونشره سنة ١٩٢٢م في كتابه بالانجليزية : تاريخ العرب في السودان) .

(٢) يفهم من صياغة « هولت » في كتابه السابق (ص ١٩) انه يشاركهم هذا الاعتقاد .

(٣) دخول العرب في السودان (ص ٣١ – ٣٢) .

أما بعض النصوص القديمة التي يبدو أنها أوحت بما يخالف ما ذكرناه لدى عدد من الباحثين المحدثين فإن لنا فيها رأياً . يقول ابراهـــيم عبد الدافع : « ولما تم لهم النصر (عمارة وعبدالله) على النوبة واستولوا على محلاتهم اتفق رأي عمارة بأن يكون هو الملك عوضاً عن ملك علوة التي هي سوبه ، كونه الكبير ، وأن عبدالله يكون في مكان ملك قرى ... وكان عـمارة وعبدالله كالأخوين ، إلا أن رتبة عمارة أعلى ، ورتبة عبدالله دونه ، إذا كانا حاضرين فيكون المقدم وإذا غاب عمارة يكون عبدالله هو المقدم على الجميع ، ويعامل بما يعامل به عمارة . ولم تزل تلك العادة جاريـــة بين ذراريهم إلى انقضاء مملكتهم » (١) .

وجاء في مخطوطة دار الوثائق الـتي يبدو أن ناقلهـا حرص أن يجمع فيها بين روايتي كاتب الشونة الآتي ذكرها ، وابراهيم عبد الدافع – جاء ما نصه : « حتى حضر عنده (عند عمارة) عبدالله جماع ... وتمت كلمتهم على محاربة العنج ملوك سوبه وملوك قرى ... ثم اتفق رأيهم على أن يكون عمارة ملكاً عوضاً عن ملك علوة كونه هو الكبير ، وأن عبدالله جمـاع يكون في مكان ملك القرى ... وكان عمارة وعبدالله كالأخوين ... الـخ » (٢) . ولا تخرج رواية مخطوط « تاريخ ملوك السودان » عن مضمون الرواية آنفـة الذكر (٣) .

أما « مخطوطة كاتب الشونة » – ويظهر أنهـا أصل كل المخطوطات وأصحها – فقد كانت روايتها على النحو التالي : « ... وقطع أشجارهـا

---

(١) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ٥ – ٦) .
(٢) تاريخ مختص بأرض النوبة (ص ٢ – ٣) ، وهي مخطوطة لا يعرف مؤلفها كما سبق ان اشرنا .
(٣) (ص ١) ، وهو من تأليف: الزبير ود ضوه وآخرين، قام بتحقيقه الدكتور مكي شبيكة.

(غابة سنار) الملك عمارة دونقس وهو أولهـم ، وصار ملكهم بها بعد أن قاتل العنج مع عبدالله القريناتي القاسمي أبي عجيب الكافوته ، ورجـع إليها وبقي ملكه فيها ، وشيخ عبدالله المذكور في قرى » [1] .

ولم يرد في هذه المخطوطة – وهي أصل المخطوطات كما أشرنا – باقي النص الذي نقلناه من مخطوط عبد الدافع ومن تبـعه ، والذي يبدأ بقوله : « ثم اتفق رأي عمارة (أو رأيهم) بأن يكون هو الملك ... الـخ » وقوله : « وكان عمارة وعبدالله كالأخوين ... الخ » مما يدل على أن هذه الجمـل من وضع الشيخ ابراهيم المذكور ، وهو متأخر زمناً . وهذه الواقعة يؤيدها قول الشاطر بصيلي : « ويقال أيضاً إن الشيخ ابراهيم عبـد الدافع (١٨٠٠ – ١٨٨٢ م) قام بتنقيح هذه النسخة من ناحية الصياغة ، وأضاف اليها ، وغيّر وبدّل » [2] .

على ضوء ما تقدم نستطيع أن نرجح – في اطمئنان – أن العبارات التي فضلت عمارة دونقس على عبدالله جماع وجاءت في النصوص التي نقلناها آنفاً من المخطوطات السالفة ، عبارات لم يقلها كاتب الأصل التاريخـي لتلك المخطوطات ، وإنما هي جمل زيدت في وقت لاحق ، ربمـا لغايات سياسية . ويبقى معنا في هذه النقطة احتمال أن يكون عبدالله هو الأساس في قتـال العنج [3] ، أخذاً من قول صاحب الأصل : « بعد أن قاتل (عمارة) العنج مع عبدالله القريناتي القاسمي » [4] ، وهو استنتاج توصل إليه الدكتور مكي

---

(١) أكد الاستاذ شاطر بصيلي الذي قام بتحقيقها انها من وضع الشيخ أحمد أبو علي الحـاج كاتب الشونة ، وأنها اصل جميع المخطوطات وأصحها. (انظر مقدمة : مخطوطة كاتب الشونة).

(٢) مقدمة مخطوطة كاتب الشونة (ص ٧) .

(٣) أجمعت على ذلك مصادر العبدلاب ، وقال به ماكايكل ، ويوسف فضـل ، وهولت وشاتاوي . وقد ذكرنا أقوالهم في مواضعها من هذا الفصل .

(٤) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٧) .

شبيكة وعبر عنه بقوله : « وعن العلاقة بين عمارة مؤسس دولة الفونـج ، وعبدالله مؤسس مشيخة العبدلاب يذكر أن عمارة قاتل العنج مـع عبدالله ، ولا يتضح لنا إن كان زمام المبادأة كان بيد عمارة أم عبدالله ، ولكن سياق الجملة يدل على أن عمارة ساعد عبدالله في قتـال العنج ، والمقصود بهم في تلك المنطقة أنهم مملكة علوة وعاصمتها سوبا »[1] .

ويترتب على هذا احتمال آخر هو أن يكون قد فضل كل من عمارة وعبد الله البقاء في منطقته التي جاء منها ، أو سكن قربها وألف بيئتها أو يكون قد حدث ذلك التقسيم لمناطق النفوذ عن طريق الاتفـاق بينهما ،[2] أو للاعتبارين معاً . ولكن دون ضغط أو إكراه من عمارة لكونـه المقدم والكبير ، كما يفهم من بعض الصياغات ، بل حدث بكامل الارادة ، ومحض الاختيار للطرفين .

واذا صح أن عمارة هو الذي ساعد عبدالله جماع في إسقاط مملكة علوة ، وصح احتمال أن يكون كل منهما قد اختار بملء ارادته مقر حكمه : عمارة في سنار ، وعبدالله في قرى فان مسألة النيابة ، والوكالة ، والوزارة ، والتبعية ، تصبح – إن قصد بها معناها الدقيق – غير ذات موضوع ، إذ لا يدل عليهـا – حتى الآن – أثر قديم ، كما يستبعد – منطقياً – أن يقبل رجل هذا شأنه بالدنية في أمر حققته يداه .

نتجاوز هذه المسألة إلى قضية أخرى . قال كاتب الشونة : « ثم ملـك بعده الملك عدلان ولد آيا ، وهو صاحب قتـال كركوج ، وهو الذي قتل

---

(١) مملكة الفونج الاسلامية (ص ٢٥) . (وهو يتحدث عن صياغة كاتب الشونة) .

(٢) قالت بذلك مصادر العبدلاب كما عرضناها في صدر هذا البحث . وقد نقلنـا أسباباً لاختيار جماع لقرى عاصمة له ، انظرها في الباب الأول الفصل الثاني (ص ١٤٧ – ١٤٨) من هذا البحث .

الشيخ عجيب الكافوته لما عصاه وخرج عن طاعته سار إليه من سنار»[1] .

إن هذا النص يـــدل – بلا شك – على سلطان للفونج على العبدلاب يتناقض مع ما قلناه باستقلالهم ، إن سلم متـنه ، وصحت روايته ، وذلك أمر نشك فيه. فقد وقعت هذه الواقعة ـ على أشهر الروايات ـ سنة ١٠١٩هـ، وكتب النص بين سني ١٢٥٠ و ١٣٥٤ هـ[2] . فالفترة الزمنـــية – كما هو ظاهر – بين وقوع الحادثة وبين تدوينها تقرب من القرنـين ونصف القرن ، وهذا تأكيد على أن خبر الواقعة قد نقل إلى كاتب النص ، وربمـا كان النقل عن طريق أحفاد الفونج على سبيل التفاخر والمباهاة .

على أن صاحب النص نفسه لا ينجو من مظنة التحيز للفونــج ضد العرب والعبدلاب ، وهو في أغلب الظن يروي تاريخ الفونـــج من وجهة نظرهم ، ويهمل تاريخ العبدلاب ، قصداً منه ، او جهلاً به . وفي شهادته الـتي دونها على نفسه[3] ما يؤكد الفرض الأخير .

هذا الى تناقض هذا الخبر في بعض أجزائه مع مـــا عرضناه من نصوص لمصدر يعد أقدم منه ، وأوثق في أخباره

على أن « كرفورد » ينفي أن يكون سبب الحرب هو تمرد عجيب على ملوك الفونج ، ويقرر أن سبب ذلك هو سعي عجيب إلى توسيـع رقعة دولته على حساب مملكة الفونج التي تمثل مدينة أربجي حدها الشمالي مع العبدلاب[4] . وهذا يجتث من الأساس دلالة النص على تبعية العبدلاب .

---

(١) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٨) .

(٢) انظر مقدمة مخطوطة كاتب الشونة .

(٣) انظر مخطوطة كاتب الشونة (ص ٨٣) .

(٤) The Fung Kingdom of Sennar, P, 66.

وانظر : جوانب من تاريخ العبدلاب (ص ٤٧) .

مما يجدر ذكره هنا أن بعض روايات العبدلاب تؤكد أن الأمر عكس ذلك تماماً ، فقد كان الفونج - عندهم - هم المتمردون على سلطان الشيخ عجيب أثناء غيابه في الحج ، لذلك حاربهم - عندما عاد - وانتصر عليهم أول الأمر ، وردهم الى حظيرة سلطانه ، ولكنهم ثاروا عليه وقتلوه عندما بلغ من الكبر عتيا [1] . ويؤيد « هولت » هزيمة عجيب للفونج وردهم جنوباً إلى « أبسينيا » أولاً ، ثم تغلبهم عليه ، وقتلهم له بعد ذلك [2] .

والخلاصة أن القتال بين الفونج والشيخ عجيب قد حدث هذا العام دون شك لتواتر الأخبار عنه ، ولكن أن يكون سببه هو عصيان عجيب للفونج، وخروجه عن طاعتهم ؛ هنا موضع الشك والاعتراض [3] .

وإذن ، فما هو وجه الخلاف بين ما يقول به العبدلاب من الاستقلال ، وبين ما استخلصناه من النصوص فيما سبق ؟!

واضح أن مصادر العبدلاب وما تابعها لم تكتف بدعوى الاستقلال للمشيخة ، ولكنها زعمت أن العبدلاب هم الأصل في الملك ، والفونج فرع ، ورأت تلك المصادر ان ملوك الفونج مدينون بملكهم للعبدلاب بزعامة جدهم الأعلى عبدالله جماع كما سبق أن فصلنا . أما النصوص السابقة فبالرغم من انها تقرر الاستقلال لا تدعي سيادة العبدلاب على الفونج ، أو أنهم يرقون - يقيناً - الى مرتبتهم ، ناهيك عن ان يتجاوزوها .

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ٤٧) .

(٢) A Modern History of The Sudan, p. 19.

(٣) سنبين بالتفصيل عند ترجمتنا للشيخ عجيب سبب ذلك القتال ، وهل هو خروج عجيب عن طاعة الفونج ، ام خروج ملك الفونج على ما كان بين الحليفين من شروط ؟

ب) ظاهرة التبعية :

وفوق ما سبق فإن قرائن الأحوال كلها تشير إلى أن الفونج أعرق ملكاً، وأرسخ قدماً ، وأعظم شهرة من العبـدلاب . لذا راسلهم الملوك ، وقصدهم الرحالة الاجانب ، وطغى اسمهم على أوليي دولتـين اسلاميتين قامتـا في السودان فقيل فيهما : مملكة الفونج الاسلاميـة ، وسمي العصر الذي قامت فيه دولتهم معاصرة لدولة العبـدلاب بعصر الفونج . بل إن صياغـات بعض تلك النصوص التي دلتنا على استقلال العبدلاب توحي بوجود نوع من الارتباط مع ملوك الفونج على أقـل تقدير قبـل ثورة عجيب الكبير ، وهو ارتبـاط أعطى الفونج امتيازاً لم يرق إلى انتهاك سيادة العبدلاب ، كما سبق أن أشرنـــا .

فما هو التفسير الذي يعطى – مع هذا الاستقلال – لظاهرة التبـعية هذه التي اعترفنا بها في علاقـة الفونج بالعبدلاب ؟ وما نوع هذه التبعية ، او هذا الامتياز ؟

من الجائز أن يكون هذا الامتياز الذي حظي به الفونـج من علاقتهم بالعبدلاب وليداً للحلف الذي قام بين الفريقين في مستهل القرن السادس عشر الميلادي ، وأثراً لطبيعة تلك الظروف التي نشأ فيها ذلك الحلف . بيد أن الدكتور حسن أحمد محمود أرجع هذا الارتباط ، أو هذه العلاقـة الى شيء أبعد من التحالف السياسي حين عزا دوامها طوال فترة « جمـاع » والجزء الأكبر من عهد الشيخ عجيب ، الى مصاهرة تمت بين البيتين ، فقال : « يخيل الي أن عرب القواسمة قد حالفوا عرب الفونج ، وأن ثمة مصاهرة تمت بـين البيتين ، مصاهرة لم تتحدث عنها كتب التاريخ ، ولكننا نستوحيها من هذه

الصلات الوثيقة التي نشأت بين ذرية عبدالله جماع وعميرة دونقس »[1] .

وعلى الرغم مما يمكن أن يقال – تعليقاً على هذا ، وتعليلاً له – : «ولذا فما كاد ينقطع نسل الفونج الخالص بعد وفاة « أونسا بن بادي الأحمر » وانتقال ملك سنار إلى « نول سيد قوم الشمس[2] » الذي كان قد خلفه على عرشها حتى تبدلت العلاقات بين الأسرتين ، واستحالت نزاعاً مسلحاً انتهى بفصم كل علاقة بين الفونج والعبدلاب » ـ فإننا نتوقف عن الأخذ به لافتقار الامر الى دليل ، أي دليل .

على أن الدكتور أبو سليم تردد في تفسير هذه العلاقة الخاصة التي كانت قائمة بين الفونج والعبدلاب ، فلا هو متيقن أنها منبعثة عن قوة السلطة المركزية للفونج على العبدلاب، ولا هو واثق أنها نتاج ما كان بين الحكومتين من مودة ووئام . لهذا يقول : « ومن ذلك أن الشيخ محمد الامين مسمار والشيخ بادي بن مسمار قد أشارا الى العلاقة بينهما وبين السلطان وقالا إنهما : « أمينا أسراره ... وقد يدل هذا على قوة السلطة المركزية عليهما ، أو على نوع من الوفاق والمودة بين بلاطي سنار وقرى »[3] .

ولا بد أن نسلم – بادىء ذي بدء – أن هذا الامتياز أو التبعية ، أو ما يمكن ان ندعوه بالعلاقة الخاصة غير المعروف كنهها على وجه اليقين – قد استلزمت أن يدفع شيوخ العبدلاب قدراً من المال – عيناً أو نقداً – ، وقد ذهب الناس في تفسيره وتفسير دواعيه مذاهب شتى ، غير أن أكثر هذه

---

(١) الاسلام والثقافة العربية في افريقية (٣١٨/١) .
(٢) انظر مخطوطة كاتب الشونة (ص ١٩ – ٢٠) .
(٣) الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم في تحقيقه للوثائق التي ضمنها كتاب : « الفونج والأرض » (ص ٢٢) .

التفاسير شيوعاً قولهم : « انها جزية » يدفعها شيوخ العبدلاب ومن هم تحت سلطانهم المباشر لدولة الفونج رمزاً للتبعية والخضوع . يقول بوركهارت[1] : « وليس لملك سنار سلطان على بربر أكثر من حق اختيار ملكها ، ولكنه في كل أربع سنين أو خمس يوفد إليها أحد رجاله ليجمع منها جزية من الذهب والجياد والإبل ، قوامها عشرون جواداً وثلاثون بعيراً على التقريب ، وكان ملوك دنقلة ... يؤدون جزية كهذه لسنار ، كذلك كان يؤديها عرب الشايقية ، ولكنهم أمسكوا عنها بعد أن اشتد ساعدهم أخيراً »[2] .

ويقول الدكتور حسن محمود – وهو يحصر تبعية العبدلاب للفونج في مظهرين كسابقه – : « ... هذه التبعية الاسمية مظهرها : تولية سلاطين سنار لشيوخ قرى ، ثم اعتراف هؤلاء الشيوخ بالسيادة الاسمية ، ثم دفع الجزية لسلاطين سنار . وكان هؤلاء المشايخ والملوك يحتفظون بهذا الاستقلال المحلي في نطاق هذه السيادة السنارية العامة »[3] .

كذلك يعقب الدكتور نسيم مقار على نفس الموضوع مقوماً للعلاقة التي كانت بين الدولتين فيقول : « وفيما عدا الجزية السنوية التي كان يأخذها السلطان السناري من هذه الممالك (ومنها مشيخة العبدلاب) ، وحق اختيار من يخلف الحاكم المتوفى من أفراد أسرته ... لم يكن له سلطة فعلية على الملوك والزعماء الذين كانوا أحراراً في تصريف شؤون ممالكهم »[4] .

وتحدث « نكولز » عن المسألة نفسها فقال : « أظن أن الباحثين قد

---

(١) جون بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان (معرب) (ص ١٧١-١٧٢).

(٢) تعتبر ممالك : دنقله ، والشايقية ، وبربر جزءاً من مشيخة العبدلاب .

(٣) الاسلام والثقافة العربية (ج ١ ، ص ٣١٩) ، وانظر : التربية في السودان (ج ١ ، ص ٣٨ - ٣٩) .

(٤) اقتصاد السودان في العصر الفونجي (ص ٩) .

وقفوا وقفة أطول مما ينبغي عند هذه الحقيقة المقررة ، وهي أن ولاية دنقلة قد أدت لسلطان سنار ، في خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وشطر من القرن الثامن عشر نوعاً من الجزية (ونحن لا نعرف ما إذا كانت سنوية ، أو كانت تؤدى بانتظام ، وما هي قيمتها) [١] .

لقد ركزت النصوص السابقة ـ كما هو ظاهر ـ على إبراز نقطتين أساسيتين قامت عليهما علاقة الفونج بالعبدلاب :

أولاهما :

أن ملك الفونج احتفظ لنفسه – في شروط الحلف – بحق اختيار شيخ العبدلاب . (وهذا – في الواقع – أمر لم يقم عليه أي دليل) [٢] . كما أنه يختار الشيوخ المحليين ، وهذا قد يصدق على غير حكومات الأقاليم الخاضعة لدولة العبدلاب [٣] .

ثانيتهما :

أن العبدلاب كانوا يدفعون جزية لملوك سنار ، رمزاً لتبعيتهم وخضوعهم غير المطلق للفونج . وهنا أقر أنني لا أعرف كيف تسنى لكثير من المصادر أن تسم هذا المال الذي كان يقدمه حكام الأقاليم – باسم مشيخة العبدلاب – للفونج بأنه « جزية » ، إذ أن الجزية – فيما هو معروف – لفظ يطلق في

---

(١) الشايقية (ص ٢٣) .

(٢) سندرس هذه المسألة في الباب الرابع. على أن شروط الحلف التي ذكرها العبدلاب وأشار اليها كرفورد يوجد بينها شرط يقول : إن اختيار ملك الفونج أو شيخ العبدلاب لا يتم الا بانعقاد مجلس شورى يرأسه أكبر أفراد الاسرتين سناً (انظر الفصل الاول من الباب الاول ص٩٨).

(٣) سنبين بالدليل ان العبدلاب هم الذين كانوا يعينون الشيوخ المحليين الخاضعين لسيطرتهم ، لا الفونج .

الشريعة الاسلامية على الأموال التي تفرضها الدولة الاسلامية على أهل الذمة[1] لقاء أمور معينة مبسوطة في مظانها . وشيوخ العبدلاب ومن تبعهم من حكام الأقاليم – فيما هو معلوم -- ليسوا بذميين، وإنما كانوا مسلمين كإسلام سلاطين الفونج سواء بسواء .

أما القول بأن العبدلاب ومن هم تحت رئاستهم كانوا يدفعون مبلغاً من المال للفونج فقد ورد ما يؤيده في رواية « بونسيه »[2] التي ذكر فيها أنه شاهد ، أثناء وجوده بسنار ، استقبالاً أقيم لشيخ من شيوخ العبدلاب جاء إلى سنار ، وجلب معه قدراً من المال والخيل والعبيد جزية . أقر هذا ، ثم أختلف مع القائلين بكون هذا المال جزية مفروضة عليهم ، وأراه يدفع من قبل العبدلاب لاعتبارين اثنين يأتيان على الترتيب :

الاعتبار الاول :

ترسيخ عرى الصداقة والتفاهم والود ، تلك المعاني التي على أساس منها قام الحلف بين جماع وعمارة . فعلى امتداد عهد عبدالله جماع ، وإلى ما بعد عهد الشيخ عجيب الكبير بقليل حين كان لملوك الفونج سلطان حقيقي على دولتهم قبل تغلب الهمج وسيطرتهم كان العبدلاب يدفعون هذا القدر من المال دعماً لهذه الصداقة ، وأعطية يستعين بها ملوك الفونج على سد نفقات الحكومة – على قلتها – ، وما يستلزمه الحال من تجهيزات الجيوش . وهنا لا أستبعد أن يكون العبدلاب قد فرضوا لهذا العون ضريبة تؤديها وحداتهم الادارية

---

(١) انظر الآية (٢٩) من سورة التوبة، وانظر: المصباح المنير ١٣٨/١ ، ودائرة المعارف الاسلامية المجلد السادس (ص ٤٥٤) .

(٢) See : Crawford, The Fung Kingdom of Sennar, 89.

باسم مال الفونج ، فقـد كانت مملكة سنار – على مـا رواه مؤرخهم [1] – ضيقة محدودة ، وكانت مواردها – فيما يبدو – لا تفي بحاجـة سكانها في الغذاء والكساء . يستنبط هذا من كثرة المجاعـات التي كانت تتهددها حيناً بعد حين ، على ما جاء ذكره في مواضع كثيرة من « مخطوطة كاتب الشونة » التي تعتبر كتاب تاريخهم .

وأرجح أن هذه الأموال لم تكن تقدم سنويا كما رأى البعض ليضفوا عليها صفة « الجزية » إذ ليس هناك دليل موثوق به يؤيد هـذا الرأي ، كما أن الباحثين القائلين بالجزية لم يتفقوا عليه . فبينما يذهب إليـه البعض [2] يرى البعض الآخر [3] أن هذه الجزية تجمع بين أربع سنوات وخمس . على حين يعترف فريق ثالث [4] بأنه لا يعرف « ما إذا كانت سنويـة أو كانت تؤدى بانتظام ، وما هي قيمتها » .

وتضارب الروايات على هذا النحو يسقطها جميعاً ، ويدل على أنها قائمة على الحدس والتخمين. كما تنفي هذه الروايات بما تصبغه على هذا المال (أو العطاء) من صفات – سمة كونه جزية مفروضة .

فدعم مملكة سنار – إذن – في نطاق التعاون بين الدولتين هو الاعتبار الأول لما كان يقدمه العبدلاب من مال للفونج .

أما الاعتبار الثاني :

فهو : درء الأخطار التي قد تأتيهم من الفونج أو من الخارج . وذلك بعد

---

(١) كاتب الشونة في مخطوطته (ص ٣٩) .
(٢) نسيم مقار : اقتصاد السودان (ص ٩) (مخطوط بدار الوثائق) ، والتربية في السودان (مج ١ ، ص ٣٨ – ٣٩) .
(٣) رحلات بوركهارت (ص ١٧٢) .
(٤) نكولز : الشايقية (ص ٢٣) .

أن تبدلت الحال ، فذهبت المودة التي كانت بين الأسرتين ، وساءت العلاقات، واستقل العبدلاب نهائياً ، فدفعوا المال للفونج - أو الهمج أصحاب الطول حينئذ - في صورة هدايا ، اتقاء لشرهم ، ودفعاً لأذاهم ، وثمناً لرضائهم على الشيخ الجديد حين يعتلي العرش ، سيما وقد عرف الهمج بالعنف في خصامهم السياسي ، وفي إثارة الحروب . يشهد لذلك ما رواه بوركهارت من أن ملك بربر كان يقدم لملك سنار مالاً « **نظير الاعتراف به خلفاً للملك المتوفى** »[١]. وما قاله الشاطر بصيلي - في معرض حديثه عن سلطان ملك سنار الاسمي على العبدلاب - : « أما في المناطق المتحدة مع سنار فالسلطان يوافق على تعيين الشيخ أو الملك من بين المرشحين الذين كانوا عادة من بيت الزعامة [٢]»، ولا بد لهذه الموافقه من ثمن .

ومع هذا فقد استمرت الوقائع المتقطعة بينهم وبين العبدلاب إلى نهاية دولتهم ، وقد كان من أسبابها - على ما يبدو - امتناع الشيخ القوي من العبدلاب عن تقديم ما درج أسلافه على تقديمه من أموال .

أما درء الأخطار التي قد تأتي للمشيخة من الخارج فقد أشار اليها «نكولز» في وضوح تام فقال : « ولكنه يدل [٣] ببساطة على أن أمراء دنقلا (التابعين للعبدلاب) قد أوجسوا خيفة من الأتراك العثمانيين ، وكان لهم كل الحق في ذلك ، فدفعوا لملوك سنار جزية بمحض ارادتهم حتى يجنوا ثمار المودة والتفاهم الذي كان بين الفونج والسلطان سليم ... فاذا كان هناك ادعاء بأن دنقلة جزء من امبراطورية الفونج فإن الدناقلة إنما أرادوا أن يأمنوا جانب العدوان

---

(١) رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان (ص ١٧٢) .
(٢) معالم تاريخ سودان وادي النيل (ص ١١٧) .
(٣) يشير الى دفع ما أسموه جزية .

التركي بما كانوا يقدمونه للفونج من مال هو بمثابة رشوة لهم »[1] .

وقد ذكر الشاطر بصيلي سبباً آخر عندما كان يعرض هذه المسألة فقال : « وكان على السلطان – كما ذكرت روايات العبدلاب – أن يساعد قرى في حالة الحرب[2] » لقاء ما يقدمه العبدلاب للفونج من أموال ، غير أنه يبدو أن ذلك كان في فترة الود والوئام ، لا التنازع والخصام .

وصفوة القول في أمر العلاقة بين العبدلاب والفونج – أخذاً مما تقدم – أنها لا هي علاقة السيد بالمسود، أو الملك بنائبه أو وزيره، كما صورها بعضهم، ولا هي علاقة الأصل – وهم العبدلاب – بالفرع ، أو السابق باللاحق كما رأتها مصادر العبدلاب ، بل لم يكن العبدلاب فيها « ندا » مساوياً للفونج بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة كما رآها بعض المحدثين المعتدلين من العبدلاب[3] ، فقد كان الفونج ـ كما سبق أن أشرنا ـ أقدم ملكاً ، وأكثر تحضراً ، وأوسع شهرة ، ولكنها علاقة منحت الفونج امتيازاً تمثل في مظهر أساسي واحد هو : اقتطاع جزء من موارد دولة العبدلاب لدولة الفونج ، ولم يكن جزية يعطيها العبدلاب عن يد وهم صاغرون ، لاحتياج الأمر الى دليل ، وللجهل بمقدار هذا المال ، ووقت أدائه ، وخروجه على مفهوم الجزية الذي بينه الاسلام . ولكن هذا الجزء من موارد المشيخة كان يقدم – ربما بمقتضى التزام سابق – لدعم الحليف الصديق ، ورمزاً للتآلف والود بين الحكومتين حين كان حبل الود بينهما موصولا ، فلما انفصم بفعل الأيام وصله العبدلاب بهذا المال درءاً للأخطار ، وثمناً زهيداً للسلم .

---

(١) الشايقية (ص ٢٣)

(٢) معالم تاريخ سودان وادي النيل (ص ٧١) .

(٣) الشيخ عثمان أونسة : تاريخ مشيخة العبدلاب (ص ٦ – ٩) ، والاستاذ صلاح محي الدين في مجلة الخرطوم الصادرة في يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٦٨ (الصفحات ١٣ – ٣١) .

ولا عبرة بعد هذا بما يقوله مؤرخو الفونج عن عزل ملوكهم وتوليتهم لشيوخ العبدلاب ، لأن هذا لم يكن له أثر في الواقع ولا وجود . هذا إلى أن عبارات « العزل » و « التولية » إنما جاءت في وقت ذهبت فيه ريح الفونج نهائياً ، وحل محلهم في السلطة شيوخ الهمج ، وعلى عهدهم ساد قانون الغاب : الحكم للقوي من الهمج أو العبدلاب ، وكانت الفتن الداخلية آنئذ قد أضعفت شوكة الفريقين كما تصور ذلك أحداث السنين الأخيرة لدولتي الفونج والعبدلاب على ما سنعرض له بعد قليل .

على أنه حق الذين قالوا بتبعية العبدلاب للفونج وخضوعهم لهم أكدوا أن العبدلاب ـ بعد ثورة الشيخ عجيب بوقت لم يطل – قطعوا كل صلة لهم بالفونج توحي بالتبعية ، ونالوا كامل استقلالهم . يقول الدكتور حسن أحمد محمود : « غير أن هذا القرن الذي شهد هذا التوسع العظيم حمل معه عوامل الفرقة والانحلال ، فقد بدأت عرى التحالف الوثيق بين الفونج والقواسمة [1] تتصدع حينما رغب شيوخ قرى في الاستقلال سنة ١٦١٠ م وحققوا ما يريدون في غمرة الأحداث التي شهدها التاريخ الداخلي للبلاد في النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، واستقلوا سنة ١٧٧٠ م » [2] .

ويقول الدكتور محمد عوض محمد : « وبعد أن ضعفت الحكومة المركزية في سنار ، وتغلب سلطان الهمج وازداد نفوذهم صار العبدلاب مستقلين استقلالاً تاماً ، وانقطعت صلة التبعية بينهم وبين سنار » [3] .

وقد ذهب ما كما يكل إلى أن الاستقلال كان قبل سقوط دولتهم بنحو

---

(١) صوابه العبدلاب ، لأنهم هم الذين عرفت الدولة بهم ، وشيوخهم هم الذين حاربوا الفونج .

(٢) الإسلام والثقافة العربية في افريقيا (ج ١ ص ٣٢٠) .

(٣) السودان الشمالي (ص ٢١٨) .

خمسين عاماً فقال : « وقبل وقوع السودان تحت قبضة الحكم التركي بحوالي خمسين عاماً كان العبدلاب قد استقلوا عن مملكة سنار ... وما زالوا يحكمون القطر إلى التقاء الدندر والنيل الازرق »[١] .

وحدد هذا التاريخ بصورة أدق – كما حدده حسن أحمد محمود – الدكتور حسن ابراهيم حسن فقال : « وقد استقل بنو عبدلاب عن سنار منذ سنة ١٧٧٠ م »[٢] .

٣ / العلاقة من واقع الأحداث :

على هدى ما تقدم عن علاقة الفونج بالعبدلاب نتتبع – في ايجاز – أطوار تلك العلاقة من واقع الاحداث ، وسنلاحظ – أثناء ذلك – أن العامل الحاسم في توجيهها – سلباً أو ايجاباً – كان هو شخصية شيخ العبدلاب من حيث القوة والضعف ، وبالمقابل شخصية سلطان الفونج ، أو شيخ الهمج حين سادوا في سنار .

العلاقة على عهد عبدالله جماع وعمارة دونقس :

يبدو أن العلاقة بين الدولتين على عهدهما كان يسودها روح الإخاء والود فقد ذكر بعض مؤرخي الفونج أن عبدالله وعمارة كانا كالأخوين ، وظل الحال بينهما كذلك حتى نهاية عهديهما[٣] ووصف مخطوط للعبدلاب هذه العلاقة

---

(١) A History of The Arabs In The Sudan , Vol . I ,pp · 247 - 248 ·

(٢) انتشار الأسلام والعروبة (ص ١١١) ، وانظر : الاسلام والثقافة العربية (ج ١ ، ص ٣٠٧ ، ٣٤٦) .

(٣) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (٥ – ٦) ، تاريخ مختص بأرض النوبة (ص ٢ – ٣) .

فقال : « وهكذا ظل الحال طول مدة الحليفين : الشيخ عبدالله جماع زعيم العرب والملك عمارة دونقس زعيم السود ، كل منهما على قومه وفي بلده ، يحافظ على الود والعهد المقطوع به لمصلحة الفريقين . ولم يحصل بين العبدلاب والفونج حرب ، أو نقض أو إبرام لهذا العهد إلا في زمن الملك عبد القادر الثاني مك الفونج ، والشيخ عجيب الكبير المانجلك »[1] .

وتجمع أربع روايات للعبدلاب على أنه لم تكن هناك أية حروب أو نزاعات بين الاثنين ، بل سادت علاقتهما الشورى ، وبقي كل في عاصمته موفورا[2] .

ويشير باحث أوربي[3] إلى العلاقة بين الدولتين في هذا الإبان فيقول : « وكانت العلاقات في البداية بين العبدلاب والفونج مرضية ... ولكن عجيباً ثار على ملك الفونج » مما يؤكد هدوء الأحوال في عهد مؤسسي دولتي الفونج والعبدلاب . والحق أننا لم نقف على نص يدل على عكس ذلك ، فلم نسمع – حتى لدى المحدثين – عن حرب أو نزاع وقع بين الدولتين طوال مدة « جماع » وشطراً كبيراً من عهد عجيب ، ولا تفسير لهذه الظاهرة غير التفاهم العميق ، والود الخالص الذي ساد بين الأسرتين ، والتمسك الصارم ببنود الاتفاق التي قام عليها الحلف ، إن صحت البنود التي رواها العبدلاب ، أو كانت هناك شروط غيرها لم تذكرها المصادر المعروفة . وهذا ما حدا بأحد الباحثين إلى القول بمصاهرة تمت بين العبدلاب والفونج[4] .

---

(١) تاريخ مشيخة العبدلاب (ص ٨) .

(٢) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ٢١) .

(٣) Holt , A Modern Hist . of The Sudan , P . 19 .

(٤) انظر (ص ١٨٢ – ١٨٣) من هذا البحث .

العلاقة على عهد الشيخ عجيب الكبير والملك عدلان ولد آيا :

تتفق مصادر العبدلاب مع مصادر الفونج على أن العلاقات بين الدولتين استحالت نزاعاً مسلحاً في أخريات أيام الشيخ عجيب في قرى ، وعلى عهد المك عدلان ولد آيا في سنار ، ثم تختلف اختلافاً غير يسير في التفاصيل [1] ، ثم تعود فتتفق مرة أخرى على أن نهاية الشيخ عجيب أتت على يد مك الفونج عدلان ولد آيا ، وذلك في المعركة التي دارت رحاها في المكان المعروف « بولد أبي عمارة » بجوار « كركوج » الواقعة بين بلدة المسيد والخرطوم . وتختلف بعد ذلك فيما ترتب على مقتل الشيخ عجيب من وقائع وأحداث [2] .

وتصف بعض روايات العبدلاب السماعية هذه العلاقة بأن طابعها كان على عهد « جماع » الشورى ، ولكنها انقلبت في عهد عجيب الكبير إلى « غارات » [3] .

وموضع العبرة في هذا أنه منذ الآن تأرجحت العلاقات بين الحرب والسلم وفقاً للقوة والضعف ، وتبعاً للمصلحة الشخصية للشيخ أو المك ، او الوزير الهمجي ، فقد يتعاون شيخ العبدلاب مع مك الفونج للقضاء على شيخ الهمج إذا كانت له مصلحة في ذلك ، وقد يتعاون مع وزير الهمج ضد مك الفونج ويعزله أو يقتله . والعكس بالعكس صحيح كما سنرى .

---

(١) سنفصل هذا الامر في ترجمة الشيخ عجيب المانجلك (الباب الثالث) .

(٢) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٨ - ٩) ، تاريخ ملوك السودان واقاليمه (ص ٦) تاريخ مختص بارض النوبة (ص ٤ - ٥) ، واضح البيان (ص ١ - ٤) ، السودان في رسائل (مج ١٧ ص ٦٣ - ٦٤) .

(٣) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ٢١) .

وتتحدث المصادر [١] عن ثورة قام بها البيت الحاكم في سنار ضد ملكهم بادي الأحمر في الفترة ما بين ١١٠٠ الى ١١٢٧ هـ ، وشارك في هذه الثورة ولد عجيب الذي لم تذكر هذه المصادر اسمه . وقد خلطت بعض المصادر [٢] في الأمر فاعتبرت « الامين أرداب » أمين الفونج وقائد ثورتهم هو ولد عجيب شيخ قرى الذي شارك في أحداث الثورة ، غير أن المخطوطة الأصلية لتاريخ الفونج أوضحت الحقيقة فقالت : « ثم ملك بعده ابنه بادي الأحمر ، وهو الذي خرج عليه الامين أرداب وأهله الفونج، ومعهم الشيخ ولد عجيب، وحاربوه ، وملكوا عليهم ملكاً اسمه «أوكل» أرادوا عزله ، وجاؤوا جميعاً لقتاله نحو ألف فارس » [٣] .

وبالرجوع إلى جداول شيوخ العبدلاب ظهر أن الشيوخ الذين كانوا في السلطة إبان حكم بادي الاحمر في سنار هم : عجيب الثالث ، وبادي ابن عجيب ، ودياب أبو نائب ، وعبد الله الثالث بن عجيب [٤] ومن ثم تعذر علينا معرفة اسم هذا الشيخ الذي أسهم في الثورة مع الفونج على أحد ملوكهم.

وموضع الأهمية هنا أن الصراع المسلح انتقل منذئذ إلى الأسرة الحاكمة في سنار نفسها ، وهو وقت مبكر من تاريخ هذه السلطنة ، فسقطت من أعين الناس هيبتهم ، وانشغلوا هم بهذا الصراع عن استرداد هذه المكانة ، فانتهز هذه الفرصة من كانت تربطهم بالفونج وشائج فقطعوها ، وفي مقدمة هؤلاء شيوخ العبدلاب الذين استقلوا — فيما تذكر بعض المصادر — استقلالاً تاماً سنة ١٧٧٠ م [٥] .

---

(١) مخطوطة كاتب الشونة (ص ١٨) ، تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ١١ / ١) ، الشايقية (ص ١٦ – ١٧) ، نعوم شقير (ج ٢ ، ص ٣٩٤) .

(٢) المصادر نفسها بصفحاتها فيما عدا مخطوطة كاتب الشونة .

(٣) مخطوطة كاتب الشونة (ص ١٨) ،

(٤) راجع قائمة شيوخ العبدلاب في صدر الباب الثالث .

(٥) انظر (ص ١٩٠) من هذا البحث .

وإلى هذا يشير « نكولز » : « ولما انصرف أمراء سنار انصرافاً تاماً الى متاعبهم ومشاغلهم الداخلية ، وهزم الشايقية شيخ العبدلاب انصرم ذلك الخيط الضعيف الواهي من النفوذ الذي كان الفونج قد فرضوه على دنقلة من قبل » (١) .

على عهد الشيخ الأمين مسمار وبادي أبو شلوخ :

عاد الصفاء والوئام مرة أخرى بين الدولتين في عهد هذين الرجلين العظيمين ، ولكنه كان بمثابة صحوة الموت . وتمثل التعاون بينهما في أرفع صورة عندما هددت دولة خارجية أمن وسلامة سلطنة سنار ، وذلك حين زحف الجيش الحبشي بقيادة ملكه « اياسو » على سنار في ابريل سنة ١٧٤٤م، فقد قاد شيخ العبدلاب – الأمين مسمار – جيوش الدولتين باعتباره القائد العام لها ، في حين أسندت قيادة الفرسان للشيخ محمد « أبي لكيلك » كبير الهمج ووزير الفونج . وبعد أن عبر الجيش النيل الأزرق التقى بخميس أمير الفور – **ودار فور سلطنة مستقلة** – ، فانضم إليهم بجيشه تحت إمرة الأمين . وشرق « الدندر » في موضع عرف « بالتكينة » و « بالزكيبات » وقعت الواقعة لتنتهي بنصر حاسم لجيوش السودان ، نالت سنار بسببه شهرة كبيرة بلغت مصر والشام والحجاز وتونس والهند والقسطنطينية (٢) .

على عهد الشيخ الأمين مسمار وعدلان الثاني :

لم يتخل شيوخ العبدلاب عن ملوك الفونج أصدقائهم وقت الشدة ، فقد

---

(١) الشايقية (ص ٢٢) .

(٢) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٢٢) ، تاريخ مختص بأرض النوبة (ص ١٢) ، نعوم شقير (ج ٢ ، ص ٣٩٦) ، التربية في السودان (ج ١ ، ص ٣٩) ، الاسلام والثقافة العربية (ج ١ ، ص ٣٢١) . ومن الغريب ان مصادر العبدلاب لم تذكر هذه الواقعة في ترجمة الشيخ الامين مسمار.

ظل الأمين مسمار على وفائه ، وظل الوفاق قائماً بين الأسرتين ، وذلك بعد أن ذهبت شوكة الفونج بذهاب الملك بادي أبو شلوخ ، « ومنه انتهى الملك الصحيح وصار عادة ، وبقي الحل والعقد للهمج » [1] . وكان وقتئذ يتولى ملك سنار الاسمي من الفونج الملك عدلان الثاني ، والسلطان الحقيقي في يد الشيخ الهمجي « بادي ولد رجب » . وقد حاول السلطان عدلان أن يسترد شيئاً من ملك أجداده الذاهب من يد الهمج ، فاستعان بالشيخ الأمين مسمار شيخ العبدلاب فأعانه . كما استغل حقد أبناء عمومة الشيخ الهمجي الحاكم « بادي ولد رجب » عليه ، بسبب ضربه أحد إخوتهم وهو ناصر بن محمد ، على مرآى من الناس ومسمع ، فيما يرويه كاتب الشونة الذي اخترع سبباً لتعاون الشيخ الأمين مع الملك عدلان ، وهو أن بادي ولد رجب عزل شيخ العبدلاب الأمين ، وولى مكانه أخيه بادي بن مسمار ، هذا في الوقت الذي لا تعرف فيه مصادر العبدلاب شيخاً بهذا الاسم تولى الأمر فيهم » [2] .

ومهما يكن من سبب فقد اتفق الشيخ الأمين ، والملك عدلان الثاني ، وشيخ خشم البحر أحمد بن علي ، وأبناء الشيخ محمد أبي لكيلك على قتل شيخ الهمج « بادي ولد رجب » وتم لهم ما أرادوا حيث قتل بسيف الشيخ الأمين مسمار شيخ العبدلاب [3] ، فكان هذا مظهراً آخر للتعاون بين ملوك الفونج وشيوخ العبدلاب .

---

(١) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٢٠) .

(٢) سنبين في الباب الثالث الخاص بتراجم شيوخ العبدلاب أن بادي بن مسمار لم يكن شيخاً منهم .

(٣) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٢٩ – ٣٠) ، تاريخ ملوك السودان واقاليمه (ص ١٥ – ١٥ / أ) ، تاريخ مختص بارض النوبة (ص ١٧ – ١٩) ، نعوم شقير (ج ٢ ، ص ٣٩٩ – ٤٠٠) .

مخطوط تاريخ أريجي (انظر ص ٢٥٦ – ٢٥٧ من معالم تاريخ سودان) . وقد فسرت مصادر العبدلاب هذه الواقعة من وجهة نظرها ، انظر ترجمة الشيخ الامين مسمار التالية في الباب الثالث .

بعد مقتل بادي تولى مشيخة الهمج في سنار رجب بن محمد . ومن الغريب أنـــه ما كاد يصل كردفان - كشأن من سبقوه - حتى بعث أخاه ناصراً في سبعمائة فارس لحرب الشيخ الامين الذي كان وقتئذ في قلة من أصحابه في بلدة «الهلالية»(*)، ومع ذلك هزمهم هزيمة منكرة[1].

ووجه الغرابة في هذا الامر أن رجب بن محمد هذا ما كان ليعتلي عرش الهمج في سنار لولا أن قتل الامين مسمار عمه بادي ولد رجب وولاه مكانه . وعلى أية حال فان الامين مسمار - إزاء جحود رجب هذا - لم يتردد لحظة في تلبية طلب الملك عدلان حين دعاه مرة أخرى لمنازلة الهمج في سنـــار ، حيث كان يقيم وكيل الشيخ رجب أخوه ابراهيم ، ولم يشترط شيخ العبدلاب على ملك الفونج الا ما يضمن له أن الملك عدلان جاد في التخلص من سلطان الهمج المتمثل في رجب وأخيه ابراهيم . ذلك لأنـــه - كما يقول الدكتور شبيكة - أصبحت له مصلحة مشتركة مع الملك عدلان في مقاومـــة رجب وازالته » .[2] وما أن استجاب الملك عدلان لشرط الامين فقبض على ابراهيم ابن محمد ومن أشار الأمين بقبضهم وقتلهم حتى استجاب شيخ العبدلاب بدوره ، وحضر الى سنار ، ونازل الهمج ، قبل وبعد وصول زعيمهم الشيخ رجب بن محمد من كردفان ، وانتهى الامر بقتل الشيخ رجب ورجاله ، وذلك في رأس المائتين بعد الألف من الهجرة .[3]

---

(١) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٣٠ - ٣١) ، تاريخ مختص بأرض النوبـة (ص ١٩) ، تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ١٥ - ١٦) .

(٢) مملكة الفونج الاسلامية (ص ١٠٤) .

(٣) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٣٠ - ٣٢ ، ٣٥) ، تاريخ مختص بأرض النوبـــة (ص ١٩ - ٢٠) ، تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ١٥/أ - ١٦/أ) . وانظر رأي العبدلاب في : واضح البيـــان في ملوك العرب بالسودان (ص ١٢-١٣) السودان في رسائل ومدونات (مج ١٧ ، ص ٧٢) .

(*) تقع الهلالية على شاطىء النيل الازرق الايمن ، وغربها على الشاطىء الايسر محطـــة سكة حديد أبو عشر .

وعلى الرغم من أن هذه الواقعة كانت ضربة قوية قصمت ظهر الهمج ، وفرقتهم أيدي سبأ - فانهم سرعان ما لموا شعثهم ، وضموا صفوفهم تحت قيادة شيخهم الجديد الشيخ ناصر بن محمد الذي خلف أخاه الشيخ رجب ، وخاضوا معركة جديدة كان طرفها الثاني الملك عدلان الثاني الذي أقعده المرض عن حضورها ، لذا أمر على جيشه الامين رحمة ولد كدناوي ، والشيخ الامين مسمار ، ومحمد أبو ريده ، فيما انفردت به مخطوطة كاتب الشونة . وقد كتب النصر فيها للهمج بقيادة الشيخ ناصر . ولما وصلت أنباء هزيمة جيش الملك إليه أسف لعدم حضوره ، ولم يلبث أن فارق الحياة .[١]

ويمكن أن يقال إنه بموت الملك عدلان الثاني - الذي جاهد أن يحيي مجد آبائه الذي كان قد اندثر ، وأفلح الى حد - انحصر الصراع بين الهمج والعبدلاب ، وبلغ هوان سنار آنئذ الحد الذي صار فيه كل طرف من أطراف النزاع يعين من قبله - حسب هواه - ملكاً للفونج ، إذ بينما عين الشيخ ناصر ، بعد وفاة عدلان ، الملك «طبل» عين الشيخ محمد الامين مسمار شيخ العبدلاب ، الملك «رباط» ، ولم يكن في وسع الملك طبل إلا الانصياع لأمر ولي نعمته القاضي باعلان العداء لشيوخ العبدلاب . وهكذا توجه مع وزيره (الحاكم الفعلي) الشيخ ناصر الى الحلفاية عاصمة العبدلاب حيث لقي على يد الشيخ الامين مصرعه ، ثم لحق به الملك بادي الذي عين خلفاً له ، وانهزم الشيخ ناصر . وعندما أعاد الكرة على «الحلفاية» قتل حينئذ الملك رباط الذي كان قد ولاه الشيخ الامين مسمار .[٢]

على عهد عبدالله ولد عجيب ، والشيخ ناصر ولد محمود :

مضى الحال على ما كان عليه : نزاعاً مسلحاً بين الفريقين . فما أن قتل

---

(١) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٣-٣٦) . وللعبدلاب في هذه الواقعة رأي مخالف تماما ، انظره في ترجمة الشيخ الامين مسمار التالية في الباب الثالث .

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٧) ، ونعوم شقير (ج ٢ ، ص ٤٠٢) .

الشيخ الأمين مسمار سنة ١٢٠٥ هـ وخلفه على عرش العبدلاب الشيخ عبدالله ابن عجيب حتى زحف الشيخ ناصر على الحلفاية لقتاله ، وهناك مني بهزيمة اضطرته إلى الانسحاب « للصبابي » [١] حيث أقام بها ثلاثة أيام أعاد بعدها الكرة على الحلفاية ولكن لم يعد منها أيضاً بأي طائل ، ووقتها لم يجد بداً من العودة إلى سنار [٢] .

ولأمر ما اتفق أولاد الشيخ الأمين مسمار مع السلطان هاشم ابن الملك عيساوي ، وبني جرار [٣] ، وغزوا الشيخ ناصر بن محمود حاكم سنار الفعلي في عقر داره ، حيث دخلوا الجزيرة منطقة سلطانه ، وتوغلوا حتى وصلوا « سيرو » [٤] ، وهناك لحقهم الشيخ ناصر ووقع معهم صلحاً دخل بموجبه أولاد الأمين وهاشم ، سنار ، « وسافرت بنو جرار بعد الإكرام والكساوي » وكان ذلك سنة ١٢١١ هـ [٥] .

ثم دارت الأيام ، وثار الهمج على شيخهم ناصر ، وطلبوه في كل مكان ، فسافر إلى الكماتير حيث نزل في « دبركي » عاصمتهم على نهر الدندر ، فأقام

---

(١) قال محقق الطبقات : « الصبابي الآن بليدة على شاطىء النيل الأيمن شمال قبة الشيخ خوجلي (بالخرطوم بحري) ، وأما السابقة فيغلب على الظن أنها تشمل « الديم » و « سلامة باشا » وما جاورها (هامش ص ٨ من طبقات ود ضيف الله) .
(٢) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٣٧) .

(٣) بنو جرار احدى القبائل العربية في السودان ، وهاشم بن الملك عيساوي هو أحد ملوك « تقلى » (كردفان) .

(٤) « سيرو » على النيل الأزرق جنوبي سنار ،
(هامش ص ٣٩ ـ ٤٠ ، مخطوطة كاتب الشونة) .

(٥) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٣٩ ـ ٤٠) ، تاريخ مختص بأرض النوبة (ص ٢٥) ، نعوم شقير (ج ٢ ، ص ٢٠٣) .

بها قليلاً ، ثم تركها وتوجه إلى السافل [١] . قاصداً الحلفاية حيث يقيم شيخ العبدلاب الشيخ عبدالله عجيب الذي طالما حاربه بلا هوادة . قصده يلتمس حمايته من أهله الهمج ، فمنحه عبدالله حمايته . وأقام عنده حيناً ثم توجه إلى بلدة « عبود » [٢] . على حين تولى الوزارة أخوه الشيخ ادريس ، وذلك ١٢١٢ هـ [٣] .

على عهد الشيخ عبدالله بن عجيب وشيخ الهمج ادريس :

لم يكن مرجواً أن تسود غير علاقات الحرب في هذا العهد ، فقد ظهر منذ بداية السيطرة الهمجية على مقاليد الأمور في سنار أن العبدلاب لا يرغبون في مهادنة الهمج وفاء لما كان بينهم وبين ملوك الفونج من عهود ومواثيق ، وبدا من الجانب الآخر أن الهمج يرغبون كثيراً في بسط سيطرتهم أو – على الأقل – نفوذهم على العبدلاب . فما كاد الشيخ ادريس ينصب خلفاً للشيخ ناصر حتى انتحل عذراً لا يبدو مستساغاً تذرع به للتوجه إلى دار السافل لحرب الشيخ عبدالله عجيب . فقد روى كاتب الشونة [٤] أن حرب ادريس لشيخ العبدلاب كانت لأمرين : « احدهما لكلمة نقلت عنه لأخيهم الشيخ ناصر – (الذي طرده ادريس وجلس مكانه) – حين توجه اليه ، والثانية لأجل فتح دار الأبواب » [٥] .

---

(١) ذكرنا معنى « السافل » في الفصل الاول من الباب الاول .

(٢) حلة « عبود » بلدة قديمة بأرض الجزيرة امام بلدة المناقل .

(٣) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٤١) ، تاريخ مختص بأرض النوبة (ص ٢٦) ، نعوم شقير (٢ / ٤٠٤).

(٤) المصدر نفسه (ص ٤٣) وانظر : تاريخ مختص بأرض النوبة (ص ٢٨) ، وتاريخ ملوك السودان (ص ١٣) .

(٥) كلا السببين لا أعرف لهما تفسيراً . أما دار الأبواب نفسها فهي قرية أثرية أوضحنا انها كبوشية الحالية تقريباً . وكانت حينئذ خاضعة للعبدلاب .

غير أن الكاتب نفسه أشار الى السبب الحقيقي لهذه الحرب دون أن يقصد فقال : « ثم إن أولاد محمد بعد قضاء وطرهم من الصعيد[1] تنبهوا إلى دار السافل ، وتفكروا في مكائدهم الأوائل[2] » . وشرح ابراهيم عبد الدافع هذه المكائد حين عبر بقوله : « وتذكروا ما كان حصل في مدة الملك عدلان[3] » . ونحن نعلم ، مما سبق ، أن الذي حصل من زمن الملك عدلان هو محاولة العبدلاب إفناء عنصر الهمج ، وإبعادهم – نهائياً – عن السلطة ، وقد نجح العبدلاب والملك في توجيه ضربات قوية متتالية – كما شرحنا – ولكنها لم تحقق لهم كل ما أرادوه . إذن ، فالسبب الحقيقي لهذه الحرب هو محاولة الانتقام من العبدلاب بسبب ما ألحقوه بالهمج من ذل ومهانة وأذى عظيم.

ومهما كانت الأسباب الحقيقية لهذه الحرب فقد توجه الشيخ ادريس بإخوانه وجيشه الى الحلفاية في محاولة لغزوها ، وهناك دارت رحى الحرب بين العبدلاب والهمج أسفرت عن هزيمة العبدلاب ومقتل شيخهم عبدالله عجيب . وذلك في أول يوم من المحرم فاتح سنة ١٢١٥ هـ[4] .

على عهد الشيخ ناصر بن الأمين ، وشيخ الهمج محمد ولد عدلان :

استمرت علاقات العداء بين العبدلاب والهمج على أشدها حتى سقوط الدولتين على يد الأتراك الفاتحين سنة إحدى وعشرين وثمانمائة وألف من الميلاد. فقد شهد عهد آخر شيخين لدولتي العبدلاب ، والهمج – ممثلي الفونج – عدة

---

(١) هو منطقة الجزيرة التي تمتد من مقرن النيلين شمالاً حتى حدود السودان الجنوبية ، وتتصل في جانب منها باثيوبيا في الجنوب الشرقي ، وتشمل أحواض الرهد والدندر والنيل الأزرق ، وشرق النيل الأبيض ، وتتوسطها « سنار » وقد مرّ .

(٢) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٤٣) .

(٣) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ١٩ / أ – ٢٠) .

(٤) نفس المصدر والصفحة ، مخطوطة كاتب الشونة (ص ٤٣) ، تاريخ ملوك السودان (ص ١٣) تاريخ مختص بارض النوبة (ص/ ٢) نعوم شقير (ج ٢ ، ص ٤٠٥) .

محاولات للحرب يمكن إرجاع أهمها الى ثلاث: كانت الأولى في السنة الخامسة والعشرين بعد المائتين والألف للهجرة عندما تحرك الشيخ محمد ولد عدلان ومعه الملك بادي متخذاً « السافل » وجهة له ، بغية نزال العبدلاب ، ولما كان العبدلاب – على ما يبدو – عازفين عن الحرب ، أو غير قادرين عليها بسبب ما أصابهم من وهن ، وما اعتراهم من ضعف آنئذ فقد غادر شيخهم عاصمته الحلفاية ووجهته « شندي » حيث التابع الوفي والولي الحميم . ولما فشل محمد عدلان في لقـــاء جيش العبدلاب كرّ راجعاً الى سنار بعد أن أقام في الحلفاية مدة [1] .

أما محاولة الحرب الثانيـــة فيبدو أن ملك الفونج المجرد من كل سلطان لم يكن موافقاً عليها، أو كان في نزاع مع شيخ الهمج ولد عدلان وقت أن قرر الأخير القيام بها . يـــدل على ذلك قوله[2] : « وفيها » أي سنة ١٢٢٩ هـ « قنجر » أي هرب الملك بادي الى أولاد أحمد (شيوخ الكماتير[3]) وكان محمـــد ولد عدلان مقيم في تلك المدة بحلة عبود ، متوجه الى ولد عجيب الشيخ ناصر الأمين » الى أن يقول . « إلا أن محمداً ولد عدلان صاحب رأي وتدبير ، وله بواطن مع الكماتير ، لأن المعروف لا يعقبه متلوف ، فسعوا بالإصلاح ، وساق الله تعالى رأيهم الى صلاح ، فحقنوا دماء المسلمين .. وسعوا في رد الملـــك الى سنار ، وتعاهدوا وتعاقدوا على ذلك ، فقام ولد عدلان راجعاً الى سنار[4] » .

---

(١) تاريخ مختص بارض النوبة (ص ١٤٠) ، تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص٢٤/أ)، نعوم شقير (ج ٢ ص ٤١٠) .

(٢) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٧٢ – ٧٣) .

(٣) مشيخة الكماتير على نهر الدندر ، وتسمى أيضاً مشيخة خشم البحر وبين الكماتير والهمج عداء مستحكم ، وهم يتبعون – اسماً – للفونج .

(٤) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٧٢ – ٧٣) . وانظر : تاريخ مختص بأرض النوبة (ص ٤١) .

وهكذا فان الخلاف بين الفونج والهمج منع حرباً كانت وشيكة الوقوع بين الهمج والعبدلاب .

بيد أن مظاهر العداء بين الفريقين لم تكن هذه المحاولة صورتها الاخيرة ، إذ بعد مضي عام ونيف عليها ، أي في سنة إحدى وثلاثين بعد المائتين والألف من الهجرة ، بدا للشيخ محمد عدلان – كما يقول ابن عبد الدافع –[1] محاربة الشيخ ناصر الامين ، فسار إليه في جميع عساكره ، فلما بلغ ذلك شيخ العبدلاب رغب عن الحرب ، ففر – ثانية – الى شندي . وقد أثارت هذه الفعلة حفيظة الشيخ محمد ولد عدلان عليه ، فقرر عزله !! وإسناد الشياخة لابن عمه ناصر بن عبدالله !، وذلك عند وصوله الى الحلفاية . فلما رجع من حيث أتى ووصل سنار رجع عن قراره ، وأعاد عدوه الشيخ ناصر الأمين حيث ينبغي أن يكون !![2]

غير أنني أرتاب في حدوث هذه الواقعة أصلا ، وأشك في تفاصيلها إن صح وقوعها . ذلك لأنها لم ترد في «مخطوط كاتب الشونة» الذي يعتبر أصلا – كما قلنا قبلا – لهذه المخطوطات التي وردت فيها جميعاً ، كما أنها لم ترد في مصادر العبدلاب .

هذا الى أن الخبر يسقط نفسه من داخله ، إذ لو كان لابن عدلان حول أو طول في عزل أو تولية لما أبقى على هذا الشيخ الذي ناصبه العداء – كأجداده – طوال هذه المدة التي حاربه فيهـــا ثلاث مرات ، ثم إن رجوع عدلان عن

---

(١) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص٢٥) .

(٢) المصدر نفسه والصفحة ، تاريخ مختص بأرض النوبة (ص٤١) ، نعوم شقير (ج٢ ، ص ٤١١) .

قراره – إن صح – برهان آخر على عجزه عن فعل شيء نافذ بشأن شيوخ العبدلاب .

« وبعــــد » ،

فلعله قد بان الآن أمر العلاقة بين العبدلاب والفونج ، وبين العبــــدلاب والهمج بعد ذلك ، ولعل الصورة النهائية لطبيعة تلك العلاقات – في مدها وجزرها – تنسجم مع مفاهيم العصور الوسطى في السودان ، ومع المرحلة الحضارية التي أمكن للانسان السوداني أن يجتازها في مجال الحكم والسياسة...

الفصل الثاني

العلاقة السياسية بين حاضرة الدولة وأقاليمها

بين شيوخ العبدلاب وحكام الاقاليم :

نتحدث هنا عما يعرف في المصطلح السياسي الحديث بالمركزية واللامركزية في الحكم ، فنناقش العلاقة السياسية التي كانت سائدة بين عاصمة العبدلاب «قرى» أولا ، والحلفاية بعد ذلك ، وبين الاقاليم التي كانت تتبع لها ، أو يدعي العبدلاب أنها كانت تتبع لهم .

وفي هذا الصدد نستطيع أن نقرر – بادىء ذي بدء – أن سلطة شيوخ العبدلاب الحقيقية في الحكم – في غير دارهم التي تمتد من حجر العسل في الشمال الى أربجي في الجنوب [1] – لم تكن مركزية بحال :

١ – فقد كان قصارى ما تسمح به ظروف العصور الوسطى السودانية ، وما اجتازه المجتمع السوداني آنذاك من طور سياسي – أن يعين شيخ العبدلاب « الملك » أو حاكم الاقليم وفق قواعد خاصة ، ومراسيم معينة – نعرض لها في موضعها من هذا البحث – على اقليمه أو داره التي تخضع للعبدلاب ، ثم يتقاضاه مقابل ذلك ما يراه ، أو ما يتفق عليه من مال في صورة جعل سنوي يوضع في خزينة الدولة المركزية للانفاق على أوجه الصرف في المشيخة. يقول الحسن بن شاور في ذلك : «وكانوا يدفعون إليهم جعلا سنويا كالعشور ، والقود من الخيول والرقيق » [2] .

---

(١) معالم تاريخ سودان وادي النيل (ص ٣٧ – ٣٨)

(٢) واضح البيان (ص ٣ – ٤) .

وقد جرت العادة أن يعين هذا الحاكم الاقليمي – مكاً كان أو شيخا – من أكثر القبائل الموجودة في المنطقة عدداً ، وأعزها نفراً ، تختاره من بينها ، وتأتي به لشيخ العبدلاب ليؤيده ويبارك اختياره [١] ، وقد يكون ذا صلة نسب بالبيت الحاكم في عاصمة العبدلاب ، ومن هذا النوع الأخير شيخ «قوز رجب» الذي كان – سنة ١٨١٤م عندما كان بوركهارت هناك – من أسرة ولد عجيب التي خلط بوركهارت في أمرها فقال إنها الحاكمة في سنار . [٢]

ومنه أيضاً أسرة الملك نمر التي كانت تحكم في شندي عندما كان بوركهارت بها ، فقد قال في ذلك : « وعلى رأس الحكومة مك اسمه نمر ، وتنتمي أسرته للعشيرة التي تحكم سنار واسمها ود عجيب ... وكان ابو نمر عربياً من قبيلة الجعليين ، ولكن أمه من عشيرة ود عجيب الحاكمة » [٣] . فهو هنا – كما في مواضع كثيرة من كتابه – يخلط أيضاً في الامر ، فيقرر أن رئيس الحكومة في شندي من أسرة ود عجيب ، ثم ينسبها بعد ذلك للفونج الحاكمين في سنار . وفي هذا النص الذي أوردناه دليل قاطع على أن جميع الحكام الاقليميين الذين يذكر « بوركهارت» أنهم يتصلون بأسرة ود عجيب، ثم ينسبهم بعد ذلك للأسرة الحاكمة في سنار انما هم في الحقيقة من البيت الحاكم في العبدلاب ، ذلك لأننا نعلم من مصدر ثقة آخر أن جدة الملك نمر لابيه – الذي نسبه بوركهارت الى الاسرة الحاكمة في سنار – بنت للشيخ عبدالله بن الشيخ عجيب . جاء في رواية للعبدلاب : « والشيخ محمد السعد ابي أبو الملك نمر جد من هناك للشيخ عبدالله ود عجيب ود العقيل وقال : أنا

---

(١) انظر : واضح البيان (ص ٣ – ٤) ، مملكة الفونج الاسلامية (ص ٨٢) ، جغرافية وتاريخ السودان ٢ / ٤١٩ – ٤٢٠) .
(٢) رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان (ص ٣٠٠) .
(٣) المصدر السابق (ص ٢١٤ – ٢١٥) .

جابتني الفراسنة ، بدورك تديني من بيتك ، أداه « ستا وتبعها أربعين رأس رقيق » [1] .

بل قد يكون حاكم الاقليم ابناً لشيخ العبدلاب ، فقد جاء في رواياتهم عن الانقرباب وحكمهم لبربر ما مؤداه : تزوج ادريس بن عبد الله جماع جد الانقرباب في بربر ، وعاد بزوجته إلى « مرنات » ولكنها عادت أدراجها بأولادها إلى « أرتولى » وعندئذ كتب الشيخ جماع إلى أهل بربر بولاية ابنه ادريس عليهم ، وذلك بعد أن استشار اخوانه الثمانية ، فترك « الميرفاب » بربر له [2] . وتذكر رواية أخرى أن ادريس حكم — أولاً - في « أرتولى » ثم انتقل بعد ذلك إلى بربر [3] .

وقد يعطى حكم الاقليم مكافأة لقائد عسكري أبلى في حروب المشيخة بلاء نال به رضاء شيخ العبدلاب ، فقد أرجعت رواية للعبدلاب قصة حكم الميرفاب لبربر — بعد أن كان هذا الحكم للانقرباب — الى الجهود العسكرية التي بذلها « عدلان » جد الميرفاب حين حارب مع الشيخ عجيب في كسلا ، وذكرت أن عادة شيوخ العبدلاب جرت على أن يمنح شيوخ القبائل مقاطعات لحكمها جزاء بلائهم في الحروب ، ومضت الى القول بأن عدلان هذا طلب من الشيخ عجيب — بعد أن شاركه تحقيق النصر — أن يمنحه بربر مكافأة له ، فأعطاه الشيخ عجيب مبتغاه ، على اعتباره حاكماً اقليمياً من قبل العبدلاب ، وقررت هذه الرواية أن عدلان لم يكن له سلطان عليها قبل ذلك [4] .

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية (ص ٧٩ ، ٩٨) .

(٢) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية (ص ٥٤) .

(٣) المصدر السابق والصفحة .

(٤) نفس المصدر (ص ٥٤ ـ ٥٥) .

غير أن رواية أخرى ذكرت أن شيخ الميرفاب لم يكن عدلان ، وانما هو « رحمه » الذي طلب الى الشيخ عجيب أن يمنحه جيشاً لفتح « حفرت » الداخلية في منطقة كسلا ، والتي قيل فيها - لصمودها في وجه جيش عجيب - « حفرت اتعصت » ، فلما تم « لرحمة » اخضاعها قال له الشيخ عجيب ، سل ما شئت أعطكه ، فطلب بربر لاعتبارات دينية ذكرها ، فملكه عجيب اياها ، « قبل كدى الميرفاب ما عدم مملكة ، مملكتهم مننا نحن »[1] . ولكن المهم فيما نحن بصدده أن الحاكم الاقليمي قد يعين على جزء ما من مشيخة العبدلاب لقاء بذله وعطائه للدولة الأم ، ولا عبرة هنا أن يكون حاكم بربر آنئذ هو « رحمة » أو « عدلان ».

إن الحقيقة القائلة بأن شيخ العبدلاب كان يمارس بالفعل صلاحية تعيين حكام الأقاليم التابعة لمشيخته حقيقة يسندها مصدر لا يرقى إليه الشك ، فقد حضر الرحالة « كرمب » مرة تعيين أحد شيوخ هذه القرى بواسطة شيخ العبدلاب ، وذلك عندما كان في « قرى » بطلب من « مانجلها » لعلاجه سنة ١٧٠١ م[2] كما سبق أن أشرنا

٢) وتتمثل العلاقة السياسية بين عاصمة العبدلاب وأقاليم دولتهم في مظهر آخر غير تعيين حكام تلك الأقاليم ، هذا المظهر هو : عزل أولئك الحكام بواسطة شيخ العبدلاب إن صدر من أحدهم ما يدعو إلى العزل ، أو عنّ له ذلك .

وقد يكتفي هذا الشيخ باتخاذ بعض الاجراءات الصارمة لزجر بعض العناصر القائمة بالأمر في الاقليم من أصحاب الحول والطول والمكانة الرفيعة .

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ٥٤ - ٥٥) .
(٢) Crawford, The Fung Kingdom of Sennar, pp. 221 - 222 .

قال صاحب « الطبقات » – وهو يترجم للشيخ عووضة شكال القارح – : « قال أخبرني الفقيه عبد الرازق الدنقلاوي وكان ممن أدرك زمن عووضة ، قال إن ولد عجيب أرسل رسلاً لعزل ولد قنديل شيخ دنقلا من الدولة ، فلما سمع بذلك مشى إلى الشيخ عووضة وأخبره »[1]

وبعد أن قرر « كروفورد » عدم المركزية فيما يتعلق بحكم الاقاليم التابعة لمشيخة العبدلاب ، وأن الحكام المحليين يتركون بمجرد تعيينهم ينفردون بالحكم قال : « لكنهم قد يعزلون بارادة شيخ قرى الذي له سلطة مطلقة على ملوك النوبة ودنقلا »[2] . غير أن وقائع العزل للحكام الاقليميين لم يكن هناك ما يدل على حدوثها إلا في النزر اليسير . أما قيام شيخ العبدلاب ببعض الأفعال التأديبية التي لا ترقى إلى درجة العزل فقد دلت عليه بعض نصوص المتقدمين. جاء في « الطبقات » ما نصه : « وأن مساراً ولد عريبي في سفره إلى دنقلا سنة سبعين بعد الألف خرب المراتب وكسر الأجواه »[3] .

٣) وتبدو العلاقات السياسية بين شيخ العبدلاب والحاكم المحلي واضحة في فرض الأول على الثاني – بعد تعيينه – قدراً من المال يدفع نقداً أو عيناً الى الخزينة المركزية ، كما سبق أن أشرنا، ولكنه يترك للشيخ المحلي – في الأغلب الأعم – تقدير الضرائب التي يفرضها على الأرض كخراج ، وعلى التجارة كضريبة مرور ، ونحو ذلك . وقد يحدد شيخ العبدلاب بنفسه مقدار الضريبة ، كما قدرت السلطة المركزية على دار زراعة الشيخ حمد بن محمد بن علي المشيخي المشهور « بودام مريوم » نصف خراجها. كما يحق لشيخ العبدلاب أن يعفي أرضاً من هذه الضريبة أو أن يتصدق بالأرض نفسها ، ولكن ذلك

---

(١) طبقات ود ضيف الله (ص ١٢٥) .

(٢) The Fung Kingdom of Sennar, p. 65 .

(٣) المرجع السابق (ص ١٢٧) وانظر : Crawford, op·Cit p. 188

لا يكون إلا في دار العبدلاب لا الاقاليم التابعة لهم ، كما فعل الشيخ عجيب ولد العقيل في نفس هذه الأرض التي ذكرناها [1] . كما أن لشيخ العبدلاب أن يفرض أيضاً أتاوة على الخيول من دنقلا [2] باعتبار أن هذا الأمر مهم لا ينبغي أن يترك أمر تقديره للشيخ المحلي هناك . والأصل في تحصيل هذه الضرائب أن يحملها « شيخ الدار » - كما سنبين بعد - إلى بيت المال في العاصمة ، وقد تتخلف هذه القاعدة لسبب أو آخر ، وعندئذ يضطر الشيخ الى أن يوفد ابنه ، أو مجموعة تتألف من عدة أفراد الى البلاد المعنية لجمع هذه الضرائب وتحصيل الزكاة المستحقة للدولة [3] . وقد يجر الامر - عندئذ - الى صدام مسلح بين رسل شيخ العبدلاب والحاكم الاقليمي .

حدثت مخطوطة للعبدلاب قائلة : « وغادر الشيخ الأمين الهلالية الى الحلفاية ، وبعث بشيوخ قبيلته إلى الأقاليم المختلفة لجمع الضرائب ، وأرسل ابنه عجيب إلى « دنقلا » يحمل رسالة الى « أبي سوار » ملك الشايقية ليساعده في مهمته . وعندما تم جمع الضرائب وتأهب عجيب لمغادرة ديار الشايقية علم أن أبا سوار يعد له شراكاً ، فقبض عليه ثم قتله مع بعض شيوخ الشايقية الذين اشتركوا في المؤامرة . وثار الشايقية في الحال ، وتجمعوا لقتل الشيخ ومعيته الذين كانوا قلة نسبة لحالة المملكة ، ولم يمض وقت طويل حتى تم القضاء عليهم » [4] .

على أن هذه الممالك والمشيخات التي تتبع لدولة العبدلاب لم تكن دائماً ملتزمة بالوفاء بما عليها من أموال مفروضة ، ولكنها كانت تنتهز ضعف

---

(١) المرجع السابق (ص ٦٧) .
(٢) The Fung Kingdom of Sennar, p. 66.
(٣) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ١٠٢) .
(٤) السودان في رسائل ومدونات (مج ١٧ ، ص ٧٥) . انظر : واضح البيان (ص ١٥).

السلطة المركزية بضعف هذا الشيخ أو ذاك فترفض دفع الأتاوة المفروضة عليها ، مظهرة بذلك عصيانها وتمردها ، وعند ذلك تساق عليها الجيوش لإخضاعها [١] . والشواهد على ذلك كثيرة ، منها ما حدث على عهد آخر شيخ من شيوخ العبدلاب : ناصر بن الامين ، فقد كانت مملكة الجموعية تدفع ضريبة لبيت المال وهي عبارة عن المهر الذكر من الخيل دون الإناث ، وعلى هذا العهد حاول الملك « المحينة » ملك الجموعية أن يتمرد على العبدلاب فيرفض دفع هذه الضريبة . ولكن العبدلاب قادوا إليه جيوشهم ، وأوقعوا به هزيمة ماحقة في « الحلفاية » عاد الجموعية على أثرها يؤدون ما كان مفروضاً عليهم [٢] .

ومن هذا النوع أيضاً – فيما يبدو – الحرب التي شنها شيخ العبدلاب حمد السميح على شندي سنة ١٧٠٦ م – ١٧٠٧ م [٣] ، وقد أشار إليها صاحب « الطبقات » أيضاً فقال · « ثم إن الشيخ حمد السميح في حربه لشندي قتل ملك الجموعية وقتل أكثر من مائة نفر ، وخسرت البلد ، وخسرت رقيقنا وبقرنا ... » [٤] ، وهي الحرب التي احتاج فيها حمد السميح الى شراء خيل أودعت عن الشيخ خليل أحد المتصوفة ، غير أن الشيخ هذا لم يمكنه منها مع كونه شيخ العبدلاب [٥] .

إن السلطة المركزية في « قرى » أولاً ، وفي « الحلفاية » بعد ذلك لم

---

(١) حسن سليمان (دكتور) : تاريخ السودان من أقدم العصور الى الآن (ص٥١ – ٥٢) ، وانظر : تاريخ السودان من أقدم العصور الى قيام الاحزاب (ص ٦٨ – ٦٩) .

(٢) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ٧٥ – ٧٦) ، وانظر : جوانب من تاريخ العبدلاب (ص ٥٨) .

(٣) Crawford, The Fung Kingdom of Sennar, p. 333 .

(٤) طبقات ود ضيف الله (ص ١٠٥) .

(٥) نفس المصدر (ص ٨٥) .

يكن لها – فيما عدا ما ذكر – أي تأثير فعلي في تسيير دفة الحكم في تلك الأقاليم ، فحاكم الاقليم مستقل تماماً بتصريف شؤون مملكته الصغيرة : فهو الذي يعين من هم دونه مرتبة من القائمين بالأمر ، الذين يشاركونه ادارة شؤون الاقليم دون الرجوع الى السلطة المركزية [1] .

ويحدث أن يستعين الشيخ المحلي بأقربائه فيعينهم حكاماً على القرى التابعة للاقليم كما فعل الملك نمر مك شندي ، على ما رواه بوركهارت [2] .

وحاكم الاقليم هو الذي يفرض الضرائب ومقاديرها على رعاياه دون استشارة شيخ العبدلاب في عاصمة ملكه ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، ويدل على هذا قول بوركهارت عن ضريبة المرور التي فرضها عليهم الملك حمزة شيخ امارة « رأس الوادي » : « ومضى إليه اثنان من أصحابنا التجار يفاوضانه فيما يؤدى له من أتاوة ... وأنبئنا آخر الليل أن الملك لا يرضى بأقل من عشرة ريالات عن كل حمل ، وأربعة عن كل تاجر ، وقد حسبت واحداً من التجار ، وأدينا الضريبة بعضها نقداً وبعضها عيناً » [3] . فليس هناك اذن شيء معلوم قررته السلطة المركزية خاصاً بضريبة المرور في هذه الامارة ، وانما الأمر متروك لحاكمها يفاوض فيه أصحاب الشأن دون حجر على تصرفاته من أحد .

وقد يتعسف الحاكم الاقليمي في تقدير الضرائب والأتاوات على التجار فيؤدي ذلك الى كساد التجارة في هذا الاقليم أو ذاك ، ومع ذلك لا

---

(١) معالم تاريخ سودان وادي النيل (ص ١١٧) .
(٢) رحلات بوركهارت في بلاد النوبة (ص ٢١٦) .
(٣) نفس المصدر (ص ٥٥ ، ٢٠١) .

يكون لشيخ العبدلاب حق التدخل في الأمر . يقول بوركهارت : « ولا تزكوا التجارة في « دنقلا » كما تزكوا في الأقاليم الواقعة جنوبيها ، لأن التجار فيها يلقون عنتاً كثيراً من الملوك ومن شيوخ القرى المستقلين تقريباً عن الملوك »[1] .

والشيخ المحلي له مطلق التصرف « في الأراضي الواقعة في اقليمه ، وفي أخذ الخراج عنها[2] » ، وله هبتها أو اقطاعها لمن يشاء إذا لم تكن معمورة. يشهد لذلك ما فعله الشيخ حماد ولد عربي شيخ الدانياب ، فقد تصدق هذا الحاكم الاقليمي على الفقيه السيد ابن الشيخ عبد الهادي بن الشيخ محمد ولد دوليب بدار موات « وبور ليس فيها عمار »[3] .

وقد كان من اختصاص حاكم الاقليم أيضاً « النظر في دعاوى الأرض ، واصدار الاحكام فيها . وهو الذي يساعد في فصل الحدود ، ويعرف الارض الخراجية وغير الخراجية »[4] . ونذكر في هذا الصدد أن أحد ملوك الجموعية أفتى – حين رفع الامر إليه في نزاع – بأن قطعة الارض موضوع النزاع خالية من أنواع الجبايات[5] .

كما كان للشيخ المحلي أن يجمع العشور عن الأرض الزراعية على أن يرسل جزءاً منها الى « شيخ المشايخ » الذي يقوم هو الآخر بايداع نصيب الدولة منها في خزينتها المركزية في العاصمة[6] . وقد يرد هذا المال إلى الخزينة

---

(١) المصدر نفسه (ص ٥٧) .
(٢) الفونج والأرض (ص ٣٤) .
(٣) الفونج والأرض (ص ٣٤) .
(٤) نفس المصدر (ص ٧٠) .
(٥) المصدر نفسه (ص ٣٣ - ٣٤) .
(٦) المصدر نفسه (٥٢) .

العامة في صورة إعانة وسبلة أو ضريبة سنوية من قبل حاكم اقليمي قام يجبي خراج فرضه على ملكيات تقع في دائرة حكمه المباشر [١] .

إن استقلال الشيوخ المحليين بأمر مشيخاتهم بلغ في بعض الاحيان الحد الذي غدا معه أمراً مألوفاً « أن يأخذ الشيخ على عاتقه مسؤولية ما يحدث في حدود دار قبيلته من حوادث : يدفع التعويض ، ودية الدم ، ويظفر - في مقابل ذلك - بقدر من المال أو الغلة ، ويغلب أن ينفق ذلك في قرى ضيوف الدار ، واقامة الاعياد التقليدية وغير ذلك من شؤون الاقليم» [٢] .

أما عن الادارة المحلية التي كانت تعاون الشيخ المحلي أو الحاكم الاقليمي في ادارة شؤون اقليمه فكانت تتألف - في الاغلب - من الملك أو الشيخ ، ثم بعض الجنود من الرقيق ، وبيت مال ، وكاتب ، وامام . يرشدنا إلى ذلك ما رواه « بوركهارت » عن ادارة حكومة شندي الاقليمية . قال : « ولم أسمع بوجود وظائف أخرى أدنى من وظيفة الملك في حكومة شندي ، ويبدو أن ملكها قد جمع في يده كل السلطات ... وقوام بلاطه ستة من الشرطة وكاتب وامام وخازن ، وفرقة حرس جلها من الرقيق [٣] .

كذلك كان من مظاهر استقلال الملك أو الشيخ المحلي بالسلطة فيما تحت يده اعلانه الحرب متى شاء على من يجاوره من زعامات دون الرجوع الى رئيسه الاعلى شيخ العبدلاب [٤] . والامثلة على الحالات التي تبودلت فيها الحروب بين حكام الاقاليم دون قرار من شيخ العبدلاب كثيرة لا يأتي عليها

---

(١) معالم تاريخ سودان (ص ٦٢) .
(٢) الفونج والأرض (ص ٣٤) .
(٣) رحلات بوركهارت ص٢١٦ .وانظر كذلك:التربية في السودان(ج ١، ص٣٨-٣٩).
(٤) معالم تاريخ سودان (ص ٧٢) .

العد . ويكفي أن نذكر منها للتمثيل ، تلك التي كان يشنها زعماء الشايقية على النوبة الجنوبية ، واقليم دنقلا ، وبعض النوبة الشمالية ، وبخاصة ممالك : الدفار - دنقلا العجوز - الخندق - الخناق ، ومملكة أرقو ، ومن أشهر مواقعهم مع هذه الممالك تلك التي حدثت في أواسط القرن الثامن عشر حين تجمعوا بخيلهم ورجلهم ، وهاجموا - عدة مرات - هذه الممالك وتغلبوا عليها ، وخربوا دنقلا العجوز ، وقتلوا الكثير من أهلها ، وصالحهم ملوك الدناقلة - عقبها - على جعل سنوي يؤدونه إليهم يساوي نصف دخل بلادهم (١) .

ومن هذه الحروب التي كان يعلنها حكام الأقاليم دون الرجوع إلى الحكومة المركزية في عاصمة العبدلاب - قتال العواليب الذي حدث سنة ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م بين الملك نمر مك شندي ، والملك المساعد مك « المتمة » على شاطىء النيل الغربي ، والذي انتهى بانتصار الملك نمر وسيادته على شندي (٢) .

ومنها وقعة الجميعاب والسعداب التي جرت أحداثها سنة ١٢٢٦ هـ ، وقتل فيها الأرباب بان النقا ، وانكسرت السعداب ، وقويت شوكة الجميعاب (٣) .

ومنها أيضاً تلك الحروب التي اتصلت بين ملوك الشايقية وملوك الجعليين، وكان آخرها الوقائع التي حدثت في عهد الملك نمر ، ودامت حتى وصول

---

(١) عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم (ج ١ ، ص ٤٧) ، عوض الكريم محمد هندي، مختارات الصائغ(ج ٣ ، ص ١٧٨)، اقتصاد السودان في العهد الفونجي(ص٢٨، ٢٩ - ٣٠) وانظر رحلات بوركهارت (ص ٦١ - ٧٢) .

(٢) رحلات بوركهارت (ص ٢١٥) ، وانظر : مخطوطة كاتب الشونة (ص ٤٤).

(٣) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٧١)، وانظر : تاريخ ملوك السودان وأقاليمه(ص٢٤/ أ).

المماليك ، وقتل الشايقية فيها نفراً من أقارب مك شندي ، كما أغاروا مرات على أملاكه الواقعة على ضفة النيل الأعظم الغربية التي كان عليها أخوه المساعد - بفرق كبيرة من فرسانهم ، وأنزلوا بها الخراب والدمار قبل أن يصطلحوا معه ويتفرغوا لقتال المماليك [1] .

فهذه الحروب وأمثالها مما كان يدور بين الجيران المكوك والشيوخ المحليين كانت تجري بناء على الحق الذي خوله هؤلاء المكوك والشيوخ ، أو أخذوه بأيديهم - في اعلان الحرب دون حاجة الى استشارة شيخ العبدلاب .

« يتبين لنا من هذا أن اللامركزية المطلقة كانت طابع الحكم في الديار المختلفة ، تمارسه وفق عاداتها وتقاليدها المحلية » [2] وهذا - في نظرنا - هو الوضع الطبيعي الذي يلائم الامتداد الواسع لدولة العبدلاب ، وينسجم مع الظروف الحضارية التي كانت تسود في ذلك الابان ، ويتوافق مع ضعف أو انعدام الشعور القومي والاحساس بالحاجة الى وحدة وطنية تجمع بين هذه الاقاليم . هذا إلى استحالة حسم كل أمر ينشأ بين العاصمة والاقاليم عسكرياً لصالح النظام المركزي ، وذلك لبدائية سبل المواصلات بين هذه الاقاليم . وهكذا تكيفت العلاقات السياسية بين العاصمة والأقاليم بالضروريات المنبثقة عن كل هذه الظروف الموضوعية .

أما عن سلطة شيخ العبدلاب في نطاق دارهم التي احتفظت في حدودها على ما كانت عليه مملكة علوة المسيحية فقد استنتج « كرمب » أنها كانت مطلقة . يقول في ذلك : « ويبدو أن سلطة الشيخ كانت ذات طابع

---

(١) رحلات بوركهارت (ص ٢١٥) .
(٢) معالم تاريخ سودان وادي النيل (ص ٧٢) .

استبدادي ، إذ لم يكن هناك أي دليل على وجود مجلس دولة لمساعدة الشيخ مثلما كان الحال مع ملك سنار ، كما لم يكن هناك قاض لتصريف شؤون العدالة ، إذ كان يقوم بهذه المهمة الشيخ نفسه » [1] .

على ضوء ما تقدم من شرح للعلاقات السياسية بين العاصمة والأقاليم في مشيخة العبدلاب يمكن أن نستعرض صلات الوفاق أو الخصام من واقع الأحداث بين شيوخ العبدلاب وأبرز الاقاليم التي كانت تتبع لهم في الشرق والجنوب والشمال .

١) العبدلاب والشايقية :

من أقوى الدويلات التابعة لمشيخة العبدلاب مملكة الشايقية في شمال السودان . وقد قامت هذه المملكة على أطلال مدينة « نبته » القديمة ، وامتدت من الشلال الرابع إلى « أبي دوم » قشابي ، وكان أحد مراكزها الرئيسية « مروى » [2] .

والشايقية يدعون النسب إلى رجل اسمه « شايق » أنجب أربعة أبناء – على ما جاء في رواياتهم – انحدرت منهم القبائل الرئيسية لعرب الشايقية ، وهم مقسمون إلى عشائر كثيرة ، « أقواها عشيرة العدلاناب لأنها عشيرة شيخهم الأكبر » [3] .

وكانت للشايقية « ثروة طائلة من الذرة والماشية وهم كبدو جزيرة العرب

---

(١) Crawford, The Fung Kingdom, p. 222.

(٢) نسيم مقار : اقتصاد السودان في العهد الفونجي (ص ٧–٨)، وانظر : مختارات الصائغ (ج ٣ ، ص ١٨٧) .

(٣) رحلات بوركهارت (ص ٥٩) .

لا يدفعون ضريبة لشيوخهم الذين لا تبلغ سلطتهم مبلـغ سلطة شيوخ دنقلا ، وهم مشهورون بكرم الضيافة ، وشخص الضيف أو الرفيق مقدس عندهم » [1] .

والشايقية فرسان يحبون الغزو والحرب ، ويمتازون بالشجاعـة النادرة والتفاني في الذود عن حريتهم [2] . وحضارتهم أرقى من حضارة الفونـج ، فقد كانوا يسكنون بيوتاً مبنية من الحجر ، ولهم مدارس لبث علوم الاسلام المختلفة عدا الرياضة وعلم الفلك ، ولهم مساجد أيضاً [3] تؤدى فيها وظائفها العاديـة .

أما عن بدء صلة الشايقية بالعبدلاب فلسنا نعلم – على نحو يقيني – الوقت الذي تم فيه اخضاع مملكة الشايقية وضمها لمشيخة العبدلاب ، ولكننا نرجح أن ذلك قد تم بعيد قيام المشيخة ، وضمها لممالك شندي وبربر إليها .

ولا نعرف أيضاً كيف كانت العلاقات عند نشأتها بين السلطة المركزية في « قرى » وبين الشايقية في عاصمة ملكهم ، ولا متى بدأت الحروب تثور بين الفريقين . غير أننا نحتمل أنها كانت في بادىء أمرها علاقات وفاق ووئام ، ولم تستحل نزاعاً مسلحاً إلا عندما أحس الشايقية من أنفسهم قوة ، ومن العبدلاب ضعفاً، نتيجة حروبهم مع الفونج عقب مقتل الشيخ عجيب الكبير. هنا قام الشايقية بثورتهم الشهيرة التي أثمرت استقلالهم الكامل عن العبدلاب . ثم أخذت الحروب بعد ذلك تنشب بين الفريقين إلى انتهاء ملكهم .

---

(١) نفس المصدر (ص ٦٠) ، وانظر : اقتصاد السودان في العهد الفونجي (ص ٢٨).

(٢) زاهر رياض (دكتور): السودان المعاصر منذ الفتح المصري حتى الاستقلال (ص ١٩ – ٢٠) ، اقتصاد السودان في العهد .. (ص ٢٨) ، مختارات الصائغ (١٧/٣) .

(٣) زاهر رياض ، المصدر السابق والصفحة ، انظر : رحلات بوركهارت (ص ٦٠) .

إلى هذا كله يشير نسيم مقار : « وقد اتخذ زعماؤهم (الشايقية) — وكان يطلق عليهم مكوك أو ملوك — مراكزهم على شاطىء النيـــل في مروى وكورتي ، وخضعوا كغيرهم من الزعامات القائمـــة في النوبة الجنوبية لسيادة السلطنة السنارية [1] ، لكن عندمـــا أخذ الضعف يدب في كيان السلطنة أعلنوا استقلالهم التـــام ، فقويت شوكتهم ، وعظم خطرهم ، وأكثروا من غارات السلب والنهب في القرن ١٨ ... » [2] .

وترجع أسباب الموقعة الشهيرةبين الشايقية والعبدلاب التي انتهت باستقلال الشايقية ، والتي كانت فاتحة لحروب أخرى كثيرة — إلى أسباب ظاهرة أو مباشرة ، وأخرى مستترة أو هي حقيقية . فمن الأسباب الحقيقية الخفيـــة ذلك التقارب الذي نشأ بين الشايقية وسلاطين دارفور بسبب المصالح المشتركة للفريقين في صون التجارة الذاهبة إلى مصر [3] والسيطرة عليها ، فقد نظر شيوخ العبدلاب بعين الريبة والقلق إلى هذا التقارب الذي أثمر امتداد نفوذ الفور إلى دار الشايقية ، وأوجسوا خيفة مما ترتب ويترتب عليه من أثر في تقوية شوكتهم . ولذا انتظر شيخ العبدلاب « الأمين » الفرصة المناسبـــة للاشتباك معهم ، بغية كسر شوكتهم، واضعاف قوتهم المتصاعدة التي أضحت تهدد وجود مشيخة العبدلاب [4] .

---

(١) حين يقال عن أية مملكة أو مشيخة صغيرة تقع في المنطقة الشمالية الممتدة ما بين أريجي والشلال الثالث — انها تخضع للسلطنة السنارية يكون المقصود بالسلطنة مشيخة العبدلاب لعلاقة التحالف التي كانت قائمة بين الاثنين . والا فان هذه المناطق انما كانت تحت حكم العبدلاب باتفاق الخاص والعام .

(٢) اقتصاد السودان (ص ٢٩—٣٠) .

(٣) السودان المعاصر منذ الفتح المصري حتى الاستقلال (ص ٢٩ — ٣٠) ، معالم تاريخ سودان (ص ٨٣) ، اقتصاد السودان في العهد الفونجي (ص ٧—٨) .

(٤) معالم تاريخ سودان (ص ٨٣ — ٨٤) .

وفي الجانب الآخر أحس ملوك الشايقية من أنفسهم قوة ، ومن العبدلاب ضعفاً ، فحرصوا على استغلال أية فرصة تسنح كي يفكوا عنهم إسار التبعية للعبدلاب ، ويظفروا بكامل استقلالهم .

على أن بعض الآثار التاريخية توحي بأن الصلة بين الشايقية والفور لا تعود إلى المصالح التجارية وحسب ، بل ترجع أيضاً إلى صلات نسب قديمة بين الطرفين . جاء في إحدى الروايات قولها: « ومن القبائل الداخلة في الشايقية: الطريفية سكان « الغريبة » و « كورتي» ونواحيها ، حضر جدهم « الطريفي » من دارفور بصفة التجارة ، وتوطن البلد وسكنه ، فتناسلت منه هذه الذرية »[1] .

أما السبب المباشر للحرب فقد تمثل في لجوء أحد الخارجين على شيوخ العبدلاب إلى دار الشايقية ، وإجارة عثمان بن حمد العمراني زعيم الشايقية له بتحريض من أمه المدعوة « عديلة » . كان هذا الحدث هو السبب الظاهر لثورة الشايقية التي انتهت باستقلالهم نهائياً عن العبدلاب ، فقد أوغر هذا التصرف من عثمان صدر الأمين شيخ العبدلاب عليه ، وكان رد فعله أن أرسل الى عثمان رسولاً يخيره بين أمرين ثالثهما الحرب : أن يسحب حق اللجوء السياسي من هذا الخارج ويسلمه للحكومة المركزية في « قرى » ، وإن أبى عليه هذه : قتله ، وإلا فعليه أن يعد نفسه للقتال .

ولما كان ملك الشايقية يحرص على اهتبال هذه الفرصة حرصه على استقلال قومه فقد أجاب شيخ العبدلاب الى الثالث دون الأولين وهو الحرب. وكتب اليه يقول متحدياً : إني لا أسلم من استجار بي ولا أقتله ، واذا كان في مكنتك أخذه بالقوة فدونك اياه . قال عثمان هذا وهو يدرك أن شيخ

---

(١) مجموعة ماكايكل الخطية (ص ٢١٠) ، دار الوثائق المركزية ١/١٦/١٨٤ .

العبدلاب لن يتردد في قبول تحديه، لذا رجع الى جزيرة « دلقة »[1] واتخذها قاعدة حربية ينطلق منها جيشه. وجاء ود عجيب بجيشه فعسكر على شاطىء النيل « أمام دلقة »، وأرسل الى الشيخ عثمان بالتسليم في مدة لا تزيد على خمسة أيام »[2]. وجرت – بعدئذ – أحداث هذه الواقعة على النحو التالي الذي أملاه واحد من كبار شيوخ الشايقية[3]:

كانت القوة التي تحت إمرة « عثمان » قليلة جداً، لذا لجأ الى حيلة بارعة، فصبغ أهب خيله كل يوم بلون يختلف عن سابقه من ألوان الأتربة، وأخذ يرسلها لتشرب من النيل وقت الغروب على مرأى من معسكر ود عجيب الذي وقع في روعه – جراء ذلك – أن لدى « عثمان » ما لا قبل له بقتاله، فأوهن ذلك من عزمه، وحمله على تغيير خطته التي كانت تقضي بأن يكون اليوم السادس من قدومه هو يوم الهجوم على « عثمان » فاستعاض عن ذلك بطلب المفاوضة. ولما جاءه زعيم الشايقية بمفرده عول على الغدر به، وطمع في قتله، وأسر بهذا الى أحد أتباعه قائلاً: « إن الله سلمه الى أيدينا، فأسرع إليه واقتله ». ولم تنجح المكيدة، فقد كان أحد أصدقاء عثمان في مجلس شيخ العبدلاب يسترق السمع، ولدى سماعه الهمس صرخ باللهجة الدارجة للشايقية قائلا: « وحياة الرب، شرك أم حبيبة في رقيبتك طب». فكانت هذه العبارة التي فهمها « عثمان » ولم يدرك مراميها شيخ العبدلاب مرقاة النجاة، لأنها كانت تعني: انج بنفسك قبل أن تتردى في الشرك[4]. وقفز عثمان على أثر سماع هذه العبارة فوق صهوة جواده، ونجا إلى « دلقة »، وهناك

---

(١) « دلقة »: جزيرة جنوبي « مروى » على مسافة ٥٦ ميلاً على خط العرض ٥٣/١٨.

(٢) و. نكولز: الشايقية (ص ١٧ – ١٨)، وانظر معالم تاريخ سودان (ص ٨٤).

(٣) قال نكولز: « رواها لي محمد علي بليلو عمدة السواراب، وهو الحفيد الأكبر للشيخ عبود الزعيم المعروف عندهم الذي حارب في معركة كورتي ». (الشايقية هامش ص ٢٠).

(٤) الشايقية (ص ١٨ – ١٩). وانظر: معالم تاريخ سودان (ص ٨٤).

لجأ مرة أخرى الى الحيلة ، فجمع دواب رجاله ومعيزهم وماشيتهم ، وأعداداً كبيرة من حزم القش والحطب ، وعبر بهم عند غروب الشمس النيـــل الى شاطئه الذي يقيم عليه جيش العبدلاب معسكراً بعيداً عنه . وعند منتصف الليل – وجيش العبدلاب نائم – شد « عثمان » على ظهور الحيوانات ما كان قد جمعه من حطب وقش ، واقترب من جند العبدلاب ثم أشعل النار فيه ، فأجفلت الحيوانات التي كان على ظهرها، واقتحمت معسكر العبدلاب بنيرانها فأحدثت بينهم ذعراً واضطراباً زاد من حدتها صيحـات الحرب الرهيبة التي كان يطلقها رجال « عثمان ».

وأدت هذه الخدعة ما كان مرجواً منهـا ، فلاذ جيش العبدلاب بالفرار تاركاً زعيمه الأمين جالساً على « فروته » في انتظار الموت . « ورآه عثمان على هذه الحال فوعده ، وهو شاهر سيفه ، أن يعفو عنه ، على أن يضمن له استقلال الشايقية . وقطع ود عجيب له المواثيق بذلــك ، وتأكد استقلال الشايقية منذ ذلك الحين [١] ».

تبقى بعد ذلك مشكلة تحديد الوقت الذي جرى فيه هذا القتال. والشيء الذي لا خلاف عليه بصدده ، هو أنه حدث في نهاية القرن السابع عشر [٢]، وإذا لم يمكن التوصل الى معرفة السنة التي وقعت فيها ثورة الشايقية هذه على وجه دقيق فإن من المؤكد أنهـا لم تكن بعد سنة ١٧٠٢ م ، لأن ود عجيب نفسه قتله فيها الملك بادي الأحمر (١١٠٠ – ١١٢٧ هـ / ١٦٨٩ – ١٧١٥م)

---

(١) الشايقية (ص ١٩ – ٢٠) ، وانظر كذلك : معالم تاريخ سودان وادي النيل (ص ٨٤ – ٨٥) ، اقتصاد السودان في العهد الفونجي (ص ٧ – ٨) ، وانظر ايضاً :

Crawford, The Fung Kingdom of Sennar, p. 194.

(٢) حسن ابراهيم حسن (دكتور) : انتشار الاسلام والعروبة (صفحة ١١١) ، جوانب من تاريخ العبدلاب (صفحة ٦٠) .

سلطان سنار [1] . بل إننا نرجح أنها كانت في وقت سابق لسنة ١٦٩٩ م لأن الرحالة «بونسيه» الذي مر في هذا العام بمنطقة القتال هذه كتب في مذكراته عن هذه المنطقة يقول : « ولما كان الاهالي الذين يقيمون عبر مدينـة كورتي على نهر النيل (وهم الشايقية) قد أعلنوا الثورة عـلى ملك سنار ، ونهبوا القوافل التي تمر خلال بلادهم اضطرت القوافل الى أن تشق طريقها بعيداً عن ضفاف النهر »[2] . فالثورة التي يعنيها – في الأرجح – هي ثورة الشايقية هذه التي نالوا على إثرها الاستقلال .

وجوّز « نكولز » أن تكون قد وقعت حول سنة ١٦٩٠ م [3] . أمـا « كروفورد » فيقول : « ولا بد أنها حدثت بكل تأكيد قبـل سنة ١٦٨٤ م » [4] .

وهكذا يتعذر الوصول – في شأن زمان هذه الموقعة المهمة في تاريـخ الشايقية والعبدلاب – إلى رأي أقرب إلى اليقين .

تلت هذه الحرب وقائع كثيرة بين العبدلاب والشايقـية الذين أصبحوا قوة ذات خطر في شمال السودان ، فقـد أخذت عصائبهم من الفرسان تقوم بتخريب البلاد الواقعة على الضفة الغربية من النيل حتى واجهوا « الحلفايـة » ثم هاجموها ودحروا جيش العبدلاب فيها ، وقتـلوا أعداداً كبيرة من سكانها [5] . وقد ذكر « كايو » أن أهالي الحلفاية قبل وقوع غارات الشايقية عليها كانوا تسعة آلاف نفس ، ثم تناقص هذا العدد بسبب هذه الغارات حتى

---

(١) الشايقية (صفحة ٢٠) .

(٢) رحلات بونسيه (صفحة ١٥) (من الطبعة الانجليزية) .

(٣) الشايقية (صفحة ٢٠) .

(٤) The Fung Kingdom of Sennar, p. 194.

(٥) الشايقية (صفحة ٢٥) ، وقال « نكولز » في هامش هذه الصفحة :
« وتتفق الروايات التي يذكرها العبدلاب والشايقية في هذه النقطة » . وانظر ايضاً :
Mac., A History of the Arabs in the Sudan, Vol.1, p. 217 .

كان سنة ١٨٢٢ م – عندما سقطت دولة العبدلاب – بين الثلاثة والأربعة آلاف [١] .

ومن حروب الشايقية والعبدلاب التي دارت رحاها حول « حلفاية الملوك » عاصمتهم ما ذكرته إحدى المخطوطات عن معركة وقعت بين السواراب ـ أحد فروع الشايقية – وبين شيوخ العبدلاب عند فاشر [٢] الشيخ عجيب الكبير جد هذه القبيلة . فقد ذكر هذا المخطوط أن السواراب أغاروا على العبدلاب في الحلفاية ، وتبعاً للعرف العسكري المعتاد آنئذ في مثل هذه الحروب تبارز كل من شيخ العبدلاب وشيخ الشايقية السواراب مفتتحين بذلك القتال الذي انتهى بهزيمة الشايقية رغم أن ملكهم بادر شيخ العبدلاب ورماه برمحه الذي يسمى « السلطية » قبل أن يحرك شيخ العبدلاب ساكناً ، فخرج الرمح من ظهره ، وأرداه قتيلاً [٣] .

٢) العبدلاب وشرق السودان :

ترجع صلة العبدلاب بشرق السودان إلى وقت مبكر من قيام دولتهم ، فقد نسب الشاطر بصيلي للروايات المحلية المتداولة في شرق السودان قولها : ان الفونج – ويراد بهم هنا العبدلاب [٤] – قد أرسلوا قواتهم لقتال البلى

---

(١) رحلة الى مروي (مج ٢ ، صفحة ١٩٤) .

(٢) « الفاشر هو كل فناء يعقد فيه السوق الموسمي ، ويكون موضع هذه الفسحة ... على مقربة من قصر الوالي سواء كان سلطاناً او اميراً او ملكاً . (انظر : مخطوطة كاتب الشونة هامش صفحة ٢٩) .

(٣) نسبة الشيخ علي محمد نقلاً عن « تاريخ دنقلا مصححاً » . دار الوثائق المركزية ، (١/١٦/١٨٤ ، ملف أ ، رقم ٢١٢) .

(٤) نقلنا في الفصل الأول من الباب الأول ما ذكره الدكتور مكي شبيكة من أن المقصود بالفونج في الروايات المحلية لسكان شرق السودان انما هم العبدلاب ، وما يقال عن قتال حدث بين قبائل شرق السودان والفونج وعن مقابرهم مقصود به أيضاً العبدلاب . (انظر صفحة ٥٦ من : مملكة الفونج الاسلامية) هذا الى ان الوقائع التاريخية لهذه الحقبة تصلح أن تكون سنداً لهذه الحقيقة .

والأرتيقة ، وجرت أحداث الموقعة الفاصلة عند أبواب ميناء سواكن « في السنة السادسة من القرن السادس عشر الميلادي ، وأسفر القتال عن هزيمة البلي والأرتيقة » [١] كما سبق أن أشرنا ، وهذا يعني أن صلة العبدلاب بشرق السودان بدأت منذ السنة الثانية – تقريباً – لقيام مشيخة العبدلاب . ويبدو أن هذه المعركة كانت بداية لمعارك أخرى انتهت – آخر الأمر – بسيطرة العبدلاب على شرق السودان ، فقد ذكر مؤرخ شرق السودان [٢] أن اشتباكاً آخر وقع – على عهد عمارة دونقس – بين جيوش السلطنة الزرقاء وبين أمير سواكن ، وما لبث أن اضطر هذا الأمير – تحت ضغط قوات العبدلاب – الى الرحيل للبوادي المحاذية لجبال « سنكات » و « أركويت » ، وهنا عين قائد جيش العبدلاب الأمير عبدالله بوش الارتيقي أميراً على مدينة سواكن . وانتهت هذه الاشتباكات بخضوع بادية اقليم البجة إلا الهدندوة فانهم تحصنوا بالجبال [٣].

ويقول في موضع آخر من كتابه : « واستولت (يقصد مشيخة العبدلاب) على بلاد البجة سنة ١٠٠٠ هـ تقريباً برئاسة عجيب المانجلك » [٤] .

وتوطدت علاقات العبدلاب بشرق السودان بعد ذلك حينما أصهر الشيخ عجيب المانجلك الى أهله في السنة التي تولى فيها زعامة المشيخة . يقول محمد صالح ضرار : « وزار سواكن حوالي سنة ٩٧٠ هـ – ١٥٦٠ م الشيخ عجيب المانجلك بن الشيخ عبد الله جماع ... قاصداً أرض الحرمين ، وحال وصوله

---

(١) انظر الفصل الثاني من الباب الأول (صفحة ١٥٢) في هذا البحث، وانظر معالم تاريخ سودان وادي النيل (صفحة ٣٠) .

(٢) هو الشيخ محمد صالح ضرار كما مر .

(٣) تاريخ السودان : البحر الاحمر واقليم البجة (صفحة ٦٥) .

(٤) نفس المصدر (صفحة ٥٦) .

نزل هو وحاشيته ضيوفاً على أمير الأرتيقة الأمير عبد الله بوش (الذي كان قد عين حاكماً على مدينة سواكن من قبل قائد جيش العبدلاب) ثم طلب مصاهرة أبناء عمار بن كاهل ، فأرسل الارتيقة في طلب الشيخ فاضل بن عمار من عاصمة نظارته « أكررباي » وتعريبها « الجبل القوي » ، بجوار « محطة كمسانا » ، فحضر ومعه أخوه عشيب ، ووافقوا على المصاهرة بقران الشيخ عجيب بمريم بنت الشيخ عشيب »[1] .

إن روايات العبدلاب السماعية التي دونت بأخرة تقرر هي الأخرى هذه الواقعة ولكن ببعض الاختلاف ، فقد ورد فيها أن الشيخ عجيب ذهب الى شرق السودان طالبـــاً أن يجيره أهله ، وهو يضمر حربهم اذا أحس منهم ضعفاً ، وقد أتيح له أن يعلم حالهم الذي وجده لا يقارن بقوته ، وهنا أعلن الحرب عليهم ، وأثناءها أذهلته شجاعة إحدى فتياتهم التي شاركت أهلها في القتال ، فطلب أن يزف اليها ، وأجيب الى طلبه . ومن مريم عشيب هذه أنجب ابنه عثمان جد العتامنة ، ثم طلقها لشيء أتت كره منها . ولما شب عثمان عن الطوق ورث عرش أبيه ، فحاز النقارة والنحاس[2] .

وقد أكد « كروفورد » حقيقة إصهار عجيب الى أهل شرق السودان

---

(١) تاريخ السودان : البحر الاحمر واقليم البجة (صفحة ٦٥–٦٦) . وقد اتفق الرواة : الاستاذ محمد الامين شريف ناظر مؤسسة احياء نار القرآن بسنكات ، والسيد محمد عثمان عيسى هلال من كبار رجالات « العتمن » ، والسيد هاشم محمد سعد وكلاهما ببورتسودان والشيخ الامين محمود بك أرتيقه ، والسيد الامين محمد سعد بسواكن ، وعدد من الرجال المسنين الذين التقيت بهم في بورتسودان على تفاصيل قصة زواج الشيخ عجيب بشرق السودان كما ذكرها الشيخ محمد صالح ضرار في تاريخه هذا ، كما اتفقوا معه على انجاب الشيخ عجيب من مريم عشيب ابنـــه عثمان جد العتامنة الذي خلفه على عرش العبدلاب ، وعلى ان الشيخ عجيب حفر « الفولة » التي لا تزال قائمة بسواكن وتمكنت من مشاهدتها . وأيد الجميع – عدا الأول – أن عجيباً أمر بحفر الفولة هذه وببعض الاصلاحات باعتبار ان سواكن جزء من مشيخة العبدلاب .

(٢) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية (صفحة ٣١ – ٣٢) .

وإنجاب خليفته على عرش العبدلاب – عثمان – منهم فقال : « كان عثمان نتاج لقاء عجيب البجاوي في سواكن ، ومنشىء فرعاً من الأمارأر الذين جمع جيشه من بينهم »[1] . ويشير مكي شبيكة الى هذه الواقعة بقوله : « وعرف الشيخ عجيب بمصاهراته المتعددة لقبائل شرق السودان »[2] .

وعن تولي الشيخ عثمان الامر في مشيخة العبدلاب واقليم الامارأر في شرق السودان ، يقول كروفورد : « ويبدو من غير شك أن عثمان الاول ابن عجيب الاول كان شيخ كل العبدلاب والامارأر ، ويتفق نسله بالنسبة لروايات العبدلاب وذلك الذي تقوله روايات الامارأر »[3].

ومع أن هذه المصاهرة وما نتج عنها قد مكن للعبدلاب في منطقة البحر الاحمر أيما تمكين فإن الامر لم يخل من صراع مسلح في بعض الاوقات المتقطعة بعدها ، ولكنه لم يبلغ قط الدرجة التي غلت فيها يد العبدلاب عن شرق السودان . أقول هذا مشيراً الى الحرب التي ذكرها « كرمب » سنة ١٧٠١م عندما كان في بلاط « قرى » لعلاج شيخ العبدلاب ، على ما سبق تفصيله . فقد حدث « انه بينما كان يجلس في حضرة مانجل العبدلاب » وصل رسول من جيش الشيخ بجهة البحر الاحمر ، يخبر بأنهم انتصروا وأن الجانب الآخر طلب شروط الاتفاق »[4].

ولم يتبين « كروفورد » من المقصود بالجانب الآخر من قبائل الشرق الذي طلب شروط الصلح ، ولكنه مال الى ترجيح كونهم فرعاً من الهدندوة الذين كانوا قد قتلوا ـ في وقت سابق ـ شيخ الأمارأر موسى في « خور أميت »

The Fung Kingdom of Sennar , P . 179 . (١)

(٢) مملكة الفونج الاسلامية (ص ٥٦) .

The Fung Kingdom of Sennar , P . 168 . (٣)

Ibid, p. 223 . (٤)

عندما كان في طريقه الى سواكن للتجارة . وكان موسى هذا ابن حفيد للشيخ عجيب الأول ، « ولذا فقد كانت هناك أسباب عائلية للتدخل بجانب الأسباب السياسية »[1] .

ومهما يكن من أمر فقد ظلت سيادة العبدلاب على شرق السودان تمد رواقها ، على الأقل حتى عهد آخر شيخ من شيوخ « قرى » : دياب أبو نائب الذي تذكر الروايات أنه مات بينما كان يتفقد القبائل العربية الموجودة هناك[2] .

٣) علاقة العبدلاب بالشنابلة في أربجي :

ورد في « الطبقات[3] » وفي مصادر أخرى[4] أن مدينة أربجي أسست سنة ٨٨٠ هـ ، وأن مؤسسها هو حجازي بن معين[5] ، وأول شيخ تعين للمدينة بعد تعميرها وتنظيمها هو الشيخ نور محمد ولد رحيمة ، وذلك سنة ٩١٣ هـ[6] .

وقد لاحظ مكي شبيكة أن هناك تناقضاً في أمر نسبة تأسيسها لحجازي ابن معين المذكور ، ومنشأ التناقض أن أخبار حجازي هذا في « الطبقات » تدل على انه عاش وقت قدوم الشيخ تاج الدين البهاري الذي كان في القرن

---

(١) The Fung Kingdom of Sennar , P . 223 .

(٢) جريدة الثورة السودانية (عدد ٥٦١ بتاريخ ١٥ / ٦ / ١٩٦٢ م ، بحث بعنوان شخصيات وقبائل من التاريخ ، للاستاذ : ابراهيم مصطفى عربي .

(٣) طبقات ود ضيف الله (ص ٥).

(٤) انظر : مخطوطة كاتب الشونة (ص ٤ ، ٣١)، مخطوط الشنابلة في معالم تاريخ (ص ٢٥٦) .

(٥) المصدر السابق والصفحات ، مملكة الفونج الاسلامية (ص ٢٢) .

(٦) معالم تاريخ سودان (ص ٢٥٦) .

العاشر الهجري . غير أن شبيكة اهتدى - بعد تأمل - الى حل لهـذه المشكلة جاء في قوله : « وأنا أرجح أن هنـاك شخصيتين بهذا الاسم ، أولهما الذي بنى أربجي قبل تأسيس سنار ، وثانيهما أحد أحفـاده في العهد المتأخر وهو تلميذ تاج الدين البهاري »[١] . ومحاولة تفسير هذا التناقض على هـذا النحو - في رأينا - أقرب الى الحقيقة ، وأدنى للقبول .

أما عن بدء صلة العبدلاب بهذه المدينة التي كانت تمثل الحـد الجنوبي لمشيختهم فقد اختلفت حوله الآراء : قال بعضهم إنها كانت عاصمـة للعبدلاب قبل سقوط سوبا وقيام «قرى» أي قبل سنة ٩١٠هـ ، وهو رأي «بروس»[٢] وفيه خالف الرأي المشهور . ويفهم من سكوت مصادر العبدلاب قاطبة عن ذكر عاصمة لهم قبل « قرى » أن الأمر لم يكن كما قال « بروس » ، وأن أربجي لم تكن عاصمة سياسية لهم قبل قدوم الفونج ، ولكنها ضمت الى دولتهم بعد قيامها في « قرى » سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٤ م .

إن الأمر الذي لا شك فيـه هو أن أربجي كانت في عهد الشيخ عجيب الكبير تابعة للعبدلاب ، بدليل أنه عين فيها قاضيها المشهور « دشين » .

وقد استنتج « كروفورد » من تقرير « كرمب » لحقيـقة أن « قرى » حينما زارها سنة ١٧٠١ م لم يكن بها قاض ، على حـين أن أربجي كان فيها القاضي « دشين » المشهور منذ عهد الشيخ عجيب الكبير - استنتج أن أربجي كانت عاصمة ادارية للعبدلاب[٣] .

وكان « كروفورد » قد أكد قبل ذلك أن أربجي كانت مركزاً للعبدلاب بقوله : « لم تتوقف القافلة (قافلة كرمب) في « قرى » مثلما فعلت القوافل

---

(١) مملكة الفونج الاسلامية (ص ٢٤) .

(٢) See : Bruce , Vol . VI . P 371

(٣) The Fung Kingdom of Sennar , P . 67 , 222 .

الأخرى ، اذ لم يكن الشيخ موجوداً بها ، بـــل **كان في مقره في مدينـة أربجي »** [١] .

ويبدو أن صلات العبدلاب بأربجي كانت حسنة حتى عهد الشيخ محمـــد الأمين مسمار وهو من شيوخ « الحلفاية » المتأخرين ، فقد ذكر « كرمب » عن واقعة رجوعه الى سنار بعد أن مكث في بلاط شيخ العبدلاب أكثر من ثلاثة شهور – أن هـذا الشيخ بعث اليهم رسولاً – بعد أن غادروا قرى – ليصحبهم في الطريق ، وأن الرسول سار معهم حـتى أوصلهم أربجي حيث تبدأ – جنوبيها – حدود مملكة سنار، ثم تركهم وقفل راجعاً الى «قرى»[٢] دون أن يتعرض له أحد هناك بسوء .

ويعتقد أن علاقــات العبدلاب بالشنابـلة في أربجي بدأت تسوء على عهد الشيخ الأمين مسمار ، فقد جاء في بعض مخطوطات الفونج أن أهالي أربجي سعوا – عندما كان الصراع محتداً بين شيخ العبدلاب ووزراء الهمـــج – الى عزل الأمين مسمار وشياخة «بادي» أخيه مكانه ، فأدى هذا – في الأرجح – الى أن يستعين الشيخ الأمين بالشكرية في هجومه على مدينة أربجي فيهلـك مقاتليها ، ويتركها قاعاً صفصفاً ، بعد أن كانت مدينة تزدهر فيها التجارة ، ويشمخ فيها العمران ، وتزخر بمدارس العلم والقرآن ، وبعد أن كان أهلهـــا أصحاب حضارة راقية ، ورغد في العيش كريم . وتقول هذه المصادر إنهـا أضحت منذ ذلك التاريخ خراباً الى الآن [٣] . ولكن يبدو أنها لم تندثر تماماً بتأثير ذلك التدمير ، بل عاشت تصارع العبدلاب الى الزمن الذي جاء فيـه

---

(١) Ibid , P . 219 (وانظر : السودان عبر القرون ص ٦٤)

(٢) The Fung Kingdom of Sennar , P . 224

(٣) انظر : مخطوطة كاتب الشونة (ص ٣١) ، تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص١٦) تاريخ مختص بالنوبة (ص ١٩) .

بوركهارت للسودان [1] ، يدل على ذلـك قوله : « وكان طريق النيل الى سنار محفوفاً بالخطر في أثناء مقامي بشندي ، وذلك لما نشب من خصومة بين مك الحلفاية ومك أريجي ،ومن ثم كانت القوافل تؤثر الطريق الصحراوي... حتى تبلغ « أبو حراز ... [2] » .

وهكذا مضى الحال الى أن سقطت دولة العبدلاب .

---

(١) جاء بوركهارت للسودان سنة ١٨١٤ م .
(٢) رحلات بوركهارت (ص ٢٤٥) .

الباب الثالث

شيوخ العبدلاب وأهم آثارهم

الفصل الأول

شيوخ قرى (٩١٠ ـــ ١١٢٣ هـ)

شيوخ العبدلاب مرتبة أسماؤهم حسب مدد حكمهم

(٩١٠ - ١٢٣٦ هـ / ١٥٠٤ - ١٨٢١ م)

قبل أن أشرع في الترجمة لأعلام الشيوخ الذين حكموا دولة العبدلاب منذ نشأتها حتى « التركية السابقة » حين سقطت - أحسب أنه يناسب أن أقدم بين يدي ذلك جداول أو قوائم تتضمن أسماء أولئك الشيوخ ، والمدة التي حكم خلالها كل واحد منهم . وتمثل هذه القوائم والجداول - أهم ما وصل الى علمنا حتى الآن من الروايات المختلفة الواردة في ترتيب الشيوخ ، والأزمنة التي حكموا فيها .

يضاف الى هذه القوائم - عند ترجمة كل شيخ - دلالات الأختام التي دمغت بها وثائق العبدلاب[١] ، ثم ما في وثائق سلاطين الفونج من اشارات الى شيوخهم في تواريخ معينة قد تساعد على معرفة سنة التولية لكل شيخ ، مقارنة هذه الدلالات جميعها بما جاء في تلك الجداول ، أملاً في الوصول الى حقيقة مظنونة أو مرجحة ان لم يكن سبيل الى الخبر اليقين .

وقائمة (أ) التالية لهذه الأسطر هي الأساس الذي ارتضيناه لترتيب أسماء شيوخ العبدلاب حسب مدد حكمهم ، وقد حصلت عليها من الشيخ عثمان أونسه شيخ العبدلاب الحالي وكبيرهم . ونشر الأستاذ صلاح محيي الدين صورة طبق الأصل لها في مجلة الخرطوم الصادرة أول يناير سنة ١٩٦٨ م . كذلك

---

(١) توجد هذه الوثائق في كتاب : « الفونج والأرض » .

توجد نسخة من نفس هذه القائمة في مكتب الدكتور يوسف فضل مدير شعبة أبحاث السودان بجامعة الخرطوم ، ونشر الأستاذ ابراهيم مصطفى عريبي في جريدة الثورة السودانية بتاريخ ١٥ / ٦ / ١٩٦٢ م قائمة مطابقة لها تماماً [١] ، وهي تتفق الى حد كبير مع القائمة التي جاءت في متن المخطوط الذي نشره الاستاذ : أ / أ / بن في : السودان في رسائل ومدونات (S. N. R.) مجلد ١٧ ص ٥٩ وما بعدها) . وفوق هذا فان هذه القائمة هي القائمة الرسمية المعترف بها من قبل أحفاد شيوخ العبدلاب الآن . لهذا كله اعتمدتها أساساً لترتيب شيوخ العبدلاب ، وعلى هديها مضيت أترجم لهم .

أما القوائم الأخرى – وعددها سبع – فقد رأيت أن أضعها ملحقاً أولاً في آخر الرسالة .

---

(١) انظر الملحق الأول ، قائمة (د) .

القائمـــة (أ)

ملوك قرى	الاسم	من	الى
		هـ	هـ
الشيخ عبدالله جماع		٩١٠	٩٧٠
«	عجيب المانجلك	٩٧٠	١٠١٩
«	عثمان عجيب المانجلك	١٠١٩	١٠٢٠
«	محمد العقيل بن عجيب المانجلك	١٠٢٠	١٠٤٥
«	عبدالله البرنس بن العقيل بن عجيب المانجلك	١٠٤٥	١٠٦٢
«	هجو بن عثمان بن عجيب المانجلك	١٠٦٢	١٠٦٧
«	عجيب الثاني بن عربي بن عجيب المانجلك	١٠٦٧	١٠٧٣
«	مسمار بن عربي بن عجيب المانجلك	١٠٧٣	١٠٧٨
«	علي بن عثمان بن عجيب المانجلك	١٠٧٨	١٠٨٥
«	حمد السميح بن عثمان بن عجيب المانجلك	١٠٨٥	١٠٩٥
«	عجيب الثالث بن محمد العقيل بن عجيب المانجلك	١٠٩٥	١١١٠
«	بادي بن عجيب الثالث بن محمد العقيل بن عجيب المانجلك	١١١٠	١١١٤
«	دياب ابو نائب بن بادي بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك	١١١٤	١١٢٣

ملوك الحلفاية :

الشيخ عبدالله بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك	١١٢٣	١١٤٤
« شمام بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك	١١٤٤	١١٤٨
« مسمار بن عبدالله بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك	١٩٤٨	١١٥٣
« ناصر بن شمام بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك	١١٥٣	١١٦١
« عجيب بن عبدالله بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك	١١٦١	١١٨١
« عمر بن عبدالله بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك	١١٨١	١١٨٣
« الأمين بن مسمار بن عبدالله بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك	١١٨٣	١٢٠٣
« عبدالله بن عجيب بن عبدالله بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك	١٢٠٣	١٢١٠
« ناصر بن الامين مسمار بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك	١٢١٠	١٢٣٥

١ ــ الشيخ عبدالله جماع
(٩١٠ ـ ٩٧٠ هـ)

أ - نشأتـــه :

إن أول من نعرف من شيوخ العبدلاب الشيخ عبدالله جماع مؤسس دولتهم، وقد سبق أن أوضحنا نسبه لأبيه وأمه ، وأبنـا أنه ينحدر من سلالة عربية عريقة كانت إحدى مؤهلاته لقيادة العرب في السودان ، كما شرحنا علة تسميته « جماع » [١] .

والواقع أنه ليست لدينا معلومات من مصادر مكتوبة عن نشأة «جماع»، فيما عدا أوراقاً تاريخية يحتفظ بها كبيرهم وعميد أسرتهم الشيخ عثمان أونسه تفيد أن أول من حضر من الجزيرة العربية الى السودان من العبدلاب هو محمد الباقر والد عبدالله جماع [٢] ، وفي سواكن حيث كانت تقيم قبـيلة رفاعة الجهنية تزوج محمد الباقر من « حسنى ابنـة عبدالله القرين » الرفاعية ، وولد منها الشيخ عبدالله الذي لقب – فيما بعد – بجماع [٣] .

ولما بلغ من العمر سبعاً أخذه والده آيباً به الى مكة المكرمة حيث أقرأه

---

(١) انظر : الفصل الأول ص ٩٥ ، وواضح البيان ص ١ ، والسودان في رسائل ومدونات مج ١٧ ، ص ٦٠ ، وجريـدة الثورة بتاريخ ١٥ / ٦ ، ٢٩ / ٦ / ١٩٦٢ م بحث الاستاذ ابراهيم مصطفى عربي .

(٢) وانظر : تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية ص ١٤ .

(٣) وانظر : بحث ابراهيم مصطفى عربي في جريدة الثورة بتاريخ ١٥ / ٦ / ٦٢ .

القرآن الكريم والعلم . وفي مستهل القرن الثامن من الهجرة [1] حين كان جماع في الثالثة والعشرين من العمر قفل راجعاً الى السودان حيث تزعم قبيلة القواسمة ، ووحد العرب الذين كانوا يجاورونه، ثم ذهب الى « عمارة دونقس» وأنشأ معه الحلف الذي أسقط مملكة علوة المسيحية ، وأقام مقامها مشيخة العبدلاب ، على ما جاء تبيانه في الفصل الأول .

ولا نستبعد بحال أن يكون والد عبدالله جماع قد جاء الى سواكن وأصهر الى رفاعة الجهنية هناك ، فبعض المصادر العربية القديمة تشير الى قدم رفاعة في أرض البجة ، فقد نقل ابن الفرات خبراً عن حرب وقعت بينها وبين جهنية في هذه المنطقة سنة ١٢٨١ م [2] ، وهو تاريخ سابق بأكثر من قرنين لقيام دولة العبدلاب ، مما يقوي احتمال زواج والد عبدالله من رفاعة عند قدومه الى هناك

ب – صفاته :

يقول عنه أحد أحفاده : « إن جدنا عبدالله جماع هذا هو قائد زمام رفاعة ، وحامل لوائهم ، « وكمندار » [3] جيوشهم ، الجالس على كرسي مملكتهم ، دانت له في أيامه رقاب الرجال ، وأذعنت اليه القبائل ، وهادته الملوك حيث كانوا من السودان . وكان حسن السيرة ، معروف بالانصاف الى

---

(١) نفس المصدر .

(٢) تاريخ ابن الفرات (بيروت) جـ ٧ ص ٢٢٦ ، البيان والاعراب ص ١٤٩ ، وانظر :
Mac Michael , A hist. of The Arabs in the Sudan vol . I , PP . 238 -9.

(٣) لم أجد لهذه الكلمة معنى عربياً ينسجم مع السياق ، ويبدو أنها الكلمة الانجليزية : Commonder التي تعني قمندان أو قبطان .

أن مات على ذلك وله من الأولاد تسعة » [1] .

وينقل « ماكمايكل » عن « بروس » قوله : « هذا الأمير هو في الحقيقة شيخ كل العرب الذين يدفعون له الجزية كي يتمكن من بسط سلطانه وقوته، ويحافظ على النظام والقوانين العامة » [2] . وقد تجلت شجاعته عندما هدد السلطان سليم العثماني بغزو السودان ، فقد نقل عنه أنه أقسم ليجعلن من سواكن مقبرة للغزاة إن هم حاولوا غزوها [3] .

ويبدو أن عبدالله جماع كان على جانب كبير من ثقابة الفكر ، وسداد الرأي ، وقوة الشكيمة ، إذ ليس ميسوراً أن يتهيأ لامرىء كسب ثقة أهله ، وثقة التجمعات العربية التي كانت تعايشهم وتحيط بديارهم ، للحد الذي يجعل هذا الخليط البشري الهائل يرضخ لقيادته ، وزعامة قبيلته ، ويخوض حروباً عديدة تحت إمرته حتى تتحقق مطامحه في إزالة قوة عاتية ظلت تحكم مئات السنين ، ويؤسس حكماً جديداً على أنقاضها على رأسه أفراد أسرته – أقول: ليس من طبائع الأشياء أن يتحقق كل هذا إلا على يد رجل تكمن في أعماقه مقومات الزعامة الناجحة التي أشارت الى تحققها فيه تلك الروايات .

جـ - أعمالـه :

ولست أشك في أن ظهور عبدالله جماع على مسرح الأحداث في السودان في مستهل القرن السادس عشر الميلادي يعتبر حدثاً تاريخياً مهماً ، ونقطة تحول بارزة في تاريخ السودان ، فقد استطاع هذا الشيخ بما أوتي من قوة الإرادة ، وصدق العزيمة . والحنكة السياسية المتاحة لانسان ذلك العصر

---

(١) ابن الحاج حسن بن الشريف الفحل بن ضياب بن أرنس : أوراق نسب العبدلاب ص ٦١٥ – ٦١٦ ، دار الوثائق المركزية ، متنوعات ١ / ١٦ / ١٨٤ .

(٢) op-cit , Vol . I , 146 .

(٣) محجوب زيادة : الاسلام في السودان ص ٤٠ – ٤١ .

بالغاً ما بلغ ، والغيرة الدينية أن ينـقل السودان من عصر المسيحية الذي امتد طويلاً زهاء عشرة قرون الى عصر جديد أشرق فيـه على السودان نور الاسلام ، وسادت فيه – لأول مرة في تاريخ السودان – العناصر العربية التي أمكنها أن تعبر عن إرادتها بانشاء ما عرف اصطلاحاً « بالسلطنة الزرقـاء » أو مملكة سنار ومثل الجانب العربي القح منها « مشيخة العبدلاب » الـتي دانت – من بعده – لأبنائه وأحفاده . ولهذا فقد عد قيام مشيخة العبدلاب وحليفتها مملكة الفونج بداية لتاريخ السودان الحديث .

ولم يفارق عبدالله جماع الحياة الا بعد أن مد حدود دولته – وبالتـالي سلطان العروبة والاسلام – جنوباً الى بلدة أربجي ، وشمالاً الى الشلال الثالث ، وغرباً عند حدود دارفور ، وشرقـاً الى سواكن والبحر الأحمر ، بل حـتى « مصوع » في أراضي الأرتريا كما سبق أن أشرنا [١] .

جـ – جيوش العبدلاب وأتراك مصر :

ومن الأحداث المهمة في تاريخ المشيخة الـتي نعتقد أنها وقعت في عهد الشيخ عبدالله جماع ما روته مصادر العبدلاب منسوبـاً الى عهد الشيخ عجيب الثالث ، خطأ ، فقد روت هذه المصادر أن أنباء وصلت الى حاضرة المشيخة « قرى » تشير الى تحركات عسكرية تركية أخذت طريقها الى حدود البلاد الشمالية مع مصر ، بعث بها ولاة مصر العثمانيـين للاستيلاء على السودان ، واشتهر هؤلاء الغزاة التركمان باسم « الغز » . وعند ذلك جرد عليهم الشيخ عجيب الثالث حملة عسكرية كبيرة أسند قيادتها لابنه حمـاد المكنى « ظلف العجل » ، وأمره بالتوجه لردهم عن الحدود السودانية .

---

(١) انظر حدود المشيخة في الفصل الثاني من الباب الأول ص ١٤٨ ، وانظر السودان عبر القرون ص ٦٥ – ٦٦ ، وتاريخ السودان : البحر الاحمر ص ٦٥ – ٦٦ .

ورغم أن عيون قائد جيش العبدلاب الذين بثهم للاستطلاع أنهوا إليه خبر امتلاك العدو للسلاح الناري وهو الذي لم يكن لجيش العبدلاب منه نصيب فقد صمم القائد «العبدلابي» على خوض غمار المعركة ،ودحر الأعداء[1]، وتفتق ذهنه عن حيلة ذكية أثمرت نتيجة باهرة ، وقادته الى إحراز النصر ، والاطاحة برأس قائد جيش الأتراك وكثير من جنده ، وفرار من بقي منهم على قيد الحياة .

ولما تناهت أخبار هذه الهزيمة الى السلطان سليم صمم على فتح السودان ، وأتى – في قوة من جيشه – الى سواكن ، وهنا أرسل اليه الشيخ عجيب الثالث يحذره من مغبة غزو السودان ، ويقطع عليه كل ذريعة قد يلجأ اليها لتبرير غزوه باسم الدين ، ويقول له في بعض رسائله التي ضاعت مؤخراً : إن أهل السودان مسلمون إسلام الاتراك أنفسهم ، وليس ثمة ما يدعو لشن حرب دينية عليهم ، كما أنه أرسل إليه كتاباً بأنساب عرب السودان من وضع عالمه الامام السمرقندي [2] .

ان النقد الباطني لهذا الخبر يظهر بوضوح أن راويته كان يسترجع من الذاكرة الشيء الذي سمعه من أبيه عندما كان صبياً دون سن التمييز ، أو أن الأساس الذي قام عليه هذا الخبر هو وثائق أتلفت إبان الثورة المهدية بعد أن نقلت من قرى الى الخرطوم [3] ، ومن ثم اختلط الامر عند تدوين النص ، فنسب ما وقع في عهد الشيخ عبدالله جماع الى عهد متأخر عنه

---

(١) واضح البيان ص ٦ – ٧ ، السودان في رسائل ومدونات مج ١٧ ص ٦٦ – ٦٧ ، تاريخ ملوك العبدلاب ص ٩ ، Crawford , The FungKingdom . P . 169 .

(٢) انظر التفاصيل الوافية لهذه الواقعة في : المصادر السابقة بصفحاتها .

(٣) Crawford , The FungKingdom . P . 169 .

كثيراً هو عهد الشيخ عجيب الثالث . والبراهين الدالة على ذلك تتلخص في الآتي :

١ – ينسب « شوسر » : (Shucair) هـــذه الواقعة بتفصيلاتها « لعمارة دونقس » [١] ، ومعلوم أن عمارة هذا كان معاصراً لعبدالله جماع ومات قبله .

٢ – ان اشتراك الجوابرة في هذه الواقعة ـ وهم سلالة جابر الذي اشتهر أثناء النصف الثـــاني من القرن السادس عشر الميلادي ، أي في عهد عبدالله جماع [٢] ـ يرجح أنها لم تكن في غير عهد عبدالله جماع .

٣ ـ ان الفتح العثماني لمصر تمّ ـ فيما هو معروف ـ سنة ١٥١٧ م ، وفي سنة ١٥٢٠ م حين وقع الصراع بين الجوابرة وقبيلة الغربيـــة أرسل السلطان سليم قوة عسكرية بقيادة حسن قوسي ، استولت على المنطقة الممتدة مـــن حدود مصر الجنوبية الى الشلال الثالث ، وعرفت منذ ذلك التـــاريخ باسم الكشاف أو « الغز » [٣] .

وفي هذا الوقت الذي جرت فيـــه جميع هـــذه الأحداث تقرر مصادر العبدلاب أن شيخ دولتهم وأميرهـــا كان عبد الله جماع وليس عجيب الثالث . بل تجمع كل المصادر المعروفة على أنه لم يكن آنئذ الشيخ عجيب الثالث .

٤ ـ واذا كانت قائمة ترتيب شيوخ العبدلاب الرسمية «وتقرب منها القوائم الاخرى » تجعل حكم الشيخ عجيب الثالث بين سنة ١٠٩٥ و ١١١٠ هـ فان

---

(١) IBid , PP . 169 - 170 .
(٢) IBid , PP . 169 - 170 .
(٣) انظر الفصل الثاني من الباب الأول ص ١٢٩ ،

محاولة ربط هذا الحديث به وبالسلطان سليم الأول لا تبدو معقولة ، لأن الاخير لم يكن حينئذ على قيد الحياة .

هـ - وفاته :

يقول ابراهيم بن عبد الدافع : « ثم بعد وفاته « نايل بن عميرة » تولى الملك عمارة المعروف بأبي سكيكين ، وفي أيامه توفي عبدالله جماع الى رحمة مولاه »[1] .

وجاء في مخطوط : « تاريخ مختص بالنوبة » أن بداية ملك عمارة أبي سكيكين هذا كانت سنة ٩٦٢ هـ[2] . ونصّ كاتب الشونة على أن « نايل » الذي خلفه « ابو سكيكين » انتهى حكمه سنة ٩٧٠ هـ[3] .

وتجمع قوائم التولية التي تمثل وجهة نظر العبدلاب[4] على أن الشيخ عبد الله حكم ستّين عاماً تقريباً ، وكان بدء حكمه سنة ٩١٠ هـ .

ويقول الدكتور مكي شبيكة : « وإذا كان صحيحاً أن الحلف بين عبدالله جماع وعمارة حدث سنة ١٥٠٤ م حيث اتفاق الروايات، وأن عجيب المانجلك خليفة والده عبدالله على مشيخة قرى تولى في حوالي سنة ١٥٧٠ م يكون عبدالله ظل متربعاً على المشيخة نحو ٦٦ سنة ، فاذا كان عمره حين التولية ٢٠ سنة يبلغ الـ ٨٦ سنة حين وفاته »[5] .

على أن الشيخ عثمان أونسه ينص على تاريخ وفاة عبدالله جماع فيقول :

---

(١) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ٦ - ٧ .
(٢) مجهول المؤلف ص ٤ .
(٣) مخطوط كاتب الشونة ص ٧ - ٨ .
(٤) انظر اول هذا الفصل .
(٥) مملكة الفونج الاسلامية ص ٤١ .

« توفي الشيخ عبدالله جماع في التسعمائة وسبعين هجرية بقرى، وقيل بنواحي أسوان لتفقده العرب الموجودين بتلك الجهات »[1] .

من تأمل هذه النصوص نستخلص الحقائق التالية :

١ ـ استمر حكم الشيخ عبدالله جماع أكثر من اثنين وخمسين عاماً .

٢ ـ حدثت وفاته بين سنة ٩٦٢ وسنة ٩٧٠ هـ .

٣ ـ من الراجح أنه توفي سنة ٩٧٠ هـ وهو العام الذي انتهى فيه حكم الحليف الآخر الملك عمارة أبي سكيكين، وتولى من العبدلاب الشيخ عجيب المانجلك[2] .

و ـ ذريتـــه :

وكان الشيخ عبدالله جماع قد خلف من الأبناء تسعة عشر[3]، وفي رواية أخرى أربعة خامسهم الشيخ عجيب الكبير[4] . غـــير أن المعروف منهم ـ بالاسم ـ بعد الشيخ عجيب الكبير : ادريس « الانقير » جد « الأنقرياب » و « ديومه » أو « ديوم » ـ على خلاف في الروايات ـ جد الديوماب، وسبه جد السباب، وعنتاي أو محمد عنتر جد العنتراب، وشندي جد الشندياب،

---

(١) مخطوط : تاريخ مشيخة العبدلاب ص ١٤ .

(٢) اذا صح ان عام ٩٧٠ هـ يعادل سنة ١٥٦٢ / ١٥٦٣ م ـ وهو صحيح ـ فانه يستحيل ـ على ضوء هذه الروايات ـ أن يكون جماع توفي سنة ١٥٧٠ م وهو ما يراه أستاذنا الدكتور شبيكة، لأن أبا سكيكين الذي مات عبدالله جماع في عهده انتهى ملكه قبل هذا التاريخ بنحو ثمان سنوات .

(٣) تاريـــخ مشيخة العبدلاب ص ١٤، وانظر : السودان في رسائل مج ١٧ ص ٦١، واضح البيان ص ٢ .

(٤) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٢٦ .

وشاور جد الشاوراب، وأدركوجه جد الأدركوجاب، وعبود جد العبوداب، وقاسم جد القواسمة ، وسند ، و « عثمان » جد العتامنة وكجرك [1] .

٢ ــ الشيخ عجيب المانجلك (٩٧٠ ــ ١٠١٩) هـ :

أ ـ شخصيته وبدء حكمه :

إن أول ابن للشيخ عبدالله جمــاع خلفه على عرش العبدلاب كان الشيخ عجيب [2] الذي اشتهر في تاريخ السودان بعجيب المانجلــك . والمانجلك لفظ « اتفقت المصادر المعروفة حتى الآن على أنه يعني : لا نجل غيرك » أو ما في معنى ذلك [3] . وقد حاول ماكمايكل أن يبحث عن أصله فقرر أولاً أنــه اصطلاح غير عربي ، ثم رجح أن يكون من أصل همجي [4] ، وأيد عجمته أيضاً الباحث « هولت » [5] .

ويظهر أن لفظ « مانجل » أو «مانجلك» كان مقصوراً على الشيخ عجيب

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٢٥ - ٢٦ ، وانظر : واضح البــيان ص ٢ ، السودان في رسائل ومدونات مج ١٧ ص ٦١ ، تاريخ ملوك العبدلاب ص ٤ .

(٢) اتفقت المصادر المكتوبة مع الروايات السماعية على أن عجيب هو خليفة «جماع» . انظر الطبقات ص ٥ ، تاريخ مختص بالنوبة ص ٤ ، تاريــخ ملوك السودان وأقاليمه ص ٦ — ٧ ، مخطوطة كاتب الشونة ص ٨ .

(٣) واضح البيان ص ٩ ، السودان في رسائل مج ١٧ ص٦٨ ، تاريخ ملوك العبدلاب ص ١١ — ١٢ ، نعوم شقير ٢ / ٤١٧ ، ٤١٨ ، بحث للأستاذ ابراهيم مصطفى عربي ، جريدة الثورة ، العدد ٥٦١ ، بتاريخ ١٥ / ٦ / ١٩٦٢ م .

(٤) A Hist . of The Arabs in The Sudan . I , PP. 245- 8 .

(٥) A Modern hist . of The Sudan , P . 19 .

دون سواه من شيوخ العبدلاب ، اذ لم ينقل لنا أن أباه عبدالله جماع كان قد تلقب به . ومع أن كتب الرحلات التي وضعها أجانب تصف منصب الرياسة في دولة العبدلاب « بالمانجلية » أو « المانجلكية » قياساً على عجيب المانجلك، كما أن بعض الباحثين المحدثين[1] يقولون به فانني لم أجد نصاً واحداً في المصادر القديمة المطبوع منها والمخطوط ، ولا في الوثائق الصادرة عن العبدلاب يؤيد هذا القول الشائع ، اذ لم يصف أي مصدر الشيخ حمد السميح ، أو الشيخ محمد العقيل مثلاً « بالمانجلك » ، ولكنها تقول : الشيخ محمد العقيل بن عجيب المانجلك ، كما أن قوائم شيوخهم على اختلافها [2] تسير على هذا النهج . وهذا جميعه يؤكد أن لقب « مانجل » أو « مانجلك » كان لقباً تقديرياً تفرد به الشيخ عجيب الكبير ولم يتجاوزه الى غيره من شيوخ العبدلاب .

وعلى العكس من ذلك تماماً فان الواضح من المصادر القديمة المعروفة ومن وثائق العبدلاب المنشورة ومخطوطاتهم وجداول شيوخهم ، أن اللقب الرسمي لرئيس دولة العبدلاب كان « الشيخ » دون المانجلك ، فقد حرص العبدلاب على إسباغه على رئيس دولتهم منذ أولهم عبدالله جماع ، وحتى آخرهم ناصر ، بل والى الآن [3] . وأرجح أن الحرص على اتخاذ لقب الشيخ للتعبير عن رأس الدولة انما قصد به الدلالة على عروبة دولة العبدلاب الخالصة ، اذ كان هو اللقب الرسمي الشائع وقتذاك في جزيرة العرب التي أجمعت روايات العبدلاب – كما أشرنا سابقاً – على أنهم جاءوا منها [4] .

---

(١) انظر مثلاً ماكمايكل في: A Hist . of The Arabs . I , P . 245

(٢) انظر جداول شيوخ العبدلاب في صدر هذا الفصل وفي الملحق الاول .

(٣) انظر : واضح البيان ، والسودان في رسائل مج ١٧ ، وتاريخ ملوك العبدلاب وغيرها، والوثائق الصادرة عن شيوخ العبدلاب في كتاب : « الفونج والأرض » وجداول التولية ، وتاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية .

(٤) انظر تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ١٤ – ١٥ .

واذا كان حكام هذه المشيخة قد عرفوا بالعبدلاب نسبة لجدهم الاعلى عبد الله جماع فإنهم عرفوا أيضاً بأولاد عجيب نسبة للشيخ عجيب المانجلك هذا[1]، وقد يدل ذلك على أنه يحتل في تاريخ العبدلاب المكان البارز الذي احتله أبو جعفر المنصور في تاريخ دولة بني العباس . ولعل في العبارة التاليـة ما يشير الى شيء من هذا المعنى الذي كان قد استقر في أذهان معاصريه. قال صاحب الطبقات[2] : « فاذا ركب (يشير الى الشيخ عبد الرحمن الدويحي) تركب معه خيول كأنه ولد عجيب في زمانه » ، فهذه العـبارة تدل - بلا شك - على الهيبة التي ورثها الشيخ عجيب لأحفـــاده ، وعلى صحة نسبة شيوخ العبدلاب اليه .

وتقول إحدى روايات العبدلاب عن الشيخ عجيب : « إن أولهم (أي أولاد جماع) صاحب الولاية الكبيرة ، والمناقب الشهيرة ، والمعارف الغزيرة، سلطان الظاهر والباطن ، الشيخ عجيب المانجلـــك ، وكان أصغرهم سناً ، ووالدته بنت الشريف الحاج حمد أبي دنانة ، ولم يكن له من إخوانه شقيق ، ولي الملك والخلافة بعد أبيه باتفاق إخوانه وعشيرته ، وأهل العقد والحل من المسلمين ، ولم تزل الخلافة في ذريته الى الآن »[3] .

وتقول مخطوطة « بن » : « تولى الشيخ عجيب الحكم بعد أبيه ، وتلقب بالمانجلك ، ووسع حدود مملكته ، وعرف بروحه العسكريـــة وبالتقوى ، والسير على هدى الله ، وسنة رسوله عليـه الصلاة والسلام . وكان عادلاً في

---

(١) ترد هذه التسمية كثيراً في المصادر ، انظر مثلا : طبـــقات ود ضيف الله ص ٧٦ ، ١٧٥ ، ونعوم شقير جـ ٢ ص ٤١٧ – ٤١٨ ، ومختارات الصائغ جـ ٣ ص ١٧٥ .

(٢) طبقات ود ضيف الله ص ١٣٢ .

(٣) « نسب العبدلاب » ، دار الوثائق المركزية ، متنوعات ١ / ١٦ / ١٨٤ ص ٦١٦ ، وانظر تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٢٧ ، و :

Mac michael ; A hist . of The Arabs . I , P . 248.

رعيته ، رحيماً بها ، مهتماً برفاهيتها ، ولذلك فقد كان يتجول في أنحـاء مملكته ليزيل « ما طرأ من انحراف في تطبيق الشريعة الاسلامية » [١] .

ونقل من الأرباب الحسن بن شاور قوله : « ثم خلفه ابنه الشيخ عجيب المانجلك ... وكان من أكابر أولياء الله ، وقام داعيـاً الى الله تعالى باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، والعمل بسنة نبيه ﷺ ، وصار يحكم في الناس بالعدل ، مع اشتهاره بالرأفة والرحمة ، والتفقد للرعية ، وكان يمر بنفسه على سائر البلاد التي تحت طاعته ، ويزيل عنهـا البدع والهمجية المخالفة للشريعة المحمدية » [٢] .

ويقول مكي شبيكة : « وتظهر لنـا هنا شخصية الشيخ عجيب المانجلك خليفة والده عبدالله جماع مؤسسة أسرة العبدلاب ... ووالدة الشيخ عجيب – حسب بعض الروايات – بنت للشريف « أبو دنانة »، وهذا مؤهل له لأن يحترم الناحية الدينية ، ويقوم بكل ما ينشر التعاليم الدينية [٣].

ويتحدث كروفورد عن شخصية الشيخ عجيب قائلاً : « أبو دليق مركز البطاحين على بعد ٢٨ ميلاً للشمال لها ارتباطات « عبداللابية » مؤكدة ، لأنه هناك دفن الشريف حمد أبو دنانة الذي تزوج عبدالله جماع ابنته ، فولدت له عجيب المانجلك [٤].

بدراسة هذه النصوص ننتهي الى الحقائق التالية :

١ – يتصل نسب الشيخ عجيب المانجلك من جهة أمه بالشريف حمد أبي

---

(١) السودان في رسائل ومدونات مج ١٧ ص ٦١ ، وانظر مختارات الصائغ ١٧٥/٣ .

(٢) واضح البيان ص ٢ .

(٣) مملكة الفونج الاسلامية ص ٤٨–٤٩ ، وانظر النسابة : عثمان حمد الله في : التعارف والعشيرة ص ٢٦٤ ، والتصوف في السودان ص ١٢٥ – ١٢٦ وجوانب من تاريخ العبدلاب ص ٦٩ . وقد حدثني الشيخ عثمان أرنسه بمثل ما جاء في هذه المصادر .

(٤) The Fungkingdom of Sennar p. 88, 333

دنانة ، أول من أدخل الطريقة الشاذلية الصوفية في السودان . والشريف حمد هذا هو ابن سليمان أبي الريش المتصل بالامام علي الهادي بن حسن العسكري[١].

وموضع الأهمية في هذا الانتساب مـا تركه من أثر ديني قوي في تكوين شخصية الشيخ عجيب ، انعكس على السياسة التي اتبعها في تأسيس دور العلم والعبادة ، وتشجيع وسائل نشر المعارف والدين والعلوم على ما يأتي تفصيله.

٢ - اعتباره أحد الأولياء الصالحين ، الذين وصلوا بعلمهم وعبادتهم الى أعلى درجات الترقي في سلم الصعود الى الحضرة الإلهية ، فأصبح سلطان الظاهر والباطن . ولا عجب أن يوصف الشيخ عجيب بـــذلك ، فإن العقلية السائدة في عصره كانت عقلية سيطرة الدين على كل شيء ، وتحكمه في تصرفات الناس ومصائرهم ، وتأثيره القويّ على أفكارهم ووجداناتهم ، وتفسير كل ظواهر الكون على أساس منه . ونظرة واحدة الى « كتاب الطبقات » الذي ألف في تلك الفترة ترينا مصداق ذلك ، فالظاهرة الرئيسية المشتركة في ترجمة كل شيخ وعالم هي: ولايته ، واشتهاره بالأفعال الخارقة للعادات، أي الكرامات ويبدو أن أثر تلك الحياة العقلية التي أومأنا إليهـا قد مدّ رواقه الى حياتنا الحاضرة ، فالآن وبعد مئات السنين من وفاة الشيخ عجيب لا يزال عدد غير يسير من الناس يذهب كل يوم الى قبته في « قرى » للزيارة ولا يزال يعتبر أباً لكل سوداني ، وأن قاصده لا يخيب[٢].

---

(١) انظر أيضاً : كتاب التعارف والعشيرة ص ٢٦٤ ، و :

Macmichael, a hist. of the Arabs. 1, p. 248.

Trimingham, Islam in the Sudan, P. 196.

تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٢٧ .

(٢) زرت قبة الشيخ عجيب في ١ / ٥ / ١٩٦٩ م كما سبق أن أشرت ، وكان الطريق اليها وعراً كما قلت مما أدى الى أن «توحل» سيارتنا في أكثر من موضع ، وحين كنا نحاول في احدى هذه المرات انتشالها من الرمل جاءت امرأة من مكان قريب لقبة الشيخ تستطلع أخبارنا ، وبعد أن تأكدت من وجهتنا أخذت تنادي : يا أبي الشيخ عجيب ! هذا ابنـك ومريدك ، أقبل يقصدك للزيارة ، فأغثه وأنجده ، وانتشل سيارته من وهدتها . قالت ذلك في ضراعة واخلاص تفوقان كل تعبير . (وانظر في زيارات السودانيين لقبة الشيخ عجيب رحـلة مصر والسودان ص ٣٤١ . مملكة الفونج في سنار (بالانجليزية) ص ١٧٧ - ١٧٨) .

٣ – كان الشيخ عجيب أصغر إخوانه عند تولية الحكم، ولم يكن له منهم شقيق . أما كونه أصغر إخوانه – وهو أمر أيدته ، زيادة على ما سبق ، رواياتهم السماعية [١] – فقد يكون فيه تفسير للفترة الطويلة التي قضاها في الحكم ، وللعمر المديد الذي عاشه ، إذ تقول رواية أنه عاش ١٢٥ سنة ، وتقول أخرى ١٤٠ [٢] ، وقد وجدت مكتوباً في لوح زجاجي وضع على قبر الشيخ عجيب أنه عاش ١٤٨ سنة [٣] . وتتفق روايات العبدلاب جميعاً أنه عمّر حتى غطت حواجبه عينيه ، واضطر الى أن يشدها لأعلى بخيط .

وإذا لم يخل هذا القول من مبالغة فإن فيه أيضاً حقاً كثيراً ، ذلك لأن بعض الروايات تقول ان الشيخ عجيب شارك أباه في قيادة الجيوش التي أسقطت مملكة علوة ، وأن اقتحام حصون « قرى » لطرد العنج منها ، والسيطرة عليها قد تم على يديه . وقد حدث هذا في نهاية العقد الأول من القرن العاشر الهجري ، ثم تجمع الروايات على أنه كان خليفة أبيه عبدالله جماع على عرش العبدلاب كما مر وشيكاً ، وقد ظل « جماع » يحكم من هذا العرش ستين عاماً أو أكثر على خلاف في الروايات . وهذا يعني فيما يعنيه – أن عمر عجيب حين تولى الملك كان أكثر من ثمانين عاماً ، على اعتبار أنه شارك في حرب « علوة » مع أبيه وهو ابن العشرين او بعدها بقليل .

وإذا أضفنا الى الثمانين خمسين ، وهي الفترة الواقعة بين سنة ٩٧٠ هـ حين تولى الحكم ، وبين ١٠١٩ هـ حين قتل او مات يصبح عمره ثلاثين ومائة وهو وسط بين الروايات . وحينئذ يصبح تصور ما تقوله مصادر العبدلاب عن كبره حتى ترتخي أهدابه فتغطي عينيه أمراً ميسوراً .

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٢٥ – ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧ ، ٤٧ .

(٣) وانظر أيضاً : جريدة الثورة بتاريخ ١٥ / ٦ / ١٩٦٢ بحث الأستاذ ابراهيم مصطفى عربي .

٤ - كان الشيخ عجيب هو الخليفة الاول لأبيه عبدالله جماع . ومما تميز به الجمع بين القيادة السياسية والعسكرية المقتدرة الحكيمة، وبين التقوى والورع. ومن مظاهر تقواه وورعه : حبه للعدل ، ورأفته بالرعية ، وحرصه الدائم على التنقل بين أرجاء مملكته لإيقاف ما قد يظهر من أنواع البدع والضلالات التي تخالف شريعة الاسلام [١].

ب - سياسته :

نقلنا [٢] عن مؤرخ البجة الشيخ محمد صالح ضرار ، أن الشيخ عجيب المانجلك زار سواكن حاضرة شرق السودان حول سنة ٩٧٠ هـ / ١٥٦٠ م . وهي السنة التي تولى فيها الشياخة في دولة العبدلاب ، وأبنا كيف أنه طلب مصاهرة أهل شرق السودان وتم له ما أراد في بيت من أشرف بيوتهم.

فماذا كان يبتغي الشيخ عجيب من وراء إصهاره لأسرة الزعامة في شرق السودان ؟؟ وهل لهذا الأمر علاقة سياسية ؟؟

كان نظام الحكم في مشيخة العبدلاب غير مركزي ، كما سبق أن أشرنا ، يحكم كل مملكة صغيرة ، أو مشيخة خاضعة للعبدلاب شيخ أو ملك يختار من أقوى القبائل التي تكونت منها هذه المشيخة أو تلك المملكة ، ولهذا النظام - لا شك - خطره على وحدة المشيخة ، فعندما تأنس مشيخة أو مملكة

---

(١) تشهد لهذه السياسة « واقعة الحسانية » ، وموجز أخبارها : أن قبيلة الحسانية الكبيرة العدد كانت تخضع لسلطان العبدلاب في عهده ، ونقل اليه عنها أنها تأتي افعالاً تنافي القيم التي جاء بها الاسلام ، وبعد أن تحقق بنفسه من صحة ما نقل اليه عنها أعذر إلى هذه القبيلة فلم ترعو ، وعندئذ جرد عليها جيشاً لجباً ، عاقبها بقسوة ، وأعادها الى حظيرة الاسلام . (تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٤٢ - ٤٤ ، جوانب من تاريخ العبدلاب ص ٥٦ .

(٢) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني .

صغيرة من نفسها قوة ، أو تشعر أن مصالحها أُضيرت من بقائهـا تحت نفوذ العبدلاب تعلن الثورة ، وتسعى للانفصال ، وقد يكتب لها النجاح . ونموذج هذه الثورات الناجحة ثورة الشايقية بقيادة زعيمهم عثمان بن حمد العمرابي ، تلك الثورة التي أدت إلى استقلالهم عن العبدلاب[1].

كان الشيخ عجيب – في أكبر الظن – يدرك بثاقب فكره خطر هـذا النظام ، ويدرك في الوقت نفسه استحالة التخلص منـه بالسيطرة العسكرية على هذه الممالك والمشيخات ، فالمواصلات بدائية ، والجيوش كذلك : عدداً وعدة وتدريباً ، وفكرة الوحدة الوطنية أو القومية في إطـار دولة واحدة لم تكن قد أظلت العالم بعد . وكان فوق هذا يدرك عمق المشاعر القبلية لدى سكان البجـة ، وصعوبة السيطرة عليهم عن طريق القوة وهم قوم محاربون ، وتحت رحمتهم سواكن الميناء الرئيسي للسودان .

كل هذه الأسباب – فيما أرجح – حملت الشيخ عجيب على الاصهار لهؤلاء القوم ، والإنجاب منهم . وحيث إن تقاليدهم تورث ابن البنت فإنـــه بهذه الطريقة يستطيع أن ينقل حكم ما خضع لدولته من شرق السودان لأحد أبنائه من بناتهم ، وبذلك يمكن التنسيق بين السلطة المركزية في « قرى » والمحلية في سواكن ، ويتحد الحكام هنا وهناك لأنهم جميعاً من أولاد عجيب .

وقد آتت هذه السياسة الذكية أكلها ، ثم أضحت نهجاً سار عليه شيوخ العبدلاب من بعده . يقول مؤرخ البجة تعليقاً على واقعة إصهار الشيخ عجيب هذه وما أسفرت عنه من نتائج : كان هذا شأن شيوخ العبدلاب دائمـــاً ، يصاهرون القبـائل ، « ثم يجعلون النظارة في ابنهم من القوم » . وهذا ما حدث في « الحلنقا » و « والأمارار » ، إذ بعد أن رزق الشيخ ولده عثمان

---

(١) نكلولز : الشايقية « مترجم » ص ١٧ – ٢٠ .

من مريم الشيخ عشيب أرسل اليه سيفاً صقيلاً وممتازاً ونحاساً ، وطاقية من الذهب السناري ، وككرا « كرسي الحكم » ، وثياباً من الدمور ، والخيل العتاق ، وأمر بأن يكون ناظراً على عموم الأمارار »[1].

وهكذا استقر منذئـــذ فرع للعبدلاب بشرق السودان ، وهم المعروفون الى اليوم « بالعتامنة » .

وتبع شيوخ العبدلاب نفس هذه السياسة مع الحلانقـــا ، كما أشار النص السابق ولكن على نحو آخر ، فزوجوا شيخ الحلنقا عوض مسمار من إحدى بناتهم ، وألبسوه طاقية الملك ذات القرنين ، فبقي كذلك حتى الفتح التركي للتاكا « كسلا » سنة ١٨٤٠ م[2] . وهكذا ضمنوا خضوع اقـــليم كسلا لسيطرتهم دون حاجة الى إثارة حروب غير مضمونة النتائج ، بل عن طريق المصاهرة أيضاً وإن اختلف نوعها في كل حالة .

ويقال إن الشيخ محمـــد العقيل أحد شيوخ العبدلاب في « قرى » وابن الشيخ عجيب الكبير كان من إحدى بنات ملوك « قرى » قبل أن تغدو حاضرة للعبدلاب[3].

جـ ـ أعماله :

هذا عن سياسته . أما أعماله التي أنجزها خلال فترة توليه السلطة فكثيرة:

---

(١) محمد صالح ضرار ، تاريخ السودان : البحر الأحمر ص ٦٥ ـ ٦٦ هـ ، وانظر : تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٣٢ .

(٢) نعوم شقير ، جغرافية وتاريخ السودان ٢/٢٣ ٤ ، وانظر : تاريخ السودان : البحر الأحمر ص ٦٥ ـ ٦٦ . غير أن نعوم شقير ـ تبعاً لمنهجه في معالجة تاريخ العبدلاب ـ جعـل مملكة الحلانقة من الممالك التي خضعت للفونج رأساً ، وهذه إحدى مآخذ كتابه .

(٣) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٣١/٣٢ .

١ – يقول الشيخ محمد صالح ضرار : « ثم تفقد الوزير « يعني الشيخ عجيب » المدينة « سواكن » وأحوالها ، فعلم الصعوبة التي يلاقيها أهلها في الحصول على ماء الشرب ، فأمر بعمل حفير في جهـــة الفولة جنوب المدينة ، واستغنى الأهالي عن المياه المرة البعيدة »[١] .

بتأمل هذا النص نستنتج حقيقتين :

الأولى : كانت مدينة سواكن – وهي مركز الثقـــل لشرق السودان آنذاك – قد خضعت لمشيخة العبدلاب في عهد الشيخ عبدالله جماع ، بدليـــل تفقد الشيخ عجيب بن عبدالله جمـــاع وخليفته على الحكم لها ، وأمره بإقامة قناة لماء الشرب فيها ، تحقيقاً لرغبة ساكنيها في الحصول على المـــاء الزلال ، وذلك في العام الأول لتوليه السلطة بعد أبيه في مشيخة العبدلاب[٢]

الثانية : كان إنشاء الحفير الذي لا تزال آثاره قائمـــة[٣] عملاً مهماً ، بل ضرورياً ، وتتأكد أهميته لأناس مثل سكان جبال البحر الأحمر الذين كانوا لا يذوقون ماء عذباً إلا أيام نزول الأمطار ، وبتوقفهـــا عن النزول يذهب ماؤها هدراً والناس في حاجة إليه .

فإنشاء حفير يحفظ ماء الأمطار في مثل تلك الظروف أمر تحتمه ضرورات الحياة ، وترقى به – هذه الضرورات – الى أعظم الأعمال .

٢ – كان طريق حجاج السودان قبل عهد الشيخ عجيب « بالقصير »[٤]

---

(١) تاريخ السودان : البحر الأحمر ص ٦٥–٦٦ ، وانظر :
The Fung Kingdom of Sennar, P, 177.

(٢) انظر : معالم تاريخ سودان ص ٣٠ ، وتاريخ السودان البحر الأحمر ص ٦٥ في غير النص الذي أوردناه .

(٣) قصدت عمداً سواكن في أخريات يونيه سنة ١٩٧٠ م للتأكد من أمر هذا الحفير الذي قرأت عنه – وأمور أخرى – وتمكنت بالفعل من مشاهدته .

(٤) القصير : ميناء مصري على البحر الأحمر من صحراء مصر الشرقية .

لأن الطريق الى سواكن - ومنها الى الحجاز - وعر لا يقوى على سلوكه إلا مخاطر ، فلما علـم الشيخ عجيب بذلك عمد الى تعبيده ، فاصطحب معه قوة من الجيش أمرها بنسف أجزاء الجبال التي تسد الطريق وذلك بصب كميات من الدهن عليها وإشعال النيران فيها . وهكذا تمكن من فتح الطريق [١].

وهذا مـا تقول به مصادر العبدلاب . ومع أن كروفورد يصف هذا الخبر بأنه يحمل كل العلامات التي تجعله أسطورة ، إلا أنه يعود فيقرر وجود معلم ظاهر لمنظر أرض متعدد ، يمتـد على طريق القوافل القديم من سواكن الى بربر عبر أملاك الشيخ عجيب ، ويقرر أيضاً أن هناك جبلا يطلق عليه اسم أوكور : « okwer » يقف مباشرة على هـذا الطريق ، بالقرب من خط تقسيم المياه الصخري القاسي . وأن بهذا الجبل ضعفاً ظاهراً يستبعد هو أن يعود إلى منجم مهجور [٢] .

وفي تقديرنا أن هذه الحقائق « الطبغرافية » التي ذكرها كروفورد ونفى أن تكون من فعل الطبيعة فيهـا الدلالة على أن نسف جانب من جبل « okwer » وهو الجزء الذي يعترض طريق القوافل القديم كان من فعل بشر ، وحيث إن مصادر العبدلاب تنسب هذا الفعل الى قوة عسكرية قادها الشيخ عجيب ولا نجد ادعاء آخر مضاداً فإننـا - والحالة هذه - لا نجد بين أيدينا إلا ما يحملنا على القبول .

٣ - الشؤون الدينية في عهد عجيب :

كان لنشأة عجيب الدينية أثرها الكبير في اهتمامه بكل ما من شأنه أن

---

(١) واضح البيان ص ٣-٤ ، السودان في رسائل مج ١٧ ص ٦٣ ، تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٣٩ ، وقد اتفقت روايات سماعية ثلاث على أن عجيباً هو أول من فتح طريق الحجاج الى سواكن .

(٢) The Fung Kingdom of Sennar, p. 177.

يساعد على نشر الدين وسيادة مبادئه ، لذا شهدت البلاد في عهده نهضة دينية واسعة تمثلت في تشييده مساجد العبادة ودور العلم في أنحاءمتفرقة من دولته، وفي إكرامه لأهل العلم والتقوى والصلاح ، وإغداقه المنح والعطايا عليهم ، وإقطاعه الأراضي الواسعة لهم ، وتشييده الأروقة لإيواء طلاب العلم وغيرهم من المحتاجين [1].

كان لهذه السياسة الدينية صداها في بعض أنحاء العالم الخارجي الذي يدين بالاسلام ، سيما الجانب المتعلق منها بتشجيع العلماء، ورفع أقدارهم، وإحلالهم من دولته مكان التجلة والتقدير ، فلم تلبث أن آتت ثمارها يانعة ، ولم يلبث أن أم دولته ، بل السودان عامة ، عدد غير قليل من العلماء ، رغبة في نشر تعاليم الاسلام ، وطمعاً في منح الشيخ عجيب وعطاياه . جاء بعضهم من مصر ، وبعضهم الآخر من الحجاز واليمن والمغرب وبغداد. هذا الى الوطنيين أنفسهم الذين هاجروا الى مصر والحجاز ـ حيث كفلت لهم الأروقة هناك وسائل الراحة والطمأنينة ـ لتلقي مختلف العلوم والمعارف التي أتيح للانسان تحصيلها في ذلك الإبان .

يقول أقدم مصدر [2] سوداني معروف حتى الآن : « في أوائل النصف الثاني من القرن العاشر « الهجري » ولي الملك عمارة أبو سكيكين الشيخ عجيب المانجلك . ففي أول مملكه قدم الشيخ ابراهيم البولاد من مصر الى دار الشايقية ، ودرس فيها خليلا والرسالة »، وانتشر علم الفقه في الجزيرة .

---

(١) انظر -- مع ما يأتي - واضح البيان ص ٢ - ٣ ، السودان في قرن. ص ٤، ٥ ، مملكة الفونج الاسلامية ص ٥٦ و The Fung Kingdom of Sennar· pp. 177 - 8 بحث ابراهيم مصطفى عربي في جريدة الثورة بتاريخ ٦٢/٦/١٥ ، تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٣٦ - ٣٧ ، جوانب من تاريخ العبدلاب ص ٧٢ .

(٢) طبقات ود ضيف الله ص ٥ ، وانظر نفس الموضوع في: مخطوطة كاتب الشونةص٥-٦ .

ثم بعد يسير قدم تاج الدين البهاري من بغداد وأدخل طريقة الصوفية في دار الفنج . . . ثم قدم التلمساني المغربي على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب وسلكه طريق القوم ، وعلّمه علم الكلام وعلم القرآن من تجويد وروايات ونحوها . . . ثم ظهرت ولاية الشيخ ادريس « من غير شيخ قدم عليه ، قيل أخذ من الرسول ﷺ ، وقيل قدم عليه رجل من المغربّ بالحظوة اسمه عبد الكافي .. ثم قدم الشيخ محمد بن قرم دار بربر وأدخل فيها مذهب الشافعي رضي الله عنه ، وانتشر مذهبه في الجزيرة ، ثم قدمت المشائخ ... ثم قدم حمد ولد زروق في الصبابي، ثم قدم الشيخ محمد المصري دار بربرودرس فيها علم التوحيد والنحو والرسالة ، وانتشر علمه في الجزيرة . وجميع هؤلاء المشايخ المذكورين في دولة الشيخ عجيب، ومدتها إحدى وأربعون سنة »[1].

إن التأمل المتأني لهذا النص يرينا ـ من تخصصات أولئك العلماء ـ أنهم كانوا يمثلون الحياة العقلية لذلك العصر أصدق تمثيل ، ويلبون حاجة مجتمع السودان الذي كانت تحكمه القيم الاسلامية الى حد كبير ، فقد كان منهم المقرىء الذي تخصص في تحفيظ القرآن الكريم وتدريس علومه من روايات وتجويد ونحوها ، ومنهم المتكلم الذي سعى لنشر التوحيد ، ومنهم الفقيه الذي أخذ على عاتقه تدريس خليل والرسالة وبعض مذاهب الفقه . كما كان منهم اللغويّ الذي شغل نفسه بتدريس النحو . على أن بغداد اضطلعت بنشر الصوفية في السودان ، متخذة من ذلك وسيلة لنشر الاسلام .

وهكذا نجد أن الدعائم الأولى لنهضة دينية واسعة في السودان قد وضعت في عهد الشيخ عجيب على أيدي تلك الصفوة المختارة من العلماء، وهي الدعائم التي قام عليها بنيان الاسلام في السودان ، وظلت آثارها في العقلية السودانية باقية الى اليوم .

وكان من الضروري – وقد جاء هؤلاء العلماء لنشر تعاليم الاسلام في

---

(١) لكل واحد من هؤلاء العلماء ترجمة في الطبقات ص ٦ وما يليها .

السودان – أن تقام لهم مكاتب ومساجد لتدريس القرآن الكريم والعلوم الدينية ، ولتكون ميداناً عملياً لتطبيق ما يتلقى فيها من معارف تتصل بالعبادات لذا بادر الشيخ عجيب – ادراكاً منه لأهمية الأمر – فشيد مكاتب لاقراء القرآن الكريم[١] ، ومساجد للعلم والعبادات ، منها مسجد الشيخ علي ابن عشيب . يقول صاحب « الطبقات » في الترجمة لهذا الشيخ : وبنى له الشيخ عجيب الكبير مسجداً ، وتصدق عليه ملك الفونج بديار كثيرة في الشرق والهوى في دار المطر[٢] » ، وذلك حين عاد هذا الشيخ من مصر بعد أن تلقى علومه هناك على الشيخ محمد البنوفري المصري[٣] .

ومنها مساجد كثيرة في الشرق ، « خاصة في الجهات التي لا زال سكانها على دين الوثنية [٤] » . ومن هذه المساجد أيضاً الجامع الذي بناه للشيخ حمد النجيب العوضابي الجموعي « بأسلانج [٥] » ، ووقف عليه دارا [٦] وظل قائم البنيان حتى سنة ١٨٠٥ م . ومنها المساجد التي أقامها في جهات الجنوب الشرقي عقب انتصاره على شيخ « جهة الصبح » ، أحدها في « أحمر موقى » بالقرب من الروصيرص ، ثانيها ببلدة فداس الواقعة « قرب الحدود الحبشية ، وثالثها في منطقة قبائل «الكومة» و « الأعمام » وهي منطقة حبشية مسلمة . وقد ظلت آثار هذه المساجد باقية حتى بداية القرن العشرين [٧] .

---

(١) انظر : خلاوي (أي كتاتيب) حلة حمد التي أنشأها الشيخ عجيب وتعلم فيها عدد من الرجال في كتاب : تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية ص ٣٦ .

(٢) الطبقات ص ١١٤ .

(٣) نفس المصدر والصفحة ، انظر : التربية في السودان ١/١١٤ .

(٤) مملكة الفونج الاسلامية ص ٥٦ .

(٥) اسلانج جزيرة في النيل على بعد عشرين ميلاً شمال الخرطوم . وقبالة بلدة الشيخ ابراهيم الكباشي .

(٦) الطبقات ص ٥٦ ، وانظر : The Fung Kingdom of Sennar, p.69 .

(٧) السودان في رسائل مج ١٧ ، ص ٦١ – ٦٢ ، واضح البيان ص ٢ ، تاريخ ملوك العبدلاب ص ٢ .

يقول كروفورد مجملاً دور الشيخ عجيب في نشر الاسلام : « وأقـــام الاسلام في أثناء حكمه في الفراغ الذي تركه زوال المملكة المسيحية .... ووهب لبعض علماء الدين المساجد ، وبنى مساجد في أحمر موقى بالقرب من الروصيرص ... وفي فداس بالقرب من الحدود الحبشية ، ووسط قبائـل كومة المقاطعة المسلمة في الحبشة ، ويقال انه يمكن وجود آثارهم باقية حتى الوقت الحاضر . والذى عن مسجد أحمر موقى مؤكد ، لأنه حتى حول سنة ١٩٢٤ م كان الموقع معلمـاً بعود أبنوس اشتهر بكونه جزءاً من مسجد أو منزل لعجيب المانجلك.وكان الموقع موقعاً قديماً مغطى بالطوب والفخار[١] » .

كذلك تذكر روايات غير قليلة أن الشيخ عجيب عندما أبحر من سواكن الى الحجـــاز حيث أدى فريضة الحج في نفس العام الذي ولي فيه الحكم (١٩٧٠ — ١٥٦٢) « أنشأ هناك رواقين للسودانين السنارية ، أحدهما بمكة المكرمة ، والثاني بالمدينة المنورة ، وكان يصرف عليهما وعلى الثالث — وهو بالأزهر الشريف بمصر من خزينة السلطنـــة الزرقاء حتى دالت دولتها سنة ١٨٢٠ م على يد الخديوي محمد علي باشا [٢] » . وكانت هذه الرواقات لايواء طلبة العلم السودانيين من سنار الى مدينة دنقلا ، كما كان رواق المدينة المنورة يضم غير الطلبة من السودانيين المجاورين [٣] .

وعن رواق المدينة المنورة المنسوب للشيخ عجيب أورد الشيخ عثمان حمدالله هذه الرواية : « حدثني الحاج حسن خليفة بالحصاحيصا ، وغيره الشيخ علي

---

(١) The Fung Kingdom of Sennar, p. 177-8

(٢) تاريخ السودان : البحر الأحمر ص ٦٦ ، وانظر : التعـــارف والعشيرة ص ٢٠٦ ، ونعوم شقير ج ٢ ص ٤١٨ ، مختارات الصائغ ٣/١٧٥ ، جريدة الثورة ، بحث ابراهيم عريبي بتاريخ ٦٢/٦/١٥ ، تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٣٦ — ٣٧ .

(٣) السودان في قرن ص ٥٤ ، التعارف والعشيرة ص ٢٠٦-٢١٠ ، ومملكـــة الفونج الاسلامية ص ٥٦ .

الامام ، والشيخ ادريس المحسي بأنهم وقفوا على أوقـــاف السيد عجيب المانجلك بالمدينة المنورة ، ويقولون بحوالي ٦٠ عتبة من القصور العالية ، ولــه مزرعة للقمح يقسم محصولها لكل من يجاور المدينة ، ولجميع سكان السودان من سنار الى دنقلا . وكان الجيلاني حـــاج الأمين المحسي يبربر ضمن الوكلاء المشرفين على هذه الأوقاف[١] » .

وتشير أكثر من رواية تاريخية للعبدلاب الى أروقة الشيخ عجيب التي بناها في مصر[٢] والحجاز ، ولكنها تختلف في التفاصيل ، إذ بينما يقول بعضها أن الأوقاف بلغت سبعاً وعشرين تكتفي روايات أخرى بالقول بأنها مبان كثيرة ، على حين تذكر روايات ثالثة أنه عمل ثمانين عتبة ، وتذكر عدد من الروايات – موافقة عثمان حمدالله – أن أناساً أدوا فريضة الحج ذكروا للرواة أنهم شاهدوا تلك الأوقاف ، ورأوا مكتوباً على بعضها « الباب العجيب » أو « باب عجيب المانجلك » ، ومن هؤلاء رجل من الحواويت يدعى « علي وداب شاية » ، وقد أخبر أنه شاهد الناس يقبضون عطايا من تكية الشيخ عجيب ، ولما علم ناظر الوقف هناك أن « علياً » هذا من العبدلاب قدم اليـه نقوداً، وعرض عليه أن يجاور بالمدينة لقاء راتب شهري ثابت من المال يعطى اليه من تكية جده الشيخ عجيب . كما ذكر أحد الرواة أنفسهم وهو مـــن العبدلاب أنه عرض عليه أن يتولى نظارة الوقف ولكنه اعتذر . وشهد راوٍ آخر أنه شهد بنفسه تلك الأوقاف[٣] .

أما عن اقطاع الشيخ عجيب أراض للعلماء فان بعض شواهد ذلك لا تزال

---

(١) التعارف والعشيرة ص ٢١٠ .

(٢) يوجد حتى الآن بالأزهر بمصر رواق يطلق عليه « رواق السنارية » وشائع أنـــه من منشآت الشيخ عجيب المانجلك .

(٣) انظر التفاصيل الوافية لأوقاف الشيخ عجيب الكبير في : تاريخ العبدلاب من خـــلال رواياتهم السماعية صفحات : ٣٦–٣٧ ، ٤٠–٤١ .

ماثلة للعيان ، فقد أقطع الفكي حسين جزيرة بأكملها هي « جزيرة مسكّيت » الكائنة في دار الجعليين بحجر العسل ، تقديراً لعلمه حين أفتى في معضلة دينية تتعلق بالحاق نسب شمام بن عجيب اليه[1] . يشير الباشا الى هذه الواقعة وغيرها بقوله : « ويقول الرواة إن الشيخ عجيب أقطع الاقطاعات لرجال الدين ، أمثال الشيخ حمد أبو مريوم ، والشيخ خوجلي والشيخ الفكي حسين . ويقولون إن الشيخ عجيب وهب الأخير جزيرة مسكيت[2] » .

ولعلّ مما يزيد من قيمة هذه المؤسسات الاسلامية التي أقامها الشيخ عجيب ، وقيمة تشجيعه للعلماء أن نذكر أن التعليم كان وقتئذ في السودان -كما هو في بقية البلادالاسلامية - أهلياً يقوم على جهود الأفراد لا الحكومات طلباً للثواب . وقد يبيح لنا هذا أن نفترض أن الشيخ عجيب كان من أوائل الحكام الذين أدخلوا في واجبات الحكومة مسؤولية نشر التعليم بين رعاياها .

د - القضاء في عهد عجيب :

ليس لدينا دليل على أن دولة العبدلاب عرفت نظام القضاء قبل عهد الشيخ عجيب الكبير . ولما كان ظاهراً من سيرة هذا الشيخ أنه مطبوع على العدل ، فقد أبدى اهتماماً واضحاً بتقعيد أصوله ، وترسيخ دعائمه بين الرعية ، فعمد الى تعيين أربعين قاضياً يتولون شؤون العدالة في أرجاء مشيخته ، وهو عدد يعتبر - ان صح - كبيراً ، بالقياس الى زمانه والى عدد السكان في دولته آنئذ ، وبالنظر الى أنه ثاني شيخ لأول حكومة عربية من شأنها أن تكون بسيطة التركيب في ذلك الابان . يقول الحسن ابن شاور : « وعيّن أربعين قاضياً لأحكام الشريعة المحمدية ، فباشروه بعفة ونزاهة [3] » . وكان

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٣٠ .

(٢) جوانب من تاريخ العبدلاب ص ٧٢ .

(٣) واضح البيان ص ٢ وانظر : السودان في رسائل ومدونات مج ١٧ ص ٦٢ .

من أشهر هؤلاء القضاة الشيخ عبدالله بن دفع الله العركي[1] ، والشيخ علي ولد عشيب الذي حكم بالمتفق عليه، والقوي من الخلاف[2] . والقاضي عبد الرحمن ابن مشيخ النويري الذي كان رفيقاً للقاضي عبد الله العركي ، « وكان له باع طويل في معرفة القضاء ورفع الخصومات[3] .

ومن قضاة الشيخ عجيب أيضاً الشيخ بقدوش بن سرور الجموعي الذي كان قاضياً على دار الجموعيـة ، واستشهد مع الشيخ عجيب في كركوج ، ومنهم الشيخ حمد النجيض الجموعي العوضابي ، والشيخ دشين المشهور بقاضي العدالة في أربجي[4] الذي قال فيه الشيخ فرح : دشين قاضي العدالة الذي لا يميل الى ضلالة . ومنهم قاضي بربر ونواحيها الشيخ محمد القناوي [5] ، ومن القضاة الذين عينهم الشيخ عجيب أيضاً الشيخ شرف الدين ساكن انقاوي، والشيخ عمر المصري [6] .

على أن الشيخ عجيب لفرط حرصه على العدالة - كان يمارس بنفسه نظر بعض القضايا التي قد يكون لها شأن خاص ، فتفيدنا « الطبقات » - وهي أوثق مصدر لهذه الفترة من الشؤون - لدى ترجمتها للشيخ عبد الحليم ابن سلطـان بن عبد الرحمن ، أن نزاعاً وقع بين حمد بن عبد الجليل وخصم لشيخ المسعوداب لم يذكر اسمه ، فقال عبد الحليم بن سلطان - الذي كان يؤدي ما يقرب من مهمة الصديق في القضاء العسكري، إذ كان يلقن المظلومين

---

(١) الطبقات ص ١١٢ ، واضح البيان ص ٢ ، السودان في رسائل مج ١٧ ص ٦٢ .

(٢) الطبقات ص ١١٤ ، واضح البيان ص ٣ ، السودان في رسائل مج ١٧ ص ٦٢ .

(٣) نفس المصادر وصفحاتها .

(٤) The Fung Kingdom of Sennar, p. 68.

(٥) الطبقـات ص ٤٤-٩٠ ، واضح البيان ص ٣ ، السودان في رسائل ومدونات مج ١٧ ص ٦٢ .

(٦) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٣٦ .

المستضعفين الحجج – قال حمد بن عبد الجليل : « ادع عليه دعوى بقدر ما أخذ منك » وأنا أشهد لك بذلـك ، فادعاه عند الشيخ عجيب وقال : اني أطلب مالاً قدره كذا،ولدى طلب الشيخ عجيب البينة قدم الشيخ عبد الحليم سالف الذكر شاهداً، فأيد صحة دعواه ، وعندئذ رد الشيخ عجيب لصاحب الحق حقه بعد أن ثبت لديه بالبرهان [١] .

قلنا إن مجتمع دولة العبدلاب كان يتحرك تفكيره داخل إطار من الثقافة الدينية التي كان الحصول عليها وقتئذ غاية المأمول، ومن ثم كانت أكثر القضايا التي تشغل أذهان الناس آنذاك هي قضايا الحلال والحرام من أفعـــال الناس وأقوالهم ، وكان الشيخ عجيب ابن عصره ، وأحد نماذج رجاله الذين كان لهم إلمام واسع بالحياة العقلية فيه ، لذا نراه يولي اهتماماً كبيراً لاحدى القضايا التي كانت تشغل تفكير الناس ، وهي قضية « التنباك » [٢] : مــــا موقف الشرع منه ؟ هل يبيح تعاطيه ؟ أم هو يقف منه موقف التحريم ؟ لنتأمل هذا الحوار والجدل ودور الشيخ عجيب فيه :

قال صاحب « الطبقات » : « وفي بلادنا أفتى الشيخ ادريس بحرمته ، وأفتى الشيخ عبد الوهاب « رجل أم سنبل » باباحته ، وحضر عند الشيخ عجيب وهو نازل في رفاعـــه ، فقال له الشيخ عجيب : الشيخ ادريس قال بحرمـــة شرب الدخان . فأنكر ذلك وقال : من رأسه أو من كراسه ؟ ثم حضر الشيخ ادريس عندالشيخعجيبفقال له:حضر الشريف عبدالوهاب وقال

---

(١) الطبقات ص ١٣٩ . وانظر النص على نظر عجيب لبعض القضايا في : تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية ص ٣٦ ،

(٢) « التنباك » نوع من المكيفات معروف في السودان يتعاطى من الفم بـــلا حرق ، وهو صنف من ورق التبغ . ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه القضية بعينها لم تزل موضع جدل بـين كثير من الناس .

باباحة التنباك ، ولما اخبرناه بقولك قـال : من رأسه أو من كراسه . فقال الشيخ ادريس ، قد حرمه سلطان اسلامبول « يعني استانبول » السلطان مصطفى ، ومذهب مالك رضي الله عنه أن طاعـة السلطان تجب فيما لم يرد فيه نص شرعي ، وأخبره بالأمور التي لم يرد فيها نص من الشارع وعمل فيها برأي ولاة المسلمين »[1] فهذا نوع من القضاء « الفتيا » شارك فيـه الشيخ عجيب الكبير واثنان من علماء رجاله .

هـ – مشيخة العبدلاب في نهاية عهد عجيب :

تقول مصادر العبدلاب : بلغت المشيخة من القوة وشدة البأس على عهد الشيخ عجيب المانجلك الحـد الذي كان الجيش المعد لحراسة حاضرة الدولة « قرى » وحدها في اليوم الواحد اثني عشر ألف فارس على اثني عشر الف فرس في لون واحد : أحمر أو أبيض أو أزرق ، أو غير ذلك من الألوان[2]. وغني عن القول بأن في هذا الخبر مبالغة ظاهرة لا تحتاج الى بيان ، ولكنها تدل – على أية حال – على مدى التقدير الذي حظي بـه الشيخ عجيب ، ونالته مشيخة العبدلاب في عهده .

و – مقتل الشيخ عجيب :

تختلف المصادر الأساسية في أخبار مقتل الشيخ عجيب اختلافاً غير يسير . وفيما يلي نستعرض هذه الروايات :

---

(١) الطبقات ص ١٠ . ولم ينتـه النقاش في السودان ؛ بل انتقلت القضية الى مصر ؛ وشارك فيها علماؤها مثل القـاضي الشيخ علي الأجهوري ؛ وانتهت – آخر الأمر – بتحريم التنباك . (انظر نفس المصدر ؛ الصفحات وما بعدها) .

(٢) واضح البيان ص ٣ ؛ السودان في رسائل مج١٧ ص ٦٢ ؛ تاريخ ملوك العبدلاب ص٥ .

أ – رواية العبدلاب :

على عهد ملك الفونج سليمان أو عبد القادر – على خلاف في الروايات – وقع اختلاف بين الفونج والشيخ عجيب تطور الى حرب ضروس بينهما ، كان النصر في نهايتها للشيخ عجيب ، وكان من نتائجها المباشرة أن استطاع اخراج الفونج من ديارهم ، والقائهم بعيداً في الحبشة(١). والى ذلك يشير الباشا بقوله: « ولا أستبعد حدوث معركتين ، وانتصار عجيب في الأولى . ولكن من الصعب أن نصدق أنه نجح في طرد الفونج الى حدود الحبشة »(٢) .

وتمضي روايات العبدلاب قائلة : ثم سافر الشيخ عجيب الى الأراضي الحجازية ، ولما عاد بلغه أن ملك الفونج يجمع جيوشاً جرارة من عناصر مختلفة لحربه ، لذا توجه من فوره اليه بجنده حيث التقى الجيشان قريباً من محل الملك المذكور، ودارت حرب قاسية بين الفريقين وضح لعجيب من مجرى الحوادث فيها قلة أفراد جيشه ، لهذا رجع وعززه ، ثم كر به مرة أخرى حيث دارت معارك « بمحل يقال له الدبكر المسمى الآن كركوج » شرق الخرطوم على ضفة النيل الأزرق الشرقية ، فاستشهد الشيخ عجيب بها ... ثم نقل من مشهده الى مدينة قرى ودفن بها ، وهو مشهور ومزار للقاصدين(٣) .

---

(١) السودان في رسائل مج ١٧ ص ٦٢ ؛ واضح البيان ص ٢ ؛ تاريخ العبدلاب من خلال ص ٤٦–٤٧ .

(٢) جوانب من تاريخ العبدلاب ص ٤٧ .

(٣) واضح البيان ص ٤ ، وانظر : السودان في رسائل مج ١٧ ص ٦٣ – ٦٤ ، وتاريخ ملوك العبدلاب ص ٥–٦ ، وتاريخ العبدلاب من خلال ص ٤٦–٤٧ . وقد زرت قبر الشيخ عجيب في قرى سنة ١٩٦٩ ، فوجدت في قبته لوحاً من زجاج كتبت بداخله الجملة التالية : « الشيخ عجيب الكبير بن الشيخ عبدالله جماع ... وهو المعروف بالمانجلك يعني لا نجل غيرك.... والشيخ عجيب توفي سنة ١٠١٩ هـ عن عمر ١٤٨ سنة » .

ب - الروايات الاخرى : وهي نوعان :

النوع الأول : يقرر أن الشيخ عجيب قتل ولم يمت ، يقول صاحب « الطبقات »في معرض ترجمته للشيخ ادريس بن الأرباب: ومنها «من كراماته» إخباره للشيخ عجيب حين شاوره على حرب الفونج وقال له : انهم غيروا علينا العوايد ، بأنه سيقتل [١].

ويقول كاتب الشونه : « ثم ملك بعده الملك عدلان ولدآية، وهو صاحب قتال « كركوج » ، وهو الذي قتل الشيخ عجيب الكافوته ، لما عصاهوخرج عن طاعته سار اليه من سنار ، ويقال انه نزل « بألتي » وأرسل اليه الجيش، فتلقاهم الشيخ عجيب المذكور ومن معه بمحل يقال له « ولد أبي عمارة » معروف بجوار كركوج ، فاقتتلوا هناك ، وقتل الشيخ عجيب المذكور وانتصرت حربة الملك » [٢] .

وجاء عن « كروفورد » قوله : « انتهى حكم عجيب بشجار مع الفونج في تغيير عادة. . . وتوحي كلمات مؤرخ ادريس أنه يعتبر الفونج المعتدين... ويبدو محتملاً أن يكون عجيب قد صار قوياً يشكل تهديداً للحلف غير المستقر ، وقد يكون ملك الفونج وجد فرصة ليعتدي عليه . ودارت المعركة في مكان في كل المصادر ما عدا مخطوطة واحدة : D 3 – يدعى كركوج ، وهزم عجيب وقتل . . ودفن في قرى حيث يقال إن قبره يزوره الحجاج حتى الآن ... وهناك موضع آخر يمكن أن يسمى أيضاً « قرب الخرطوم »، وهناك جزيرة على بعد ميلين شرق الكاملين تسمى « كلكلول » وهناك قرية

---

(١) الطبقات ص ١٤ .

(٢) مخطوطة كاتب الشونة ص ٨-٩ ، وانظر : تاريخ مختص بالنوبة ص ٤ - ٥ ، تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ٦ . وقد أشارت « الطبقات » الى هذا الحدث في الصفحات : ١٤ ، ١٠٢ ، ١٣٤ .

بنفس ذلك الاسم مقابلة على الضفة الغربية ... وربما وقعت هذه الحادثة التي ذكرت في مكان آخر في سنة ١٦١١ – ١٦١٢ ، ويمكننا أن نعطي معركة كركوج وموت عجيب نفس السنة »[١].

ويؤيد « هولت » الرأي القائل بأن عجيب هو الذي أثار الحرب فيقول: « وقد حاول عجيب غزوهم مرة أخرى ولكنه قتل في معركة كركوج سنة ١٦٠٧ – ١٦٠٨ م في الشاطىء الشرقي للنيل الأزرق »[٢].

وأضاف الدكتورمكي شبيكة ـ مستنتجاً ـ سبباً آخر لثورة الشيخ عجيب على الفونج قائلاً : « ... أو لعله أنس من نفسه قوة وعزة جعلته يقطع هذا الحبل الذي يربطه بهم ، ويعلن استقلاله الكامل عنهم »[٣].

النوع الثاني : ويشير الى أن الشيخ عجيب مات ولم يقتل . يقول ابراهيم الحاج بابكر : « ومن الغريب أن رجلين عظيمين من الأولياء ، قدما في رحلتهما، قبضت أرواحهما في هذه الجبانة[٤]. أحدهما الشيخ عجيب المانجلك، قدم من عند ملوك الفونج فلما وصل الى هذا المحل قبضت روحه ، ونقل الى محله بقرى ، ودفن بها »[٥].

ويقول صاحب الطبقات : « ثم في سنة تسع عشر بعد الألف توفي »[٦]، يقصد الشيخ عجيب . وتقول رواية سماعية : « إن عجيب لم يقتل في حرب، وإنما توفاه الله في « قرى » نفسها »[٧].

---

(١) The Fung Kingdom, of Sennar pp. 177-8.

(٢) A modern hist. of the Sudan, p.19.

(٣) مملكة الفونج الاسلامية ص ٥٧ ، وانظر التربيــة في السودان ١/٣٩ ، معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٧٨ – ٧٩ .

(٤) جبانة الشيخ صباحي الكائنة بالجريف الشرقي . (نفس المصدر الصفحة التالية) .

(٥) « نسب البكرية وبني العباس» ص ٢٠ ، دار الوثائق المركزية متنوعات ١/١٦/١٨٤.

(٦) طبقات ود ضيف الله ص ٥ .

(٧) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٤٧، ٤٩ .

إذا أمعنا النظر في هذه الروايات بان لنا بوضوح اختلافها في المسائل الآتية :

أولاً : الطرف الذي أثار الحرب التي قتل فيها الشيخ عجيب: فالرواية (أ) – يفهم منها أن عجيب لم يثر حرباً ، وإنما فرضت عليه فرضاً ، انتقاماً منه – فيما يبدو – للهزيمة التي ألحقهـــا بالفونج قبل ذهابه للحجاز . ويؤيد هذه الرواية كروفورد ، فيقرر أن الفونج هم المعتدون ، ويعزو سبب هـــذا الاعتداء الى إحساسهم باشتداد ساعد عجيب ، وتفاقم خطره على الحلف الذي كان معقوداً بين الفريقين .

بينما تقول الرواية (ب) – النوع الأول فـيما عدا كروفورد – أن الفونج أرغمهم عجيب على الحرب بعصيانه وتمرده ، ورغبته في الاستقلال عن الاتحاد السناري ، لذا تذرع بما ادعاه تغييراً للعادات من قبل ملك الفونج ، وأحدث الفتنة . على حين تتجاهل الرواية (ب) – النوع الثاني – وقوع هذه الحرب ، وتقرر أن عجيب لم يقتل في نزاع ، وإنما توفاه الله بعيداً عن ميدان القتال .

ثانياً – الأسباب التي أدت للحرب :

في الوقت الذي لا تتحدث فيه الرواية (أ) عن أي سبب للحرب ، وإنما تقول : إن الشيخ عجيب عندما عاد من الحجاز بلغه أن ملك الفونج جيّش الجيوش لقتاله . تذكر الرواية (ب) – النوع الأول – أن سببها هو ما ذكره الشيخ عجيب للشيخ ادريس بن الأرباب من إحداث ملـك الفونج تغييراً في العادات [1] ، وما تبع ذلك من عصيان عجيب .

---

(١) تفسر هذه « العوائد » التي خرقها ملك الفونج رواية سماعية للعبدلاب فتقول : ان ملوك الفونج ادعوا ما ليس لهم من الملك استضعافاً للشيخ عجيب الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً ، (تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية ص ٤٦) ومن ثم حاربوه .

وجاء في هذه الرواية سبب ثان هو : ما أحس به عجيب من قوة دفعته الى محاولة الانفصال والاستقلال بشؤونه نهائياً عن الفونج . وسبب ثالث هو: أن ملك الفونج استشعر نمو قوة الشيخ عجيب ، وقدر مـــا قد ينتج عنها من أخطار .

والواقع أن جميع الاحتمالات جائزة من وجهة نظر منطقية بحتة ، فثورة الشيخ عجيب على السلطان السناري واردة لأي سبب ، وزحف الجيش السناري على دولة عجيب للثأر من هزيمة سابقة، او لتأكيد سلطان الفونج عليه - إن كان لهم عليه سلطان - بسبب استقلال أحس به السلطان من تصرفات عجيب أو لأي ذريعة أخرى أمر ممكن الوقوع .

غير أنني أميل الى الاعتقاد بأن سبب الحرب الحقيقي هو ما أحسه ملك الفونج عدلان ولد آيا من قوة في نفسه ، في حـين أن الشيخ عجيب - الذي كانت قـد طغت شهرته على كل ملك في السودان حتى ملوك الفونج أنفسهم- كان آنئذ قد بلغ من الوهن غايته، فأمسى في عمر يقعده عن كل قتال. وهذا أنسب وقت لبسط سلطان الفونج - أو على الأقل نفوذهم- على دولة العبدلاب. لذا زحف ملك الفونج بجيشه للقاء عجيب ، واخترع مؤرخهم مـا يناسب ذلك من أسباب . يؤيد هذا أنه منذئذ غدا صاحب السلطة الحقيقية في دولة العبدلاب أو الفونج الشخص الأقوى في الدولتين ، بل صـــار وزير الفونج أحيانـاً - وهو شيخ الهمج - صاحب السطوة على الفونج والعبدلاب على السواء ، مما أدى في كثير من الحالات الى تعاون البيتين الحاكمين على قتاله .

أما عن وفاة الشيخ عجيب أو مقتله فإن الراجح عندي أن نهايته كانت في ميدان قتال نشب بينه وبين الفونج ، ولم يكن قد قضى نحبه في ظروف طبيعية كما تقول بعض هذه الروايات .

تبقى مسألة المكان الذي قتل فيه . تقول رواية (أ) انه في « الدبكر »

وهي « كركوج » الحاليـــة . وتورد الرواية التالية لها أسماء أماكن عدة ، منها « ولد أبي عمارة » القريبة من كركوج ، ومنهــا « كركوج » نفسها ، ومنها « كلكول » التي جاءت أيضاً في مخطوط دار الوثائق [1] ، والتي قال عنها الشاطر بصيلي [2] انها على الشاطىء الشرقي للنيل الأزرق جنوب شرقي الخرطوم دون تحديد قاطع للمكان [3] . غير أن كروفورد وصفها بأنها جزيرة على بعد ميلين شرق الكاملين [4] .

أما أن يكون مكان المعركة التي قتل فيها عجيب « كركوج » الحالية ، فهذا ما لم يستقم لي فهمه ، ذلك لأن هذا الاسم علم « على مكان يقع جنوب مدينة سنار » بين « سنجة » و « أبو حجار » على الشاطىء الشرقي للنيــــل الأزرق ، وعلى خط العرض الثالث عشر تقريباً [5] . وليس هناك أي احتمال لوقوع تلك الحرب في ذلك المكان ، وأقرب احتمال — حينئذ -- أن يكون هناك محلان أو أكثر يعرفان باسم « كركوج » ، أحدهمـــا الذي ذكرناه ، والآخر قرب الخرطوم . وهذا ما يستفاد مما ذكره مكي شبيكة حين قال : « وقرية « ألتي » تقع بالقرب من المسيد على الضفة الغربية من النيل الأزرق . ومعنى ذلك أن القتال حدث في المنطقة ما بين « المسيد » والخرطوم، ولكن « كركوج » التي وقع القتال بجوارها تقع على الضفة الشرقية للنيل . ومعنى ذلك اما أن تكون قرية « ولد أبي عمارة » بالضفة الغربية قبالة كركوج ، واما أن يكون الجيش زاحفاً بشرقي النيل وتأخر عنه الملك بالضفة الغربية ليكون في مأمن » [6] .

---

(١) هو تاريخ مختص بالنوبة ص ٤ — ٥ .

(٢) معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٧٨ — ٧٩ .

(٣) وجاء في الطبقات ص ٦٣ أن كلكول قرية تتبع لمركز الكاملين ، وانظر :
Holt' A Modern Hist. , p. 19.

(٤) The Fung Kingdm of Sennar, p. 178.

(٥) انظر خارطة السودان لسنة ١٩٦٤ م ، والطبقات ص ٧٢ .

(٦) مملكة الفونج الاسلامية ص ٥٦ — ٥٧ ، وانظر : « ألتي » في الطبقات ص ٦٣ .

كما يستفاد ذلك من اشارة كروفورد الى وجود موقع آخر باسم « كركوج » قرب الخرطوم [١]

والذي أراه في هـذا الشأن أن الافتراض الأخير لمكي شبيكة الوارد في النص السابق أقرب الى الحقيقة من غيره ، فعبارة كاتب الشونة [٢] تقول إن سلطان الفونج نزل « بألتي » بالضفة الغربيـة للنيل ، وأرسل الى الشيخ عجيب الجيش ، وهـذا يعني أن الملك عدلان ولد آيا كان فعلاً بالضفة الغربية ، وجيشه بالضفة الشرقية حيث جرت المعركة في كركوج الواقعة بين « المسيد » والخرطوم .

واذا اختلفت الروايات في البادىء بالقتال ، وأسبابه ، ومكانه ، فانها تختلف كذلك في تاريخ وقوعه . فبينما يرى صاحب « الطبقات » أن وفـاة عجيب كانت سنة ١٠١٩ هـ ، وذلك حين يقول: « ثم في سنة تسع عشر بعد الألف توفي [٣] » ، وتؤيده في ذلك قائمة « أ » في تسلسل شيوخ العبدلاب ، واللوحة الموضوعة على قبره في قبته « بقرى » ، وعبد العزيز عبد المجيد حين يقول « .... الى أن قام الشيخ عجيب الكافوته شيخ قرى سنة ١٦١٠ م وثار على مك سنار » [٤] ، وكروفورد الذي احتمل حدوث مقتله في هـذا الابان [٥] في الوقت الذي تقرر هذه المصادر تاريخ وفاته على هذا النحو — تقول مخطوطـة كاتب الشونه : « ثم أرسل اليهم الملك الشيخ ادريس ولد

---

(١) The Fung Kingdom. p. 178

(٢) مخطوطة كاتب الشونة ص ٨ — ٩ .

(٣) طبقات ود ضيف الله ص ٥ ، وانظر ابراهيم عربي في بحثه بجريدة الثورة . بتـاريخ ١٥/٦/١٩٦٢ .

(٤) التربية في السودان ج ١ ص ٣٩ ، وسنة ١٦١٠ م تعادل سنة ١٠١٩ هـ .

(٥) The Fung Kingdom, p. 178

الأرباب ...... وأعطاهم الأمان فجاءوا معه ، وشيخ أحدهم وهو العجيل ، ومدة ملكه لغاية سنة ١٠١٦ هـ – ١٦٠٧ م ، فمدة ملكه ثلاث سنين »[١].

وهذا النص يعني أن الشيخ عجيب قتل في أو قبل سنة ١٠١٤ هـ ، وتقرب من هذا التاريخ القائمة (ب) التي يفهم منها أن مقتل عجيب كان حول سنة ١٠١٥ هـ ، ورواية « هولت » التي ترى أنه قتل سنة ١٦٠٧ – ١٦٠٨ م أي سنة ١٠١٦ هـ تقريباً [٢] .

ولما كان صاحب « الطبقات » أكثر معاصرة من كاتب الشونه لكونه سابقاً له زمناً ، ومصدره لهذا أقدم .

وحيث إن صاحب الطبقات من الرجال غير المشكوك في أمانتهم العلمية بشهادة كاتب الشونه نفسه [٣] ، فاني أرجح رواية « الطبقات » ومن نحا نحوها ، وأقرر – في اطمئنان – أن مقتل الشيخ عجيب المانجلك كان سنة ١٠١٩ هـ – ١٦١٠ – ١٦١١ م .

---

(١) ص ٩ .

(٢) A Modern hist. of the Sudan, p. 19

(٣) انظر : مخطوطة كاتب الشونة ص ٦٧ .

٣ ـ الشيخ عثمان بن عجيب المانجلك

« ١٠١٩ - ١٠٢٠ هـ »

بعد مقتل الشيخ عجيب على النحو الذي ذكرناه استحوذ ملوك الفونج على حاضرته وداره وجزء من مملكته ، وامتد نفوذهم شمالاً حتى حدود « بربر ». أما آل عجيب فقد تراجعوا ـ بعد الهزيمة التي حاقت بهم ـ بفلول جيشهم الى دنقلا عاصمة أحد الأقاليم المهمة التابعة لهم ، وبويع بولاية العرش لابنه الشيخ عثمان الذي أخذ في التو يعد جيشاً كبيراً للأخذ بثأر أبيه ، غير أن منيته عاجلته ـ وهو في عام حكمه الأول ـ قبل أن ينجز ما عزم على تحقيقه من لقاء الفونج واسترداد ملك أسرته [١].

هذا ما تقول به مصادر العبدلاب ، ويدل عليه جدول توليتهم الذي اعتبرناه أساساً لترتيبهم [٢]. وقد أيد خلافة عثمان لأبيه عجيب أيضاً كروفورد فقال : « ويبدو من غير شك أن عثمان الأول ابن عجيب الاول كان شيخ جميع العبدلاب والأمارار ». وعن قصر مدة حكمه قال ـ تعليقاً على المعاهدة التي وقعها العقيل بعده ـ : وجاء العقيل : « بعد عثمان الذي يبدو أنه حكم لمدة قصيرة فقط بعد عجيب . وتاريخ العقيل والمعاهدة لا بد ان يكون ذلك بعد معركة كركوج ، لأنها تمثل السلم الذي أبرم بعد المعركة ، ولا تبدو بعدها مباشرة ولكن بعد فترة بسيطة » [٣] هي السنة التي حكم فيها الشيخ عثمان ، وفي هذا الدليل على أن عثمان كان الخليفة المباشر لأبيه عجيب .

---

(١) واضح البيان ص ٤ ، السودان في رسائل مج ١٧ ص ٦٤ ، تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٥٩ .

(٢) انظر الجدول (أ) المثبت في صدر هذا الفصل ، والجدول (و) في الملحق الأول .

(٣) The Fung Kingdom of Sennar , P . 86, 168 179 .

٤ ــ الشيخ محمد العقيل بن عجيب المانجلك

« ١٠٢٠ – ١٠٤٥ هـ »

ان عدداً من المصادر المعروفة لدينا ـ لغير العبدلاب ـ تجمع على أن خليفة الشيخ عجيب الكبير كان ابنـه محمد العقيل وليس عثمان ، وتقرر انه عقب مقتل الشيخ عجيب خاف أبناؤه على أنفسهم من الملك السناري ففروا الى دنقلا ـ على ما مر ـ وإذ علم بذلك ملك الفونج عدلان ولد آيا أرسل إليهم الشيخ ادريس بن الارباب لكونه معروفاً بالصلاح والولاية ومعه أمان السلطان وعفوه إن هم عادوا الى دارهم في « قرى » . وقد استجابت أسرة العبدلاب لذلك . ورجعت الى الملك الذي أكد أمانه لهم بتولية كبيرهم محمد العقيل مشيخة « قرى »[1] . ولم يرد في هـذه الرواية ذكر للشيخ عثمان سالف الذكر .

والراجح عندي أن مصادر العبدلاب وكروفورد أكثر دقة وتحديداً من غيرها ، ذلك لأن الفترة التي ولي فيها عثمان عرش آبائه كانت سنة واحدة كما ذكرنا ، وظاهر أن أهله اختاروه وهم في أحد أقاليمهم قبل أن يعودوا لحاضرة دولتهم ، وأنه مات قبـل أن يسترد سلطانه على دولته بالسلم او بالحرب ، بدليل أن معاهدة الصلح التي أنهت الحرب وقعت في عهد خلفه « العقيل » ، ومن المرجح ـ والحالة هـذه ـ أن تكون وفاة عثمان حدثت وهو خارج عاصمته ، ومن ثم أسقطت مصادر غير العبدلاب سنة حكمه هذه من الحساب ، وعليه فإن « العقيل » هذا هو ثالث الخلفاء في دولة العبدلاب .

أما مصادر العبدلاب ورواياتهم السماعية فبعد أن تؤكد أن الشيخ محمد

---

(١) تاريخ ملوك السودان واقاليمه (ص ٦) ، تاريخ مختص بالنوبة (ص ٥) ، مخطوطة كاتب الشونة (ص ٩) ، معالم تاريخ سودان وادي النيل (ص ٧٨ – ٧٩) ، التربيـة في السودان (١/٣٩) .

العقيل تولى الشياخة عقب وفاة أخيه عثمان [١] تمضي في ترجمة حياته ومعالجته للموقف الذي ترتب على مقتل أبيه عجيب فتقول : انه كان رجلاً شجاعاً ذا رأي وحزم وتدبير ، وعزيمة لا تلين لهـا قناة ، فاجتهد في الاستعداد وجمع الجيوش ، ومضى من حيث وقف أخوه عثمان ، « وعنـد اجتماع الطائفتين للحرب حضر الشيخ ادريس ولد الأرباب رضي الله تعالى عنه ومعه عدد من رجال الدين ، وحجزهم من الحرب ، وأصلح بينهم بعد مداولة كثيرة ، وحصلت الموافقة على يده لأنه كان أكبر ولي في السودان في زمنه ، وكان له جاه عظيم لديهم » [٢] ، ووقعت معاهدة بين الطرفين دونت شروطهـا في كتاب عرف باسم « داعي الحماية » [٣] ، أو عهد الحماية : The Covenant Protection.

وجاء في « واضح البيان » أن تلك المعاهدة سجلت في دفاتر أطلق عليها : « دفاتر الحرس » [٤].

ومن أهم شروط هذه المعاهدة ما يلي :

١ — أن يحوز الشيخ محمد العقيل جميع المناطق التي حكمهـا أبوه الشيخ عجيب المانجلك .

٢ — أن يحوز ملك الفونج الاراضي التابعة للجزيرة فقط .

٣ — إذا قامت أسرة ملك الفونج بزراعة شرقي النيل فعليهـا أن تدفع ضريبة للشيخ المحلي التابع « لقرى » .

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ٥٩) .

(٢) واضح البيان ص ٤ ، وانظر تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٥٩ .

(٣) السودان في رسائل ومدونات مج ١٧ ص ٦٤ ، وانظر : كروفورد :
The Fung Kingdom , p. 179

(٤) واضح البيان ص ٤ .

٤ – ان العرب التابعة لمملكة « قرى » الساكنة بالجزيرة يخدمهم[١] شيخ الدار التابع لولد عجيب .

٥ – إذا دخل سنار ولد عجيب لا يضرب نحاس غير نحاسه مدة إقامته بها . وكذلك الحال بقرى ألا يدق نحاس مع نحاس ملك الفونج .

٦ – إذا دخل عدو دار الشيخ عجيب من الممالك المجاورة لها في الحبشة أو ملوك الفور ، أو ملوك مصر ، يدافعهم ولد عجيب ، وملك الفونج يمده بالنجدة من عساكره حسب المعاهدة السابقة [٢] التي كانت بين الملك عمارة دونقس والشيخ عبدالله جماع . وتكون المملكتان متحدتين فيما يحدث [٣].

ويبدو أن الهدوء الذي اتسمت به علاقات العبدلاب والفونج عقب توقيع هذا الاتفاق قد شجع العبدلاب على مد حدود دولتهم الى شمال كردفان ، ودامت كذلك الى ما قبيل حرب المسبعات . يدل على ذلك قول الجزولي ناصر : « ومن الجدير بالذكر أن المانجلان الشقيقان : بشيري ابن شمام ومحمد العقيل قد زارا منطقة شمال كردفان بعد عودتها من زيارة أبناء أخيهما حسب الله بالجبال ... وسبب زيارتها لمنطقة كردفان اختلاف السادة الركابية في حدود أراضيهم الشاسعة ... فاشترك اللانجلان في تهدئة الحال بوصفهما أصحاب السلطة والملك في السودان » [٤].

ويمضي الباحث الى القول: بأن الحدود موضوع النزاع قد سويت وسجلت

---

(١) أوضحنا فيما سبق أن معنى « خدمة العرب » جباية الضرائب منهم .

(٢) لعله يشير هنا الى ما أورده الشيخ عثمان أونسه في تاريخه – وأثبتناه في موضعه من البحث – من وجود معاهدة بين عبدالله جماع وعمارة دونقس عند قيام الحلف بينهما .

(٣) انظر تفاصيل ذلك كله في : واضح البيان ص ٤–٥ ، والسودان في رسائل مج ١٧ ص ٦٤–٦٥ ، وتاريخ ملوك العبدلاب (مجهول المؤلف) ص ٦–٧ .

(٤) من بحث مخطوط للاستاذ الجزولي ناصر التجاني ، نسخة الدكتور يوسف فضل ص ٦ .

في وثيقة ، ذيلت بامضاء المانجلين : محمد العقيل ، وبشيري بن شمام [١].

ومهما يكن من شيء فقد أنهت معاهدة الصلح هذه مـــا كان قائماً بين العبدلاب والفونج من نزاع ترتب على مقتل الشيخ عجيب الكبير ، ونجحت في إسكات الفتنة ، وعاد على أثرها الشيخ محمد العقيل الى أهله في قرى، وأقام دعائم حكمه على العدل [٢] . وسار في الرعية كأبيه ، يحب أهـــل الدين ، ويكرم أهل الفضل [٣] .

غير أنه يفهم من نص « الطبقات » أنه لم يكن كأبيه تماماً في حب أهل الدين وتقديرهم على النحو الذي ذكرته مصادر العبدلاب ، فقد رأينــا أباه يقطعهم الأراضي ، ويشيد لهم المساجد ، ويقبل شفاعتهم . أما هو فقد كان على جانب كبير من الصرامة والقسوة معهم ، فقد جاء في نص « الطبقات » الذي أشرنا له أنه رد شفاعة رفعها اليه عالمان صوفيان من علماء عصره هما : الشيخ نور الدين أبو شملة ابن الشيخ محمد الهميم ، وأخوه الشيخ علي ، وذلـك على غير ما جرت به عادة شيوخ العبدلاب قبله وبعده . فكانت هـذه الفعلة مثار غضب الشيخ نور الدين الذي دعا عليه بألا يصل أهله سالماً، وإذ صادف أن دخل الشيخ « العجيل » حاضرته « قرى » مريضاً ثم توفاه الله من علته تلك عد ذلك من كرامات هذا الشيخ المذكور [٤].

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) واضح البيان (ص ٤ — ٥) ، السودان في رسائـــل (مج ١٧ ، ص ٦٤ — ٦٥) ، تاريخ ملوك العبدلاب (ص ٦ — ٧) .

(٣) نفس المصادر والصفحات .

(٤) طبقات ود ضيف الله (ص ١٧٦) .

حرب العقيل والأحباش :

تنفرد مصادر العبدلاب بذكر حرب حبشية وقعت في عهده فتقول : « وفي زمنه زحفت الحبشة بجيوش كبيرة يقال انهـــا مائة ألف جندي على الحدود ، يريدون غزو مشيخة العبدلاب ، فتصدى لها الشيخ محمد العقيل ، وأعد للقائها جيشاً كبيراً من عناصر عربية وغيرها كان قوامـه أربعين ألف فارس في كامل أهبتهم .

وليس من شك في أن هذا العدد ـ لكلا الجيشين ـ مبالغ فيـه كثيراً ، ولكنه ـ على أية حـال ـ يوحي بضخامة جيش الطرفين .. وتمضي مصادر العبدلاب في سرد وقائع هذه الحرب قائلة : وعلى الحدود السودانية ـ الحبشية نشب القتال بواقعة كبيرة ، كانت بداية لوقائع أخرى غيرهـــا . واستمرت الحرب أيامـاً لتنتهي ـ آخر الأمر ـ بانتصار العبدلاب ومقتل ملك الحبشة « أياسو » على أيدي محمد العجيل نفسه ، الذي قـــاد ـ بعد ذلك ـ أسرى عدوه من الرجـال ، وسباياهم من النساء والأطفال ، ورجع بهم الى حاضرة ملكه « قرى »[1].

هذا ما تقول به رواية العبدلاب ، ولكن يبدو أن هناك خلطاً كبيراً في الموضوع ، ذلك لأن حرب الحبشة مع الفونج والعبدلاب بقيادة « اياسو » لم تكن في زمن العقيل هذا ، بل كانت في عهد متأخر عنه بكثير . فقد وقعت تلك الحرب زمن الملك السناري الرابع بادي أبو شلوخ « ١٧٢٤ – ١٧٦٢م » وعلى العبدلاب آنئـــذ محمد الأمين مسمار بن عجيب الذي كان قائداً لجيوش

---

(١) واضح البيان (ص ٤ ـ ٥) ، السودان في رسائـــل (مج ١٧ ، ص ٦٥) ، تاريخ ملوك العبدلاب (ص ٧) .

المملكة المتحالفة . وقد ذكرت الروايات الأخرى أن جيش الحبشة كان حول مائة ألف، وكان تاريخ الموقعة في صفر الخير سنة« ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤م»، أو « ١١٤٧ هـ / ١٧٣٥ م » على خلاف في الروايات .[١]

ولما كانت أوصاف هذه الحرب تشابه السمات التي أعطيت لحرب العقيل مع الحبشة من قبل روايات العبدلاب : من حيث عدد جيوش الأحباش واسم الملك الذي كان على رأسهم وقتذاك ، والذي تزعم رواية العبدلاب أنه قتل بيد العقيل،وحدثتنا غير مصادر العبدلاب أنه بعينه الذي قاد جيش الأحباش في حربه مع جيوش سنار المتحالفة بقيادة الأمين مسمار – رجح عندنا خلط تلك الرواية ، اللهم إلا إذا كان هناك ملك حبشي آخر يحمل اسم « اياسو » كان يعيش على عهد العقيل ، وبمحض المصادفة كان يقود أيضاً جيشاً قوامه مائة ألف من الجنود . وهذا – فيما أرى – أمر بعيد الاحتمال .

على أن المصادر الحبشية – كما لخصها الدكتور مكي شبيكة ، والشاطر بصيلي[٢] – تشير الى حروب وقعت بين الحبشة والسودان بين سنتي ١٦١٨–١٦١٩م، وهو تاريخ يدخل في نطاق السنوات العشرة الاولى من حكم العقيل. ورواية العبدلاب السابقة تذكر أن حربه مع الحبشة كانت في أيام حكمه الأخيرة، أي في السنة الخامسة والعشرين، لأنها تقول انه بعد أن عاد بالغنائم والأسرى وافته منيته في « قرى » . فليست هذه الحرب – إذن – هي التي قصدتها مصادر العبدلاب .

هذا إلى أن الروايات الحبشية، وإن ذكرت أن جيوشها زحفت على بعض المناطق التي تخضع – اسماً – لمشيخة العبدلاب ، إلا أنها حصرت النزاع

---

(١) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٢٢) ، تاريخ مختص بالنوبة (ص ١٢–١٣) ، نعوم شقير (ج ٢ ، ص ٣٩٦) ، التربية في السودان (ج ١ ، ص ٣٩) .

(٢) انظر خلاصة هذه الروايات في مملكة الفونج الاسلامية ص ٦٠–٦٣ ، ومعالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٧٩–٨١ .

المسلح بين الفونج والحبش ، وأوردت أسبابه ، ولم ترد فيها أية إشارة إلى الشيخ العقيل ، أو أي شيخ من شيوخ العبدلاب . وما جاء فيها عن بعض المناطق التي تتبع للعبدلاب غامض ومجهول تماماً الآن . فقد ذكرت تلك المصادر الحبشية أن جيوشهم أسرت الملكة فاطمة التي قال الشاطر بصيلي إنها كانت تحكم في منطقة الميرفاب الممتدة بين مصب نهر العطبرة وبربر [1] . ورأى الدكتور شبيكة أنها كانت تحكم في « اروما » الحالية على خط السكة الحديدية بالقرب من كسلا [2] . غير أنه لم يعرف – على مدار التاريخ السوداني الوسيط والحديث – أن حكمت امرأة بأي اسم كان في أي بقعة من بقاع السودان .

والخلاصة أن المعلومات الغامضة التي أوردتها المصادر الحبشية لم يكن فيها – على غموضها – ما ينبيء بحرب خاضها العقيل ضد الحبش وانتصر فيها عليهم . كما ذكرت مصادر العبدلاب على النحو الذي عرضناه .

وفاته وذريته :

مكث العقيل في الحكم خمساً وعشرين سنة على الأرجح ، ثم وافته منيته ودفن بجوار أبيه في « قرى » ، وكان قد خلف من الأولاد أربعاً وثلاثين قتل بعضهم في الحروب . واشتهر من الباقين عبد الله البرنس ، وعجيب ، وحماد، وشاور. وقد انتشرت ذريته من قرى الى دبة ود العجيل الى الحلفاية فشمبات ثم الكاملين ، فبرنكو (رفاعة الشرقية) وعد الشيخ جماع والهلالية [3] .

---

(١) معالم تاريخ سودان ص ٨٠ – ٨١ .

(٢) مملكة الفونج الاسلامية ص ٦٢ .

(٣) انظر خارطة بهذه الأماكن في : تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٣ ، وانظر ص ٥٩ من المصدر نفسه .

٥ ـــ الشيخ عبدالله البرنس بن العقيل بن عجيب المانجلك

« ١٠٤٥ — ١٠٦٢ هـ »

روى صاحب الطبقـــات أن الشيخ عووضه شكال القارح أحد الرجال المشهورين بالصلاح كان قد تنبأ باعتلاء هذا الشيخ عرش أجداده ، وذلك حين كان قائداً عسكرياً في جيش العبدلاب ، فكان الأمر كما قال [١] .

ووصف الشيخ عبدالله البرنس ابان حكمه بالصلاح ، وبالولاية والكشف والعدل في الرعية ، واعتبر توليه الحكم طالع سعد على دار العبدلاب التي زاد عمارهـا في عهده ، واتسعت أرزاق أهلها فكثرت المواشي . وأشيع « من عدله وبركته – أن الذئب يجتمع مع البهائم فلا يضرهـــا ، وتلك أكبر الكرامات[٢] . » وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على « جنس » المقومات التي كان يطلبها مجتمع ذلك العصر في ولاة الأمور .

وكان من أثر عدله أن استتب الأمن ، وسادت الطمأنينة في البلاد ، فصار الرجل يسافر وحده بكثير من الأموال من بربر الى سنار ويعود الى أهله سالماً دون أن يتعرض له أحد أو جماعة بسوء ، وكانت وفاته ومدفنه بمدينة قرى بعد أن ظل في الحكم سبع عشرة سنة تقريباً [٣] .

تتابع على عرش العبدلاب –بعد عبدالله البرنس – عدد من الشيوخ لم تعن المصادر بالترجمة لهم ، لقلة شأنهم فيما يبدو وهم – على التوالي – :

---

(١) طبقات ود ضيف الله ص ١٢٧ .
(٢) واضح البيان ص ٥ .
(٣) نفس المصدر والصفحة . وانظر كذلك : السودان في رسائل ومدونات مج١٧ ص٦٤ .

٦ ــ الشيخ هجو بن عثمان بن عجيب المانجلك

« ١٠٦٢ – ١٠٦٧ »

٧ ــ الشيخ عجيب الثاني بن عريبي بن عجيب المانجلك

« ١٠٦٧ – ١٠٧٣ »

٨ ــ الشيخ مسمار بن عريبي بن عجيب المانجلك

« ١٠٧٣ – ١٠٧٨ »

ورد ذكر الشيخ مسمار بن عريبي بن الشيخ عجيب في وثيقة صادرة في قرى سنة ١٠٩٥ هـ باعتباره شيخاً عليها، تقرر تلك الوثيقة أنه وافق وأمضى ما جوه به الشيخ عجيب جده ذرية الفقيه ابراهيم بن الزين ، وتحذر الشيوخ والمقاويم والعمال وأبناء قنديل وخاصة ملوك الدفار وحواريهم وخدامهم من أن يمسوا هذا الجاه أو ينتقصوا منه [١] .

وعن سيرته تذكر مصادر العبدلاب أنه لم يكن أهلاً للملك ، ولا جديراً بالسلطان، فقد ظهر ــ خلال خمس سنوات هي مدة حكمه ــ أنه دون مستوى مسؤولية الحكم ، وقد عانت الرعية من عدوانه الكثير في الزمن اليسير ، مما حمل أهله ــ آخر الأمر ــ على عزله عن عرش العبدلاب[٢] .

وقد تحدث كروفورد عن علاقة الشيخ مسمار بإقليم دنقلا فقال: « وذهب أحد شيوخهم فى سنة ١٦٥٩ م مسمار بن عريبي الحلاشي الى دنقلا حيث عاث تحطيماً وسط رجال المكانة والطول [٣] » ، مما يعد مثالاً لقسوته على رعيته وسوء تصرف فيما بين يديه من سلطان .

---

(١) انظر بحث ابراهيم مصطفى عريبي ، جريدة الثورة السودانية ، بتاريخ ١٩٦٢/٦/٢٩م ويلاحظ أن تاريخ صدور الوثيقة لا ينسجم مع التاريخ الذي اعطته القائمة التي اعتبرناها أساساً لترتيبهم ، لزمن حكمه ، مما يشير إلى اضطراب في تاريخ الوثيقة في أغلب الاحتمال .

(٢) واضح البيان ص ٥ ، السودان في رسائل مج ١٧ ص ٦٥ ، تاريخ ملوك العبدلاب ص٨.

(٣) The Fung Kingdom of Sennar , P . 188 .

٩ ــ الشيخ علي بن عثمان بن عجيب المانجلك

« ١٠٧٨ — ١٠٨٥ هـ »

١٠ ــ الشيخ محمد السميح بن عثمان بن عجيب المانجلك

« ١٠٨٥ — ١٠٩٥ هـ »

روى صاحب « الطبقات » في ترجمة الشيخ ابراهيم بن بري أن الشيخ حمد السميح يأتي في الترتيب بعد الشيخ عجيب ولد العجيل [١] . ولكن مصادر العبدلاب ورواياتهم السماعية التي دونت حديثاً تجمع على أن السميح هو السابق ، وعجيب هو اللاحق له في الترتيب [٢] .

وتؤيد (D 3) مصادر العبدلاب في تقديم حمد السميح على الشيخ عجيب الثالث . وأن يكون الأمر على هذا النحو فهو عندي أرجح ، ذلك لأنه جاء في وثيقة معاصرة [٣] .

أما عن سيرته كحاكم فقد وصفته مصادر أهله بأنه كان رجلاً جباراً ، كثير الاعتداء على الرعية ، قليل الاستقامة في نفسه ، مما سبب معارضة شديدة لحكمه قادها ابن عمه عجيب الثالث ، وانتهت بحمل البيت الحاكم من أسرته على عزله ، ونفيه الى دارفور حيث عاش بقية عمره ، وبقي أولاده بتلك الجهة [٤] .

---

(١) طبقات ود ضيف الله (ص ٣٠) .

(٢) انظر : واضح البيان (ص ٢٦) ، السودان في رسائل (مج ١٧ ، ص ٦٥) ، تاريخ ملوك العبدلاب (ص ٨) ، تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ٦٠ — ٦١) ، والجدولين : (أ ، ب) .

(٣) The Fung Kingdom, pp, 222 - 223,

(٤) واضح البيان(ص٦)، السودان في رسائل(مج١٧ ،ص٦٥)تاريخ ملوك العبدلاب(ص٨).

ولم يكن سوء تصرفه قاصراً على دار العبدلاب وحدهـا التي تقع تحت حكمه المباشر ، ولكن تجاوزهـا الى الأقاليم التي تخضع لنفوذه . فقد أشار صاحب الطبقات – في أكثر من موضع – الى حروب نشبت بينه وبين ملوك شندي الجعليين ، كما ذكر كروفورد أن حمد السميح حارب شندي سنتي ١٧٠٦ – ١٧٠٧ م [١] . ولعل لتلك الحروب صلة وثقى بمـا قررته مصادر العبدلاب عن سياسة حكمه الخرقاء .

يشير ابن ضيف الله الى إحدى حروب شندي فيقول : « ثم إن الشيخ حمد السميح في حربه لشندي قتل ملك الجموعية ،وقتل أكثر من مائة نفس » ، وخرب البلد واغتصب رقيق وبقر وإبل وماشية آل الشيخ الصالح بانالنقا الضرير ، وحين ذهب اليـه هذا الشيخ وفي معيته أبناء عمه ، حيث ينزل شيخ العبدلاب « بالكبر » رد له البعض وتجهم في وجهه [٢] .

يدل هذا النص على جملة حقائق :

أولها : ان عهد الشيخ حمد السميح شهد حرباً شنهـا على ملوك بعض الأقاليم التابعة لمشيخته ، وهي مملكة شندي . وقد شارك في هذه الحرب – الى جانب ملوك شندي – ملك الجموعية ، وهو أحد حكام الأقاليم التابعة لسلطانه في قرى .

واذا صح ما نفترضه من أن هذه الحرب سببها رغبة الشيخ حمد في إخماد ثورة أشعلها ملوك شندي بالتعاون مع ملك الجموعية يصح – تبعاً لذلك – احتمال أن تكون أسباب هذه الثورة طغيان هذا الشيخ وتجبره وسوء سياسته التي أشارت اليها مصادر أهله العبدلاب قبل أن تشير لها مصادر الخصوم .

---

(١) The Fuog Kingdom, p, 333,

(٢) الطبقات (ص ١٠٥) .

ثانيها : ان هذا الشيخ كان متمرداً على كل عرف وقانون لا يعنيه من أمر رعيته شيء ، ولا يتورع من أن يسفك دم العشرات من أفراد الأمة ، ويسلب كل ما يصادفه من أموال الناس وممتلكاتهم . حتى رجال الصلاح ، أصحاب الصدارة فيالدولة على عهد أجداده لا يتحرج من سلب رقيقهم وبقرهم وغنمهم وبعض جمالهم .

وقد أدت هذه الأعمال الى سخط الرعيه عليه ، حتى أهله في البيت الحاكم ثاروا عليه وأسقطوه ، ولم يكتفوا بذلـك ، بل نفوه الى دارفور مبالغة في كرهه والنكاية به ـ على ما مر ـ .

ويفهم من نص آخر لصاحب الطبقات أن هيبة الحكم قد زالت من النفوس في عهد الشيخ السميح ، حتى صار الناس لا يترددون من توجيه أقذع العبارات الى ولد عجيب الذي كانت تضرب بهيبته الأمثال . فها هو الشيخ خليل بن علي الصاردي الخميسي يرد على رسول الشيخ حمد السميح رداً قبيحاً حين حمل اليه رغبته في أن يبيعه الخيل التي جمعها أصحابها عنده بالشراء ، فيقبض الثمن باليمنى ، ويسلم الخيل باليسرى ، للحاجة الملحة لاستخدامها في حرب ملوك جعل في شندي ، فقد رد الشيخ خليل على رسول حمد السميح : ضجويـــة الديومابي بقوله : قل للسميح ان الخيل عددها عندي وفير ، وهي الآن حاضرة ، فان تك تحس من نفسك قوة وقدرة على أخذها فدونك اياها . ثم ذكر عبارة دارجة [١] تنم عن غايـــة الاحتقار [٢] . ولم تقو نفس السميح ـ بكل جبروتها ـ على قبول هذا التحدي الذي وجهه اليه فقيه من رعيته أعزل من كل سلاح .

---

(١) عبارة الشيخ خليل الصاردي الدارجة هي : « قل له الخيل تراهن حاضرات عندي ، ان لم تجي تأخذهن عكازي فيك ، والخيل تراهن واقفات من أم حجر الى كجوج » .

(٢) طبقات ود ضيف الله (ص ٨٤ ـ ٨٥) .

وهذا النص يفيد - زيادة على ما ذكرناه - بأن سياسة الغصب أضحت السمة المميزة لعهد هذا الشيخ، وإلا فما معنى أن يسوق أصحاب الخيل خيولهم الى الشيخ خليل مستجيرين به من ظلم السميح حيث كان الشأن في مثل هذه الأحوال أن يغدو العلماء ملجأ الناس الأخير من كل ظالم ، حتى يضطر شيخ العبدلاب - نتيجة لذلك ، ولانعدام الخيل في الأسواق - لأن يبعث برسوله للشيخ خليل ، وما هي الغاية - ان لم يكن الأمر كذلك - من تأكيد رسول السلطان للشيخ خليل في عبارات واضحة وصريحة أنه يريد شراء الخيل لا غصبها ، ولكي يذهب خوف أهل تلك الخيل يقول : « نعطيهم الثمن باليمنى ، ونقبض منهم باليسرى » . ومع هذا كله نرى الشيخ خليل لا يأمن جانبه ، فيتحداه بما سبق ذكره ، ويرفض أن يبيعها اياه بحال [1] .

وقد ذكر صاحب الطبقات في هذا الصدد أيضاً ، أن أحد رجال الدين المتصوفة الذين كان لهم تأثير قوي على عقول الناس ووجداناتهم، تنبأ في وجه السميح - حين طلب اليه أن يسأل له ملك آبائه - بأنه سيحكم عشر سنين ، ولكن الخراب سيصيب المشيخة في آخرها . فكان الأمر كما قال ، وأمست ثلاث سنوات منها خراباً [2] بسبب ما اتسمت به سياسته من رعونة وإيذاء. لذلك كله لم يكن غريباً أن تصف مصادر أهله سياسته بهذه العبارات : - وهي تعلل لعزله من الملك - « بسبب تعديه على الرعية ، وعدم الاستقامة المؤدي لخراب الدار ، وتمزيق الملك » [3] .

غير أنه يبدو أن هذا الانحراف في التصرف طرأ على سلوكه في السنوات

---

(١) المصدر نفسه والصفحة .

(٢) طبقات ود ضيف الله ص ٣٠ .

(٣) واضح البيان ص ٦ ، السودان في رسائل ومدونات مج ١٧ ص ٦٥ - ٦٦ ، تاريخ ملوك العبدلاب ص ٨ .

الأخيرة التي سبقت عزله ، بدليل ما أشار اليه نص الطبقات السابق من أن سنوات الخراب في حكمه كانت الثلاثة الأخيرة ، وبدليل أنه ظل في الحكم عشر سنوات. نقول هذا لأن صاحب الطبقات نفسه كتب عن مجالسته للعلماء ومناقشتهم في شئون الأولياء وعنايته بهم . فقد ذكر أن الشيخ السميح أرسل يوماً في هذا الشأن الى الفقيه دفع الله وعرض عليه قضية بحق رجال الدين أثيرت ، وأفهمه « ان الموضوع يختص بالعلماء ، وسأله أن يحكم بينهما »[1] .

ومهما يكن من أمر فقد أودت بالشيخ حمد السميح سياسته الى المصير الذي أشرنا اليه في مستهل حديثنا عنه ، ليتولى الحكم بعده ابن عمه :

١١ ـ الشيخ عجيب الثالث بن محمد العقيل بن عجيب المانجلك

« ١٠٩٥ — ١١١٠ هـ »

كان الشيخ حمد السميح الذي فرغنا من ترجمته وشيكاً ـ آخر أبناء الشيخ عثمان خليفة أبيه الأول الشيخ عجيب الكبير ، فقد كان الحكم منحصراً ـ بعد وفاة محمد العقيل ـ في أبناء عثمان هذا . ويبدو أن هناك صراعاً خفياً كان يدور بين أبناء عثمان وأبناء عمهم محمد العقيل الذين كانوا يرون أنفسهم الورثة الشرعيين لعرش العبدلاب .

وما لبث أن عبر هذا الصراع الخفي عن نفسه في ثورة علنية قادها عجيب ابن العقيل ضد أبناء عمه عثمان، ممثلين في الشيخ حمد السميح على ما أوضحناه،

(١) الطبقات ص ١٨١ . والقضية هي : مفاضلة بين عالمين هما : الشيخ محمد سوار الدهب ، والشيخ يعقوب بن الشيخ مجلي المشيخي .

وقد ساعدته السياسة الخاطئة التي كان ينهجها حمد السميح على إسقاطه وارتقاء عرش العبدلاب بدلاً عنه ، فكان هذا آخر عهد لأبناء عثمان بالملك ، ومنذئذ انتقل ميراث الشياخة لأبناء محمد العقيل ـ وعجيب هذا أولهم ـ الى آخر دولتهم [١] .

غير أن أبناء عثمان لم يكن من السهل عليهم أن يذعنوا للأمر الواقع ، ويتنازلوا عما يرونه حقاً أصيلاً لهم . وكان عجيب الثالث هذا قد تقلد زمام الأمر في الدولة وهو ابن خمس وستين [٢] ، لذا رأى أبناء عمه أن هذه قد تكون فرصتهم المناسبة الوحيدة للقضاء عليه ، واسترداد ملكهم منه ، لهذا أثاروا معارضة ضد حكمه ، متذرعين ـ فوق ما يرونه من حقهم الموروث ـ فيما يبدو بكبر سنه . وتطورت الأمور على نحو أنذر بالخطر ، وأوشك أن يؤدي الى حرب أهلية في البيت المالك لولا رجاحة عقل الرجل المسن . فقد ذكرت الروايات أن أمر هذه الفتنة قد سوّي على النحو التالي :

كان للشيخ عجيب الثالث هذا دار عالية في « قرى » ، حبس فيها أبناءه منذ ميلادهم بحيث لم يكن يعلم بهم أحد من قومـــه ، (وهذا أمر يصعب تصوره) حتى اذا بلغوا سن الرشد وأثار أبنـــاء عمه هذه المنافسة ضده عمد الى إقامة ما يصح أن يسمى عرضاً عسكرياً ، فأمر بضرب الطبول لتجتمع الجيوش ، ثم جلس على سرير ملكه ، وأمر باخراج أبنائـــه المحجبين ومن

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٦٠ – ٦١ ، واضح البيان ص ٦ ، السودان في رسائل مج ١٧ ص ٦٦ ، تاريخ ملوك العبدلاب ص ٩ ، وانظر :

The Fung Kingdom, p. 167,

Ibid, p. 167 . (٢)

ورائهم زمرة من عبيده [1] ليتقدموا العرض في أكمل زي ، وأرهب هيئة ، وأبهى حلة : يلبسون الدروع الداوودية [2] ، ويشهرون السيوف البارقة . وكانت مفاجأة لأبناء عمومته ، بهرتهم ، وذهبت بعقولهم ، ولم يكن أمامهم وقد رأوا سبعة عشر رجلاً ، أو سبعة وعشرين على خلاف في الروايات ، من أبناء صلبه يقفون خلفه ، ومن ورائهم قوة من عبيده ـ إلا الخضوع والاستسلام .

واغتنم عجيب الثالث هذه الفرصة المواتية فخير أبناء عمه عثمان بين التوجه للشرق أو الغرب ، أما الاقامة في حاضرة دولته فأمر لا سبيل اليه ، وذلك خشية تكرار هذا الحادث . فاختاروا مكرهين شرق السودان ، وظلوا هناك الى اليوم يعرفون – مع غيرهم – بالعتامنة [3] . وبذلك استقر ملكه ، وأصبح ميراثاً لأبنائه وأحفاده من بعده ، « إلى أن انتهت (دولتهم) على يد الحكومة المصرية في سنة ١٢٣٦ هـ » [4] .

عجيب الثالث وعلماء الدين :

أما عن سياسته تجاه طبقة المتصوفة وعلماء الدين الذين كان القرب منهم ، أو البعد عنهم يمثل المحك الحقيقي لصلاح حكم كل شيخ أو فساده فان لدينا نص من الطبقات يلقي ضوءاً على ذلك . يقول النص : ان الشيخ حمد بن محمد

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٦١ .

(٢) نسبة لداود عليه السلام .

(٣) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٦١ .

(٤) راجع تفاصيل ذلك في واضح البيان ص ٦ ، السودان في رسائل ج ١٧ ص ٦٦ ، تاريخ ملوك العبدلاب ص ٩ ، تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٦٠ – ٦١ .

ابن علي المشيخي المشهور « بود ام مريوم » وهو من رجال الدين المتصوفة كانت السلطة قد فرضت على دار زراعته نصف خراجها ، فحمله ذات يوم إلى « شيخ الدار » رئيس وحدته الادارية ، الذي أتى به — بدوره — الى الشيخ عجيب. وما أن علم رئيس الدولة بأن صاحب الخراج من علماء الدين المتصوفة حتى أعلن أنه تصدق عليه بالدار نفسها [١] .

فالنص يشير بوضوح الى أن الشيخ عجيب يولي العلماء ، بخاصة المتصوفة منهم ، عناية خاصة ، إذ على الرغم من أن السياسة المالية الثابتة للدولة تقضي بأخذ نصف الخراج عن أي دار زراعية في مثل دار زراعة الشيخ حمد فانه ـ اكراماً لعلماء الدين والمتصوفة ـ لم يأخذ نصف ما قطفه ود ام مريوم من غلات مزرعته: من خضر ، وسنابل للذرة الشامي ، وأصابع البامية ، وأتى به خراجاً مستحقاً للدولة ، بل بلغت رعايته لهـذا العالم أن لم يكتف باعفاء داره من الخراج ، ولكنه وهب الدار نفسها اليه .

وإذا كنا لم نعثر على نصوص أخرى مماثلة ، فليس مرد ذلك — في اعتقادنا — الى عدم وجود حالات عداها بقدر ما يعود الى ندرة المصادر المدونة لتلك الفترة . فان اقطاع الأراضي للعلماء من قبل شيوخ العبدلاب أمر متواتر معروف ، ولا يزال كثير من الناس يمتلكون أراضيهم بوثائق تعود إلى عهد مشيخة العبدلاب [٢] .

ويعتبر الشيخ عجيب الثالث من حكام العبدلاب الذين عمروا طويلاً ،

---

(١) طبقات ود ضيف الله ص ٦٧ .

(٢) انظر : كتاب « الفونج والأرض » واطلب مذكرة الشيخ عثمان أونسه من شعبة أبحاث السودان للوقوف على نماذج لاقطاعات العبدلاب ، وأسلوبهم في هبات الأراضي .

وحكموا كثيراً ، فقد ظل في الحكم خمسة وعشرين عاماً [1] ، ومات بعد أن بلغ من العمر تسعين ، ودفن في قرى .

١٢ ــ الشيخ بادي بن عجيب الثالث بن محمد العقيل بن عجيب المانجلك

« ١١١٠ – ١١١٤ هـ »

مكث هذا الشيخ في الحكم أربع سنين . غير أن الدولة لم تشهد في عهده ما يستحق اهتمام المؤرخين من تطور أو تغير . وقد أثر عن شخصه العدل بين الرعية ، وعد من أغنى ملوك العبدلاب [2] .

١٣ ــ الشيخ دياب ابو نائب بن بادي بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك [3]

« ١١١٤ – ١١٢٣ هـ »

زمن حكمه :

١ – ينقل كروفورد [4] عن العبدلاب أن دياب أبو نائب حكم في الفترة

---

(١) واضح البيان ص ٧ ، السودان في رسائل ومدونات مج ١٧ ص ٦٧ .

(٢) السودان في رسائل مج ١٧ ص ٦٧ ، واضح البيان ص ٧ .

(٣) ذكر صاحب الطبقات (ص ١٢٧) أن الفقيه شكال القارح تنبأ بتوليه مشيخة قرى قبل أن يولد ، فصار الأمر إلى ذلك .

(٤) The Fung Kingdom of Sennar, p. 334.

ما بين « ١١٣٩ – ١١٤٨ / ١٧٢٧ – ١٧٣٦ » .

٢ – وذكرت قائمة « أ » – وهي القائمة الرسمية تقريباً لأسرة العبدلاب – أن حكم هذا الشيخ كان قد بدأ منذ سنة ١١١٤ هـ لينتهي سنة ١١٢٣ هـ .

٣ – وجاء في قائمة «ب» أن الشيخ دياب حكم في المدة الواقعة بين « ١١٢٤ – ١١٣٣ هـ » .

٤ – أما وثيقة السلطان السناري بادي بن نول الصادرة سنة ١١٤١ هـ / ١٧٢٩ م فقد جاء فيها عن الشيخ دياب ما نصه : « حضر ذلك وشهد به الشيخ يونس والشيخ دياب شيخ قرى »[١] . فالواضح أن النص يرشدنا إلى أن دياباً كان شيخاً في حاضرة العبدلاب « قرى » سنة ١١٤١ هـ / ١٧٢٩ م ، ولكننا لا نعرف منه متى بدأ حكمه ؟ .

ومن نص آخر في الوثيقة الصادرة سنة ١١٤٥ هـ / ١٧٣٣ م[٢] نفهم أن شيخ قرى آنئذ هو الشيخ عبدالله بن الشيخ عجيب ، وهذا يعني ان حكم دياب قد انتهى في أو قبل هذا التاريخ .

٥ – على أن وثيقة منفصلة – لدينا صورة لها – عن وقف للشيخ دياب في الأراضي الحجازية المقدسة مؤرخة بعام ١١٤٩ هـ تشير صراحة الى أن دياب أبو نائب كان شيخاً للعبدلاب في قرى في هذا الابان ، ولكنها لا تشير إلى بدء حكمه ولا الى نهايته .

---

(١) الفونج والأرض ص ١٣٧ – ١٣٨ ، وثيقة رقم ٢٩ .

(٢) الفونج والأرض ص ١٣٩ – ١٤٠ ، الوثيقة ٣٠ .

فاذا كان اتفاق روايتين أو أكثر يعد معززاً لها ، مدعماً لدلالتها ، وباعثاً على ترجيحها على من عداهما – فان من المرجح أن يكون الشيخ دياب قد حكم في الفترة ما بين ١١٤٠ – ١١٤٩ هـ ، وهو التاريخ الذي تكاد تتفق فيه رواية كروفورد مع وثيقة الوقف بالمدينة المنورة – وهي عندي أوثق لعدم ظهور ما يوجب الطعن فيها – وما جاء في وثيقة السلطان السناري بادي بن نول .

دياب وأهله :

يلوح لي أن المعارضة التي لقيها جده الشيخ عجيب الثالث جعلته حذراً من أهله ، فوق ما كان يتمتع به من قوة الشكيمة ، والدراية السياسية ، اذ ما كاد يعتلي العرش حتى اتخذ من القسوة أسلوباً في معاملة أبناء عمه ، وبات ما يكاد يظفر من أحدهم بهنة حتى ينزل به أقسى العقوبات ، مما أدى الى فرار جماعة كبيرة من أهله الى أقاليم نائية ، ولم يبق منهم في « قرى » إلا أعمدة الملك الذين لا يقوم بدونهم ، ولا يبقى إلا بسندهم . ومن هؤلاء عماه : عبدالله وشمام ولدا عجيب [١] . وقد دلت أحواله على أنه كان يؤمن بينه وبين نفسه بأن السلطان مظهر ، والحكم أبهة وسطوة ، وهيبة الحاكم تكمن في تحقيقه ما تقصر عن إدراكه يد الغير من مظاهر الثروة والجاه . لذا استغل غنى دولته النسبي أسوأ استغلال . فقد روي من مظاهر بذخه أنه « سبك الفضة وجعلها مرابط لخيله ، كما اتخذ مقاودها

---

(١) واضح البيان ص ٧ ، السودان في رسائل ومدونات مج ١٧ ص ٦٧ ، تاريخ ملوك العبدلاب ص ١٠ .

ومشاكلها من الحرير الخالص ، وقد كان يُسقى المـــاء في أواني الذهب والفـــضة »[1] .

أبرز أعمـــاله :

أوقف الشيخ دياب أبو نائب ممتلكاته بالمدينة المنورة على المجاورين هناك من رعايا دولة العبدلاب ، يستوي في ذلك من جاور لطلب العـلم في الحرم النبوي ، أو جاور للعبادة وطلب الثواب .

وقد كشفت عن هذه الأوقاف – لأول مرة – وثيقة صادرة عن محكمة شرعية في مدينة الرسول [2] . جاء فيها : « الحمـــد لله تعالى . هذه حجة صحيحة شرعية ، ووثيقة محررة مرعية ، صدرت بمجلس الشريعة المطهرة ، بمحكمة طيبة الطيبة المعطرة ، لدى سيدنا ومولانا الحاكم الشرعي الحـــبر الهمام ... » . وبعد ان توضح – هكذا – مكان صدورها ، والجهة الرسمية التي صدرت عنها تنتقل هذه الوثيقة لتتحدث عن الغرض من تحريرهـــا وهو إثبات الوقف فتقول : « يعرب مضمونها – ويوضح مكنونها ، أنـــه حضر الرجلـين العاقلين الكاملين المكرمين « كذا بالجر » الشيخ علي مونه بن محمد والشيخ ادريس بن ضوا الوكيليين الشرعيين عن الجنـــاب العالي ، الراقي رتب المجـــد والمعالي ، الشيخ دياب بن المرحوم بادي بن المرحوم الشيخ عجيب بن عبدالله ، الثابتين وكالتها عنه بشهادة الشيخ محمد بن عبد ... ومحمدالزين..[3]

---

(١) نفس المصدر والصفحات .

(٢) حصلت على هذه الوثيقة من الشيخ عثمان أونسه كبير العبدلاب الآن . وقـــد اعترف العبدلاب بصحة ما جاء فيها وبأصالتها .

(٣) مكان النقط – في الفراغين – كلمات غير واضحة في الوثيقة .

في الوقف الآتي ذكره ». ثم ـ بعد أن يحدد صاحب الوقف ووكيله ومن ركياهما على هذا النحو ـ تصل إلى صيغة الوقف وتعيين الموقوف فتقول : « وأقرا إقراراً صحيحاً شرعياً بحسب وكالتهما الثابتة الشرعية بأنهما قد أوقفا وحبسا وسبلا وتصدقا وأكدا وأبدا ما هو في حوزة موكلها وملكه، وتحت تصرفه، والآيل إليه بالشراء الشرعي، وذلك جميع البيت الكائن بزقاق الطوال الشهير ببيت أبناء القفاص ». وتمضي الوثيقة فتذكر حدود هذا الوقف بعبارات واضحة دقيقة تفصل كل ما يتبع هذا « البيت » حتى « المراحيض » الداخلة فيه والخارجة عنه ذُكرت أو لم تذكر »، وتبين سبب الوقف بقولها : « كل ذلك رغبة في الأجر والثواب »، وتنتقل بعد ذلك لتنص على الموقوف عليهم فتقول : « أولاً على طائفة البرابرة والأحرار والمعتوقين من ذلك البر ». ثم تحدد المناطق التي يستحق أهلها من السودانيين الوقف وهي المناطق التابعة لمشيخة العبدلاب فتقول : « ومعرفة حد البرابرة المستحقة للوقف المذكور من جهة الغرب الكاب، وشرقاً سواكن، ومن جهة الصعيد الحبشة، وشاماً بندر أسوان يكون داخلاً في الحد لا داخلاً في الوقف »[1].

وبعد أن تنص الوثيقة على كل ما ينبغي إيضاحه وشرطه للوقف الصحيح، وتحتاط لمختلف الظروف تذكر أن تاريخ الوثيقة كان في يوم ما من شهر ربيع الأول سنة ١١٤٩ هـ[2].

وبالرجوع الى جداول شيوخ العبدلاب المختلفة، ومقارنتها مع إفادات

---

(١) رأي عميد أسرة العبدلاب الشيخ عثمان أونسه أن الوثيقة تشير هنا الى حدود مشيخة العبدلاب، كما سبق أن أشرنا.

(٢) انظر نص الوثيقة في الملحق الثاني آخر هذه الرسالة.

وثائق « الفونج والأرض » ظهر لنا أن هذا التاريخ : « ١١٤٩ هـ » يوافق ما حدده كروفورد نهاية لحكم الشيخ دياب أبو نائب الذي تنسب الوثيقة وقف المدينة المنورة اليه ، ولهذا رجحنا أن حكمه استمر ـ على الأقل ـ الى الوقت الذي صدرت عنه فيه هذه الوثيقة .

وقد ثبت لنا الآن بدليل قاطع أن شيوخ العبدلاب اهتموا فعلاً بتشجيع العلم والدين في دولتهم ، فأقاموا بعض المؤسسات التي توفر لطلاب العلم في مدينة الرسول وسائل الراحة التي تتيح لهم التفرغ لتحصيل العلم أو العبادة .

كذلك تأكد لنا أن لشيخ العبدلاب : دياب أبو نائب بن بادي بن عجيب ابن عبدالله بن العقيل بن عجيب المانجلك وقفاً خيرياً في مدينة الرسول . غير أننا لم نستطع أن نتبين مـــا إذا كان هذا هو الوقف الذي ذكرته مصادر كثيرة منسوباً للشيخ عجيب الكبير ، وزعم شهود عيان أنهم رأوه في المدينة وحادثوا بعض نظاره ، ونالوا نصيبهم منه باعتبارهم من أسرة العبدلاب على نحو ما ذكرناه في موضعه ؟ ونسب لعجيب المانجلك خطأ ؟ أم كان للشيخ عجيب الكبير وقف آخر غير هـذا بقي بعضه الى اليوم وهدم بعضه الآخر لتوسيع الحرم النبوي الشريف كما تقول بعض الروايات [1].

وفاتـــه :

يقول إبراهيم مصطفى عربي : « ومـــات كل هؤلاء ـ شيوخ قرى ـ ودفنوا في قرى إلا الملك دياب أبو نائب فإنه مات بشرق السودان عندمـا

---

(١) راجع تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم صفحة ٤٠ ـ ٤١ ، وانظر ترجمة عجيب الكبير .

كان يتفقد القبائل العربيـــة الموجودة هناك في ذلك الوقت »[1] . وحدد الأرباب الحسن بن شاور مكان تجواله بشرق السودان حيث أدركته منيتـه بأنه : « التوت » و « المناع » التي يبدو أنها أسماء لأماكن قد درست الآن[2]. وكان قد مكث في الحكم تسعاً من السنين[3].

---

(١) جريدة الثورة السودانية ، العدد ٥٦١ بتاريخ ١٩٦٢/٧/١٥ م .

(٢) واضح البيان ص ٢٧ ، وانظر : السودان في رسائل ومـــدونات مج ١٧ ص ٦٧ ، تاريخ ملوك السودان صفحة ١٠ .

(٣) نفس المصادر بصفحاتها .

الفصل الثاني

شيوخ الحلفاية ١١٢٣ - ١٢٣٦ هـ

١٤ ـ الشيخ عبدالله الثالث بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك(*)

« ١١٢٣ - ١١٤٤ هـ »

زمن حكمه :

١ ـ جاء في وثائق السلطان بادي بن نول ما يفهم منه أن عبدالله بن عجيب كان شيخاً على العبدلاب في الفترة من ١١٤٥ الى ١١٥٧ هـ ، ذلك لأن

(*) في قائمة نعوم شقير يأتي بعد « دياب أبو نائب » ـ آخر من ترجمنا له في الفصل السابق ـ وقبـل الشيخ عبدالله هذا شخص باسم « الأمين مسمار » الذي عاش في أيـــام ملك الفونج الرابع : بادي أبو شلوخ (حكم ١١٣٦ - ١١٧٥ هـ) . ويرد اسم الأمين هذا في أحداث القرن الثـاني عشر الهجري ـ أواخر السابع عشر الميلادي ـ مقترناً بثورة الشايقية ضد العبدلاب بقيادة أميرهم عثمان حمد العمرابي حين كان هو الطرف الذي مثل العبدلاب وقادهم . وقد وقعت تلك الأحداث ـ كما سبق أن أشرنا ـ في وقت مـــا بين أعوام ١٩٩٠ ـ ١٧٠٢ م .

كذلك يرد هـذا الاسم عند الحديث على الحرب الحبشية التي وقعت بين الفونج حين كان يتزعمهم بادي أبو شلوخ ، وبين الحبش وقت أن كان ملكهم « اياسو » ، يرد اسم الأمين مسمار كقائد ظافر لجيش السودان الذي دحر جيشاً حبشياً كبيراً ، وذلك في المعركة التي وقعت شرق نهر الدندر قريبـاً من « عجيب » سنة ١١٥٧ هـ، أو ١١٤٧ / ١٧٣٥ م على خلاف في الروايات: « انظر : كاتب الشونة ص ٢٢ ، تاريخ مختص بالنوبة ص ١٢ - ١٣ ، نعوم شقير ٢ / ٣٩٦ ، التربية في السودان ١ /٣٩ ».

وفي كلا الواقعتين دلت أفعاله وتصرفاته على أنه كان صاحب الكلمة العليا النافذة على العبدلاب . ومن الملاحظ أن المصادر القديمة « مثل مخطوطة كاتب الشونة وغيرها » لا تصفه بأنه شيخ «قرى» أو الحلفاية على حين تقول عنه ←

وثائق هذا السلطان تذكره كأحد الشهود فيهـا في ذلك الإبان [1] . وتدل المصادر المعاصرة ـ لغـير العبدلاب ـ أنه قتل في حرب المسبعات نحو سنة ١١٥٩ هـ [2] .

٢ ـ وتذكر القائمة (أ) أنـه كان حاكماً على العبدلاب في فترة تمتد من سنة ١١٢٣ هـ الى ١١٤٤ هـ .

٣ ـ على حين تورد القائمـة (ب) اسمه كشيخ للعبدلاب مقترناً بالسنوات الواقعة فيما بين ١١٣٣ ـ ١١٥١ هـ .

٤ ـ أما قائمة كروفورد فإنها تجعل حكمه بين سنة ١١٤٨ ـ ١١٥٩ هـ . ويقول كروفورد إنه قتل في حرب دارفور سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٧م [3].

←المصادر الحديثة (شقير ، التربية في السودان ، الشايقية ، مملكة الفونج الاسلامية) أنه شيخ « قرى ». ويبدو لي أن هذه المصادر أسبغت عليه لقب شيخ استيحاءمن مكانته- التي صورتها المصادر الأساسية ـ بين العبدلاب، وهي أوصاف توقع في روع المرء أنه ملكهم في ذلك الزمان .

على أن مصادر العبدلاب التي بين يديّ لا تشير الى هذه الشخصية كرأس للدولة ، من قريب ولا بعيد، ولكن تذكر في قائمة شيوخها شخصاً آخر بهذا الاسم ، إلا أن تاريخ ولايته يبعد عما هاهنا بكثير ، فهو الشيخ العشرين في الترتيب وفترة حكمه بين ١١٨٣ ـ ١٣٠٣ هـ كما سنأتي على تفصيله في مكانه . وقد فطن الدكتور شبيكة الى هذه الشخصية المغايرة فقال : « والشيخ الأمين مسمار ـ وهو غير شخصية الأمين مسمار الذي قـاد جيش سنار في الحرب الحبشية سنة ١٧٤٤ م » (مملكة الفونج الاسلامية ، ص ١٠٧).

من كل ما تقدم يتضح أن الأمير مسمار هـذا لم يكن شيخاً على « قرى » أو « الحلفاية » ، ولكنه أحد أبطال العبدلاب المشهورين في زمانه .

(١) انظر : الفونج والأرض الوثيقة (١ ، ص ٥٩ – ٦٠)،والوثيقة رقم (٢ ص ٦٢– ٦٣) ، والوثيقة الثالثة (ص ٦٥ – ٦٦) ، والوثيقة رقم (٣٠ ، ص ١٣٩ – ١٤٠) .

(٢) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٢٤) ، تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ١٣ ، أ) .

(٣) The Fung Kingdom of Sennar, pp. 333 - 334.

ويلاحظ ـ في هذا الصدد ـ أن أقر روايتين للتوافق هما : ما تدل عليه وثائق السلطان بادي بن نول ، ورواية كروفورد . والسؤال بعدئذ هل أن ما فيهما هو الاقرب للصواب ؟ أميل الى ذلك .

انتقال حاضرة العبدلاب الى « الحلفاية » [1] في عهده

لقد قضى الشيخ عبدالله الثالث أربع سنوات يحكم مشيخة العبدلاب من قرى ، وفي السنة الخامسة من حكمه انتقلت حاضرة الدولة الى الحلفاية التي تعرف الى اليوم بـ « حلفاية الملوك » . وكان هذا الانتقال نتيجة اتفاق تم بينه وبين أخيه شمام [2] .

وقد عزت روايات العبدلاب هذا الانتقال لأسباب نجملها فيما يلي :

أ) غدت قوة العبدلاب بمرور الزمن متمركزة في الحلفاية .

ب) تتميز أراضي « الحلفاية » بخصوبتها وصلاحيتها للزراعة ، بالاضافة الى سعتها . في حين أن قرى كانت تفقد هذه الخصائص .

جـ) تقرب الحلفاية – نسبياً – من الهلالية أحد المراكز المهمة للعبدلاب، والحاجة الى الاتصال بهم لازمة عند الملمات [3] .

---

(١) تقع « الحلفاية » شمال الخرطوم بحري بنحو سبعة أميال على الشاطىء الأيمن للنيل .

(٢) واضح البيان (ص ٨) ، السودان في رسائل (مج ١٧ ، ص ٦٧) ، تاريخ ملوك العبدلاب (ص ١٠ – ١١) ، تاريخ العبدلاب من خلال (ص ٦١) ، هذا وقد ذهب ما كايكل (تاريخ العرب في السودان ٢٤٥/١ بالانجليزية) الى احتمال أن يكون هذا الانتقال قد حدث في عهد الشيخ محمد الأمين مسمار الآتي ذكره ، وأيدت هذا الاحتمال رواية سماعية للعبدلاب (تاريخ العبدلاب من خلال ص ١٢) ولكن الرأي الأول أرجح .

(٣) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية (ص ٦١ ، ١١١ – ١١٢) .

وقد كتب كروفورد عن « الحلفاية » قبل وبعد صيرورتها حاضرة للدولة يقول : « الحلفاية ـ بالطبع ـ مدينة لها أهمية قبل أن يذهب اليها العبدلاب، وقد وصفها « كرمب » بأنها مكان كبير وجميل . ولها بيوت تشبه مـــا في النوبة لكنها أكثر جمالاً ، ومغطاة في الخارج بطبقة رقيــقة من « الزبالة » . وقد قدر « بروس » عدد المنازل بـ ٣٠٠ ، والصناعة الرئيسية فيــها كانت قماش قطني جد غليظ يدعى « الدمور » الذي يستخدم كعــملة صغيرة في جميع الأجزاء السفلى من العطبرا . كذلك يذكر « كرمب » « هذه العـملة القماشية مسمياً لها ثوب دمور . وفي الحلفاية أشجار نخيل رغم أنها لا تنتج تمـــراً » [١] .

ووصفها (كايو) : Cailliaud في آخر أيامها ـ فيما نقل عنه كروفورد ـ فقال : « وتقف المنازل داخل أسوار عالية ، والمساحـة التي تغطيها المنازل لا تقل عن أربعة أميال في محيطها ولا توجد شوارع منظمة ، والمنازل مبنية من الجالوص ، واثنان أو ثلاثة فقط لها طابق أعلى تلك للمشايخ. ولها سقوف مسطحة ، و « سباليق » جوفت من جذوع النــخل ، والأبواب تدور على أعمدة وتشبه ما للاقدمين » [٢] .

سياسته الداخلية :

أما عن سيرة الشيخ عبدالله نفسه فقد قالت مصادر أهله أنـــه كان على نقيض سلفه الشيخ دياب . كريم الخلق ، عفيف النفس واليــد ، عادلاً ، عازماً ، شجاعاً . وقد قابلت أسرته توليـته بالبشر نظراً لما عانوه من القهر

---

(١) The Fung Kingdom of Sennar , pp. 68 - 69.

(٢) Ibid, pp. 69, (See Cailliaud, Vol. 11, p. 198),

والاضطهاد من سلفه الشيخ دياب . ولهذا مدحوه بأبيات من الشعر الدارج كان منها :

« جيد ولوك يا للي عسكرك طماع يا أسد السلسلة القماع
نعم انك من تركة صفر « جماع » .» [1]

ولما سارت الركبان بحسن سيرته مع أهله ، وإنزالهم منزلة الصدارة عاد أفراد الأسرة المالكة من العبدلاب من المناطق التي كانوا قد هاجروا إليها فراراً من صف الشيخ دياب، ليسهموا في تشييد صرح حاضرة دولتهم الجديدة « الحلفاية » [2] .

كذلك توافد التجار من مختلف الجهات للمتاجرة باطمئنان ، بسبب انتشار الأمن الذي عم أرجاء البلاد [3] .

وقد عني الشيخ عبدالله عناية كبيرة بعاصمته الجديدة ، فأشرف بنفسه على عمرانها وتشييد مرافقها ، واهتم ـ بنوع خاص ـ بالمؤسسات الدينية ـ لا سيما المساجد ـ فيها [4] .

وكان يحب الدين وأهله ، وينزلهم من دولته المكانة السامية ، لذا توافد العلماء على الحلفاية من أكثر من بلد اسلامي ، فعمرت المساجد بطلابها وحفلت أروقتها وساحاتها بحلقات العلم . فممن اشتهرت بهم الولي الصالح الشيخ عبد الدافع بن محمد ، والعلامة الشيخ محمد ولد ضيف الله، والشيخ عبد الهادي ولد دوليب ، وابنه الشيخ نابري ، والشيخ عمارة أبو شليق المشيخي ، والشيخ

---

(١) واضح البيان ص ٨ ، والسودان في رسائل ومدونات مج ١٧ ص ٦٧ .
(٢) المصادر السابقة بصفحاتها .
(٣) واضح البيان (ص ٨) .
(٤) المرجع السابق والصفحة ، السودان في رسائل (مج ١٧ ـ ص ٦٨) ، تاريخ ملوك العبدلاب (ص ١١) .

عبد الحليم بن سلطان، وأخيه الشيخ عبيد المغربي ـ صاحب مقبرة العبدلاب ـ ولأغلب المذكورين مساجد بالحلفاية يعلمون فيها أولاد المسلمين [١] .

قالوا عن الشيخ عبدالله الثالث هذا : ان محبته قرت في قلوب رعاياه حتى اعتبروا مروره عليهم عيداً من أعيادهم الكبرى ، يبتهجون فيه ، ويستقبلونه بمظاهر الحفاوة والتكريم .

وحدثوا عن عدله أنه كثيراً ما خرج متنكراً لمسافات بعيدة من حاضرة ملكه ليخالط الناس كأنه واحد منهم ، ثم يسألهم عن حالهم مع شيخهم الكبير (رئيس الدولة)، وعن سيرته فيهم، فيقوّم – على ضوء ما يقولون– ما اعوج من نفسه ، ويحرص على مواطن الاستقامة في سلوكه [٢] .

وقد نسجت عن عدل هـذا الشيخ وسيرته قصص وأحاديث تشبه في تفاصيلها أروع الأساطير [٣] .

مقتله :

اتفقت المصادر المعروفة على أن الشيخ عبد الله بن عجيب قتل في حرب « مسبعات » [٤] ولكنها اختلفت في تفصيل هذا الحادث الشهير . فقد روت

---

(١) واضح البيان (ص ٩) ، السودان في رسائل (مج ١٧ ص ٦٨) ، تاريخ ملوك العبدلاب (ص ١١) .

(٢) واضح البيان (ص ٩) ، السودان في رسائل مج (١٧ ، ص ٦٨) ، تاريخ ملوك العبدلاب (ص ١١) .

(٣) انظر تفاصيل ذلك في : واضح البيان (ص ٩) ، وما بعدها ، والسودان في رسائل (مج ١٧ ، ص ٦٨ – ٦٩) .

(٤) سبق أن أوضحنا معنى كلمة « مسبعات » ولزيادة الايضاح يمكن الرجوع الى موسى المبارك في رسالته : تاريخ دارفور السياسي (ص ٤٦) ، مجلة امدرمان عدد (٣) ، السنة الأولى سنة ١٩٣٦ م ، (ص ٣٩ – ٨٠) .

مصادر الفونج هذه الحادثة على هذا النحو :

« أغرى الانتصار الذي حققته جيوش سنار على الحبشة الملك السناري بادي أبو شلوخ (١١٣٦ - ١١٥٧ هـ) بامتداد نفوذه غرباً على كردفان. لهذا ما لبث أن أعد جيشاً أرسله لقتال مسبعات ، وأسند قيادته لوزيره « ولد تومه » ، وخرج في الجيش المذكور (لا نعلم بأية صفة) الشيخ عبد الله ولد عجيب المشهور « برأس طير » ، وأخوه شمام بعساكره وكان في الجيش كذلك محمد أبو لكيلك كبير الهمج .

وبدأ القتال في المكان المعروف « بقحيف » لتنتهي الجولة الأولى بهزيمة جيش سنار ومقتل قائده ولد تومه والشيخ عبد الله ولد عجيب .

ولما استؤنف القتال من جديد في (شمقته) قتل هذه المرة شمام بن عجيب وابنه العجيل . غير أن محمد أبا لكيلك الذي تولى إمرة الجيش آنئذ تمكن من أن يحسم الأمر أخيراً لصالح جيش سنار ، ويطرد « مسبعات » من اقليم كردفان ليمتد نفوذ الفونج عليه [١] .

أما مصادر العبدلاب فتصور هذه الواقعة على نحو يخالف تمام المخالفة هذه الصورة التي استقيناها من مصادر الفونج ، وتروي أحداثها على النحو التالي :

« وفي آخر أيامه - الشيخ عبد الله - جاء سلطان فور بجيش جرار لأخذ بلاد كردفان ، فلما بلغ الشيخ عبد الله الخبر جند جيشاً عظيماً وتوجه بنفسه ومعه أخوه شمام وابنه محمد العجيل بن شمام ، وترك ابنه مسمار بمدينة الحلفاية حاكماً عليها . ولما وصل الى كردفان دارت رحى الحرب بينهم وبين الفور ،

---

(١) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٢٤) ، تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ٣ ، أ) ، نعوم شقير (٢/٣٩٧) ، وانظر تفاصيل هذه الحرب في : مجلة امدرمان - العدد الثالث - السنة الأولى - ١٩٣٦ م (ص ٧٩ - ٨٠) .

فانتصر عليهم ، وأرجعهم الى ورائهم ، فلما عجز الفور عن محاربته استعانوا بقبائل العرب المجاورة والتي تحت طاعتهم ، وأمروهم بدفن الآبار ومتابعتهم بارتفاع الأصوات وبالصراخ على الجيش بدون حرب . وكلما كر الشيخ عليهم فرت العرب هاربة أمامه ثم يعودون كما كانوا .... إلى أن قلت الامدادات والمؤن ، وتكاثرت جيوش الفور ، فاستقبلهم العبدلاب وأظهروا من ضروب البسالة ما حير الألباب . وفي هذه قتل الشيخ عبد الله بعد أن قل جيشه ومنع من ورود الماء لأن الفور قد استولوا على جميع الآبار ، ودفنوا ما بقي منها . وملكه ثمانية عشر سنة »[2] .

ظاهر من هذه الرواية أن الحرب لم يثرها ملوك الفونج ليضموا إقليماً مهماً الى دولتهم ، كما تقول مصادرهم ، وإنما شنها العبدلاب دفاعاً عن بلد خاضع بالفعل لسلطانهم جاء سلطان دولة أخرى لأخذه منهم ، ولا ذكر فيها – الى هـــذا الحد – لجيوش الفونج . ثم تتفق الروايتان بعد ذلك على مقتل شيخ العبدلاب شمام الذي خلف أخاه عبد الله على قيادة جيشهم وعلى مقتل ابنه محمد العجيل . ثم تعودان فتختلفان في أمر محمد أبي لكيلك الذي قاد الجيش الموحد وهزم به « مسبعات » . فبينما تذكره مصادر الفونج على نحو ينسجم مع روايتهم السابقة ، تذكر رواية العبدلاب أن تعيينه تم بناء على اتصال من شيوخ العبدلاب بالفونج رئي – نتيجة له – أن يتدخل جيش الفونج حينئذ طرفاً ثالثاً في الحرب تنفيذاً لما بين الحكومتين من عهود ، وأن تسند القيادة العامة – باتفاق الطرفين – للشيخ محمد أبي لكيلك وزير الفونج .

---

(٢) واضح البيان (ص ٩ – ١١) ، السودان في رسائل (مج ١٧ ص ٦٩ – ٧٠) ، وتاريخ ملوك العبدلاب (ص ١٣ – ١٤) ، ومعالم تاريخ سودان (ص ٩١) ، وانظر : تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ٥٩) ، وصفحات : (٢ – ٤) من بحث الاستاذ الجزولي ناصر التجاني (المخطوط) .

وهكذا قاد الجيش، وانتصر على مسبعات، « وأخرجهم من دار كردفان وتوطن بها ، محافظاً على حدود الدار » [١] .

والمحصلة النهائية لكل ما سبق أن الشيخ عبد الله الثالث بن عجيب قتل في حرب المسبعات باتفاق الآراء [٢] . ونرجح أن تكون الحرب قد جرت وفق رواية مصادر الفونج .

تعاقب على عرش العبدلاب ـ بعد ذلك ـ ثلاثة من الشيوخ يحيط بفترات حكمهم كثير من الغموض ، ولسنا نعلم سبب ذلك ، أهو إغفـال من المصادر لأخبارهم بعد أسهبت في أخبار عبدالله بن عجيب؟أم لم يكن لهم من الأعمال ما يستحق الاهتمام والتنويه . وهؤلاء هم :

١٥ ـ الشيخ شمام بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك

(١١٤٤ – ١١٤٨ هـ)

١٦ ـ الشيخ مسمار بن عبدالله بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك

(١١٤٨ – ١١٥٣ هـ)

١٧ ـ الشيخ ناصر بن شمام بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك

(١١٥٣ – ١١٦١ هـ)

ثم جاء بعدهم :

---

(١) واضح البيان ص ٩ – ١١ ، والمصادر السابقة بصفحاتها .

(٢) See olso The FunghKingdom of Sennar, P. 333,

١٨ ـ الشيخ عجيب الرابع ابن عبدالله بن عجيب بن العقيل ابن عجيب المانجلك

(١١٦١ – ١١٨١ هـ)

زمن حكمه :

١ ـ يظهر من قائمة (أ) التي اعتمدها العبدلاب في تسلسل شيوخهم أن بداية حكم هذا الشيخ كانت سنة ١١٦١ هـ ونهايته حدثت سنة ١١٨١هـ .

٢ ـ وتتفق معها القائمة (ب) في مدة حكمه ، وتخالفها خلافاً يسيراً في البداية إذ تقول أنه ولي الأمر سنة ١١٦٤ هـ . وفي النهاية التي يفهم منها أنها حدثت عام ١١٨٤ هـ ، أي أنه حكم نحو عشرين عاماً كما هو في رواية (أ)، وهو اختلاف ـ على أية حال ـ يسير .

٣ ـ ويذكر كروفورد [١] في قائمته أن حكم هذا الشيخ كان بين سنة ١١٧٣ ، ٧٤ – ١١٩٤ هـ .

٤ ـ أما وثيقة الشيخ عجيب بن عبدالله الصادرة فيما بين ١١٧٢ – ١١٨٠هـ

---

(١) The Fung Kingdom of Sennar, p, 334,

فإننا نجد ختمه عليها يحمل تاريخ سنة ١١٧٢ هـ [١] .

وفي وثيقة أخرى صادرة عنه سنة ١١٨١ هـ يحمل ختمه أيضاً تاريخ سنة ١١٨٠ هـ[٢] . ثم هو موجود في شهود وثيقة السلطان اسماعيل بن بادي، (بدأ حكمه سنة ١١٨٣) ، الصادرة سنة ١١٨٤هـ [٣] . فعلام تدل كل هذه الحقائق؟

نرى أن ذلك يعني :

أ ـ أن حكم هذا الشيخ بدأ سنة ١١٧٢ هـ.

ب ـ ربما أقصي عن الحكم بعد ذلك ، ثم عاد اليه سنة ١١٨٠ هـ ، أو ربما نقش ختماً ثانياً سنة ١١٨٠ هـ وألغى ختمه الأول .

جـ ـ كان على أية حال شيخاً للعبدلاب سنة ١١٨٤ هـ بدليل ورود اسمه ولقبه الرسمي كشاهد في وثيقة صدرت هذا العام .

هذا كله مستنبط من وثائقه السالفة ، ووثائق بعض سلاطين عسره وهو عندي أرجح .

على أني ألاحظ بعد ذلك ـ اتفاق جميع هذه الروايات على أن الشيخ عجيباً هذا كان يحكم في الفترة الواقعة بين سني ١١٧٢ — ١١٨١ هـ ، وتختلف الروايات ـ بعد ذلك ـ في البداية والنهاية .

وعلى الرغم من امتداد فترة حكمه زهاء عشرين سنة فإن المصادر ضنينة بأخباره . وزبدة ما تقوله عنه مصادر أهله : أنه كان فاضلاً عادلاً ، يجل

---

(١) الفونج والأرض ، الوثيقة السادسة (ص ٧٠) .

(٢) نفس المصدر والوثيقة السابعة عشر (ص ٩١) .

(٣) نفس المصدر (ص ١١١ — ١١٥) .

العلماء ويقربهم ، وينزل أهل الفضل والصلاح من دولته منزلة رفيعة ، وهم مستشاروه في كل ما يصدر من أحكام [1] » وقد يدل على ذلك إحدى الوثائق الصادرة عنه بتاريخ ١١٨١ هـ / ١٧٦٨ م ، فقد قررت هذه الوثيقة أنه عندما تنازع بعض أفراد رعيته في ملكية بعض الأراضي ، ورفع الأمر إليه ، عهد بالفصل في موضوع النزاع لأشهر علماء زمانه الفقيه ضيف الله [2] .

وفي وثيقته التي صدرت عنه في الفترة الواقعة بين سنة ١١٧٢ - ١١٨٠ هـ ما يؤيد ما ذهبت اليه مصادر أهله من إجلاله للعلماء ، ولقد أبنا أن موقف الحكام منهم آنئذ كان المعيار المتعارف عليه لتقويم كل حكم ، فقد أمضى بموجب تلك الوثيقة صدقة أحد حكام الأقاليم الخاضعين لسلطانه وهو حماد ولد عربي شيخ الدانياب على الفقيه السيد بن الشيخ عبد الهادي بن الشيخ محمد ولد دوليب المتمثلة في أرض (موات وبور ليس فيها عمار) [3] .

مقتله أو وفاته :

تقول مصادر العبدلاب عن نهاية حكمه : « وفي آخر عمره خرج ماراً بجهة الصبح ، متفقداً أحوال الرعية ، فتوفي ودفن هناك » [4] .

أما المصادر الأخرى فتتفق مع مصادر العبدلاب في أن نهايته كانت بجهة الصبح [5] ولكنها تقرر أنه قتل ولم يمت ، وذلك عندما ذهب هو وجماعة

---

(١) واضح البيان (ص ١١) ، السودان في رسائل ومدونات مج (١٧ ، ص ٧٠) .
(٢) الفونج والأرض (ص ٩٩) .
(٣) نفس المصدر (ص ٧٠ - ٧١) .
(٤) واضح البيان (ص ١١) ، وانظر : السودان في رسائل (مج ١٧ ، ص ٧٠) .
(٥) « الصبح » هو الاسم القديم لجهات « كسلا » الحالية كما مر .

من القواد في حملة عسكرية الى الشرق (التاكة) لمحاربة عربان الحلنقة ودارت بينهم وبين العربان معركة انتهت بمصرعه سنة ١١٩٣ هـ — ١٧٧٩ م [١] .

على أننا نلاحظ أن تاريخ مقتله هذا لا يتفق مع واحدة من قوائم تولية شيوخ العبدلاب السابقة [٢] ، ولا يتفق كذلك مع ما يمكن أن يدل عليه ختماه في الوثائق الصادرة عنه [٣] . وهـــذا لا شك أمر يضاعف من صعوبة تحديد زمن معقول لنهاية حكمه ، كما عسر علينا تأكيد زمن بدء هذا الحكم . ومع هذا فان أقرب احتمال نراه ولا نقطع بصحته أن يكون قد قتل حول سنة ١١٩٣ هـ / ١٧٧٩ م . لقرب عهد المصادر [٤] التي تقول بهذا التاريخ من حكم الملك السناري عدلان الثاني الذي كان معاصراً له .

١٩ ـــ الشيخ عمر بن عبد الله بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك

(١١٨١ — ١١٨٣ هـ)

ولي شياخة الحلفاية بعد أخيه عجيب لمدة لم تطل ، إذ ما كاد ينتهي ابن أخيه الأمين مسمار من حربه التي ناصر فيها مك سنار عدلان الثاني على شيخ الهمج وزيره بادي ولد رجب ويقتله فيها سنة ١١٩٤ هـ / ١٧٨٠ م حتى نازعه حكم العبدلاب ، واستطاع ابن اخيه — آخر الأمر — أن ينتصر عليه وينزع الشياخة منه [٥] .

---

(١) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٢٨) ، تاريخ مختص بالنوبة (ص ١٦) ، نعوم شقير (٢ / ٣٩٩) .

(٢) انظر جداول شيوخ العبدلاب أول هذا الفصل ، والملحق الاول .

(٣) انظر : الفونج والارض ، الصفحـــات (٧٠ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١١٤) ، الوثائق (٦ ، ١٧ ، ٢١) .

(٤) أقصد : مخطوطة كاتب الشونة ، ومخطوطة : تاريخ مختص بالنوبة .

(٥) تاريخ ملوك العبدلاب (صفحة ١٥) ، واضح البيان (صفحة ١١) ، السودان في رسائل (مج ١٧ ، صفحة ٧٠) ، The Fung Kingdom of Sennar, p, 247 - 8

٢٠ ـ الشيخ الأمين بن مسمار بن عبد الله بن عجيب بن عقيل ابن عجيب المانجلك

(١١٨٣ – ١٢٠٣هـ)

١ ـ شخصيته :

لا يشذ مصدر معروف من المصادر السودانية المعاصرة بل والقديمة عموماً، تستوي في ذلك مصادر العبدلاب وغيرهم ـ عن الإشادة بشجاعة هذا الشيخ وشدة بأسه وقوة عزيمتـه ، وتمرسه على أساليب القتال [١] . والواقع أن المشاهد التي شهدها ، والحروب التي أنشبها وأذكى نيرانهـا ، ووجّه مجرى الحوادث فيها ، هي البرهان الناهض لذلك . بيد أن مصادر العبدلاب تنحو منحى خاصاً في تصوير هذه البطولة، وفقاً لمناهجها في إبراز شخصية العبدلاب المستقلة القائدة على الدوام .

وقد زعمت هذه المصادر أن الشيخ خوجلي ـ أحد الأولياء المشاهير ـ تنبأ ليلة ميلاد الأمين مسمار بأن هذا الفتى لن يعيش أحد يعارضه ، ثم أوصى به خيراً جده الشيخ عبدالله الذي كان يكفله ، وحذره ألا يأمن عليـه أحداً بليل [٢] . ووصفه « بروس » الذي زعم أنـه قابله في أربجي سنة ١٧٧٢ م بأنه رجل يقارب الثلاثين ، وقور الأخلاق رغم أنه يفرط في الشراب [٣] .

٢ ـ بداية حكمه ونهايته :

توشك جداول التولية التي تذكرها مصادر العبدلاب أن تتفق فيما بينها ،

---

(١) انظر مثلاً كروفورد في :

The Fung Kingdom of Sennar, pp, 257-258,

(٢) السودان في رسائل (مج ١٧ ، صفحة ٧٠) ، واضح البيان (صفحة ١١) .

(٣) Bruce, Vol, I, 423,

ثم مع وثائق الفونج والأرض ، وما يستنتج من السياق في المصادر القديمة بعد ذلك على الزمن الذي حكم فيه . وهذه أول مرة يحدث فيها هذا التقارب النسبي بين جميع المصادر الرئيسية في الفترة التي حكم خلالها شيخ من العبدلاب بعد جماع وعجيب الكبير . فقائمة (أ) تقول إنه حكم في الفترة الواقعة بين ١١٨٣ - ١٢٠٣ هـ ، وقائمة (ب) تشير الى أن ذلك كان بين سنة ١١٨٦ - ١٢٠٦ هـ ، بينما تقرر رواية كروفورد و « بروس »[1] أن هذا الشيخ كان في السلطة فيما بين (٨٥ ، ١١٨٦ - ١١٩٣ هـ) على اعتبار أن تلك كانت الفترة الأولى لحكمه ، أما الفترة الثانية فلم ترد في روايته .

أما وثائقه التي صدرت باسمه فتقول إن بداية حكمه كانت عام ١١٨٤هـ[2]. أما المصادر القديمة الأخرى فإن وجود اسمه في معظم الحوادث التي وقعت زمن الشيخ بادي بن رجب (١١٩٠ - ١١٩٤ هـ) يدل على هذا التقارب[3].

اننا نلاحظ - من تأمل هذه الروايات - أن هناك اتفاقاً بين ما ذكره كروفورد وبين إحدى روايات العبدلاب التي تمثلها قائمة (ب) ، حيث يتفق المصدران على أن هذا الشيخ بدأ يحكم سنة ١١٨٦ هـ ، وهذا ما نميل الى رجحانه .

---

(١) The Fung Kingdom of Sennar, p. 333, and Bruce, Vol. V I, p. 423.

(٢) الفونج والارض الصفحات : (٨٥ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٦) .

(٣) انظر تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (صفحة ١٥ - ١٥ / أ) ، مخطوطة كاتب الشونة (صفحة ٢٩ - ٣٠) ، تاريخ مختص بالنوبة (صفحة ١٧ - ١٩) ، نعوم شقير (٢ / ٤٠٠ - ٤٠١) .

٣) الأمين وحروب الهمج :

ان أول ذكر للشيخ الأمين مسمار يأتي على عهد الشيخ الهمجي : بادي ولد رجب (١١٩٠ – ١١٩٤ هـ) [١] ، وذلك أثناء الحروب الأهلية التي نشبت بين شيوخ الهمج أنفسهم وبينهم وبين ملوك الفونج ، وشارك هو في اذكائها .

أ) حرب الشيخ الأمين وبادي بن رجب :

ترجع أسباب هذه الحرب ، في الظاهر الى قسوة الشيخ بادي بن رجب على أفراد أسرته المالكة وأبطال زمانه ، وإصراره على إهانتهم دون سبب معروف إلا أن يكون بدافع من غرور ، أو رغبة في الاستئثار بحكم بلاد السودان دون منازع . فقد ضرب – ذات يوم – ناصر بن عمه الشيخ محمد أبي لكيلك « بالسياط ضرباً شديداً ، وعزل الشيخ محمد الأمين ولد مسمار » الذي نحن بصدده ، ونفاه الى «القربين» احدى قرى الجزيرة بالنيل الأزرق ، وولى غيره ، وعزل الشيخ أحمد ولد علي شيخ خشم البحر ، وغيرهم من صناديد الرجال[٢] » . فكانت هذه الأفعال كافية لأن يحزم الهمج « أهله »

---

(١) تعود مصادر العبدلاب بصراع الامين مع الهمج الى وقت سابق لاعتلائه عرش العبدلاب، وذلك حين كان قائداً للجيش على عهد الشيخ عجيب الرابع وأخيه الشيخ عمر بن عبدالله (انظر واضح البيان ص ١١ ، السودان في رسائل مج ١٧ ، ص ٧١ ، تاريخ ملوك العبدلاب ص١٥ – ١٦) .

(٢) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٢٩) ، وانظر : تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص١٥) ، ومخطوطة تاريخ مختص بأرض النوبة (ص ١٧) ، ولا تشير مصادر العبدلاب الى واقعة العزل هذه ، ويعلق عليها كروفورد بقوله : « وكان واضحاً ان الامين رجل ذو شخصية واقتدار ، وواضح انه تحصل على الشياخة من عمه عمر رغم انه جرد اسمياً وبدل بعم آخر هو عجيب الفيل ، ثم مرة اخرى اذن بأخيه بادي يبدو انه الحاكم الفعال ، وانه حكم كل او جزء من المشيخة لأحسن فترة من العشرين عاماً » (مملكة الفونج في سنار «بالانجليزية»)ص٢٠٧ – ٢٠٨).

أمرهم على قتاله ، وأن يشركوا - في تدبير أمر التخلص منه - كل من لحقهم أذاه ، وفي مقدمتهم الأمين مسمار[1] الذي كان وقتها قائداً لجيش عمه الشيخ عجيب الرابع في جبهة « الأتبرا » كما تقول مصادر العبدلاب .

ويبدو أن العلاقات كانت على درجة عالية من السوء بين ملك الفونج « عدلان أبو جديري » وبين العبدلاب سيما الأمين مسمار . غير أن إشراكه في قتال « رجب » كان أمراً لا بد من تحقيقه مهما كانت الأحوال ، «فبادي» بطل صنديد والأمين مثله ، ولا يفل الحديد إلا الحديد . لذا قرر ملك الفونج ومستشاروه بعث رجل أثير عند الأمين ، تربطه به أواصر متينة من الصداقة ، وعرى وثقى من الرحم ، وهو « حجازي بن أبي زيد » أحد ذرية الولي الصالح الشيخ ادريس بن الأرباب [2] .

ونجح حجازي بعد لأي في اقناع الأمين بالحضور الى سنار حيث تم الاتفاق على حرب بادي بن رجب ، واستعد الأمين لهذا اللقاء فأرسل من يشتري له فرس « طمبل » ملك « أرقو » المشهور بالطاعة وخوض غمار الحروب .

ووصلت أنباء هذه الحركة المعارضة لحكم الشيخ « بادي » اليه وهو برفاعة حيث أخمد حركة أخرى قام بها الشكرية [3] . فلم يكترث بمقدماتها التي هزم فيها أنصاره ، الى أن بلغه أن الشيخ الأمين ولد عجيب أحد عناصر هذه الفئة المناوئة الثائرة ضده ، وهنا قال : «الآن صارت محاربة صحيحة» ، « وقبل ذلك لم يلتفت الى محاربتهم ولم يبال بها . لكونه لم يجد كفؤاً لمحاربته ، حتى بلغه اتفاق الشيخ الأمين حقق أنها محاربة صحيحة لأجل ما

---

(١) المصادر السابقة بصفحاتها .
(٢) واضح البيان ص ١١ - ١٢ ، السودان في رسائل مج ١٧ ص ٧١ .
(٣) الشكرية قبيلة عربية كبيرة تقيم - الى الآن - بمدينة رفاعة وجهات القضارف .

يعلمه من شجاعة الشيخ الأمين وقوة بطشه ، وأنه لا يجد له كفؤاً غيره[1] ».
وانطلق من رفاعة تلقـــاء سنار . ولدى وصوله الى مشارف سنار التقى بالثائرين من أهله وغيرهم على رأسهم الشيخ الأمين مسمار[2] ، ودارت المعركة التي لا يعنينا من أمرها إلاّ دور الشيخ الامين مسمار فيها لانه يجلو لنا جانباً من شخصه الشجاع .

قابل « بادي » صفوف الثائرين ، «وكلما مر على واحد من الفرسان يسأله من أنت ؟ فيقول له فلان ، فيجاوزه ، حتى أتى الى الشيخ الامين فسأله : فقال له : محمد الامين . فعند ذلك بادر بضرب الشيخ الامين ، فضربه بالسيف ثلاث مرات فلم يؤثر فيه شيئاً لكون درعه حصيناً . وبعد ذلك ضربه الشيخ الامين ضربة أثخنته ، لكونه له معرفة زائدة بالضرب ، وسيفه كان قاطعاً. ولم يفلح الشيخ بادي بعد تلك الضربة ، وجاوزه قليلاً ثم وقع على الارض... ومات الشيخ بادي رحمـــه الله تعالى « وذلك سنة أربع وتسعين بعد المائة والالف[3] » .

هذه احدى المعارك الكبيرة التي تشهد لبطولة شيخ العبدلاب الامين مسمار

---

(١) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ١٥ – ١٥ (أ) ، تاريخ مختص بالنوبة ص ١٨ .

(٢) المصادر السابقة بصفحاتها . وانظر ايضاً : مخطوطة تاريخ اربجي في الملحق الثالث ص ٢٥٦ وما بعدها من كتاب : معالم تاريخ سودان وادي النيل . وقد سافرت الى المسلميـــة والحصاحيصا واتصلت بأولاد شمبول شيوخ اربجي للحصول على أصل النسخة التي نقلها الشاطر بصيلي في كتابه ، فأحالوني الى ابنهم النائب البرلماني – آنذاك – : ابو اليسر مدني الذي اكد لي وجود المخطوط عنده ، ووعد باحضاره اليّ ولكنه لم يف بوعده بالرغم من ترددي عليه ، والحاحي الدائم عليه ، فاستعنت عليه بدار الوثائق المركزية بالخرطوم ولكني لم أعد آخر الأمر منه بطائل .

(٣) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ١٥ / أ) ، وانظر كذلك : تاريخ مختص بالنوبة (ص ١٨ – ١٩) ، ومخطوطة كاتب الشونة (ص ٣٠) ، ومخطوطة تاريخ مدينة اربجي في : معالم تاريخ سودان (ص ٢٥٦ – ٢٥٧) ، وواضح البيان (ص ١٢) .

الذي نترجم له، فقد جندل فيها بطلا مغواراً، مشهوداً له بالشجاعة ومشهوراً عند العرب والعجم في بلاده . بطلاً قاتل في ثمـــاني عشرة موقعة لم ير في احداها مهزوماً ، « ووقائعه مشهورة في الغرب ... وهو لا يقاس في زمانه ماجد من الفرسان [1] » . ومع ذلـك لم يقو على مقاومة الامين مسمار ، وما لبث أن سقط – بضربة واحدة منه – على الارض صريعاً .

ب) حرب الأمين والشيخ ناصر بن محمد :

وهذا مشهد آخر يكشف لنا المزيد من جوانب هذه الشخصية الفذة التي لم ير لهـــا في تاريخ العبدلاب نظير منذ الشيخ عجيب المانجلك [2] فقد تولى وزارة الهمج في سنار بعد الشيخ بادي قتيل الامين مسمار – الشيخ رجب (الهضلل) ابن الشيخ محمد أبي لكيلك برسم من الشيخ الامين مسمار ، والملك عدلان الثاني [3] الذي كان عندئذ ملكاً للفونج في سنار .

كان الامين شيخ العبدلاب وقتئذ « بالهلالية » الكائنة شرق النيل الازرق وشمالي رفاعة ، وجنوبي الكاملين ، وشرقي « أبي عشر » . ولم يكن معه من الجيش إلا أولاده وبعض من عبيده لا يتجاوز مجموعهم ستة عشر فارساً .

أمـــا شيخ الهمج رجب فقد توجه – كعادة من سبقوه – الى كردفان مستبقياً أخاه ابراهيم وكيلاً له في سنار . « ولم يأنس الشيخ رجب الى الامين مسمار ولو أنه اشترك معه في المؤامرة ضد بادي [4] » لذا بعث بأخيه ناصر في

---

(١) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٢٧ – ٢٨) .

(٢) مملكة الفونج الاسلامية (ص ١٠٧) .

(٣) واضح البيان (ص ١٢ – ١٣) ، السودان في رسائل (مج ٢٧ ، ص ٧٢–٧٣).

(٤) مكي شبيكة : مملكة الفونج الاسلامية (ص ١٠٤) .

عدد من الخيالة قدر بسبعمائه فارس لمحاربة الامين ، والخلاص منه ، مغتنماً هذه الفرصة التي قل أن يجود له بمثلها الزمان [1] .

وكانت خطته التي رتبها تقوم على أساس أن توكل مهمة اغتيال الامين الى رجـــل مشهور بالشجاعة يدعى « الهمجاوي » ، وأن تسند قيادة الجيش الزاحف لأبكر بن وحش أحد كبار الفونج ليعبر به النيل الى «الهلالية» ، على حين يتخلف الشيخ ناصر بن محمد –ضماناً لأمنه– في حلة ود أبي فروع [2] » .

كان هذا تدبير ناصر ، أما الشيخ الامين فقد جاءه رؤساء الشكريـــة حين نميت اليهم أخبـــار غزو الفونج ، وطلبوا اليه أن يتوجه الى حاضرته « الحلفاية » تحت حمايتهم إذ لا قبل له – وهو على هذه الحال – بمحاربة هذا الجيش الكثيف . وإذ تنتهي هذه المقالة الى رقية أخت الشيخ الامين ، تنشد بين يدي أبيها شعراً تعبر به عن رفضها لعرض الشكرية ، وتثير به في أبيها حمية القتـــال ، وهنا يقسم قائلاً : « انه لا يقوم من الهلالية حتى يقوم ترابها معه [3] » .

ثم يلتقي الجمعـــان . وإذا بالشيخ الامين يقلب ميزان القوى بشجاعته : جندل حماد بن الامين « الهمجاوي » الذي وكل اليه اغتيال ابيه، وهوى شيخ العبدلاب بسيفه على « أبكر بن وحش » فشطره نصفين ، « وحام به فرسه

---

(١) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ١٥ / أ)، تاريخ مختص بأرض النوبة (ص١٥) ، مخطوطة كاتب الشونة (ص ٣٠ – ٣١) ، واضح البيان (ص ١٣ – ١٤) ، السودان في رسائل (مج ١٧ ، ص ٧٣) .

(٢) واضح البيان (ص ١٣ – ١٤) ، السودان في رسائـــل (مج ١٧ ، ص ٧٣) ، تاريخ ملوك العبدلاب (ص ١٨) (مع بعض اختلاف) .

(٣) نفس المصادر والصفحات ، وانظر : تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعيـــة (ص ٦٢ – ٦٧) .

في الجيش بهذه الصورة المروعة [1] » فكان ذلك من أسباب الرعب الذي ملأ قلوب الاعداء ، فحاقت بهم أشنع هزيمة ، عبر النيل – على أثرها – من نجا منهم في عجلة جعلتهم – لهول الهزيمة – «يخرجون السمك في لبوس خيولهم» على الشاطىء الغربي للنيل في بلدة « أبي عشر[2] » .

وقلت عبرت رقية أخت الشيخ الامين عن نصر العبدلاب في واقعة « الهلالية » هذه بالشعر الدارج فقالت :

غنى وشكرية يا أختو يا رقيـــة ومن قومة الجهل ماب يربط النية
سولم كتال قبـــل الهلاليــــة خمسطاشر حصان سكن سبعمائة [3]

ولم تكد هذه الحرب تضع أوزارهـا حتى توجه الشيخ ناصر تلقاء سنار بفلول جيش يجر أذيال الهزيمة . ولا أدري على أي أساس اعتمد نعوم شقير في زعمه أن النصر في هذه المعركة كان حليف الهمـج . ولم يكن من نصيب العبدلاب[4] . ومهما يكن من أمر فما كاد الشيخ ناصر يستقر في الجزيرة –قبل بلوغ سنار – حتى عاد الى سيرة الشيخ بادي بن رجب سلفه ، فحاول أن يحرب هو – مع الشيخ الامين – مـا فشل فيه ذاك ، وعزل للمرة الثانية – خصمه الذي هزمه وشيكاً في الهلالية ، وولى مكانه أخاه بادي بن

---

(١) واضح البيان (ص ١٤) .

(٢) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ١٥ / أ) ، واضح البيان (ص ١٤) ، تاريخ مختص بالنوبة (ص ١٩) ، مخطوطة كاتب الشونـة (ص ٣٠ – ٣١) . مملكة الفونج الاسلامية (ص ١٠٤) ، تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية (ص ٦٢ ، ٦٧) .

(٣) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية (ص ٦٨) .

(٤) جغرافية وتاريخ السودان (٢ / ٤٠٠ – ٤٠١) .

مسمار في شياخة دولة العبدلاب[١] .

غير أن مصادر العبدلاب لا تشير هنا أيضاً الى أي عزل من أي نوع كان. وقد كتب كروفورد ما يشير الى نقيض ذلك تماماً فقال : « ويبدو إذن أن عدلان ملك سنار (وناصر هذا وزيره) قد استعاد لبعض الوقت بعض السلطة التي استعملها سابقوه ، لكنها كيفت بعون شيخ العبدلاب الذي معه السلطه الفعلية ، كما يبدو من الاحداث المطردة[٢] » .

ويقال إن ناصر بن محمـــد استعان في محاولة عزل الامين شيخ العبدلاب بأهالي بلدة أربجي ، فكان ذلـــك سبب خرابها ، إذ ما كاد الخبر يصل الى الشيخ الامين حتى جرد حملة تأديبية عليها، تعاونه في ذلك قبائل الشكرية ، «وهجم بهم على مدينة أربجي ،فأهلك مقاتليها، وما بقي تفرق بالجهات،وتركها قاعاً صفصفاً[٣] » .

« قيل لما أراد الله خرابها كان بها درويش يتلو ويكرر الآيـة وهي قوله تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون (سورة النحل ، الآية ١١٢[٤]) .

---

(١) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ١٥ (أ) ، تاريخ مختص بالنوبـــة ص ١٩ ، مخطوطة كاتب الشونة ص ٣٠ – ٣١ ، مملكة الفونج الاسلامية ص ١٠٧ .

(٢) The Fung Kingdom of Sennar, p. 258.

(٣) تاريخ مختص بالنوبة ص ١٩ ، وانظر : تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ١٥ – ١٦ ، مخطوطة كاتب الشونة ص ٣٠ – ٣١ .

(٤) مخطوطة كاتب الشونة ص ٣٢ .

جـ) حرب الامين والشيخ رجب :

عقب هذه الاحداث التي أظهرت شجاعة الامين وقوة عارضته أصبح له نفوذ كبير حتى على ملوك سنار ، وأضحت كلمته لا ترد عندهم ، كما غدت الاطراف المتصارعة علىالحكم تتسابق في خطب وده وكسبه الى جانبها ، فقد دلت المعلومات المعروفة على أن الملك عدلان الثاني تفكر فيما فعلته الهمج مع أهله ، وقرر الانتقام ، ولهذا طلب بعض حلفائه لتدبير الامر معهم ، وكان في مقدمة هؤلاء الشيخ الامين مسمار الذي أشار بقتل أشخاص بعينهم ، وفي مقدمتهم ابراهيم وكيل الشيخ الهمجي : رجب في سنار وبطانتــه كشرط للتعاون . ولم يسع الملك عدلان إلا أن يجيب الامين ومن شاطروه الرأي الى طلبهم [1] ، فيقبض على سادات الهمج ومن انطوى تحت لوائهم ليقتلهم في اليوم التالي في الساحة العامة ، ويسترق بنات الشيخ محمدأبيلكيلك.ولا ينجو من بطانة الشيخ رجب إلا شاعر وكيله ابراهيم المقتول : « النعيسان » الذي تمكن من الهرب الى كردفان حيث يقيم الشيخ رجب ، لينعي اليـه الوزير ابراهيم وأهله الهمج بهذه الابيات من الشعر الدارج :

رجب ولد محمــد يا جرك القيــوم
في أخوك البسوق عوق الدريسة اب توم
الهنــا والهنــاك من الكتال مهموم
اليــوم الوزير فوقه المرافعة تحوم [2]

---

(١) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ١٦ - ١٦ (أ)، تاريخ مختص بالنوبة ص٢٠ ، مخطوطة كاتب الشونة ص ٣٢ ، نعوم شقير ٢ / ٤٠١ . مملكة الفونج الاسلامية ص ١٠٥ .

(٢) واضح البيان ص ١٣ ، السودان في رسائل مج ١٧ ص ٧٢ - ٧٣ ، مملكة الفونج الاسلامية ١٠٥ .

ولم يضع الشيخ رجب وقتاً بعد سماع هذا النعي ، بل زحف سريعاً نحو سنار حيث التقى في مكان يعرف « بالترس » قريب من سنار ، أو «الرميلة» شرق النيل الأبيض على خلاف في الروايات [١] — التقى مع جيش المك عدلان وفي مقدمته الشيخ الأمين . وما هي إلا ساعة من نهار حتى قتل الشيخ رجب قائد الهمج وشيخهم بيد الأمين ، وقتل معه الولي الصالح الحاج محمود ، وذلك في رأس المائتين بعد الألف » وكانت هذه نازلة قصمت ظهر الهمج ، وفرقت كلمتهم [٢] .

د) الأمين وناصر بن محمد :

وفي السنة التالية لهذه الهزيمة التي حاقت بالهمج على يد الأمين ، وعلى عهد الشيخ الهمجي ناصر بن محمد (١٢٠٢ هـ — ١٧٨٨ م) حدثت واقعة حربية أخرى بين جيوش مك الفونج عدلان الثاني — حليف الأمين — بقيادة الأمين رحمه ولد كدناوي ، ومحمد ولد خميس أبو ريده ، وجماعة من عظماء الفونج والشيخ الأمين مسمار شيخ العبدلاب ، وبين جيش الهمج بقيادة الوزير الشيخ ناصر . وقد انتهت هذه الواقعة بانتصار الهمج ، وبالتالي هزيمة جيش الملك السنار الذي كان من قواده الشيخ الأمين مسمار كما ذكرنا [٣] .

ومع تسليمنا بأن الحرب هزيمة وانتصار فاننا نشك في أن الشيخ الأمين مسمار كان طرفاً في هذه الحرب الخاسرة ، وينبني شكنا على أساس أن هذه الرواية التي تذكر اسمه رواية مفردة لم تأت في المصادر الأخرى التي أوردت

---

(١) The Fung Kingdom of Sennar, p. 258.

(٢) كاتب الشونة (ص ٣٢ — ٣٥) ، تاريخ مختص بالنوبة (ص ٢١) ، تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ١٦ / أ) ، نعوم شقير (٢ / ٤٠١) ، واضح البيان (ص ١٣) ، السودان في رسائل (مج ١٧ ، ص ٧٣) ، مملكة الفونج الاسلامية (ص ١٠٥).

أنباء كل المعارك بما فيها هذه المعركة نفسها . وحتى كاتب الشونة لم يذكره قائداً للجيش كما جرى العرف، وكما ذكرته المصادر في جميع المشاهد السابقة[1].

٤ – مقتل الشيخ الامين مسمار :

اتصلت حياة هذا الشيخ بهذه الحروب حتى نهايتها . جاء في احدى المخطوطات « وولى (الشيخ ناصر) الملك طبل ، وتوجه به الى السافل لقتال الشيخ الأمين وأبو ريده ، والتقوا بمحل قريب من شندي[2] ، واقتتلوا ، وقتل الملك طبل ، وانهزم الشيخ ناصر هزيمة شديدة ، ثم ولي الملك بادي وقتل أيضاً بالحلفاية ، وقتل معه الملك رباط الذي ولاه الشيخ الأمين وأبو ريده .... كل ذلك في سنة ١٢٠٤ هـ . وفيها رجع الشيخ ناصر الى سنار . وفي سنة ١٢٠٥ هـ قتل الشيخ محمد الأمين مسمار قتله أبو ريده »[3] .

من تأمل هذا النص نستخلص الحقائق التالية :

١ – استمر الصراع بين الشيخ الامين وخصومه حتى آخر أيام حياته .

٢ – في السنوات الاولى لحكم الامين انتقل النزاع من سنار وما جاورها الى الحلفاية وما قرب منها .

---

(١) لم يرد اسم الشيخ الامين مسمار ضمن قواد جيوش الملك عدلان الثاني في غير مخطوطة كاتب الشونة هذه ، أما مخطوطة : تاريخ مختص بالنوبة ص ٢١ – ٢٢ ، تاريخ ملوك السودان وأقاليمه صفحة ١٦ (أ) – ١٧ ، ونعوم شقير ٢ / ٤٠١ – ٤٠٢ ، فانها جميعاً لم تشر – عند حديثها عن هذه الموقعة – الى وجود اسم الشيخ الامين ضمن جيش الفونج المهزوم.

(٢) وقيل في الحلفاية . انظر : مخطوطة كاتب الشونة صفحة ٢٧ ، مملكة الفونج الاسلامية صفحة ١٠٧ – ١٠٨ ، ونعوم شقير ٢ / ٤٠٢ .

(٣) تاريخ مختص بالنوبة صفحة ٢٣ ، وانظر : مخطوطة كاتب الشونة صفحة ٣٧ ، ونعوم شقير ٢ / ٤٠٢ ، مملكة الفونج الاسلامية صفحة ١٠٧ – ١٠٨ .
The Fung Kingdom. p. 259.

٣ ـ لم تعد للفونج ولا للهمج سلطة في هذا الإبان، وانعكس الامر الشائع فأصبح شيوخ العبدلاب يولون ويعزلون في ملوك الفونج .

٤ ـ في خلال عام واحد (١٢٠٤ هـ) خاض الشيخ الامين معركتين مع الفونج والهمج .

٥ ـ لم يقتل الشيخ الامين في معركة ـ على كثرة مـــا قاد من معارك ـ وإنما غدر بـه أصدقاء الأمس : أبو ريده وبعض أهله مثل عبدالله الرابع ابن عجيب .

٦ ـ كان مقتله سنة (١٢٠٥ / ١٧٩٠ ، ١٧٩١ م).

أما أسباب قتل الشيخ الامين فيمكن تلخيصها في الآتي :

أ ـ ضربه لابن عمه عبد الدر أخي عبدالله ولد عجيب .

ب ـ النزاع الذي نشب بينه وبين أبي ريدة ، أو بينــه وبين ابن عمه عبدالله الرابع ابن عجيب ـ على خلاف في الروايات ـ بسبب أسلاب أحد زعماء الفونج المقتولين ، وكانت تتكون من دروع وزرد[١].

وجاء في وصف الظروف التي قتل فيها الشيخ الامين أنـه كان مقيماً في (حلة ود بان النقا) بين قرى وشندي ، وجميع أولاده غائبون في اقليم دنقلا ، لإخماد ثورة شبت هناك ، فلما رآه خصومه : أبو ريدة ولد خميس ، وعبدالله الرابع ، والأربـــاب بن الفحل ، على انفراد ، هموا بقتله ولكنهم عجزوا عن الهجوم عليه بسبب ما يعلمون من شجاعته وقوة بطشه ، لذلك احتالوا الى أن صعدوا أعلى البيت الذي كان يقيم فيه ، وأزالوا سقفه ، ومن ثم بدأوا يرجمونه بالحجارة وبالحراب والسلطيات ـ وهم على بعد ـ حتى تسنى

---

(١) تاريخ مختص بالنوبـة صفحة ٢٣ ، مملكة الفونج الاسلامية صفحة ١٠٨ ، وانظر كذلك واضح البيان صفحة ١٥ ، والسودان في رسائـل مج ١٧ صفحة ٧٥ – ٧٦ ، تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم صفحة ٧٠ – ٧٢ .

لهم ـ آخر الامر ـ قتله ، بعد أن ملك عشرين عاماً ، ودفن بجوار الشيخ صالح ود بان النقا [1].

وهكذا عاش الشيخ الامين مسمار حياته كلها سلسلة من المعارك متصلة الحلقات ، ولكن ذلك كله ـ على هوله ـ لم يحل بينه وبين فعل الخير ، ويمنعه من مواصلة سيرة أغلب أسلافه ، المتمثلة في تقدير علماء الدين ومنحهم الهبات السنية ، فوثيقته الصادرة بعد سنة ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ – ١٧٧١ م تنص على أنـــه « تصدق على الفقيه محمد بن الفقيه السيد ولد دوليب في ثلاثين عود في مرن [2] الدناجلة « الدناقلة » في الجزيرة في الدار التي بيـــد الشوش ، وهي معلومة الحدود والبقعة والمكان » [3].

ولعلّ له أعمـالاً جليلة أخرى طغت أحداث الحروب عليهـا فذهبت طي النسيان .

٢١ ـــ الشيخ عبد الله عجيب بن عبد الله بن عجيب بن العقيل بن عجيب المانجلك

(١٢٠٣ – ١٢١٠ هـ)

أ) زمن حكمه :

يبدو من ختم الوثيقة الصادرة عنه سنة (١٢١٤ – ١٨٠٠ م) أن حكمه

---

(١) تاريخ مختص بالنوبة صفحة ٢٣ ، مخطوطة كاتب الشونة صفحة ٣٧ – ٣٨ ، نعوم شقير ٢ / ٤٠٢ . وانظر تفاصيل أوفى في : واضح البيان صفحة ١٥ – ١٦ ، السودان في رسائل مج ١٧ صفحة ٧٥ – ٧٦ ، وتاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم صفحة ٧٠ – ٧٢ .

(٢) العود : وحدة قياسية للأرض في الاصطلاح السوداني ، تتفاوت بين سبعة أذرع وثمانيـة وعشرة . والمرن قطعة أرض زراعية ، تمتد موزاية للنيل ، وتسد المدى المكاني الواقع بين النيل والكرس (الفونج والارض صفحة ٣٣) .

(٣) الفونج والأرض صفحة ٧٢ .

بدأ في سنة ١٢٠٥ هـ واستمر – على الأقل – حتى سنة ١٢١٤ هـ وهو التاريخ الذي صدرت به الوثيقة ، ووقائع حياته لا تشير الى انه ولي الحكم مرتين .

وتؤيد بداية حكمه في هذا العام مخطوطة كاتب الشونة ، فقد ذكرت أن الشيخ الأمين مسمار قتل في هذه السنة . واعتلى العرش – على أثر ذلك – عبد الله ولد عجيب ، وأصبح شيخاً شرعياً للعبدلاب [١] .

وتشير قائمة كروفورد [٢] الى نفس التاريخ (١٢٠٥ هـ) كبداية لحكم هذا الشيخ . وتقرب منها قائمة (ب) ، فقد جعلت بداية حكمه سنة ١٢٠٦ هـ . أما قائمة (أ) فقد جاء فيها أنه اعتلى عرش العبدلاب سنة ١٢٠٣ هـ كما هو ظاهر .

بتأمل ما سبق يتضح أن أربع روايات تجمع على أن حكم الشيخ عبد الله الرابع بدأ حول سنة ١٢٠٥ هـ ، ورواية واحدة تقرر أن ذلك كان سنة ١٢٠٣ هـ . ولذا فان الأرجح أن يكون حكمه قد بدأ سنة ١٢٠٥ هـ وليس سنة ١٢٠٣ هـ كما جاء في القائمة الرئيسية للعبدلاب .

ب – صراعه مع أبناء الأمين :

لم يكن ميسوراً أن يستقر له الأمر حال توليه ، فقد رأينا أنه بنى هذا المجد على حساب حياة ابن عمه الشيخ الأمين في غيبة من بنيه .

وأياً كان الأمر فقد توجه الشيخ الجديد بعد أن اغتصب السلطة إلى اقليم

---

(١) (صفحة ٣٧) .
(٢) The Fung Kingdom of Sennar, p. 334

« العطبرا » ، على حين عاد أولاد الشيخ الأمين إلى « حلة ودبان النقا » عندما افتقدوا « ابو ريدة » الذي كان يصحبهم ، وأيقنوا بغدره ، وسوء طويته . ولدى وصولهم الى « الحلة المذكورة » غدا الشك يقيناً ، والظن حقيقة ماثلة للعيان ، فقد وجدوا أباهم مضرجاً في دمائه . وعندئذ توجهوا « للحلفاية » لأخذ ما كان لهم بها ، ثم غادروها إلى العيلفون [١] أو الجديد — بين المسيد والخرطوم — على خلاف في الروايات ، وهنــاك التقوا بالشيخ الهمجي ناصر الذي شيخ أكبرهم ، وهو عبد الله بن الشيخ الأمين مسمار [٢] ، وتوجه الجميع إلى الحلفاية حيث دارت معركة بينهم من جهة وبين أبي ريدة والشيخ عبدالله ابن عجيب من جهة ثانية ، انتهت بهزيمة الشيخ ناصر ، وأقام — بعدهـــا — « بالصبابي » ثلاثة أيام أعاد فيها تنظيم جيشه ، ثم أعاد كرة خاسرة ، سافر بعدها إلى الغرب وإلى سنار [٣] .

أما أولاد الشيخ الأمين مسمار فقد أخذوا يجمعون الخيل والسلاح استعداداً لحرب الشيخ عبدالله ، وفي هذا الأثناء قام عبيدهم بغارة على ضواحي الحلفاية أخذوا فيها أغنامـــاً ، وذلك في غياب الشيخ عبدالله بجهة « الصبح » وعلى الحلفاية حينئذ وكيله الأرباب « علي بن بادي » الذي ما كاد يعلم بأمر الغارة حتى أسرع الى المغيرين ، ولحقهم بمشروع (أبو صلين) قريبـــاً من حلة « العيلفون » ، ومعه عثمان بن فاطر شيخ المساعيد في أعظم فرسان الشيــخ عبدالله . ودارت معركـــة بين الفريقين انتهت بهزيمة جيش وكيل الشيخ عبدالله ، وقتل فيها شيخ المساعيد ، وجرح الأرباب علي بن بادي ، وغنم

---

(١) واضح البيان صفحة ١٦ وانظر .The Fung Kingdom of Sennar, p, 259

(٢) مخطوطة كاتب الشونة صفحة ٣٣ ، ومملكة الفونج الاسلامية صفحة ١٠٨ .

(٣) المصادر السابقة وصفحاتها .

عبيد أولاد الأمين فرس عثمان فاطر والأغنـــام ، وعادوا الى العيلفون يحملون قتيلاً [1] .

وبلغت أنباء الغارة ، ونتائج المعركة التي تلتها مسامع الشيخ عبدالله وهو بجهـة الصبح ، فأسرع الى الوادي القريب من العيلفون ونزل به توطئة لشن حرب على أولاد الأمين ، وهنا جاء « الفكي بركات » خليفة الشيخ ادريس ، وشيخ آخريدعى سماحة [2] يتوسطان لمنع الحرب، ونجحا في مسعاهما، فوافق الشيخ عبدالله على ذلك بشرطين هما :

١ - أن يسلم أولاد الشيخ الأمين السلاح الذي جمعوه ، والخيـــل التي جلبوها - اليه .

٢ -- أن يخدموا في الأرض لعيشهم ، أو ينضموا للجيش ، أو يخرجوا من البلاد .

غير أن أولاد الأمين ردوا بقولهم : (لا نسلم سلاحنـــا ، ولا نتبعه ، ولينتظرنا لغد نخرج من بلده) وعلى هذا أبرم الاتفاق . وفي تلك الليلة جمع أولاد الأمين خيولهم التي كانت غائبة ، ثم دقوا طبولهم ايذانـــاً بالحرب ، وعندئذ لم تجد مع الشيخ عبدالله شفاعة الشافعين ، ووقعت الحرب ، ولكن نتائجها كانت هزيمة له، وانتصاراً لخصومه أولاد الأمين الذين قتلوا من إخوانه وفرسانه العظام تسعة [3] .

---

(١) واضح البيان صفحة ١٦ ، السودان في رسائـــل مج ١٧ صفحة ٧٦ - ٧٧ ، تاريخ ملوك العبدلاب صفحة ٢٣ ، وانظر تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم صفحة ١١١ ،
The Fung Kingdom, p. 259.

(٢) The Fung kingdom of Sennar p.259,

(٣) واضح البيان (ص ١٦) ، السودان في رسائل (مج ١٧ ، ص ٧٦ - ٧٧)، تاريخ ملوك العبدلاب (ص ٢٣ - ٢٤) ، تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم (ص ١١١) ،
The Fung Kingdom of Sennar, p. 259.

على أثر هذه الهزيمة توجه الشيخ عبد الله الى مشرق « الأتبرا » فالقضارف حيث تهيأ لقتال جديد ، شنه عليه خصومه من جهة الصعيد (الجنوب) في « حلة أم قحف » كتب له فيه نصر عظيم ، وأمكنه أن يقتـــل عدداً من أولاد الشيخ الأمين ، ومن بقي منهم أخذ وجهته الصعيد (سنار) . فكانت هذه آخر معارضة فعالة لحكمه ، استقر له الأمر بعدها في الحلفاية ولكن الى حين[1].

ج) أخلاقه ومزاياه :

أما عن مزايا الشيخ عبدالله الشخصية فقد أفرطت مصادر العبدلاب في الاشادة بها أيمـــا افراط ، وأوردت من خصاله الفذة الشيء الكثير ، وهي خلائق تتمثل في معاني الذكاء والفطنة والفراسة والعدل ، والحرص على توفير الأمن والاستقرار ، والسهر على مصالح الرعية ، وتشجيع الكسب الحلال ، وحب العلماء واكرامهم ، وحمل الناس على أداء شعائر الدين ، وسلوك جادة الطريق [2] .

ووصفته المصادر المعاصرة - لغير العبدلاب - فقالت :

« وكان رحمه الله عادلاً في رعيته ، محباً للدين وسماع القرآن الكريم ، وفي أيامه أمر بتزويج النساء مع تقليل مهور النساء ، وحصل تزويج كثير ، ونشأ منـه أولاد بكثرة ، وكذلك أمر أهالي السوق جميعهم حتى الجزارين بأنهم اذا سمعوا الأذان يتوجهون جميعـــاً الى الجامع ليحضروا صلاة الجماعة فاستمروا على ذلك ، وكان لهم ذلك عادة حتى بعد وفاته . وكذلك أفنى

---

(١) المصادر السابقة بصفحاتها .

(٢) راجع التفاصيل الوافية لكل ذلك في : واضح البيان (ص ١٧ - ١٨) ، السودان في رسائل (مج ١٧ ، ص ٧٧ - ٧٨) ، تاريخ ملوك العبدلاب (ص ٢٤ - ٢٧) .

الطغاة المعروفين « بالعكاليت » المجتمعين على النهب والسلب لاموال العباد ، وكان يجمعهم جماعة جماعة ويضرب رقابهم . ومدته كانت ثلاثة سنين ، وفي مدته لم يتجاسر أحد مطلقاً بنهب مال أحد ، لا سرقة ولا بقطع طريق[1]».

والواقع أن كثيراً من هذه الخصال نجدها مجسدة في بعض أعماله ، فقد أصبحت الحلفاية – بفضل توفير الامن فيها ، وبفضل عدله وصفاته الخيرة – ملجأ للخائفين . يدل على ذلك أن الشيخ ناصر الهمجي – وبين الهمج والعبدلاب ما لا يخفى من عداء – وثق في عدل هذا الشيخ واغاثته للملهوف، ورعايته للذمم ، ففر من أهله الهمج اليه ، واحتمى بجواره فأجاره وصان كرامته ، وقدم بين يديه كل ما من شأنه أن يهب قلبه الاطمئنان [2] .

وبفضل ضبطه للمجتمع ، ومنع وقوع الجريمة فيه ، والعقاب الرادع عليها حين تقع – قرت هيبة الحكم في القلوب ، وخاف من عدله الصارم أفراد الرعية فغدوا يلجأون – حين يذنبون – الى الاولياء والصالحين يلتمسون شفاعتهم لديه، غير أن هؤلاء الصالحين كانوا يمتنعون عن الشفاعة لانهم يعلمون أنه رجل لا تأخذه في الله لومة لائم . إلا أن حلمه العادل كان يسع المخطىء حين لا يكون في خطئه ما يغضب الله أو يضر العباد . وفي قصة علي بن دفع الله مع الولي الصالح الشيخ خوجلي ما يعبر عن كل أولئك بأوضح بيان[3].

وبوحي من صدق ايمانه وحبه للعدل يشرف بنفسه على بعض القضايا المهمة ، فيفصل فيها بعد تمحيص البينة وثبوت الحجة القاطعة دون اعتبار لاحد أطراف النزاع ومكانته من السلطة والنفوذ ، فها هو ينتصر – في احدى

---

(١) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ١٩ (أ) – ٢٠ . وانظر نفس هذه المعاني في : تاريخ مختص بالنوبة ص ٢٨ ، ومخطوطة كاتب الشونة ص ٤٣ ، نعوم شقير جـ ٢ ص ٤٠٥ .

(٢) تاريخ مختص بالنوبة ص ٢٦ ، نعوم شقير جـ ٢ ص ٤٠٤ .

(٣) الطبقات ص ٧٦ .

هذه القضايا - للفقهاء أولاد الشيخ خوجلي - لان الحق معهم - على بعض حكام أقاليمه « مبدا » شيخ الدانياب وجماعته ، وادريس شيخ الجموعية ومن معه من المحمداب [١] .

د - مقتلـــه :

تعزي مصادر العبدلاب قتل الشيخ عبدالله عجيب الى أولاد الشيخ الامين مسمار الذين استقروا في سنار بعد هزيمتهم في « العيلفـــون » . وتقول إنهم ظلوا هناك سنتين يبحثون عن وسيلة تفضي للخلاص منه أخذاً بثأر أبيهم ، حتى أمكنهم - آخر الامر - أن يتفقوا مع «عدلان بن محمد» على قتل أخيه الشيخ ناصر وتنصيبه - بدلاً عنه - حاكماً على سنار ، وذلك شريطة أن يعاونهم على قتل الشيخ عبدالله . ولما تم الامر الاول توجه الجميع من سنار الى الحلفاية لحرب الشيخ عبدالله ، وهناك نشب قتال أخذت فيه روحه ، ليتولى أحد أولاد الامين - وفق الاتفاق - وهو الشيخ ناصر شياخة العبدلاب[٢] .

أما المصادر الأخرى فتذكر قصة مقتله على النحو التـالي : « ثم ان الشيخ ادريس « وزير الهمج في سنار » لما تمخضت له الأمور [٣] توجه بنفسه الى الحلفاية ، وذلك في أواخر سنة ١٢١٤ هـ لمحاربة الشيخ عبدالله ولدعجيب بسبب كلام نقل منه حصل في حق أخيهم الشيخ ناصر ، والتقوا معه ، وحصل بينهم حرب شديدة [٤] الى أن قتل الشيخ عبدالله وانهزمت جيوشه ، فأمنهم

---

(١) الفونج والأرض ص ١٢١ وما بعدها ، و ص ١٢٤ وما بعدها ، وص ١٣٢ وما بعدها.
(٢) واضح البيان ص ١٨ ، السودان في رسائل مج ١٧ ص ٧٩ ، تاريخ ملوك العبدلاب ص ٢٧ - ٢٨ ، وانظر تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ١١١ .
(٣) يقصد بعد ان قتل اخاه ناصراً واستقر في وزارة الهمج .
(٤) تقول مخطوطة تاريخ السودان وأقاليمه : كان ذلك في أول المحرم سنة ١٢١٥ هـ .

الشيخ ادريس ، وولى عليهم الشيخ ناصر ولد الامين الذي أدرك مدة المرحوم اسماعيل باشا جنتمكان »[1] . وتضيف مخطوطة كاتب الشونة سبباً آخر حين تقول : « والثانية (أي السبب الثاني) لأجل فتح دار الأبواب ، وكان بينهم وبين أولاد نمر ما لا يخفى من العداوة والجفاء »[2].

على أنني لم أهتدِ بعـــد الى المقصود من تعبير « فتح دار الأبواب » ولا أعرف لم كان هذا الفتح سبباً لإزهاق روح الشيخ عبدالله بن عجيب . وغاية ما أعرفه في هذا الخصوص أن « دار الابواب » كلمة تعني الآن بلدة « كبوشية » الحالية تقريباً ، وكانت تحكم مباشرة بواسطة أولاد نمر الجعليين .

وأياً كانت الأسباب الحقيقية فإن الذي لا شك فيه أن مقتل الشيخ عبدالله الرابع تم نتيجة تدبير سابق اتفق عليه شيخ الهمج – وقتئذ – وأولاد الشيخ الأمين مسمار ، ولا عبرة بعد ذلك أن يكون الشيخ الهمجي هو الشيخ ادريس أو محمد عدلان كما يفهم من بعض الروايات .

٢٢ ــ الشيخ ناصر بن الأمين مسمار بن عبد الله عجيب بن العقيل(*) بن عجيب المانجلك

(١٢١٠ – ١٢٣٥ هـ)

أ – زمن حكمه :

« وبعد أن قتلوه [يقصد الشيخ عبد الله الرابع سنة ١٢١٥هـ] ولوا عوضه

---

(١) تاريخ ملوك السودان ص ١٣ . وانظر : مخطوطة كاتب الشونة ص ٤٣ ، تاريخ مختص بالنوبة ص ٢٨ تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ١٩ (أ) – ٢٠ ، نعوم شقير ٢/٥٠٤ .

(٢) ص ٤١ . وانظر : The Fung Kingdom, p. 259,

(*) استنتج الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم وجود شيخ للعبدلاب بين الشيخ عبد الله الرابع الذي فرغنا من ترجمته الآن وبين الشيخ ناصر بن الأمين هذا ، وهو بادي بن مسمار الذي اعتبره نعوم شقير في قائمته رابع عشر شيوخ ←

← العبدلاب . (انظر ج ٢ الصفحات ٤١٧ - ٤١٩) . وقد تمثل استنتاج الدكتور ابو سليم في قوله : « الشيخ عبد الله عجيب شيخ قرى يظهر من ختم الوثيقة ٢٤ أن حكمه بدأ سنة ١٢٠٥ هـ بدليل ختمه،وبدليل أن كاتب الشونة أفاد بأن الشيخ الأمين قتل في سنة ١٢٠٥ هـ ، فختم بادي نقش في السنة التالية لهذه الحادثة . (الفونج والأرض ص ١٧) ويؤكد في موضع آخر أن بادي هذا كان شيخاً على قرى سنة ١٢٠٩ هـ بدليل وثيقته الصادرة باسمه هذا العام - (ص ٣٩ - ٤٠) - . وهذا كله يعني أن عبد الله بن عجيب حكم عاماً واحداً من سنة ١٢٠٥ هـ التي قتل فيها الشيخ الأمين ، الى سنة ١٢٠٦ هـ حين تولى الشيخ بادي بن مسمار .

ونحن مع أبي سليم في تاريخ مقتل الأمين وتولي ابن عمه عبد الله عجيب في نفس العام ، وهذا ما يؤيده ختم الوثيقة وكاتب الشونة وغيره . بيد أننا نختلف معه في أمر شياخة بادي بن مسمار في العام التالي لشياخة عبد الله أي سنة ١٢٠٦ هـ ، ونستند الى نفس الوثائق التي استند عليها ، فقد وجدنا وثيقة صادرة عن الشيخ عبد الله عجيب سنة ١٢١٣ هـ وأخرى سنة ١٢١٤ هـ مما يفهم معه أن حكم عبد الله عجيب الذي بدأ - بالاتفاق - سنة ١٢٠٥ هـ لم ينته بعد عام واحد ليخلفه بادي مسمار ولكنه استمر على الأقل - حتى سنة ١٢١٤ هـ . وعلى كل حال فان مصادر العبدلاب وقوائم شيوخهم لا تشير الى شيخ فيهم بهذا الاسم . هذا الى أن « ماكايكل » (١/٢٤٥ - ٤٦) رجع - أثناء نقده لقائمة كايو - رأياً نراه وجيهاً قال فيه ان بعض أسماء العبدلاب قد ترد في بعض القوائم ، ولكنها ليست لشيوخ حكموا في الواقع ، ولكنها لأقارب هؤلاء الشيوخ .

يبقى بعدذلك موضوع الروايات التي أشارت إلى عزل الشيخ الامين وتولية أخيه بادي مكانه . وهذه الروايات - على اضطرابها في الشخص الذي عيّن بادي ، إذ تارة تقول : إن بادي ولد رجب ، عزل الامين وولى غيره ، وطوراً تقول ان الذي أحضر بادي بن مسمار وولاه على المشيخة عوضاً عن أخيه ←

الشيخ ناصر ولد الأمين الذي أدرك مدة المرحوم جنتمكان »[1] .

← الامين إنما كان الشيخ ناصر بن محمد، وبين الاثنين زمن ليس باليسير - (راجع كاتب الشونة ص ٢٩ - ٣١ تاريخ مختص بالنوبة ص ١٧ - ١٩ ، تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ١٥ - ١٦) - أقول : هذه الروايات -- مع كل هذا ليس فيها دليل واحد على أن بادي بن مسمار ذهب الى حاضرة العبدلاب « الحلفاية » حاكماً، بل فيها الدليل على أن توليته المزعومة كانت « بوادمدني ».
وليس فيها دليل - مرة أخرى - على أن العبدلاب اعترفوا به شيخاً عليهم ، بل فيها الدليل على خضوعهم للشيخ الامين ، كما أن مصادرهم خالية تماماً من اسم بادي ، وقد نقلنا سابقاً في ترجمة الشيخ الامين ما قاله كروفورد من أنه بالرغم من المحاولة التي جرت لعزل الامين وتولية بادي ، إلا أن الاول كان الحاكم الفعلي والمعترف به في دولة العبدلاب طوال العشرين عاماً التي حكم فيها.

ثم ، ليس في تلك الروايات دليل - آخر الامر - على مقدرة الهمج في تلك الفترة على تجريد الامين من سلطانه ، بل فيها الدليل على مقدرة الامين على قتل الهمج بعد تجريدهم من كل سلطان ... والخلاصة الراجحة لكل ذلك هي :

١ - عدم وجود شخصية من العبدلاب تولت الحكم باسم بادي بن مسمار ، لا بعد الامين ولا بعد عبدالله .

٢ - الشيخ عبدالله الرابع هو خليفة الامين ، وبدأ حكمه سنة ١٢٠٥ هـ، وانتهى بعد سنة ١٢١٤ هـ ، والشيخ ناصر الامين هو خليفته، وليس بينهما أحد.

٣ - توهم البعض مما روته بعض المصادر عن عزل الامين بجعل بادي شيخاً من شيوخ العبدلاب (انظر أبو سليم : الفونج والارض ص ٣٩ - ٤٠).

(١) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ١/١٩ - ٢٠) ، وجنتمكان كلمة تركية معناها ساكن الجنان .

أ - يشير هذا النص ونظائره [1] إلى الزمن الذي تولى فيه الشيخ ناصر زمام الامر في مشيخة العبدلاب وهو سنة ١٢١٥ هـ وإلى الوقت الذي انتهى حكمه فيه بدخول جيش « التركية السابقة » للسودان .

ب - وتدل الوثيقة الصادرة عن الشيخ ناصر سنة ١٢٢٦ هـ - ١٨١١ م على أن حكمه بدأ سنة ١٢٠٤ هـ [2] .

ج - وتتفق قوائم : «أ» « ب » « ج » على أن حكمه بدأ سنة ١٢١٠ هـ ، وانتهى سنة ١٢٣٥ هـ [3] .

بيد أنني أرجح - اعتماداً على الحقائق التي وردت في ترجمة الشيخ عبد الله الرابع ، وبادي بن مسمار - السالفتين - أن ناصر هذا لم يتولّ الشياخة سنة ١٢١٠ هـ ولا سنة ١٢٠٤ هـ كما جاء في « ب ». وإنما تولاها بعد سنة ١٢١٤ هـ كما تشير الى ذلك رواية (أ) التي أثبتناها في صدر ترجمة هذا الشيخ .

٢ - الشيخ ناصر والهمج في سنار :

وبين بداية حكم هـذا الشيخ ونهايته تاريخ طويل ، فقد مكث في الحكم - فيما تذكر كثير من الروايات [4] - خمسة وعشرين عاماً ، شهد خلالها صراعاً غير يسير مع شيوخ الهمج في سنار ، فقد جاء في أخبار سنة ١٢٢٥ هـ

---

(١) انظر مخطوطة كاتب الشونة ص ٤٣ ، تاريخ مختص بالنوبة ص ٢٨ تاريخ ملوك السودان ص ١٣ ، نعوم شقير ٢/٤٠٥ .

(٢) الفونج والأرض ص ١٢٨ - ١٣١ .

(٣) انظر صدر هذا الباب ، وكذلك اللاحق ، وواضح البيان ص ١٨ .

(٤) واضح البيان ص ١٨ ، السودان في رسائل ومدونات مج ١٧ ص ٧٩ ، تاريخ ملوك العبدلاب ص ٢٨ .

أن محمد ولد عدلان ثامن شيوخ الهمج قدم الى جهة السافل قاصداً محاربة الشيخ ناصر الأمين ، ولكن ناصراً لم يشأ - لأسباب مجهولة لدينا - أن يكون بحاضرة ملكه « الحلفاية » بل توجه الى أصدقائه ملوك الجعليين في شندي ، وهي بلاد تعد تحت نفوذه على أي حال . وقد وصل ابن عدلان بالفعل الى الحلفاية يصحبه ملك الفونج الذي جرد من كل سلطان . وبعد اقامة لم تطل رجع الغزاة الى سنار بلا طائل [1] .

ولم تكن أسباب هذه الغزوة معروفة ، إلا أن نعوم شقير [2] عزاها الى فعل أتاه الشيخ ناصر بن الأمين أغضب به شيخ سنار محمد بن عدلان ومكها، وعندما أحس أن جريرته لن تمر بلا عقاب هرب من وجه السلطان .

وقد تكررت هذه الحادثة بصورتها السابقة مرة أخرى عام ١٢٣١ هـ حينما توجه ابن عدلان الى الحلفاية لمحاربة شيخها ، ومرة أخرى كرر الشيخ ناصر فعلته الاولى فغادر الحلفاية الى شندي ، وهنا غضب ابن عدلان فأعلن عزله عن المشيخة وتولية ناصر بن عبد الله مكانه ، ثم قفل راجعاً بعساكره الى سنار . وما لبث أن أعاد النظر في قراره الأول ، فعزل المولى وولى المعزول . اما ناصر ابن الشيخ الأمين فقد عاد - على الأثر - الى « الحلفاية » وأقام بها [3] من جديد .

وإذا كان تعليل « شقير » لزحف الهمج الاول هو ما فعله الشيخ ناصر مغضباً به شيخ الهمج - وهو موضع شك عندنا - فان مصدراً قديماً يذكر ما يفهم منه أن سبب هذا الغزو الأخير ما هو إلا مزاج شخصي لشيخ الهمج

---

(١) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ٢٤ (أ) ، تاريخ مختص بالنوبة ص ٤٠ .

(٢) جغرافية وتاريخ السودان ٢/١٠ ٤ .

(٣) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ٢٥ ، تاريخ مختص بالنوبة ص ٤١ ، نعوم شقير ج ٢ ص ٤١١ .

ولا سبب غيره . نستنتج ذلك من تعبير : « فلما بدا له [1] » الذي جاء في تعليل هذا الزحف . وليس ثمة ما يمنع أن يكون قد بـدا له أيضاً في المرة الاولى دون مبرر معقول .

أما مصادر العبدلان فلا تشير الى شيء من هذه الأحداث هذا وقد جاء اسم ناصر بن الشيخ الأمين هـذا في وثيقتين من وثائق « الفونج والارض » الاولى صادرة عنه سنة ١٢١٥ هـ /١٨٠١م، وفيها يتم ويمضي ما فعله والده الشيخ محمد الأمين من الصدقة الجارية للفقيه محمد بن السيد دوليب ، « وتلك الصدقة ثلاثين عوداً [2] في مرن «الضناقلة» في الجزيرة في الدار التي بيد الشوش »[3].

والثانية صادرة عنـــه أيضاً سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م ، وهي تشير الى تكوينه مجلس قضـاء برئاسته ، للفصل في نزاع وقع بين « الخوجلاب » من جهة و « المحمداب » و « الدانياب » من جهة ثانيـــة حول ملكية بعض الأراضي [4] .

نهاية ملكه وملك العبدلاب :

تقول مصادر العبدلاب عن الشيخ ناصر : « كان رجلاً شجاعــاً صاحب رأي وتدبير ، ومكث بالملك بالحلفاية خمسة وعشرين سنة الى أن كبر وحضر دخول اسماعيل باشا في السودان سنه ١٢٣٥ هـ ، الف ومائتين وخمسة وثلاثين

---

(١) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ٢٥ .

(٢) العود والمرن وحدتا قياس للأرض ، وقد مر تفسيرهما .

(٣) الفونج والأرض ص ٧٥ — ٧٦ .

(٤) المصدر السابق ص ١٢٨ — ١٣١ .

هجرية ، وقابله بالحلفاية [١] ، ثم توجه اسماعيل باشا الى سنار ، وطلب من الشيخ ناصر أن يأخذ معه ابنه الأمين ، وكان الأمين وكيلا لابيه ، فأذن له ، وسار مع اسماعيل باشا الى « سنار » فلما وصلوا توفي الشيخ ناصر بالحلفاية » [٢] ، ثم عاد اسماعيل باشا مع الامين الى الحلفاية بعد استلام سنار ، وأقره في محل أبيه ، وترك معه « سنجقا » وأربعمائة جندي لاحتلال المدينة [٣] .

وقال مؤرخ الفونج : « حتى حل ركاب أفندينا اسماعيل باشا نجل المرحوم محمد علي باشا ، وكان قدومه في آخر شعبان ، ونزل بالغرب قاصداً الحلفاية ، وقابله الشيخ ناصر ولد الامين بالطاعة فأمنه وكساه كسوة فاخرة وتركه في بلده وأخذ معه ابنه الأمين الى سنار » [٤] .

وذكر « كايو » – الذي رافق حملة اسماعيل من دنقلا – أنه كان في الحلفاية حاضرة العبدلاب في اللحظة التاريخية التي تنازل فيها شيخ العبدلاب ناصر بن الامين للأتراك سنة ١٨٢١ م، وكان قد أمضى الليلة السابقة للتنازل في بيت شيخ العبدلاب [٥] .

---

(١) هنا تضيف : السودان في رسائل مج ١٧ ص ٨٠ ، تاريخ ملوك العبدلاب ص ٢٨ عبارة : «وقد رأى أنه لا فائدة من المقاومة » .

(٢) واضح البيان ص ١٨ – ١٩ وانظر : السودان في رسائل مج ١٧ ص ٧٩ – ٨٠ تاريخ ملوك العبدلاب ص ٥٨ .

(٣) واضح البيان ص ١٨ – ١٩ ، السودان في رسائل ومدونات مج ١٧ ص ٧٩ – ٨٠ تاريخ ملوك العبدلاب ص ٢٨ .

(٤) تاريخ مختص بالنوبة (ص ٤٥) . وانظر : تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ٢٧/أ – ٢٨) .

(٥) Cailliaud, vol. 11, 194 - 195,

ومهما يكن من شيء فانه مـــا كاد يحل شهر رمضان المعظم من سنة : (١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ ، ١٨٢١) حتى كانت عاصمة العبدلاب تحت حكم أجنبي عرف في تاريخ السودان – الى اليوم – « بالتركية السابقة » ، وسقط بذلك « الاتحاد السناري » بشقيه الفونج والعبدلاب ، بعد حكم وطني دام أكثر من ثلاثة قرون . وبذلـــك انطوت صفحة من تاريخ السودان باهرة ، أكدت إسلامه وعروبته : ديناً ولغة وفكراً ، ووضعت الاساس المتين لسودان اليوم .

الباب الرابع

نظم الحكم والادارة

الفصل الأول

النظام السياسي والاداري والمالي والحربي

١ ـ النظام السياسي

أ ـ الشياخة :

يمكن أن يقال بوجه عام إن حكومة العبدلاب كانت على مثال الحكومات الاسلامية في صدر الاسلام [١] ولكن العبدلاب بالرغم من ذلك لم يضفوا على رئيس دولتهم لقب «الخليفة» كما كان الحال عليه في عصور الراشدين والأمويين والعباسيين والأتراك العثمانيين ولم يأخذوا أيضاً ألقاب رؤساء دولة سبقتهم وتحالفت معهم وهي مملكة الفونج التي اختارت لقب المك [٢] بل اصطفوا لقباً عربياً خالصاً هو « الشيخ » وأطلقوه على رئاسة دولتهم . أما المبادىء الأساسية التي قام عليها نظامهم السياسي فقد أشار اليها ابن الشريف الفحل حين قال في ترجمة الشيخ عجيب المانجلك : « ولي الملك والخلافة بعد أبيه باتفاق اخوانه وعشيرته ، وأهل العقد والحل من المسلمين » [٣] .

وتقول روايات العبدلاب : أما ترشيح الشيخ الجديد فيتم عندما يكون الشيخ القائم ميؤوساً من شفائه ، وتشترك في الترشيح والمبايعة جميع القبائل

---

(١) محمد مهدي كركوري ؛ رحلة مصر والسودان ص ٣٣٣ .

(٢) « مك » لهجة دارجة في كلمة : « ملك » .

(٣) ابن الحاج حسن الشريف الفحل : نسب العبدلاب ص ٦١٥ – ٦١٦ ، دار الوثائق المركزية ١/١٦/١٨٤ ، وانظر : سليجمان : السلالات البشرية في افريقية ترجمة يوسف خليل ص ٢٠٨ ، ونسبة الشيخ علي محمد ملف (أ) ص ٢١٢ دار الوثائق المركزية ١٠/١٦/١٨٤ .

الخاضعة للعبدلاب غير أن الشيخ - بالرغم من ذلك يتحتم أن يكون من العبدلاب ومن أولاد الشيخ عجيب على الخصوص ولا تشترط أكثر الروايات - بعد اتفاقها على وراثية العرش - أن يكون أكبرهم بل أصلحهم للحكم وأقدرهم عليه . ولا يحق للشيخ القائم أن يوصي بالشياخة لمن شاء ليخلفه بعد وفاته [1] .

نتبين من ذلك أن النظام السياسي الذي انتهجه العبدلاب - فيما يتعلق بتعيين الشيخ : رئيس الدولة - كان يرتكز على مبدأين أساسيين :

أولهما - مبدأ الشورى: فقد كان الشيخ يختار باتفاق أفراد البيت المالك أولاً ، ثم أهل الحل والعقد من المسلمين ، ثم العامة من القبائل العربية التي تحت حكم العبدلاب .

ثانيهما - مبدأ وراثة العرش : فقد رأينا أن النظام السياسي للمشيخة يقضي بحصر الشياخة في قبيلة العبدلاب دون سائر القبائل العربية التي تشاركها الاقامة في الدار ، وفي نسل الشيخ عجيب المانجلك بالذات . يدل على ذلك - مضافاً الى ما سبق - قول أحد أحفاد العبدلاب في ترجمة الشيخ عجيب : « ولم تزل الخلافة في ذريته الى الآن ، وهم القادات ولهم السيادة على غيرهم »[2] ، كما أن قوائم شيوخ العبدلاب وحدها تنهض شاهداً لا يعتريه شك على صحة ذلك .

وفي تقرير هذه الحقيقة دلالة على أن النظام السياسي للمشيخة كان يستمد أصوله وتنظيماته من شريعة الاسلام ومبادئها ، ذلك لأن مبدأ الشورى في

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية ص ٨٨ .

(٢) نسب العبدلاب ص ٦١٥ - ٦١٦ ، دار الوثائق ١٨٤/١٦/١ ، وانظر : السلالات البشرية في افريقية ص ٢٠٨ .

مهام الأمور قد نص عليه القرآن الكريم في غير ما آية ، فقد جاء في سورة آل عمران قوله تعالى : « وشاورهم في الأمر »[1] . كما جاء في سورة جعلت الشورى عنواناً لها قوله جل من قائل : « وأمرهم شورى بينهم »[2] وقد انتقل مبدأ الشورى من مرحلة النظرية الى التطبيق طوال عهد الرسول ، وعلى عهد الراشدين، بنسب متفاوتة حسب متطلبات الأحوال والظروف[3] .

أما انتقال السلطة من الآباء الى الأبناء ، أو وراثة العرش الذي رأيناه في النظام السياسي لدولة العبدلاب فهو – في الحق – نظام ملكي بدأ في الدولة الاسلامية على عهد معاوية كما هو معلوم ، غير أن انحصار الشياخة في قبيلة واحدة من قبائل العرب – كما هو الحال هنا – له نظير في نظام الاسلام ، فمما هو معلوم بالتواتر أن مؤتمر سقيفة بني ساعدة الذي انعقد بعيد وفاة الرسول ﷺ أيد وجهة نظر المهاجرين كما عرضها ابو بكر الصديق ، وقد قضت بضرورة انحصار الخلافة في قريش دون سائر العرب . ويروى أن الصديق التمس لتأييد وجهة نظره دليلاً شرعياً ، فتلى على المجتمعين حديثاً شريفاً معناه : الأئمة من قريش .[4] وتؤيد وقائع التاريخ الاسلامي أن هذا المبدأ هو الذي كتب له أن يسود ، وأن ينقل – كما أشرنا – من طور النظرية الى التطبيق .

وليس بمستغرب – على أية حال – أن يتشبث العبدلاب بنظام الاسلام ،

---

(١) جزء الآية (١٥٩) . والآية بتمامها هي : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » .

(٢) جزء الآية (٣٨) من سورة الشورى ، وهي بتمامها : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » .

(٣) انظر البلاذري : أنساب الاشراف ، ج ١ ص ٥٨١ – ٥٨٢ .

(٤) نفس المرجع والصفحات .

فالدول التي ألهمت مشيختهم مبادئــه ، وأرشدتها إليه – سواء أكانت في جزيرة العرب أو في مصر أو العراق أو الشام – تحكم بنظم الخلافة الاسلامية – وان اختلفت أنماطها – تحت قيادة العثمانيين الأتراك . وهذا تحول خطير أحدثته المشيخة في نظم الحكم السابقة التي كانت سائدة من قبل ، والتي كان من أبرز سماتها انتقال السلطة الى ابن الأخت أو ابن البنت ، وفق ما كانت تقضي به نظم الحكم في مملكة علوة المسيحية على ما سبق بيانه [1] .

غير أن هناك أمراً مهماً في النظم السياسية للدول لم تتحدث عنه مصادر هذه الفترة بالنسبة لدولة العبدلاب وهو نظام ولاية العهد ، الذي استحدثه الأمويون ، وتبعهم العباسيون ومن أتى بعدهم فيه . ولكننا نرجح – استناداً الى روايات العبدلاب السماعية التي ذكرت أنه لم يكن من حق الشيخ القائم أن يوصي بالعرش لأحد [2] – أن العبدلاب ما كانوا يأخذون بنظام العهد بالشياخة لابن الشيخ أو أخيه أو غيرهما حال حياة الشيخ. بيد أننا لا نحسب أن يكون مرد ذلك الى إدراكهم لعيوب هذا النظام ، وما قد ينتج بسببه من ثورات وفتن في البيت الحاكم ، ثم تصدع وانهيار لأركان النظام وقواعده، ولكنه – في أكبر الظن – يعود الى احترام الجميع للقاعدة التي ارتضوها في أن تسند الشياخة بالتشاور الى أكفأ أولاد الشيخ عجيب وأحفاده ، دون حاجة الى عهد بها لأحد . فكأن مقومات الشيخ الناجح في نظام العبدلاب السياسي : كونه من أبناء أو أحفاد الشيخ عجيب الكبير ، واقتناع أسرته بأهليته لقيادة الأمة [3].

١) مراسيم تقليد الشياخة :

ان أول مراسيم التقليد تبدأ باجتماع رأي الأسرة المالكة على شخص معين

---

(١) راجع الصحائف الأخيرة من التمهيد .

(٢) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٨٨ .

(٣) انظر : المصدر السابق والصفحة .

من أبناء الشيخ عجيب الكبير ليتولى الشياخة ، وباقرار هذا الاختيار من العامة ، ثم يؤتى بالشيخ ويجلسه أهله على (الككر) وهو كرسيّ على شكل خوان أو مائدة ، ويتقدم أكبر أفراد الأسرة ليضع على رأسه الطاقية ذات القرنين التي تصنع من الخيط عادة وتحشى بالقطن ، وتقرب في شكلها من الخوذة ، وهي طاقية كانت تعطى في الأصل لأصحاب الولاية الدينية ، ثم أصبحت من شارات الملك .

كذلك يقلد الشيخ – بالاضافة الى الطاقية – عقد الهيكلي الذي يقال إن العبدلاب غنموه من ملوك العنج وكان من شارات ملكهم ، وهو يتكون من فصوص الدر والياقوت ، وموضعه من الشيخ العنق . ويبدو أنهم كانوا يحلقون له الشعر إشارة الى « قرن » عبدالله جماع من الشعر الذي اكتسب به لقب « القرين » .

وبعد أن يفرغ من مراسم التتويج تبدأ مراسم التبريك، فيركع الناس أمام الشيخ للتحية والولاء وإعلان إسناد أمرهم اليه ، وذلك بأن يقف المهنىء بين يدي الشيخ وقد حزم وسطه بثوبه كناية عن استعداده للحرب مع الشيخ إن دعا الداعي ، ثم يأذن الشيخ للمهنىء بالجلوس على البسط . هذا بالنسبة للحر، أما العبد فإنه يقف خارجاً ويقول : « جاز » أي كلب . وتكشف المرأة رأسها عند دخولها على الشيخ مهنئة ومحيية له .

ثم يبدأ احتفال آخر تشترك فيه زمر من الخيل راقصة على ضربات النحاس ودقات الطبول، وعليها فرسانها يهللون، وتزغرد النساء للشيخ خارجاً وداخلاً . وفي هذا اليوم يكلل الشيخ موضع حفاوة وتكريم من الجميع. وبعد أن تبقى شارات الملك على رأسه ساعة تؤخذ لتوضع في مكانها حيث تحفظ ، ولا يلبسها بعد ذلك إلا شيخ جديد [1] . ومما تجدر ملاحظته أن منصب

---

(١) انظر التفاصيل الوافية لذلك في : تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم صفحات : ٧٤ ، ٨٧ – ٨٨ ، وكذلك نسبة الشيخ على محمد ، دار الوثائق متنوعات ١/١٦/١٨٤ .

الشياخة ليس أبدياً ، بل إن بقـــاء الشيخ فيه مرهون بصلاحه وسلوكه جادة الطريق، فإن فسد أو لم يظهر أهلية للحكم عزلوه [١]، وقد حدث ذلك عدة مرات .

ويظهر أن طقوس التعيين هـذه كانت أثراً من آثار أنظمة الحكم السابقة لقيام مشيخة العبدلاب في السودان ، وأخذت صورتها النهائية مما كان يجري عليه العمل في بلاط ملوك الفونج في سنار .

هذا الذي ذكرناه عن تقاليد تعيين شيخ العبدلاب هو ما تقول به مصادر العبدلاب. وهناك رأي آخر مبنيّ على تصور معين للعلاقة السياسية التي كانت سائدة بين العبدلاب والفونج – نوجزه فيما يلي :

يقول نعوم شقير [٢] : « وكانوا إذا توفي شيخهم اختاروا شيخـاً آخر وأخذوه الى ملك سنار فيؤيده لهم ».

ويقول مكي شبيكة : « نجل وما العبدلاب يختاره ملك سنار من بين ذرية مؤسس الأسرة عبدالله جمـاع ليكون وكيلاً الملك على المنطقة التي تمتد من أربجي شمالاً الى الحدود المصرية »[٣].

فالظاهر من هذين النصين أن مراسم التعيين كانت تجري في سنار عاصمة الفونج على يد ملوكها ، وذلك بعد أن يرشح الشيخ من قبل أسرة العبدلاب.

غير أن كلا النصين يفتقر الى دليل . ومما ينقضهما :

أ – لم يرد في مصدر واحد من مصادر العبدلاب المدونـة ، ولا رواياتهم

---

(١) نفس المرجع ص ٨٨ .

(٢) جغرافية وتاريخ السودان ج ٢ ص ١٩ ٤ .

(٣) مملكة الفونج الاسلامية ص ٨١ – ٨٢ .

السماعية مـــا يشير الى أن شيخاً من شيوخهم ولي الأمر باذن من السلطان السناري أو بتقليد منه .

ب – لم يرد في المصادر السودانية القديمة – لغير العبدلاب – فيما أعـــلم نص واحـــد يصلح أن يكون أساساً يعتمد عليه في استنتاج خضوع شيوخ العبدلاب – عند توليهم عرش أجدادهم – لسلاطين الفونج ، فـيما عدا اشارة واحدة جاءت في طبقات ود ضيف الله تقول : « وفي أوائل النصف الثـاني من القرن العاشر ولى الملك عمارة أبو سكيكين الشيخ عجيب المانجلك» [١] .

والراجح أن المؤلف اخترع هذه الواقعة ليتكىء عليها عند الحديث على قتال « كركوج » الذي وقع بين الشيخ عجيب هذا وبـــين سلطان الفونج عدلان ولد آياء وقتل فيه الأول . هذا على المدى البعيد . أمـــا على المدى القريب فلكي يرتب على النص على شياخة عجيب قدوم بعض علمـاء الاسلام الى السودان في عهده كما سبق أن ذكرنا . وفوق هذا فان هذه الرواية لم تشر الى كيفية التولية ولا إلى مكانها خلافاً لما جاء في نص « شقير » و « شبيكة » السابقين .

جـ – ثم ان الرحالة « كرمب » الذي قضى عاماً كاملاً على أرض مملكة الفونج مقيماً في سنار ، وزار قرى لعلاج شيخها وبقي فيها أشهراً ثلاثـة أو أكثر ، ووصف في رحلته التي حفظها لنا « كروفورد » [٢] كل ما وقـــع تحت بصره أو ترامى الى سمعه من مراسيم تقليد السلطنة في سنار، الى مراسيم تقليد الشيوخ الذين هم دون شيوخ العبدلاب ويخضعون لهـــم في أمر توليتهم وغيرها ، بل وصف محكمة المانجل « العبدلابي » ، واستقبالاتـه ، وزيارات

---

(١) ص ٥ .

(٢) في : « مملكة الفونج في سنار » (بالانجليزية) .

الناس له ، ومائدة طعامه واستقبال ملوك سنار له ، الى غير ذلك مما أدركته حواسه [١] - لم يشر - من بعيد أو قريب - الى أن مراسيم من نوع ما كانت تجري في سنار على أيدي سلاطين الفونج يتولى شيوخ العبدلاب بموجبها الشياخة ، ويدل هذا السكوت - بلا شك - على عدم مشاهدة هذا الرحالة أو سماعه لشيء من هذا القبيل ، والا كيف يمكن أن يشاهد أمراً عظيماً كهذا ، في ذكره رفع لشأن ملوك سنار الذين آووه عاماً كاملاً ثم لا يسجله في رحلاته ، وهو الرجل الذي سجل تفاصيل كثيرة مما يقل شأنها عن مراسيم تولية ملوك الفونج لشيوخ العبدلاب .

فتنصيب شيخ من العبدلاب على دولتهم اذن كان - في الأرجح - أمراً داخلياً يقوم به البيت الحاكم في « قرى » أولاً ، وفي « الحلفاية » بعد ذلك كما قدمنا مفصلاً قبل قليل .

أما تأويل بعض الاشارات التي توحي بتقليد شياخة العبدلاب من قبل ملوك الفونج في سنار فلا يخرج - في الأغلب - عن « رضاء » هؤلاء الملوك ومسالمتهم لهذا الشيخ أو ذاك من شيوخ العبدلاب ، في نطاق ما بين الحكومتين من « وفاق ودي » قام عليه حكمها ، ونظمت بمقتضاه العلاقة بين الدولتين على ما سبق تفصيله .

وبعد أن يتم تنصيب شيخ العبدلاب على هذا النحو أو ذاك يشرع في مباشرة صلاحياته التي بيناها في موضعها من هذا البحث [٢] .

---

(١) See - The Fung Kingdom of Sennar, pp. 219 - 222.

(٢) انظر : الفصل الثاني من الباب الثاني .

٢ – تقاليد بلاط شيوخ العبدلاب :

وصف « كرمب » بلاط العبدلاب وتقاليده عندما زار «قرى» حاضرتهم سنة ١٧٠١ م فقال : وسرنا نحو قصر الشيخ الذي وقف أمامه أربعة من المغاربة يدقون الطبول التي كان كل منها يعطي نغماً خاصاً ، وكان شخص آخر ينفخ في بوق طويل منحن . ومضينا الى بوابتي القصر حيث وجدنا الشيخ جالساً على عرشه الذي يتكون من شرفة عالية (مسطبة) طولها ٢٠ × ١٦ قدم ، تكسوها حشية من القش ، وهي ذات ألوان زاهية جميلة . وحولها جلس أربعون من المغاربة يرتدون ثياباً من الحرير . وهم ليسوا مجلس شورى للشيخ ، ولا تعرف يقيناً صفتهم [١] .

أما الشيخ نفسه فكان يرتدي قميصاً من الحرير الأحمر والأزرق ، بيد أنه – وإن كان طويلاً سابغاً الى القدمين – لا أكام له . وحول خصر الشيخ – على هذا القميص – حزام من الحرير الأزرق والأبيض ، وكان يضع طاقية من حرير ذي ألوان متعددة ، مزينة بالذهب والفضة ، وهناك أيضاً نحو خمسين من الأرقاء مسلحين بالحراب [٢] .

ان هذا الوصف يدل على أن « شياخة العبدلاب » كانت تمتاز بمظاهر العظمة والأبهة وان كانت بسيطة في جوهرها ، وتسعى الى خلق نوع من الهيبة والتقديس للحكم في نفوس الرعية .

ومن تقاليد بلاط العبدلاب استقبالات شيوخهم . ويفهم من وصف « كرمب » لهذه الاستقبالات أنها كانت ذات طابعين متمايزين : مقابلات

---

(١) The Fung Kingdm of Sennar, pp, 221 - 2.

(٢) Ibid. pp. 221 - 2.

رسمية ، ولها مراسيمها الخاصة ، وتجري عادة في الصباح . وأخرى عادية ، وتتم عادة في المساء .

١ – **من النوع الاول** : ما جرى له شخصيـــاً ، ولرسول ملك سنار عندما قدما « قرى » ، وذلـــك حين حمله ملك سنار قسراً على الذهاب الى بلاط العبدلاب لمعالجة شيخه ، واضطر الى البقاء فيه أكثر من ثلاثة شهور :

دخل « كرمب » – وفي معيته مندوب ملـــك سنار الذي كان يحمل رسالة منه لشيخ قرى – في صباح الثاني والعشرين من يوليو سنة ١٧٠١ م حاضرة العبدلاب ، وما أن وطئت قدماهما أرض قرى حتى علت أصوات النساء بالزغاريد ترحيباً بالقادمين وفق الأعراف المرعية في مثل هذه الأحوال. ثم وصلا الى ما أسماه « كرمب » « قصر المانجل » ، وهناك وعلى دكـــة مرتفعة مغطاة ببساط زاه من سعف النخيل منسق الألوان كان الشيخ جالساً في انتظار القادمين وحوله رجال يضربون النحاس ، كذلك يحيط به رجـــال مدججون بأردية من الحرير الخفيف. هنا قدم رسول الملك رسالته الى الشيخ ، فوضعها على رأسه مبالغة في التكريم ، ثم دفعها الى كاتبه مشيراً بفضهـــا وقراءتها على الجميع. فلما انتهى الكاتب من قراءة رسالة السلطان سجد الشيخ واقتدى به الآخرون حتى لامست جباههم الأرض عدة مرات، (ولم يشارك « كرمب » في اداء هذه الطقوس) ، ثم قدمت القهوة [١] .

٢ – **ومن النوع الثاني** : ما شاهده « كرمب » ذات مساء في قرى – أثناء اقامته هناك – حين قدم جمع من الأهالي لزيارة الشيخ ، فقد رأى رجلاً يحمل عصاً طويلة ويتقدم الزائرين الذين اصطفوا وراءه الواحد بعد الآخر – يتقدمهم الى حيث كان يجلس الشيخ من قصره ، فلمـــا انتهوا

---

(١) The Fung Kingdom of Sennar. pp. 221 - 2.

الى مجلسه للسلام خاطبه كل واحد منهم بقوله : « يا مانجل أنا فلان » ، فرد الشيخ على التحيـــة بتكرار الاسم المذكور . وهكذا حتى تنتهي زيارة الجميع ، ثم يؤذن لهم بالجلوس على الارض إلا العلماء فإنهم يجلسون على فرش [١] . وطوال إجراء هذه المراسم كانت الطبول الحربية تدق باستمرار.

وكان « كرمب » نفسه يشترك في هذه المراسم كل مساء ، فيتقدم واضعاً يده فوق صدره (قلبه) قائلاً : مانجل ، فيرد عليه شيخ العبدلاب: حكيم. ثم تختم مراسم الاستقبال بإقامـــة عرض عسكري للجنود ، يقومون خلاله بتمثيل موقعـة صورية ، يستخدم فيها من أدوات الحرب السيف والعصا . ويظل الحال على ذلك مـا بين الربـع والنصف من الساعة ، ينصرف بعدها الجميع الى حيث يقيمون [٢].

ب ـ الوكالة :

لم تعرف دولة العبدلاب نظام الوزارة ، ولكنها أخذت – بدلاً عنه – بنظـــام الوكالة . ويبدو أن وظيفة الوكيل كانت تعني في النظام السياسي لمشيخة العبدلاب – نائب رئيس الدولة: يقوم مقام الشيخ في غيابه عن حاضرة ملكه ، ويعاونه في أمور توكل إليـه في حضوره . يدل على ذلك قول ابن شاور : « الى ذلك الوقت كان الشيخ عبدالله « شيخ العبدلاب » بجهة الصبح، ووكيله الارباب علي ولد بادي . ولما علم بذلك (بغارات شنهـا أعداء شيخ العبدلاب) لحقهم بشرع « أبو صلين » قريباً من حلة العيلفون » [٣] . ففي هذا النص من الدلالات ما يأتي :

---

(١) واضح البيان ص ٩ ، وانظر : نعوم شقير ٢/١٩٤ .

The Fung Kingdom of Sennar p. 222. (٢)

(٣) واضح البيان ص ١٦ .

١ - كان تعيين وكيل لشيخ العبدلاب يدخل في الاطـــار العام للنظام السياسي في المشيخة .

٢ - مهمة الوكيل في غياب الشيخ مباشرة سلطاته كاملة ، وفي مقدمتها صون أمن الدولة ، ورد غارات المعتدين .

وترد وظيفة الوكيل كثيراً في وثائق « الفونج والارض » ، فقد جاء في الوثيقـة السابعة [١] - ضمن الشهود الذين حضروا صدقة الشيخ محمد الأمين مسمار على ولد دوليب بقطعة أرض - قوله: « ... وأولاد الشيخ محمدالأمين: الوكيل الأرباب عبد الله) . كذلك يشير الوزير الشيخ ناصر بن محمـــد أبي لكيلك في كتاب وجهه الى الشيخ [٢] بادي بن مسمار الى الوكلاء بما يفهم منه أنهم في المرتبة التي تلي شيخ العبدلاب [٣].

ومن الوكلاء الذين أمكن رصدهم في وثائق « الفونج والارض » غير من سبق ذكرهم :

١ - **الوكيل ضياب ولد بادى** : فقد ورد اسمه متبوعاً بلقبه الوظيفي في الوثيقة الصادرة سنة أربعـة عشر بعد المائتين والألف [٤] والوثيقة الصادرة سنة ثلاثة عشر ومائتين وألف هجرية [٥].

٢ - **الوكيل عبدالله بن الشيخ عمر** ، فقد جاء بلقبه شاهداً في الوثيقتين السابقتين .

---

(١) الفونج والأرض صفحة ٧٣ .
(٢) بينا في الفصل الثالث من الباب الثالث رأينا في شياخة بادي بن مسمار .
(٣) الوثيقة التاسعة من المصدر نفسه ، انظر صفحتي ٧٧ - ٧٨ .
(٤) الفونج والأرض صفحة ١٢٦ ، ١٣٢ - ١٣٣ ، الوثيقة رقم ٢٤ .
(٥) نفس المصدر صفحة ١٣٢ - ١٣٣ ، الوثيقة رقم ٢٦ .

٣ - **الوكيل أحمد بن المبارك** ، يرد اسمه مسبوقاً بلقب« وكيل الحلفاية » في الوثيقــة الخامسة والعشرين الصادرة سنة ست وعشرين ومائتين وألف من الهجرة [١] .

٤ - **الوكيل الارباب مسمار** . وقد ذكرته الوثيقتان السابقتان شاهداً ، متبوعاً بلقب « وكيل قرى » [٢] .

٥ - **ناصر بن عبدالله** . ذكرت رواية للعبدلاب أن الشيخ ناصر بن الأمين اتخذه وكيلاً له ، ومندوباً عنه [٣] .

٦ - **الامين بن الشيخ ناصر** . جاء في مخطوطة ابن شاور أن الشيخ ناصر آخر شيوخ العبدلاب عين - في أخريات أيامه - ابنه الأمين وكيلاً له في حكم الحلفاية ، لأنه لم يعد من الكبر قادراً على ممارسة الحكم فيها [٤] .

وعلق الدكتور أبو سليم بقوله : « ويبدو أنه قــد صار لشيخ قرى وكيلان ينوبان عنه ، أحدهما في قرى ، والثاني في الحلفاية » [٥] .

هذا ولم تقدم لنا الوثائق ولا المصادر الأخرى افادات تساعد على معرفـة مراسيم تعيين هذا الوكيل .

ونعتقد أن نظام الوكالة هذا أخذته مشيخة العبدلاب عن حليفتها مملكة الفونج ، فقد كان ابراهيم بن محمد ابو لكيلك وكيلا لأخيـه الشيخ رجب في سنار حين كان هو يقيم في كردفان [٦] . وكان محمد بن الشيخ رجب وكيـلا لشيخ الهمج : ادريس في سنار عندما سافر الأخـير الى مشيخة خشم البحر لحرب شيخها [٧] .

---

(١) نفس المصدر صفحة ١٢٩ - ١٣١ .

(٢) نفس المصدر والصفحات .

(٣) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم صفحة ٧٥ - ٧٦ .

(٤) واضح البيان صفحة ١٩ .

(٥) الفونج والأرض ص ٥٥ . وقد سبقت الاشارة الى أن أبا سليم هو محقق وثائق المصدر.

(٦) مخطوطة كاتب الشونة صفحة ٣٢ .

(٧) نفس المصدر صفحة ٤٢ - ٤٣ .

٢ ـ النظام الاداري

بني النظام الإداري لدولة العبدلاب على قواعد مستوحاة من اتساع الرقعة التي يمتد عليها سلطان العبدلاب . ومن الواقـع الحضاري لمجتمع العصور الوسطى . ثم من الظواهر الجغرافية التي تحكم البلاد . ويمكن أن نستخلص من المعلومات القليلة التي توفرت حـتى الآن الدعائم الأساسية التي قامت عليها ادارة البلاد في عهد مشيخة العبدلاب ، وما يؤديه كل جهاز في ادارة دفة الحكم من دور .

أ ـ الولاية على الاقاليم :

١ ـ نوعا الشياخة :

يفرق الشاطر بصيلي [١] بين نوعين من الشياخة كوحدة ادارية تحت حكم العبدلاب :

النوع الاول : « شيخ الدار » أو « الملك » أو « شيخ المشايخ » . واليه يرجع تدبير الأمر ، وتسيير دفة الحكم في المدينة ، صغيرة كانت أم كبيرة ، في نطاق الاطار العام للسياسة التي وضعتها وتضعها السلطة المركزية في «قرى» أو الحلفاية ، دون التقيد بتفاصيل هذه السياسة ، ولكن وفق قواعد عامة

(١) معالم تاريخ سودان وادي النيل صفحة ١١٠ ــ ١١١ .

تعرض لها في موضعها من هذا البحث .

النوع الثاني : « الشيخ » أو شيخ القبيلة ، وهو المسؤول عن تدبير شؤون القرية التي تعرف في السودان « بالحلة » أحياناً . وتركيبها السكاني يتألف إما من أسرة واحدة عديد أفرادها ، أو من مجموعة أسرات تنتمي الى قبيلة ، ويتكون سكانها – في أكثر الأحيان – من بطون قبائل متآلفة ، « مع من دخل في كنفها من السكان المحليين . ويتولى شؤون القرية زعيم يعرف بالشيخ ، وفي بعض الحالات بالأرباب [١] اذا كانت له بالبيت الحاكم (صلة) [٢] » . وقد تشمل القرية أيضاً عدداً من « الحلال » المنتشرة هنا وهناك [٣] .

ولا تختلف الأسس التي يقوم عليها الحكم في المدينة عما هي عليه في القرية ، ولكن تركيبها السكاني (المورفولوجي) هو موضع الاختلاف . فعلى حين تتألف القرى مما أبنا تسيطر المدينة الصغيرة على مجموعة من هذه القرى بتكوينها السكاني الآنف الذكر . وتضم المدينة الكبرى عدداً من المدن الصغيرة وما يتبعها من قرى وحلال . وعلى حين « يتولى شؤون القرية زعيم يعرف « بالشيخ » يتولى شؤون هذه الوحدة الكبرى « زعيم الدار » ، « ويحمل لقب مانجل » [٤] وينادى بالأرباب . وولاية السلطة للشيخ والملك والمانجل وراثية ، يتبادلها الزعيم وأقاربه ، او من ينتمون إليه » [٥] .

---

(١) تطلق كلمة « الارباب » على أفراد الأسرة الحاكمة ، وقد تستعمل مع لفظ « الملك » والمانجل للتكريم الرفيع كما سيأتي في المتن ،

(٢) المرجع السابق والصفحات . وكلمة « صلة » أضفتها من عندي لان السياق يقتضيها .

(٣) نفس المصدر والصفحات .

(٤) وأحياناً « مك » أو « شيخ المشايخ » . وسبق ان قلنا ان « مك » لغة دارجة في « ملك » . أما مانجل فهو لقب تعظيم .

(٥) معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ١١٠ – ١١١ وانظر : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ٢٠٥ . وكذلك : السلالات البشرية في افريقية ص ٢٠٨ .

وقد لخص الشاطر بصيلي التحول الاداري الذي حدث للسودان على عهد مشيخة العبدلاب – في الجمل التالية :

« .... فقد تولى شيخ القبيلة الحكم في مجموعته القبلية ومن سكن معها في دارها من العشائر المتحالفة ، وصار الحكم وراثياً في بيت الشيخ ، وتكونت من مجموعات القبائل بحكم الرقعة الاقليمية التي اتخذتها دياراً لها – زعامات اقليمية تولاها « شيخ المشائخ » الذي يكون عادة شيخ أقوى قبيلة في المجموعة . وقد عرف هذا اللقب في عهد السلطنة السنارية [معاصرة لمشيخة العبدلاب] باسم « الملك » أو « المانجل » وتستعمل كلمة « أرباب » مع هذين اللقبين للتكريم الرفيع ، وتطلق « أرباب » على أفراد الأسرات المالكة » [١] .

٢ – شروط الاهلية للشياخة أو المكوكية :

من أهم هذه الشروط :

١ – أن يكون الشخص على علم تام بتقاليد قبيلته والقبائل الأخرى المجاورة لها في الدار .

٢ – أن يكون حافظاً للأنساب العربية .

٣ – أن يكون كريماً مضيافاً ، يأوي الغرباء الذين ينزلون دار القبيلة .

٤ – أن يكون مستعداً لأن يأخذ على عاتقه مسؤولية ما قد يحدث في حدود الدار من حوادث ، فيدفع التعويض ، ودية الدم . وفي مقابل هذا ينال حق جباية الخراج عن الملكيات والاحتفاظ بجزء منه ومن المال لنفسه [٢] .

---

(١) معالم تاريخ سودان ص ٦١ – ٦٢ .

(٢) راجع ذلك مفصلاً في : معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٦٢ ، وتاريخ السودان من أقدم العصور الى الآن ص ٥٠ ، والفونج والأرض ص ٣٤ .

٣ – مراسيم تعيين الملك والشيخ :

وصف الرحالة « كرمب » مراسيم تعيين أحد شيوخ القرى التابعة لمشيخة العبدلاب من واقع مشاهداته لحفل تتويج صدف أن أقيم عند زيارته لعاصمة العبدلاب « قرى » فقال :[١]

« جيء بالشيخ المرشح لحضرة شيخ العبدلاب في قرى حيث استمع الى بعض الأدعية التي تلاها بعض الفقهاء، وبعد أن استمع الى خطاب عددت فيه خدماته قدم له الشيخ قميصاً حريرياً وحزاماً وعمامة « أو ملفحة » ، وسلمه سيفاً رمز به لولاية السلطة ، وعلى أثر ذلك خر الشيخ المعين ساجداً حسب الطريقة المعتادة في مثل هذه الاحوال ، ومس الارض بجبينه نحو ثلاثين مرة، إشعاراً بخضوعه وولائه ، وإذ ما ينهض من سجود الشكر والولاء يتقدم اليه الحاضرون للتهنئة والتحية ، ثم ينهض الشيخ وبيده سيفه الذي قلد به ليرقص تعبيراً عن سروره ، ويغني مطرياً شيخ العبدلاب[٢] .

بيد أن نعوم شقير[٣] – حين عرض لهذه المراسم – أورد أخبارها ، وشكل صورتها على نحو تقتضي مغايرته لما سبق إيراده ، وهو كما يلي : « ... كما كان مشائخ العبدلاب يؤيدون المشايخ والملوك الذين هم دونهم وتحت سيادتهم ، وذلك أنه كان إذا مات لهؤلاء ملك اجتمع أهل قبيلته واختاروا لهم ملكاً يولونه عليهم ، وأتوا به الى الشيخ ، فيحلق الشيخ له رأسه ، ويلبسه طاقية ذات قرنين محشوة قطناً،ويجلسه على كرسي يعرف«بالككر»، ثم يخاطبه بلقب « مك » أي ملك ، ويقول له : « مبارك عليك » ، فيقبل

---

(١) The Fung Kingdom of Sennar, p. 222.

(٢) See, olso. Trimingham, Islam in the Sudan, pp. 86 - 88. and Jackson, Tooth of Fire, pp. 92 - 95.

(٣) جغرافية وتاريخ السودان ج ٢ ص ٤١٩ – ٤٢٠ .

الملك يده ، ويدعو له بخير ، فيأمر الشيخ بضرب النحاس إشهاراً لتأييده ملكاً على أهله ، وعند ذلك يتقدم أهله فيسلمون عليه بالاحترام الذي سلم به على الشيخ ، ويخاطبونه بلقب « أرباب » ثم يقولون : « جعلك الله مباركاً علينا ... ولتعمر البلاد بك ، وتكثر الخيرات على يدك » . فيقول لهم : « الله يعمركم ويخليكم ، أنا بكم مش بلاكم » . ثم يعود الى قومه بالطاقية والككر اللذين أنعم بهما الشيخ عليه ، حتى إذا ما خرج الى الحكم لبس الطاقية وجلس على الككر . وبذلك يقال للقوم الذين يرأسهم ملك بأنهم أهل طاقية وككر » .

وبالمقارنة نلاحظ أن صورة نعوم شقير لتقليد الشيخ المحلي أكثر تفصيلا ، وأقرب الى واقع حياة السودان في العصور الوسطى، ولكنها – بعد ذلك – تفتقر الى دليل . ولا يكفي لقبولها أن يقول « شقير » إنه اعتمد في تاريخه على بعض المخطوطات والرحلات وروايات أهل السودان .

على أننا نعتقد أن رواية « كرمب » أدنى الى القبول من غيرها ، لاستيفائها الشرائط اللازمة لذلك [1] .

---

(١) هناك صورة أخرى لحفل تتويج ملك بعينه هو ملك الدفار من قبل ثاني شيوخ العبدلاب الشيخ عجيب المانجلك . ولا تخرج في مجموعها عن صورة نعوم شقير : « وقف الناس في دائرة كبيرة وضع وسطها ككر تقدم اليه شيخ وقور هو مك الدفار الجديد وهو في ثوبه الأبيض النظيف ، وعمامته البيضاء الكبيرة ، وجلس على الككر بعد ان خلع عمامته، فتقدم اليه الحلاق وحلق له ، ثم خرج من الدائرة ودخل الشيخ عجيب المانجلك وهو يتمختر في مشيته بين الهتاف والزغاريد ، ووضع على رأس الملك الطاقية أم قرون . ثم قال لمك الدفار : مبارك عليك يا مك فنهض الملك وقبّل يد الشيخ عجيب ، ثم أمر الشيخ عجيب بدق النحاس ، وطلب الى الفرسان ان يعرضوا ، فدخل الجميع وسط الدائرة والنحاس يدق ، والزغاريد تملأ الفضاء ، والسيوف تلمع في الأفق . وينتهي الحفل بأن يعانق الملك بعضهم قائلا : الله يخليكم ، أنا بيكم ما بلاكم . وهكذا تبيت « قرى » ليلتها في أفراح متصلة » . (تاريخ هذه الواقعة سنة ١٥٦٣ م ، انظر تفاصيل ذلك في : الاسلام في السودان ص ٤٨ – ٤٩ للأستاذ محجوب زيادة) .

٤ – سلطه الشيخ ، وشيخ الدار :

وتميز المصادر أيضاً بين نوعين من المسؤولية ، نوع يضطلع به شيخ القبيلة ، أو شيخ الدار ، بذاتـه ، باعتباره حقاً له قبل أن يكون واجباً عليه ، ونوع يشاطرهما فيه معاونون هم : مجلس أكابر القرية (مجلس الأجاويد) ، وقاض يمارس - الى جانب القضاء – مهنة التعليم . ثم موظفون آخرون يعهد اليهم بشؤون الكتابة ، والعشور ، والمحافظة على الأمن . أما عددهم فهو متوقف على الوضع الاقتصادي للوحدة الاداريـــة ، ولذا فهو يختلف بين كل منطقة وأخرى [١] .

ويمكن أن نوجز النوع الأول من المسؤوليات في النقاط التالية :

١ – توزيع الأراضي الزراعية على رؤساء البيوت [٢] .

٢– هبة الأرض أو اقطاعها للناس ، ويشهد لذلك ما فعله شيخ الدانياب حمّاد بن عربي حين « تصدق على الفقه السيد بن الفقه عبـد الهادي بن الشيخ محمد ولد دوليب بأرضاً [٣] موات وبور ليس فيها عمار ، وتلك الدار معلومة الحدود والبقعة والمكان ... » [٤] .

٣ – المحافظة على حقوق القبيلة في الأراضي التي تحتلهـــا ، والآبار التي تستخدمها ، والطرق والمفازات التي تقع في حدودها الاقليمية [٥] .

---

(١) المصدر السابق ص ١١٠ . وسيأتي الحديث مفصلاً عن هذه الأمور .
(٢) د . حسن سليمان : تاريخ السودان ص ٥٠ .
(٣) هكذا في الوثيقة ، ولكن صوابه – كما لا يخفى – بأرض .
(٤) الفونج والأرض ص ٦٨ ، الوثيقة الخامسة ، صادرة فيما بين سنة ١١٧٢ ، ١١٨٠ هـ .
(٥) تاريخ السودان من أقدم العصور ص ٥٠ .

٤ – على شيخ القبيلة أن ينظم علاقاتها مع شيخ المشايخ ، وان يجبي المشور والخراج عن الملكيات ويرسل بجزء منه الى « شيخ المشايخ » ، وهو بدوره يدفع بعضه الى خزينة الدولة [١] .

٥ – يتولى الملك أو الشيخ تنظيم اقامة الأعياد التقليدية وغيرها من العادات المرعية في وحدته الادارية [٢] .

٦ – للشيخ المحلي – بنوعيه – أن يعلن الحرب على من يجاوره من زعامات دون الرجوع الى رئيسه الأعلى [٣] .

أما النوع الثاني فهو عدا ما ذكر من مسئوليات .

ب – التقسيمات الادارية للمشيخة : –

أما الوحدات الادارية التي كان يصرف شؤونها كل من شيخ الدار وشيخ القبيلة اللذين سبق الحديث عنهما في حدود الصلاحيات التي كانت ممنوحة لهم – على ما مر تفصيله – ففي ما يلي بيانها (من الشمال للجنوب) : –

١ – مملكة الخناق .

٢ – مملكة مقاصر .

٣ – مملكة أرقو .

كانت هذه الممالك الصغيرة تخضع لملوك الدفار ، وسكانها خليط من قبائل الجعافرة والغربية ، والكنوز الذين يتصل نسبهم بقبيلة ربيعة [٤] .

---

(١) معالم تاريخ سودان ص ٦٢ – الفونج والأرض ص ٣٤ – تاريخ السودان الى الآن ص ٥ .

(٢) معالم تاريخ ص ٦٢ – تاريخ السودان الى الآن ص ٥ ، وانظر الفصل الثاني من الباب الثاني .

(٣) نفس المرجع (معالم) ص ٧٢ .

(٤) محجوب زيادة : الاسلام في السودان ص ٣٥ – ٣٦ وانظر عبدالله حسين ، السودان من التاريخ القديم ١/٤٧ ، مندور المهدي : تاريخ السودان منذ أقدم العصور ص ٦٩ .

٤ – **مملكة الخندق** – ويزعم أهلها أن نسبهم يتصل بالعباس عم النبي .

٥ – **دنقلا العجوز** – وقد قامت منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادي .

٦ – تنقس .

٧ – أبكر [١] .

وهذه ممالك صغيرة تندرج أيضاً تحت المملكة الأم وهي :

٨ – **ملكه الدفار** . وقد دامت هذه المملكة الى ما قبل الفتح التركي للسودان عام ١٨٢١ م بقليل حيث خربها ملوك الشايقية . وتبعد عن حدود الشايقية الشمالية في « أبي دوم قشابي » بنحو تسعة أميال [٢] .

٩ – مملكة الشايقية : عاصمتها الرئيسية « مروى » وهي مملكة عربية بحتة وتضم : –

أ – **حنك** – وهو بلد كبير عن يمين النيل يبعد عشرين ميلاً عن « كورتي » وهي مركز الشايقية « الحنكاب » ومن أشهر ملوكها « الملك صبير » [٣] .

ب **كجبى أو تنقاسى** : وتبعد عن « حنك » أربعة أميال ، وتشتهر بسوق عامرة على نطاق القطر كله ، وهي أحد مراكز ملوك الشايقية على عهد العبدلاب . ومن أشهر ملوكها الملك مدني [٤] .

---

(١) المصدران السابقان والصفحات ، وانظر : محمد عبد الرحيم : النداء في دفع الافتراء ١ / ٢٧ ، والدكتور الريح العيدروس : تقويم السودان لسنة ١٩٤٩ م ص ١٠٢ .

(٢) محمد مهري كركوري : رحلة مصر والسودان ص ٣١١ ، ود . نسيم مقار : اقتصاد السودان في العهد الفونجي (مخطوط) ص ٧ – ٨ .

(٣) الشايقية ص ٣٣ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

ج - **مروى** : وهي مركز ملوك الشايقية « العدلاناب » وقبيل سقوطها كان على رأسها أقوى ملوك الشايقية الملك شاؤس أو شاويش [١] .

د - **عمرى** : وهي الحد الجنوبي لمملكة الشايقية المتحدة التي تمتد من بلدة « أبي دوم قشابي » في الشمال عند حدود مملكة الدفار إلى الشلال الرابع عند « عمرى » هذه [٢] . ومن ملوكها الأقوياء الملك حمد ملك العمراب الذي شهد الفتح التركي للسودان .

١٠ - **مشيخة المناصير** : وديارهم من « الشامخية » فيما وراء « أبي حمد » الى الجندل الرابع في الشمال حيث حدود الشايقية .

١١ - **مشيخة الرباطاب** : من وادي السنقير الى الشامخية فيما وراء « أبي حمد » وهي حدود المناصير الجنوبية .

١٢ - **مملكة الميرفاب** : ومركزهم بربر على بعد ثمان وثلاثين وأربعمائة ميلاً من دنقلا في عرض ١َ ١٨° ، وطول شرقي ٤َ ٣٤° ، وهي بين المقرن ووادي السنقير حد الرباطاب الجنوبي [٣] .

١٣ - **إمارة رأس الوادي** : وتقع جنوب بربر غير بعيد ، وهي وان كانت امارة قائمة بذاتها إلا أن أميرها ابن عم ملك بربر. ويظن «بوركهارت»

---

(١) نفس المصدر ص ٣٢ - ٣٣ .

(٢) محمد مهري كركوري : رحلة مصر والسودان ص ٣١١ - ٣٨٧ ، واقتصاد السودان في العهد الفونجي ص ٧ - ٨ والاسلام في السودان ص ٣٦ - ٣٧ - الشايقية ص ٣٣ .

(٣) محمد فؤاد شكري : الحكم المصري في السودان ص ١٤ ، حسن سليمان : تاريخ السودان ص ٤ ، تقويم السودان ص ١٠٢ ، رحلة مصر والسودان ص ٣١٣ .

أن معظم أهلها من عرب الميرفاب أهل بربر . ولا نعرف تاريخ نشأتها على وجه اليقين [1] .

١٤ – **مشيخة قوز رجب** : وتقع شمال خط العرض ١٦ ، وغرب خط الطول ٣٦ ، وهي على الضفة الشرقية لنهر عطبرة ، وشيخها من أسرة ود عجيب ، وكان اسمه سنة ١١٨٤ هـ – عباس [2] ، كما كان في وقت آخر « جماع » [3] .

١٥ – **مملكة الجعليين** : وهي بين الدامر وحجر العسل ومركزها شندي على نحو ١٠٤ ميل شمال الخرطوم ، وكانت مركزاً تجارياً مهماً على عهد مشيخة العبدلاب [4] .

١٦ – **مشيخة المساعيد** : ان رصدنا لأسماء شيوخ المساعيد [5] الواردة في وثائق العبدلاب أفضى بنا الى معرفة العديد من أسمائهم ، فقد وجدنا منهم : الشيخ البشير بن الفقيه دفع الله شاهداً في الوثيقة الصادرة سنة ١١٨١ هـ متبوعاً بلقب « شيخ المساعيد » [6] يليه في الشياخة البشير ولد النعيم الذي ورد في الوثيقة الصادرة عن شيخ العبدلاب محمد الأمين مسمار في وقت لاحق لسنة ١١٨٤ هـ في مقدمة الشهود [7] . كما يأتي شاهداً كذلك في وثيقة شيخ

---

(١) رحلات بوركهارت ص ٢٠٠ .

(٢) الفونج والأرض ص ٧٣ الوثيقة السابعة ، بوركهارت ص ٣٠٠ .

(٣) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ٨٦ .

(٤) محمد فؤاد شكري : الحكم المصري في السودان ص ١٤ ، تاريخ السودان الى الآن ص ٤٠ ، تقويم السودان ص ١٠٢ ، رحلة مصر والسودان ص ٣١٣ .

(٥) لقد استرشدنا في ذلك بعمل الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم في كتاب الفونج والأرض الذي حوى هذه الوثائق .

(٦) الفونج والأرض ص ١٠٠ ، الوثيقة ١٧ .

(٧) المصدر السابق ص ٧٣ .

العبدلاب ناصر بن محمد الأمين الصادرة عنه سنة ١٢١٥ هـ [١] . وفي هـذا دلالة على امتداد شياخته على المساعيد زمناً طويلاً .

خلفه على الشياخة عثمان ولد فاطر الآتي ذكره في وثيقة الشيخ عبدالله بن عجيب الصادرة عنه سنة ١٢١٤ هـ [٢] . وعند مقارنة تاريخ هذه الوثيقة بتاريخ الوثيقة السابقة هنا بدا تناقض في ترتيب الشيخين ، تأمله .

على أنه مر بنا [٣] - نقلاً عن مصادر العبدلاب - أن عثمان شيخ المساعيد هذا كان فارساً من فرسان الحملة التي جردها وكيل الشيخ عبدالله بن عجيب الرابع (حكم حتى سنة ١٢١٠ هـ على بعض الروايات) على « الحلفاية » الأرباب علي ولد بادي جردها على بعض الأعداء الذين أغاروا على ضواحي « الحلفاية » في غياب شيخها ، وقريباً من حلة « العيلفون » دارت معركة بين الطرفين قتل فيها شيخ المساعيد هذا [٤] .

يأتي بعد هؤلاء في ترتيب شيوخ المساعيد الشيخ محمد ولد فاطر الذي كان حياً سنة ١٢٢٦ هـ بدليل شهوده على ما جاء في وثيقة الشيخ ناصر بن الأمين الصادرة عنه في هذا العام [٥] .

يتبين من هذا أن مشيخة المساعيد ظلت قائمة في نطاق دولة العبدلاب حتى السنوات الأخيرة لسقوط هذه الدولة ، وليس هناك ما يمنع أن نفترض أنها ظلت قائمة حتى سقطت معها سنة ١٢٣٦ هـ . أما تاريخ قيامها فليس الى معرفته من سبيل .

---

(١) المصدر السابق ص ٧٦ ، الوثيقة الثامنة .
(٢) المصدر السابق ص ١٢٦ ، الوثيقة ٢٤.
(٣) في الفصل الثاني من الباب الثالث .
(٤) راجع : واضح البيان ص ١٦ .
(٥) الفونج والأرض ص ١٣٠ ، الوثيقة ٢٤ .

١٧ ـ مشيخة الحلفاية :ـ

تمثل « الحلفاية » العاصمة الثانية للعبدلاب ، ومن المرجح أنها كانت « مشيخة » قبيل انتقال حاضرة العبدلاب اليها ، وإلا فكيف يتصور أن يكون « المبارك » مقدم خيل الحلفاية – شيخاً لها [1] مع وجود شيخ العبدلاب رئيس الدولة ؟ اللهم إلا إذا كانت « شياخة » المبارك تعني « حاكم المدينة » في المصطلح الحديث وليس من دليل على ذلك ، بل هناك نص في « الطبقات » وهي مصدر ثقة – يصلح أن ينهض دليلاً على أن الحلفاية كانت « مشيخة » تابعة للعبدلاب وعليها وال من قبلهم يوم أن كانت العاصمة في « قرى » . جاء في الطبقات عند ترجمة الشيخ يعقوب بن مجلي المشيخي ما نصه : « وكان صاحب ولاية عظمى ، حتى اختلف رجلان عند والي الحلفاية في زمن السميح » . [2] والسميح أحد شيوخ العبدلاب ، ولا نعلم خلافاً في أن حاضرتهم في زمنه كانت « قرى » وليست الحلفاية ، وعليه ألا يجوز أن يكون المراد من لفظ الوالي في نص « الطبقات » هذا ما يرادف معنى الشيخ ؟ اننا نعتقد ذلك .

١٨ ـ مشيخة الدانياب :

إذا كان لفظ « الشيخ » في الوثيقة الخامسة من وثائق « الفونج والأرض » يعني معناه الاداري على عهد العبدلاب ، لا الديني، فإن أول شيخ «للدانياب» يكون الشيخ عربي والد حماد ، ويكون حماد بن عربي الذي صدرت عنه

---

(١) نفس المرجع ص ١٣٢ – ١٣٣ ، وثيقة رقم ٢٦ .

(٢) طبقات ود ضيف الله ص ١٨١ .

هذه الوثيقة هو ثاني شيوخ الدانياب [١] . وقد جاء ذكر حماد هـذا مقروناً بلقبه الوظيفي في عدة وثائق ، منها وثيقة الشيخ عجيب بن عبـد الله شيخ « قرى » الصادرة فيما بين سنة ١١٧٢ هـ ، ١١٨٠ هـ [٢] ، يليه في شيـاخة الدانياب الشيخ « مبدا » الذي جاء ذكره في وثيقة الشيخ عبد الله بن عجيب التي صدرت عنـه سنة ١٢١٣ هـ [٣] ، ووثيقته الأخرى الصادرة باسمـه سنة ١٢١٤ هـ [٤] . يأتي بعده شيخـاً على الدانياب الشيخ ابراهيم الذي نجـده مذكوراً سنة ١٢١٤ هـ . ثم الشيخ طه ولد أحمد الذي نصت الوثيقة الصادرة سنة ١٢١٥ هـ [٥] ، والوثيقة الصادرة سنة ١٢٢٦ هـ على أنـه كان شيخاً على الدانياب في هذا الابان [٦] .

ويبدو أن مشيخة الدانياب كانت وحدة ادارية قليلة الشأن ، تقع قريباً من الخرطوم بحري . ولم نقف لها على ذكر في غير هذه الوثائق .

١٩ ـ مملكة الجموعية : ـ

تواجه « قرى » – حاضرة العبدلاب الاولى – من الغرب ، وتمتـد على النيل الأبيض « حتى الترعة الخضراء قريباً من الدويم . و « الجموعية » قبيلة تسكن حول الخرطوم ، وقد جـاء ذكر ملكهم أو مكهم كثيراً في المنازعات بل إنـه أفتى بأن قطعة من الأرض خالية من أنواع الجبـايات .

---

(١) الفونج والأرض ص ٦٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٧٠ ، الوثيقة السادسة .
(٣) المصدر السابق ص ١٣٢ – ١٣٣ ، الوثيقة ٢٦ .
(٤) نفس المصدر ص ١٢٤ – ١٢٦ ، الوثيقة ٢٤ .
(٥) نفس المصدر ص ٧٦ ، الوثيقة الثامنة .
(٦) نفس المصدر ص ٣٠ ، الوثيقة ٢٥ .

وأول ملوكهم ذكراً هو الشيخ حميدان بن كدنب المذكور في سنة ١١٧١ هـ [١] ثم الشيخ ادريس المذكور في سنة ١٢١٣ ، ١٢١٤ هـ [٢] . ثم ابراهيم بن نايل المذكور في سنة ١٢١٥ هـ [٣] ، وفي الوثيقة الصادرة بعد سنة ١٢٢٥ هـ ، وفي سنة « ١٢٢٦ نجد شيخاً يدعى ابراهيم ولا تذكر الوثيقة اسم أبيه ، ولنسا نعرف ان كان هو ابراهيم نايل نفسه أم ملك غيره [٤] . ثم يرد ذكر أبو بكر سليمان في الوثيقة السادسة عشر » [٥] .

٢٠ ـ حلة حمد : ـ

من الوحدات الادارية التابعة للعبدلاب ، التي لا ترقى الى مرتبة « المشيخة » ، وهي لا تزال قائمة الى اليوم ، ولكنها أضحت جزءاً من مدينة الخرطوم بحري .

ومن شيوخ « حلة حمد » الذين جاءت أسماؤهم في الوثائق الشيخ شمام ولد عبد الله الوارد اسمه في وثيقة شيخ العبدلاب عبد الله بن عجيب الصادرة عنه سنة ١٢١٣ هـ [٦] ، وكذلك وثيقته الصادرة سنة ١٢١٤ هـ [٧] .

---

(١) ليست هناك وثيقة واحدة صادرة في هذا التاريخ ، ولم نعثر على هذا الاسم ، فلعله ورد في وثيقة أخرى كان في النية أن تنشر في كتاب (الفونج والأرض) ولكن لم يحدث ذلك .

(٢) الفونج والأرض ص ١٣٢ — الوثيقة ٢٦ ، و ص ١٢٤ — الوثيقة ٢٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٧٦ — الوثيقة الثامنة .

(٤) الفونج والأرض ص ١٣٠ — الوثيقة الخامسة والعشرون .

(٥) نفس المرجع ص ٥٢ — ولم نجد في الوثيقة السادسة عشر شخصاً بهذا الاسم ولكنه في الوثيقة ٢٧ — ص ١٣٤ .

(٦) الفونج والأرض ص ١٣٣ — الوثيقة ٢٦ .

(٧) نفس المصدر ص ١٢٦ — الوثيقة ٢٤ .

٢١ – مشيخه الشنابلة : –

على النيل الأزرق ، ومركزها زمن العبدلاب مدينة « أربجي » القريبة من « المسلمية » الحالية كما مر . وأشهر شيوخها الشيخ شمبول الذي قتل أيام السلطان الفونجي « عدلان الثاني » [١] .

٢٢ – العبوداب : –

والى هذه الوحدة الادارية أشارت وثيقة الشيخ عجيب بن عبد الله الصادرة عنه سنة ١١٨١ هـ ، وذلك حين أوردت اسم شيخ العبوداب ضمن الشاهدين على مضمونها ومحتواها . وهذا الشيخ هو وديدي ولد ضياب [٢] .

٢٣ – مشيخة الحمدة : –

حاضرة هذه المقاطعة الصغيرة « دبركي » التي يرد اسم شيخها في الوثائق . وقد ورد ذكرها في مصادر العبدلاب – وهنا – كاحدى المشيخات التابعة لدولتهم . بيد أن « نعوم شقير » [٣] جعلها من المشيخات التي خضعت للفونج رأساً لا للعبدلاب ، الا أن ألقابها – ومنها لقب مانجل الذي يطلق على شيخها – ربما تشهد بصحة ما جاء في هذه الوثائق وفي مصادر العبدلاب من تبعيتها لهم ، لأن لقب (المانجل) كان في الأصل خاصاً بشيخ العبدلاب كما مرّ .

---

(١) اقتصاد السودان ص ٧ – جغرافية وتاريخ السودان ٢/٤٢٤ ، رحلة مصر والسودان ص ٣١٤ – الحكم المصري في السودان ص ١٤ .

(٢) الفونج والأرض ص ١٠٠ – الوثيقة ١٧ .

(٣) جغرافية وتاريخ السودان ٢/٤٢٢ (تقع دبركي على نهر الدندر) .

وأول من نعلم من شيوخ « دبركي » قنديل ولد محمـــد ولد قبرت الذي تذكره الوثيقة الصادرة سنة ١١٨١ هـ [١] . وثاني شيوخها الشيخ أحمد ولد الرضى الذي أتى اسمه في الوثيقتين الصادرتين سنتي ١٢١٣هـ[٢]، ١٢١٤هـ[٣].

وهناك وحدات ادارية أخرى ذكرتها مصادر العبدلاب ولا نعرف عنها إلا أسماءها ، وتلك هي « طاقية » [٤] القدياب بجهة كردفـــان ، وعشر « طواق » أخرى منها «طاقية» الحمران، والنابتاب ، والحلنقة ، والكميلاب، وجميع هذه « الطواقي » – عدا الأولى – تقع في اقليم كسلا الحـــالي ، أو « الصبح » حسب الاصطلاح القديم [٥] .

ج – الكتابة : –

جاءت الاشارة الى وظيفة الكتابة كإحدى عناصر النظام الاداري لمشيخة العبدلاب – فى رحلة « كرمب » ، وذلك حينما وصف استقبال شيخ العبدلاب له ولرسول ملك الفونج عندما زارا « قرى » . فقد روي أن الشيخ بعد أن تسلم رسالة الملك دفعها الى كاتبه لقراءتها [٦] .

وذكرت وثائق العبدلاب أسماء عدة لرجال قاموا بانشاء هذه الوثائق ، رصدناهم فكان من أسمائهم : –

١ – الفقيه النور بن الفقيه عبيد. وقد ورد اسمه في وثيقة شيخ الدانياب

---

(١) الفونج والأرض ص ١٠٠ – الوثيقة ١٧ .
(٢) نفس المرجع ص ١٣٣ – الوثيقة ٢٦ .
(٣) نفس المرجع ص ١٢٦ – الوثيقة ٢٤ .
(٤) الطاقية شارة الملك ويرمز بها الى المملكة والمشيخة الصغيرة .
(٥) واضح البيان ص ٣ – ٤ السودان في رسائل ومدونات مج ١٧ ص ٦٣ – ٦٤ .
(٦) انظر (ص ٣١٤) من هذا البحث .

حماد بن عربي الصادرة ما بين ١١٧٢ هـ ١١٨٠ هـ كاتباً لها وشاهداً على ما جاء فيـــها [١] .

٢ -- فقير الله .... عبد السلام بن الخطيب عبد اللطيف ، أنشأ الوثيقة الصادرة عن الشيخ محمد الأمين مسمار بعد سنة ١١٨٤ هـ [٢] .

٣ -- فقير الله عوض الله بن الحاج ضحوي ، وقد حرر الوثيـقة الصادرة سنة ١٢١٥ من لدن شيخ العبدلاب ناصر بن محمد الأمين [٣] . كما كان كاتـــباً وشاهداً في الوثيقة الصادرة سنة ١٢٠٩ هـ عن الشيخ بادي بن مسمار [٤] .

٤ -- (.... الدين) [٥] ، وهو كاتب الوثيقة الثالثة عشر الـــتي أمر باصدارها الشيخ حمد بن علي شيخ اقليم الخرطوم بحري الحالي على مـــا رآه الدكتور أبو سليم . وكان تاريخ صدور الوثيقة قبل سنة ١١٥٥ هـ .

٥ -- الحاج السيد رحمة . وكان يكتب لواحـــد من أشهر قضاة العبدلاب وعلمائهم وهو الفقيه ضيف الله الذي أصدر سنة ١١٨١ هـ وثيقة باسمه [٦] .

٦ -- أبو بكر بن محمد . وقد أفاد بنفسه أنه كاتب وثيـقة الشيخ عجيب ابن عبدالله الصادرة عنه سنة ١١٨١ هـ [٧] .

---

(١) الفونج والأرض ص ٦٨ -- ٦٩ .
(٢) الفونج والأرض ص ٧٢ -- ٧٣ -- الوثيقة السابعة .
(٣) نفس المصدر ص ٧٥ -- ٧٦ -- الوثيقة الثامنة .
(٤) انظر نفس المصدر ص ٨٠ -- ٨١ وقد سبق أن أوضحنا رأينا في شياخة بادي هذا في الباب الثالث .
(٥) جاء الاسم ناقصاً هكذا في الوثيقة . المصدر السابق ص ٨٨ -- ٨٩ .
(٦) نفس المصدر صفحات ٩٢ -- ٩٥ الوثيقة الخامسة عشر .
(٧) نفس المصدر ص ٩٩ -- ١٠٠ الوثيقة السابعة عشر .

٧ – أما محمد بن الحاج عمار فيظهر أنه كان كاتباً لأحد قضاة العبدلاب وهو الفقيه محمد النور بن ضيف الله . يستأنس لهذا من الوثيقة الصادرة سنة ١٢١٤ هـ (١) . وهو نفسه كاتب الوثيقة الصادرة عن شيخ العبدلاب عبدالله ابن عجيب في نفس العام (٢) . وهذا يعني أن وظيفة الكاتب دائمية ، أعني وظيفة ثابتة تدخل في صميم الهيكل الاداري لمشيخة العبدلاب ، ولا يعين الكاتب وفقاً للمناسبات الطارئة ، وانما هو موجود في كل وقت ، يكتب للقاضي كما يكتب لرئيس الدولة شيخ العبدلاب .

٨ – محمد نور بن الحاج عبد الرحمن أسيد : جاء ذكره كاتباً في الوثيقة الصادرة عن الشيخ ناصر بن الشيخ محمد الأمين سنة ١٢٢٦ هـ (٣) .

٩– فقير الله ادريس بن الحاج محمد أبو المعالي : كان أحد الذين كتبوا للشيخ عبدالله بن عجيب . يستدل على ذلك من الوثيقة الصادرة عن هذا الشيخ سنة ١٢١٣ هـ ، فقد جاء في آخرها ما نصه : « والكاتب لأصلها والمحرر لفصلها فقير الله ادريس .. الخ » (٤) .

١٠ – عبد الرحمن بن الشيخ محمد : وقد كتب وثيقة صادرة في « قرى » سنة ١٠٩٥ هـ عن الشيخ مسمار بن الشيخ عجيب ذيّلها بقوله : (والكاتب والشاهد أنا عبد الرحمن بن الشيخ محمد ، وكفى بالله شهيداً) (٥) .

هذا ، وذكرت روايات العبدلاب السماعية أن الوزير (هو وكيل الشيخ

---

(١) نفس المصدر ص ١٢١ – ١٢٣ .
(٢) نفس المصدر ص ١٢٤ – ١٢٧ – وهي الوثيقة الرابعة والعشرون .
(٣) نفس المصدر صفحات ١٢٨ – ١٣١ .
(٤) الفونج والأرض ص ١٣٢ – ١٣٣ .
(٥) نشر هذه الوثيقة الاستاذ ابراهيم مصطفى عربي في جريدة الثورة السودانية بتاريخ ١٩٦٢/٦/٢٩ ضمن بحث تاريخي عنوانه : شخصيات وقبائل من التاريخ .

كما مر) قد يقوم بالكتابة لشيخ العبدلاب في بعض الأوقات [١] .

ان عمدتنا في دراسة وظيفة الكتابة على عهد مشيخة العبدلاب هو الوثائق التي حواها كتاب (الفونج والأرض) . وتلك بداهة - لا تمثل وظيفة الكتابة بأنواعها على نحو دقيق ، وانما قصاراها أن تقدم لنا إفادات عن نوع واحد من أساليب الانشاء في ذلك الابان .

بهذه الحيطة أورد - فيما يلي - نموذجاً للكتابة في عهد العبدلاب :
« باسمك يا كريم ، باسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي بلّغ الرسول ، ونحن آمنا بما يقول . وبعد فهذه حجة فرعية ، ووثيقة مرضية .... بنواحي قرى المحروسة المحمية أجلها الله تعالى لدى متوليها ، وابن متوليها ، والحاكم يومئذ عليها وما فيها ، صاحب المقامات العلية ، والأقوال الصادقة الوفية ، المأمون على دينه والرعية ، المتمسك بالشريعة المحمدية ، الواثق برب العالمين ، الشيخ ناصر بن المرحوم الشيخ محمد الأمين ، طابت فعاليه ، ودامت أيامه ولياليه ، بحق طه وتابعيه ، آمين ، آمين ، آمين ، الى كل من تقف عليه هذه الوثيقة والناظر لما فيها من الحقيقة ، من المحكمين ، وأولات أمور الدين . وبعد فان المحفوظ المبرور المؤيد المنصور ... الخ » [٢] .

د - وظائف إدارية أخرى : -

لدينا - زيادة على ما تقدم من الوظائف والألقاب - وظائف وألقاب خفي علينا المراد منها على وجه اليقين . منها : -

---

(٤) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية ص ٣٧ .

(١) الفونج والارض ، ص ١٢٨ ، وهو جزء من الوثيقة الخامسة والعشرين الصادرة بسنة ١٢٢٦ هـ .

١ – مقدم السواكرة : –

ترد كلمة « السواكرة » في بعض المصادر القديمة والحديثة مضافة الى كلمة « مقدم » تارة ، وإلى كلمة « شيخ » تارة أخرى ، و « فاعـلاً » مرة ، و « مضافة » في بعض الأحايين . ومع كل هذا لم نهتد ولا اهـتدى باحث قبلنا – فيما أعلم – الى تحديد معنى دقيق لها ، فقد جـاء في كتاب السلوك المقريزي [١] عند الحديث على مقاومة ملك النوبة المسيحية « سمامون » لغزو المماليك لبلاده ، قوله : « ففارقه السواكرة وهم الأمراء » . وجاء في الوثيقة الصادرة عن الفقيه ضيف الله [٢] عن نزاع الخوجلاب مع غيرهم في قطعة أرض ما نصه : « وأقام خوجلي البينة المدلة على أن الدار من زمن حماد ود عجيب في يد السواكرة ، وظايف السلطنة عليهـا » . ويذكر الدكتور أبو سليم [٣] ما فحواه أن الدكتور يوسف فضل رأى أن السواكرة اسم طبقة مهمة مـن زعماء مملكة المقرة، وكانوا سنداً لأحد ملوكها ضد المماليك ، وأن ماكمايكل يذكر قبيلة في الشايقية بهذا الاسم ، ويستنتج أبو سليم [٤] أخيراً قائـلاً : « وهذا يعني أن السواكرة طبقة من الناس ولهم وظيفة معينة في الدولة » .

وجاء في إحدى الوثائق [٥] – عرضاً أثنـاء ذكر الشهود – : « وبلال شيخ السواكرة » ، ومعلوم أن « الشيخ » في هذه الفترة إما أن يكون لقباً وظيفياً يطلق على من يحكم منطقة ما ، وإما أن يكون لقـباً دينياً يطلق – في الغالب – على من يتزعم طائفة صوفية بعينها ، وعلى كلا المعنـيين

---

(١) السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٥٢ .
(٢) الفونج والارض ص ٩٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٦ – ٤٧ .
(٤) نفس المصدر والصفحات .
(٥) الوثيقة السابعة عشر ، انظر : الفونج والارض ص ١٠٠ .

« فالسواكرة » طائفة من الناس مؤثرة في الحياة السودانية ، ولكننا لا نعلمهم عرباً أم غير عرب ، على أننا نرجح الافتراض الآخير ، ونلتمس له من المرجحات هذا النص : « أما سمامون فلم يكد يعلم بخروج الحملة المملوكية من النوبة حتى عاد الى دنقلا متخفياً ، واستمال اليه السواكرة [١] » . فهذا النص يشير إلى انحيازهم إلى ملك المقرة المسيحية الذي يمثل أهل البلاد الأصليين – وهم غير عرب – ضد الزحف العربي الذي كان يقوده المماليك. فإذا كان السواكرة أمراء موجودين في الدولة يستعان بهم ضد العرب ، فقد يجوز إذن أن يكونوا قبيلة غير عربية من أهل البلاد الأصليين .

والوثيقة السالفة [٢] قد توحي بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية – إن جاز هذا التعبير – إن لم يكونوا عاملين على ما رآه أبو سليم [٣] ، ذلك لأن الأراضي التي يهبها شيخ العبدلاب ومن دونه تكون في العادة مما يحتفظ به هذا الشيخ أو ذاك لمنفعته الخاصة ، مستخدماً في استغلالها من يرتضيه من العمال ، وهي الأرض المسماة « بالعمارة » ، فإذا رأى أن يهب أو يتصدق على فقيه روحي عمد إليها [٤] ، ورفع عنها وظائف السلطنة – التي قد تعني ما يؤخذ عليها من ضريبة أو خراج ويرسل لخزينة الدولة – ثم يهبها أو يتصدق بها لهذا الفقيه أو ذاك [٥] ، أفلا يجوز أن يكون « السواكرة » من هذه الأقليات غير العربية التي عرفنا نظائرها في مملكة سنار ؟ ، وأنهم – لذلك – كانوا أدنى مرتبة ممن سواهم ؟ وكانوا يعملون على أرض « العمارة » لقاء أجر أو جعل معلوم دون أن يكونوا ملاكاً ؟ ثم جاء شيخ العبدلاب مسمار فرفع

---

(١) الاسلام والنوبة في العصور الوسطى – ص ١٥٨ .
(٢) انظر الصفحة السابقة .
(٣) انظر ص ٣٣٧ من هذا البحث ،
(٤) معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٦٤ .
(٥) المصدر السابق والصفحة ، وانظر : الفونج والارض ص ٩٣ .

عنها وظائف السلطنة وتصدق بها على أولاد الشيخ خوجلي بعد أن رفع يد السواكرة عنها ؟ هل يمكن أن يدل على هذا – مع ما سبق – قوله : « على أن الدار من زمن حماد ولد عجيب في يد السواكرة ، وظائف السلطنة عليها، أولاد الفقه حمد ما حازها [١] إلى أن ملكها وحازها أولاد الفقه خوجلي في زمن مسمار،فارتفعت الوظائف وتصرفوا فيها التصرف التام بالملك والحوز [٢] » .

أما « مقدم » و « شيخ » فلا شك أنها وظيفة يرأس صاحبها بموجبها هؤلاء القوم .

ومهما يكن من أمر فإن المذكور من رؤساء « السواكرة » في الوثائق ثلاثة هم : الشيخ بلال الوارد ذكره في الوثيقة الصادرة سنة ١١٨١ هـ [٣] . والمقدم عجيب وقد كان شاهداً في الوثيقة الصادرة سنة ١١٨٤ [٤] هـ . والمقدم نور الذي جاء كأحد الشهود في الوثيقة الصادرة سنة ١٢١٣ [٥] هـ .

٢ – سيد القوم :

إن أول ما يطالع الباحث في شهود وثائق العبدلاب وظيفة «سيد القوم»، والحق أننا لا ندري أهي وظيفة إدارية أم لقب للتكريم ، وإذا كنت أرجح الافتراض الأخير فإنما مرد ذلك إلى أننا وجدنا في زمن واحد ثلاثة يحملون هذا اللقب . وليس لدينا ما يحملنا على الظن أنها وظيفة فعلية يتقلدها

(١) معنى العبارة بالعربية الفصحى : لم يحزها أبناء الفقيه حمد .
(٢) الفونج والارض ص ٩٣ .
(٣) المصدر السابق ص ١٠٠ .
(٤) المرجع نفسه ص ٧٢ .
(٥) المرجع نفسه ص ١٣٣ .

ثلاثة في آن ، لأن العادة جرت في مشيخة العبدلاب – كما توحي الوثائق – أن يتولى كل وظيفة شخص واحد ، اللهم إلا أن يكون من طبيعة الوظيفة التعدد ، وهذا – هنا – بعيد .

وعلى كل فإن الذين حملوا لقب « سيد القوم » سنة ١١٨١ هـ – وقت أن كان على العبدلاب عجيب بن عبدالله – كانوا : محمد وتمام وخوجلي [١] ، فلما جاءت سنة تالية لعام ١١٨٤ هـ ، كان الذين يحملونه اثنين هما: محمد وتمام[٢]. أما الشيخ بشير سيد القوم الذي حمل هذا اللقب سنة ١٢٠٩ هـ فقد ظل محتفظاً به منذ هذا التاريخ وإلى ما بعد سنة ١٢١٣ هـ [٣] . وبعد سنة ١٢١٥ هـ حين صدرت الوثيقة الثامنة كان هناك شخص بهذا الاسم أيضاً يحمل هذا اللقب ، ولكنا لا ندري هل كان هو بشير هذا بعينه أم شخص آخر يدعى كذلك بشير [٤] .

ولقد وجدنا صالح سيد القوم يرد في الوثائق الصادرة في السنوات ١٢٠٩هـ ، ١٢١٣ هـ ، ١٢١٤ هـ [٥] . كما وجدنا هذا الاسم مذكوراً أيضاً في الوثائق الصادرة بعد سنتي ١٢١٥ هـ ، ١١٨٤ هـ ، والوثيقة الصادرة سنة ١٢٢٦هـ[٦]. ومرة أخرى لا نعلم من أمر صالح – في تفرد شخصيته أو تعدادها – إلا بمقدار ما اعترفنا بعلمه في شخصية بشير .

---

(١) المرجع نفسه ص ٩٩ – ١٠٠ .
(٢) المرجع نفسه ص ٧٣ .
(٣) الفونج والارض ص ٨٠ – الوثيقة العاشرة ص ١٣٣ – الوثيقة ٢٦ .
(٤) المصدر السابق ص ٧٦ .
(٥) المصدر السابق – الصفحات ٨٠ ، ١٣٣ ، ١٢٦ .
(٦) المصدر السابق – الصفحات ٧٣ ، ٧٦ ، ١٣٣ .

٣ – العقيد : –

« وليس يعرف هل هذا لقب عسكري أم مـــدني في « قرى » ، وهو يعني في دارفور [سلطنة معاصرة] حاكم اقليم . وقد نصت وثيقة ما بعد سنة ١١٨٤ هـ على أربعة يتولون المنصب في نفس الوقت وهم « مر الجواب » و « جاد الله ولد متيسة » ، و « أمين » ، و « ادريس ولد الصنيب » [١] .

٤ – زيات الشيخ : –

وهذا من الألقاب التي لا يعرف من أمرها شيء ، وقد أطلق في الوثيقة السابعة من وثائق « الفونج والأرض » على الشيخ العجب ود البشير [٢] .

٣ ــ النظام المالي [٣]

تعتمد المشيخة في مواردها المالية على ثلاثة أنواع من الجبايات هي : الخراج وما ألحق به من الضرائب . ثم الزكاة ، والمكوس التي تؤخذ على البضائع .

أ – الخراج والضرائب :

أما الخراج – وهو هنا كل ما يدفعه مالك الأرض بسبب ملكيته لهـا ، فيشمل بذلك الضرائب أيضاً ـ فقد ذكر في مصادر مختلفة أقدمها (الطبقات). قال صاحبها في معرض كلامه عن أحد الفقهاء واسمه عمار مـا نصه [٤] : –

---

(١) المصدر السابق ص ٥٥ – ٧٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٧٣ ، وقد صدرت الوثيقة بعد ١١٨٤ هـ .

(٣) لا يكفي للحديث عن « النظام المالي » جزء من فصل ، بل يحتاج الى بحث كامل مستقل وإنما ألم به هنا الماماً كأحد أنظمة مشيخة العبدلاب اتماماً للفائدة .

(٤) طبقات ود ضيف الله ص ١١٧ – ١١٨ .

« وبلغ من ورع عمار [هو عمار بن عبد الحفيظ] أن محمداً ولد أبو خنجر قدم إلى سنار من الحلفاية ، وأهدى له رطل قمح فقبله ، وفي العام الثاني جاءه فقال له : عندي دار عليها خراج السلطنة : - بدورك [1] تطلب الشيخ عجيباً يعفوه لي فكلم الشيخ فعفا عنه » .

وجاء في كثير من وثائق العبدلاب ، من النصوص ما يدل دلالة واضحة على أن القاعدة العامة لكل أرض زراعية مملوكة في المشيخة أن يكون عليها خراج . مثال ذلك ما جاء في وثيقة حماد بن عربي [2] التي نصت على تصدقه على أحد « الدواليب » ، بقطعة أرض « سالمة مسلمة من جميع السبل العادية ، والمضار العرفية ، لا خدمة ولا جباية ولا علوق ولا نزول ولا عادة ولا عانة » . وكل هذه المفردات تشير الى أنواع من الخراج والضرائب نفسرها بعد قليل . ومثل هذا النص يرد في الوثيقة الثامنة ، والعاشرة ، والثالثة عشر ، وغيرها [3] .

ووجه الدلالة في هذه النصوص أن النص على اسقاط الخراج عن أرض ما دليل قاطع على وجوده في النظام المالي للمشيخة .

وقد ذكرت روايات العبدلاب أن شيوخهم كانوا يتحصلون نوعاً من الخراج يفرض على الأرض لم يذكر في الوثائق ، ونوعاً من الضرائب يؤخذ على الحيوان . أما الأرض فكانوا يأخذون على « الوادي المسيلة » السبع ، وعلى « ضرب المحفار » العشر . ويقصد « بالوادي المسيلة » الوادي يسقى بواسطة سيل الأمطار ، فما ينتجه يتحصل منه لبيت مال المشيخة عن كل سبعة رجال [وهي وحدة قياسية للأرض] رجل واحد . أما « ضرب المحفار » ، فيقصد

---

(١) « بدورك » كلمة دارجة تعني (أريد منك أو أطلب اليك) .

(٢) الفونج والارض ص ٦٩ .

(٣) المصدر السابق – صفحات ٣١ ، ٣٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٨ .

به الأرض التي تروى بواسطة « الترس » ، وهذه يأخذ شيخ العبدلاب فيها عن كل عشرة رجال رجل واحد [1] .

أما ضريبة الحيوان فنظامها أن يؤخذ للدولة من ولد الخيل الذكر ، أما الاناث فتترك لأصحابها ، وقد أخذت هذه الضريبة من ملوك الجعليين ، كما حارب عليها العبدلاب « الملك المحينة » ملك الجموعية حين حاول الامتناع عن أدائها ، وأرغم أخيراً على الوفاء بها كما مر . كذلك كان العبدلاب يأخذون ضريبة خاصة عن الاغنام [2] .

ويبدو أن المقادير التي كانت تؤخذ على الأرض في دولة العبدلاب لم تكن واحدة ، ولكنها تختلف باختلاف أوضاع الاقاليم الاقتصادية ، كما كانت المكاييل تختلف أيضاً باختلاف هذه الاقاليم . فقد ذكر « بوركهارت » أن ملوك الشايقية الذين كانوا يتبعون لمشيخة العبدلاب كانوا يجبون عن الأرض التي ترويها كل ساقية في اقليم دنقلا أربعة موريات [3] من الذرة [4] .

هذا فيما يتعلق بمبدأ أخذ الخراج والضرائب في مشيخة العبدلاب ، وقد جاء النص على التحصيل الفعلي للخراج في مصادر العبدلاب المخطوطة ، فابن شارو يحدثنا في مخطوطه [5] أن الشيخ الأمين مسمار بعث – بعد عودته من بعض حروبه الى حاضرة ملكه – بالمشائخ « لخدمة الدار وجبي الخراج ، ثم

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ١٠١ .

(٢) نفس المصدر ، صفحات ٧٠ ، ٧٥ – ٧٦ ، ١٠١ ، وانظر رحلات بوركهارت ص ٥٧ ، ٧٦ وحسن سليمان تاريخ السودان ص ٥٠ – معالم تاريخ سودان ص ٦٢ .

(٣) الموريات مفردها (موري) وهو وحدة مكيل ، ومقداره في اقليم دنقلا ٣ كيلات والكيلة ربعين أو (قيراطين) .

(٤) رحلات بوركهارت في بلاد النوبة ص ٥٧ ، ٧٦ .

(٥) واضح البيان ص ١٥ ، وانظر السودان في رسائل مج ١٧ ص ٧٥ ، تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ١٠٢ .

أرسل ابنه عجيب لدنقلا وكتب للملك « أبو سوار » ملك الشايقية أن يخرج معه للتحصيل ، وخدموا جميع البلاد » [1] .

وهذه أنواع الخراجات والضرائب التي كانت تتحصل عن الأرض في مشيخة العبدلاب (ومملكة الفونج أيضاً) ، مضافة الى ما سبق بيانه ، وشيكاً ، رصدها الدكتور أبو سليم في وثائق الأرض ، وأحصى منها ما يلي : –

« ١ – الدم : وهو ما يذبحه مالك الأرض للحاكم وأعوانه إذا قدموا إليه .

٢ – الكليقة : وهي عبارة عن حزمة من القش تعطى لدواب الحاكم وأعوانه .

٣ – قلة : عبارة عن عيش يؤخذ « بالبرمة » والبرمة تسع ربعاً .

٤ – العادة : الاعانة المالية التي تقدم للحاكم في المناسبات السعيدة كالختان والأفراح .

٥ – نزول : أي أن ينزل الحاكم وأعوانه على مالك الأرض، ويستتبع ذلك دفع الضرائب والضيافة وأحياناً تذكر الضيافة مع النزول أو بدله ...

٦ – العانة : أي الاعانة – وهي مساعدة الحاكم ومعاونته في الأعمال ، وتعرف بالخدمة أحياناً .

٧ – سنسنة : وتعرف أحياناً « بالكسرة » وهي حرف من الكسرة ، والمقصود بها الاطعام [2] .

---

(١) بينا في مناسبة سابقة ان (خدمة العرب) تعني في المصادر السودانية لهذه الفترة جمع مستحقات المشيخة المالية من العرب .

(٢) السنسنة : تشبه الى حد كبير ما يعرف في العراق بواحد (الخبز) .

٨ - المخلا أو المخلة : مأخوذة عن المخلاة (المخلايـــة) وهي كيس من الشعر ، ويؤخذ فيها الزاد .

٩ - الجباية : العوائد التي تدفع عن الأرض .

١٠ - تورات : لم نجد تفسيراً لهذا اللفظ وقـد ذكر البروفسير عبدالله الطيب عندما رجعنا إليه ثلاثة احتمالات ، أولها أن تورات جمـع تورة من التتوير أي حرث الأرض أو حفرها وذلك بمعنى ضريبة تدفـع أول الحرث عند الاشارة للزرع . وثانيها « أن التورات من التتوير أي نوع من القرعـة والسخرة . وثالثتها أنه يعني تسمين وتربية البهائم ، وهو يرجح الاحـتمال الأخير لكون أهل الجزيرة يستعملون اللفظ بهذا المعنى .

١١ - حسب : غرامة معينة يؤديها الرجل كدية أو تأديب .

١٢ - جـلة : ومعناه الكثير أي جل والوثائق تذكر أيضاً لفظ قـل مقابلاً لــه .

١٣ - السبلة : الاعانة التي تقدم للحاكم عندما يقيم مأتماً .

١٤ - علوق : العليقة التي تقدم لدواب الحاكم وأعوانه [١]» .

بقي أن نبحث في الكيفية التي كان يتحصل بهـا الخراج وملحقاته من الضرائب . وفي هذا الصدد يستفاد من أخبار الوثائق ، وما تجمع لدينـا من مصادر أخرى أن الارض إذا كانت في دار العبدلاب جمع خراجهـا تحت إشراف شيخ العبدلاب نفسه ، وإذا كانت في الأقاليم التي تتبع للمشيخة دخل ذلك في صميم مسؤوليات شيخ أو ملك ذلك الاقليم [٢] . وقد أشارت

---

(١) الفونج والارض - الصفحات ٣٠ - ٣٣ ، وقد رجعت الى وثائق العبدلاب للتأكد من هذه المعلومات فوجدتها صحيحة بلا زيادة ولا نقصان .

(٢) الطبقات : ص ٦٧ ، الفونـج والارض ص ٣٣ - ٣٤ ، ١٣٦ ، وانظر تاريخ السودان الى الآن ص ٥٠ - معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٦٢ .

وثائق الارض الى « عامل الخراج » باسم « الجراي » ، ولعل لهذه التسمية صلة بالجري الذي يفترض أن« عامل الخراج » يمارسه – تجاوزاً – حين يقوم بجمع الخراج [1] . ولكننا لسنا على يقين من ماهية وظيفة « الجراي » من حيث انحصارها في شخص واحد يسعى وحده لتحصيل الخراج ، أم أن له ديواناً خاصاً يضم بعض العاملين الذين يعاونونه ، وهل كان من سلطاته أن يبقي ما يتجمع لديه حتى يكتمل عنده التحصيل ثم يذهب به لخزانة الدولة ؟ أم أنه يقوم بتسليم ما يصل إلى يده إلى بيت المال أولاً بأول ، وهل كانت هناك مدة معلومة ينتهي عندها تحصيل الخراج والضرائب ؟ أو أن الأمر يستدعي ملاحقة مستمرة لمن يجب على أراضيهم خراج ؟ ولكننا نعلم أن شيخ الدار – وهو الحاكم في عاصمة الاقليم – بعد أن يحمل إليه الجراي الخراج ، أو يحمل اليه ممن دونه ويأخذ منه حصته [2] – يذهب بالباقي الى خزينة الدولة في « قرى » أو « الحلفاية ». يرشدنا الى ذلك ما جاء في «الطبقات[3]»: « ومنها (من أفعال الشيخ حمد بن محمد بن علي المشيخي) أن دار زراعته مسكت عليها السلطنة نصف الخراج ، يلقط الورق والقرون والقنقر يقسم نصفه للسلطنة يديهم إياه، وشاله شيخ الدار ووداه للشيخ عجيب ولد العجيل».

هذا النص – فوق أنه يعطينا فكرة عن كيفية تحصيل الخراج – ينبئنا

---

(١) الفونج والارض ص ٣٣ – وقد أسمى الرحالة بونسيه « عامل الخراج » باسم « شيخ الجباة » (انظر التمهيد الذي قدمته الطبعة الانجليزية لرحلة بونسيه) .

(٢) الفونج والارض ص ٣٤ ،معالم تاريخ سودان ص ٦٦ ،تاريخ السودان الى الآن ص ٥٠ .

(٣) طبقات ود ضيف الله ص ٦٧ ، ومعنى عبارة الطبقات هذه : ان الشيخ حمد كان يمتلك أرضاً فرضت المشيخة عليها نصف خراجها ، فكان ان قطف ثمارها يوماً وهي عبارة عن سنابل الذرة الشامي وبعض أنواع الآدام (ومنها البامية) وحمل نصف ذلك الى شيخ الدار لذي حمله بدوره الى شيخ العبدلاب (انظر أيضاً الزبير عبد المحمود في كتيبة : حمد ود أم مريوم ص ١٤ – ١٥) .

بمقادير الخراج التي كانت تؤخذ على الأرض ، ويرينا أنهـــا كانت تبلغ النصف أحياناً .

على أن الشخص الذي كان يقرر « خراجية » الارض من عدمها إنما كان الحاكم الذي تقع الارض في اقليمه الذي يباشر السلطة الفعلية عليه ، ومن ثم اضطر الملك بادي بن دكين – مع ادعائه الرئاسة على نحو ما لشيخ العبدلاب– أن يستثني « طين العبدلاب » في عطيته لشيخ الشكرية ، وأن يترك لهذا الشيخ أمر الانتفاع بأخذ خراج تلك الارض إن شاء [١] . ولهذا أيضاً قال حميدان بن كدنب ، شيخ دار الجموعية عن ارض مـــا : « هذه ما فوقها تكنيب ولا درب ولا غيره » ، أي ليس عليها أي نوع من أنواع الخراج [٢]. وغير هذا وذاك كثير [٣].

ب ـ الزكاة :

وهذا المورد جاء ذكره في « معالم تاريخ سودان وادي النيل » حيث نص فيه على أن صاحب المال والتجارة والماشية كان عليه أن يدفع – فيما يدفع – زكاة فطرة ، وهي « تحصل بواقـــع $\frac{١}{٣}$ ٥ أرطال عن الشخص – رقيق أو حر – طالما يعيش في كنف العائلة ، وتدفع هذه سنوياً في أول عيد رمضان الذي يعرف باسم شهر الفطرة [٤]» . [لعله يقصد عيد الفطر] . كما كان عليه أن يدفع زكاة أمواله ، وهي أنواع ، منها زكاة النقود ، وزكاة العيش

---

(١) الفونج والارض ص ١٣٦ – الوثيقة ٢٨ .
(٢) الفونج والارض ص ٣١ .
(٣) انظر وثائق العبدلاب في كتاب (الفونج والارض) .
(٤) الشاطر بصيلي ص ٦٤ – ٦٥ والملحق الخامس ص ٢٦٥ من نفس المرجع .

(الحبوب) ، وزكاة المال عن الحيوان ، ومنها: الغنم والماعز والبقر والجمال، وفق أنظمة خاصة وقواعد بينها الشرع الاسلامي [١].

كما أشار بوركهارت الى مثل هذه الزكاة التي كانت تؤدى لمشيخة العبدلاب وإن أسماها خراجاً ، فذكر أن ملوك الشايقية كانوا يأخذون من اقليم دنقلا الشاتين والثلاثة كما كانوا يأخذون ثوباً من الكتان تساوي قيمته ريالين [٢].

وأشارت أيضاً روايات العبدلاب السماعية الى جمع الزكاة في دولتهم كأحد الموارد الأساسية ، ولكنها لم تورد تفصيلاً [٣].

ج - المكوس (الجمارك) :

كانت البضائع تأتي الى السودان من أنحاء متعددة في العالم ، بعضها يأتي من الهند عن طريق البحر الأحمر ، وبعضها الآخر يأتي من مصر عن طريق النيل والقوافل ، ونوع ثالث يأتي من الحجاز ملاحة في البحر ، وآخر يأتي عن طريق الغرب [٤] ، فكان من الضروري - إزاء ذلك - قيام مراكز لتحصيل المكوس التي تقررها الدولة على هذه السلع الواردة ، وهكذا قامت مراكز التحصيل ، ومن أهمها : -

١ - مركز دنقلا :

شاهد هذا المركز « بونسيه » حينما مر باقليم دنقلا في طريقه الى الحبشة

---

(١) المصدر السابق والصفحات .

(٢) رحلات بوركهارت ص ٥٧ .

(٣) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم ص ١٠٢ .

(٤) الطبقات ص ١١٨ .

في أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، وكتب عنه يقول : « وكنا وقتئذ في ناحية تعد من ضواحي مدينة دنقلا ... وكل البضائع التي تنقل تؤخذ عليها مكوس ، أما المسافرون فلا يدفعون شيئاً »[1] .

٢ مركز بربر :

وقد ذكره بوركهارت في قوله : « وعلى كل قافلة تفد بربر أن تؤدي للملك ضريبة مرور يتطلب جمعها من كل فرد أياماً ، ويقتضي الملك كل قادم من مصر خمسة أثواب دمور دون مراعاة لعدد أحماله أو جماله، وبصرف النظر عن كونه سيداً أو خادماً . وعلى المسافر أن يدفع ثوب دمور لموظفي الملك ، وآخر لعبيده ، وثالثاً لرؤساء البشاريين ... ويأخذ الملك ضريبته ريالات أو دموراً »[2] .

ونقطة الجمارك من بربر – وهي قرية النخيرة – كانت تحرص القوافل على أن تصلها ليلاً « ستراً لبضاعتها من العيون ومغافلة لموظفي الجمارك ، عسى أن يستطيع التجار تهريب بضائع طفيفة دون أن يؤدوا عنها ما يجب من رسوم »[3] .

٣ – مركز أمارة رأس الوادي :

وهو يبعد عن مركز بربر بنحو ثماني ساعات بسير القوافل . ولم تكن المكوس هنا معلومة المقدار ، بل كان يترك أمر ذلك لشيخ الاقليم الذي يقع

---

(١) رحلات بونسيه، تمهيد الطبعة الانجليزية ص١٣ وما بعدها وانظر معالم تاريخ سودان ص٧١ .
(٢) رحلات بوركهارت في بلاد النوبة ص ١٨٦ – ١٨٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٦٨ – ١٦٩ .

فيه مركز التحصيل . يدل على ذلك ما ذكره بوركهارت من أن قافلته أرسلت اثنين من جماعتها لمقابلة شيخ الاقليم الملك حمزة ، وذلك لمفاوضته فيما يؤدى له من أتاوة،وأن الأمر انتهى بأن يدفع كل تاجر أربع ريالات اسبانية، كما يدفع عن كل جمل عشرة ريالات . وقد أدى « بوركهارت » هذه الضريبة « بعضها نقداً ، وبعضها عيناً » [1] .

٤ – مركز سواكن بشرق السودان :

وقد كان يزور هذا المركز الشيخ عجيب الكبير كثيراً ، إذ أن له نصيباً من جمركه [2] .

٥ – مركز قرى العاصمة :

وكان هذا أهم مراكز الدولة الذي تستوفى عنده – من قوافل التجارة – المكوس المضروبة عليها [3] . وقد أشار اليه كروفرد بقوله : « ان وظيفة شيخ قرى الرئيسية هي أن يستخرج قدر المستطاع ضريبة جمركية من التجار ، لأن قرى كانت في المكان الأول نقطة جمارك تفرض الأتاوة على القوافل [4] ... » .

كما أن (كرمب) تخلف عن قافلته التي جاء معها من مصر في هذا

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٠ – ٢٠١ .
(٢) مكي شبيكة : مملكة الفونج الاسلامية ، ص ٥٦ .
(٣) معالم تاريخ سودان ص ٧١ ، ١١١ ، مملكة الفونج الاسلامية ص ٧٥ .
(٤) The Fung Kingdom of Sennar, pp. 65 - 66.

المركز يومـــاً كاملاً ، ثم سار وراءها كي « يتجنب الضريبة الجمركية التي يتقاضاها الشيخ [1] » .

هذا وكانت متحصلات هذه المراكز توزع بمقادير معلومة بحيث يأخذ كل من الشيخ المحلي أو الملك حاكم الاقليم وشيخ العبدلاب بنصيب معلوم . على أن دخول هذه المراكز كانت متفاوتة في قيمتها من منطقة لأخرى وفق الظروف الموضوعية لهذا الاقليم أو ذاك [2] .

بيت المال وأوجه الانفاق :

وتذكر بعض روايات العبدلاب أن ما يتحصل من هذه الموارد الثلاثة كان يوضع في بيت مال للمسلمين مقره حاضرة الدولة ، وكان يشرف على هـــذا البيت أمراء من الأسرة المالكة . أما أوجه الانفاق ، فقد حددتها تلـــك الروايات بما يلي :

١ - كل ذي حاجة ، ويسمون ما يصرف في هذا الوجه « العيبة » .

٢ - الحرمان الشريفـــان في مكة والمدينة ، ولم يكن الصرف عليهما مطرداً ، بل كان من حين لآخر .

٣ - الأسرة المالكة . وليس هذا أمراً مؤكداً ولكنه مرجح ، وذلـــك لأن الزراعة كانت في نظر العبدلاب عيباً لا يأتيـــه الملوك ، وقد سئل آخر شيوخهم عن مصادر رزقـــه فقال : الخيل والسيف . ولم يحترف العبدلاب

---

(١) Ibid, p. 219.

(٢) معالم تاريخ سودان ص ٧١ - ١١١ .

الزراعة وتربية الأغنام إلا بعد أن انتزع الأتراك الملك منهم ، وعندئذ صاروا يقيمون تروسهم ويزرعون كما يزرع سائر الناس[1] . ومن هنا جاء الترجيح باعالتهم من بيت المال .

٤ ــ النظام الحربي

يقضي واجب الأمن القومي لكل دولة - مهما كانت - وفي أي زمان قامت ، أن يكون لديها جيش يحميها ، ويحفظ أمنها وسلامتها ، ولقد وقفنا - في غير ما مصدر - على ذكر جيوش للعبدلاب غازية أو مغزوة ، مهاجمة أو مدافعة[2] ، ولكنا لم نتبين عدد هذا الجيش أو تنظيماته ، أو وسائل عيشه ، ولم نعرف - على نحو يقيني - أهو جيش نظامي ثابت ، أم جيش احتياطي يدعى عند الطوارىء ، وليس في الأمر غرابة ، على أية حال ، إذ ليس ميسوراً علم هذه التفاصيل عن جيش حكومة بسيطة التركيب ، قامت في مجاهل افريقيا في العصور الوسطى ، وكان الوصول الى عاصمتها ضرباً من المخاطر لا يقوى عليه إلا المغامرون . وكيف يمكن أن نعرف ذلك عن حكومة هذا شأنها تعيش في شبه عزلة عن العالم ونحن نجهل مثل هذه التفاصيل عن دول كتبت عنها عشرات المجلدات .

غير أنه - مع ذلك - يبدو أن مشيخة العبدلاب كانت قد عرفت نوعاً من الجيش النظامي ، أو الشرطة النظامية . ففي أخبار الشيخ عبد الله الثالث بن عجيب ما يدل على ذلك . قال ابن شاور : « ومما يحكى أنه مر

---

(١) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية ص ١٠٢ .

(٢) انظر الباب الثالث عند تراجم شيوخ العبدلاب .

ذات يوم على راعي ضأن ..... وفي أثناء الخطاب معه سمع الرجل حركة الجيش ، فلما عرفه قال له : أنت عبد الله ملك الحلفاية ..... إن في هذه الأغنام ستين خروفاً سديساً ، خذها ضيافة للجيش ، فلم يقبلها منه ، وقيل إن رجلاً من أرباب جيشه تحدث في نفسه وقال : ان هذا الرجل لا يخلو من حسد ، كيف لا يقبل الستين خروفاً نتغدى بها [1] » .

نستنتج من هذا النص حقيقتين اثنتين : —

أولاهما : أن لدى العبدلاب جيشاً نظامياً ، يدل على ذلك أن مصدرنا الذي نقلنا عنه هذه الرواية لم يذكر أن الشيخ عبد الله خرج لحرب ، وإنما قال متفقداً رعيته ، والجيش الاحتياطي لا يدعى إلا في أوقات الحروب كما هو معلوم ، واذن فجيش الشيخ عبد الله جيش دائم .

ثانيتهما : أن هذا الجيش كان ذا عدد غير قليل ، يدل على ذلك أن الراعي تبرع بستين خروفاً ضيافة له ، وأن هذه الستين لا تتجاوز كونها غداء واحداً لهذا الجيش . وعدد بهذه الكثرة لا يمكن إلا أن يكون جيشاً معداً لكل احتمال .

وتنص وثيقة الشيخ حمد [2] — أحد حكام الأقاليم في دولة العبدلاب — على مجموعة من الجنود فتقول : « ومن العسكر كنيني وأخيه أبو القاسم ، وعبد الله ولد سيد القوم، وتمام سيد القوم ودفع الله ولد نمر وأخيه عبدالقادر ، ونمر وحسن ولد دليل .... » فمن الواضح أنه لم يكن ليتسنى لكاتب الوثيقة أن يصفهم (بالعسكر) لو لم يكونوا جنوداً دائمين .

---

(١) واضح البيان ص ٩ .

(٢) الفونج والارض ص ٨٨ ، ٨٩ الوثيقة ١٣ .

ويقول الشاطر بصيلي: « وكان على الزعيم الأكبر ، أو السلطان السناري، أو مانجل العبدلاب – فيما بعد – أن يكوّن جيشه ويحتفظ به في عاصمته ، ويقوم رجال هذا الجيش بالعمل على أرض (العمارة) في وقت السلم »[1] . ففي هذا النص دلالة صريحة على أنه كان لمشيخة العبدلاب جيش نظامي ثابت.

وذكر (كرمب) أنه شاهد أربعين من المغاربة يرتدون الحرير ويقفون حول شيخ العبدلاب عندما كان جالساً على عرشه ، ينتظر قدومهم[2] . وهؤلاء – في الأرجح – هم الحرس الخاص بشيخ العبدلاب .

ونصت روايات للعبدلاب – من جهة ثانية – على وجود حرس خاص بشيخهم يتكون من ثلاث مائة فارس ، يمثلون مختلف القبائل العربية[3] .

وقال كروفورد : « ولذا خرجوا (كرمب وجماعته) دون إذن، فلحق بهم أربعة جنود أرادوا ارجاعهم . وقد تصرف الجنود بأدب شديد ، ولكن المبشرين رفضوا الرجوع ، فرجع أحد الجنود .. الخ »[4] .

ففي هذه النصوص دلالات لا تحتاج الى بيان على وجود جيش نظامي لمشيخة العبدلاب . أما وحدات الجيش أو أسلحته فقد ألقت عليها وثائق العبدلاب بعض الضوء . وفي وجود أسلحة للجيش مختلفة، عليها قواد ثابتون، دليل آخر على صحة ما نقول . من هذه الرتب العسكرية : –

---

(١) معالم تاريخ سودان ص ٧٧ .

(٢) The Fung Kingdom of Sennar, pp. 221 - 2.

(٣) تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم – ص ٨٨ .

(٤) Op. Cit, p. 224.

١ – سيد العدة : –

وقد فسر الدكتور أبو سليم [١] العدة بأنها آلات الحرب . فسيد العدة على هذا الاعتبار يعني المسؤول عن شؤون الأسلحة . ولهذه الوظيفة شبه ما بما يعرف في المصطلح العسكري الحديث بـ (سلاح الأسلحة) .

وقد تولى هذه الوظيفة – كما أنبأت الوثائق – اثنان : أحدهما (حسن) ، وقد جاء ذكره في وثيقة ما بعد سنة ١١٨٤ هـ ، وهي الوثيقة الصادرة عن الشيخ محمد الامين مسمار [٢] . وثانيهما (محمد) الوارد ذكره في شهود الوثيقة الصادرة عن الشيخ ناصر بن محمد الامين سنة خمسة عشر بعد المائتين والألف [٣].

٢ – مقدم السلطية :–

يعد مقدم السلطية أو شيخها – كما ورد مرة [٤] من الالقاب العسكرية ، على اعتبار أن (السلطية) تعني (الحربة) ، وهو معنى اجتهادي توصل اليه أحد الأعلام في السودان عندما سئل عن ذلك [٥] ، معتمداً على تعبير دارجي هو قولهم : « يال في الجحر السلطية جاتك » [٦] . فمقدم السلطية إذن أو

---

(١) الفونج والارض ص ٥٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٣ .

(٣) الفونج والارض ص ٧٦ – الوثيقة الثامنة .

(٤) نفس المرجع ص ١٠٠ .

(٥) هو الدكتور عبدالله الطيب وقد سأله مدير دار الوثائق المركزية الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم ، ص ٥٣ من نفس المرجع ، وانظر (السلطية) في نسبة الشيخ علي محمد ، ملف (أ) ص ٢١٢ – دار الوثائق .

(٦) معنى العبارة أيها الكائن الحي الذي استقر في الجحر ، جاءتك الحربة .

شيخها يعني القائد العسكري الذي يتقدم جماعة سلحت بالحراب ، ونتجوز فنسميها (سلاح الحراب) .

أما عن الذين حملوا هذا اللقب ، فقد جاء في الوثيقة الصادرة سنة ١١٨١ﻫ عن شيخ العبدلاب عجيب بن عبدالله ما نصه : «وعبدالله ولد مكاوي شيخ السلطية»[١] فهذا أحد رؤساء هذا السلاح ، وهناك مقدم آخر للسلطية جاء ذكره في وثيقة سنة ١٢١٣ ﻫ وسنة ١٢١٤ ﻫ التالية لها ، وهو الشخص المدعو (عسيلي)[٢]. وفي هذا دليل على أن مقدم السلطية قد يبقى في منصبه لفترة من الزمن قد تطول .

٣ – مقدم الخيل ـ مقدم خيل الحلفاية ـ مقدم خيل الشيخ الداخل :

خضع (سلاح الفرسان) في مشيخة العبدلاب لقيادات ثلاث ، كما هو ظاهر ، وهذا يعكس – في تقديري – الاهتمام الكبير الذي كان يوليه شيوخ العبدلاب لهذا السلاح . وقد مر بنا وشيكاً أن من أنواع الضرائب التي كان العبدلاب يفرضونها : المهر من الخيل – وهو ذكرها الصغير – لتدريبه على خوض غمار الحروب .

ويلوح لي أن أعلى هذه القيادات رتبة وأرفعها شأناً ، مقدم الخيل ، إذ هو– فيما يدل اللفظ – رئيس سلاح الفرسان على اطلاقه ، دون التقيد بخيل العاصمة ، أو خيل رئيس الدولة ، ويليه في الرتبة – فيما نقدر – مقدم خيل الحلفاية ، والحلفاية هي العاصمة. وهذا السلاح يشبه ما نسميه الآن(بالحامية) التي تحمي العاصمة ، أو الموقع ، ويسمى رئيسه (قائد الحامية) أو (قائد

---

(١) الفونج والارض ص ١٠٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٣ ، ١٢٦ .

الموقع) . ثم أخيراً « مقدم خيل الشيخ الداخل » ولعل المراد منه ما يعرف في مصطلحنا الحديث (بالحرس الملكي) أو (الجمهوري).

هذه الأنواع الثلاثة جاءت في وثائق العبدلاب، فمن النوع الأول : عسيري ولد حمد ولد نايل ، وقد لقب (بسيد الخيل) في وثيقة الشيخ عجيب بن عبدالله [1] . ثم حسب الله ولد نايل(مقدم الخيل) الذي استشهد به في وثيقة الشيخ محمد الأمين مسمار[2] ، بعد ذلك يأتي اسم (علي) متلواً (بشيخ الخيل)[3] ، وذلك في وثيقة الشيخ ناصر بن محمد الامين .

أما فضل الله بن بشارة ، فقد لقب مرة (بسيد الخيل) وذلك في الوثيقة الرابعة والعشرين ، ومرة أخرى نعت (بمقدم الخيل) ، وذلك في الوثيقة الخامسة والعشرين [4] ، مما يدل على ترادف اللفظين .

ومن النوع الثاني (مقدم خيل الخلفاية) لم نقف إلا على اسم واحد هو (المبارك) الذي ورد فيوثيقة الشيخ ناصر بن الامين الصادرة سنة ١٢١٥هـ[5].

كذلك لم نهتد – فيما يتعلق بالنوع الثالث من قواد سلاح الفرسان – إلا الى اسم شخص واحد يدعى (عاصي القد) يتولى رتبة (مقدم خيل الشيخ الداخل)،وذلك فيوثيقة الشيخ محمد الامين مسمار الصادرة بعد سنة ١١٨٤هـ[6].

---

(١) الفونج والارض – ص ١٠٠ – صادرة سنة ١١٨١ هـ .
(٢) المرجع نفسه – ص ٧٣ – صادرة سنة ١١٨٤ هـ .
(٣) المرجع نفسه – ص ٧٦ – صادرة سنة ١٢١٥ هـ .
(٤) المرجع نفسه ص ١٢٦ ، ١٣٠ ، في سنتي ١٢١٤ – ١٢٢٦ هـ ، ولا ندري هل ظل طيلة هذه المدة يشغل هذا المنصب أم عزل ثم أعيد اليه سنة ١٢٢٦ هـ .
(٥) المرجع نفسه – ص ٧٦ – الوثيقة الثامنة .
(٦) المرجع نفسه – ص ٧٣ .

٤ – مقدم القواويد :

جاء في مخطوطة كاتب الشونة قوله : « فجهز جيشاً وأمر عليه الامين رحمة ولد كندلاوي ، والشيخ الامين ولد مسمار ، ومحمد أبو ريدة في رأس قواويد الملك عدلان »[١] . وعلق الشاطر بصيلي على كلمة (قواويد) بقوله: « ويبدو أنها جمع عامي للفظ قائد »[٢] . وبعد أن ذكر الدكتور أبو سليم رأي (الشاطر) هذا وما يدل عليه ، أنكر أن يكون الفونج قد عرفوا منصب قائد القواد ، او القائد العام للجيش . ثم عقب على كلمة (القواويد) بقوله :« ويبدو أن القواويد جماعة من المستوطنين في سنار كالنوبة والمسبعات او قبيلة من القبائل التي تعضد السلطان وربما – لهذا – أُشير إليهم أحياناً بقواويد السلطان ، وحاكمهم ليس بحاكم مقاطعة بدليل لقب المقدم الذي يطلق على رؤساء الجماعات »[٣].

هذان هما التفسيران اللذان وقفنا عليهما لكلمة (قواويد) ، وفي اعتقادنا أن تفسير الشاطر بصيلي لهذه الكلمة هو الأرجح وذلك للاعتبارات الآتية :

١ – مضمون النص الذي أورده المخطوط يشير الى تعيين قادة عسكريين يتولون قيادة جيش لخوض غمار حرب . فمن المناسب أن لا يفسر النص إلا في إطار هذا المضمون .

٢ – لم نسمع في قصة الصراع الطويل الذي كان دائراً بين القوى المتصارعة التي كانت تقيم في سنار وضواحيها – من أي مصدر عن جماعة او مجموعة قبلية كانت تسكن سنار او قرى بهذا الاسم .

---

(١) ص ٣٥ – متناً وهامشاً، تأليف أحمد أبو علي الحاج، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل.
(٢) نفس المرجع والصفحة (هامشاً) .
(٣) الفونج والارض ص ٤٩ .

٣ – فهمت من نص في (الطبقات) أن كُتّاب ذلك العصر – وقد غلبت على أقلامهم اللهجة الدارجة – كانوا يستخدمون في كتاباتهم كلمة (قواد) بفتح القاف – بدلاً عن (قائد) – ، فقد جاء فيها : « ودخل عليه (على الشيخ عووضة شكال القارح) بادي ولد عجيب ، ومعه عبد الله البرنس قَوّاداً شايل السيف ، وجالساً بعيداً [1] » ، وجاء في ترجمة الملك أونسة بن ناصر « فجاءه قَوّاد الملك، قال له ملك الفونج أرسلني اليك .... الخ » [2] . فحيث أن كاتب الأصل الذي نقلنا عنه النص الأول قد وضع مخطوطه أولاً باللهجة الدارجة ، ثم أدخلت عليه عدة تعديلات فيما بعد ، فمن المرجح أن يكون قد قصد – بـ (قواويد) التي هي الجمع الدارج لمفرد (قواد) الدارجة – معنى القادة أو القواد (بالضم والتشديد) كما ذكر الشاطر بصيلي .

٤ - هنا اعتراض يبدو ، خلاصته : إذا كانت كلمة (القواويد) في هذا النص تعني القادة أو القواد ، فكيف يتصور أن يخضع قائد القواد لقيادة غيره وهو الأمير (من أمر) : الأمين رحمة ولد كندلاوي كما جاء في النص ؟.

ليس هناك ما يمنع أن يصدر أمر من رئيس الدولة يتولى بموجبه شخص مقتدر قيادة الجيش وفيه قائده العام ، حرصاً على الظفر بالعدو ، كما أن هناك احتمالاً بأن يكون للشيخ أو للسلطان قواد لحرسه الخاص – وقد وقفنا على ما يدل على وجود هذا الحرس [3] – وإذا صح ذلك فقد يصح أن

---

(١) طبقات ود ضيف الله – ص ١٢٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٦ .

(٣) انظر ص ٤٠٥ من هذا البحث ، ففيها ان لشيخ العبدلاب سلاح فرسان خاص به ، عليه قائد .

يكون هذا الشخص الوارد في النص هو قائد أولئك القواد ، ومن ثم يتضح معنى عبارة النص : « في رأس قواويد عدلان » .

ومهما يكن من أمر هذه المسألة ، فقد أطلق لقب (مقدم القواويد) على اثنين من الأشخاص ، أحدهما (بلال) ، وجاء ضمن شهود الوثيقة الصادرة بعد سنة ١١٨٤ هـ [١] .

وثانيهما : حمد بن شاور ، وقد ورد اسمه في وثيقة صادرة عن بادي بن مسمار سنة ١٢٠٩ هـ [٢] .

---

(١) الفونج والارض ص ٧٣ - الوثيقة السابعة .

(٢) نفس المرجع ص ٨١ - الوثيقة العاشرة .

الفصل الثاني

النظام القضائي

أ ــ القضــاء

١) نشأة القضاء في المشيخة :

قال القاضي يوسف ابراهيم النور : « يرجع تاريـخ القضاء إلى زمن ظهور العنصر العربي الاسلامي في عهد مملكة الفونج (معاصرة لمشيخة العبدلاب) سنة ٩١٠ هـ . فقد كان لرجال الادارة والسياسة في ذلــك العصر الفصل في الأمور السياسية ، والعمل على حفظ النظام العام ، وصيانة الملك ، وجبايـة الأموال . أما النزاعات المدنية ، والخصومات المتعــلقة بالأحوال الشخصية الخاضعة للناموس الديني فهذه قد وكل الفصل فيها الى القضاة المتعلمــين ، وأعطي لهم الاستقلال القضائي بقدر ما تسمح بــه ظروف السياسة في ذلك العصر .

وكان القرن العاشر الهجري في كل الأنحاء الاسلامية له نظامــه الخاص في القضاء ، هذا النظام الذي يوجب الحكم في جميع المنازعات بالقانون السماوي ــ القرآن ــ ، ولم يكن القضاء موزعاً الى مدني وجنائي وأحوال شخصية كما هو الحال لهذا العهد ، وإنما هو قاض واحد يفصل في كل القضايا ، المدنيــة الشخصية والجنائية : هكذا كان القضاء بمصر والشام والحجاز وبالسودان أيضاً ، والقاضي ــ لهذا السبب ــ يجب أن تتوفر فيه الكفاية التامة ، والإحاطــة ــ على قدر الامكان ــ بالشريعة الإسلامية . ولذلك كان للقضاة مركز ديني

خطير ، وكانت لهم زعامة حقيقية على الشعوب للقداسة المعنوية التي كانوا يشعرون لهم بها »[١] .

يدل هذا النص على حقائق أساسية يرجع أهمها الى ما يلي :

أ – لم يعرف السودان النظام القضائي إلا بعد قيام دولة العبدلاب في الشمال ، ودولة الفونج في الجنوب .

ب – وضعت مشيخة العبدلاب أساس استقلال القضاء في السودان ، ومضى الحال على ذلك حتى وقتنا الحاضر .

جـ – كان القضاء في مشيخة العبدلاب يقوم على أساس الشريعة الاسلامية على غرار ما كان عليه الأمر في جميع الأقطار الاسلامية .

د – كان على القاضي أن يضطلع بعبء الفصل في القضايا المدنية والجنائية والشخصية ، ومن ثم وجب أن تتوفر فيه الدراية والفطنة ، والإحاطة بالشريعة الاسلامية .

وسيتبين من دراستنا لهذا الموضوع مبلغ الدقة في هذا النص ، ومدى انطباقه على واقع الحال في السودان في ذلك الزمان .

٢) أنواع القضاء :

إن الاستقراء التاريخي للنصوص المدونة عن شؤون العدل يشير بوضوح الى أن القضاء باعتبار من يتولاه – كان على عهد مشيخة العبدلاب – أنواعاً أربعة : نوع يتولاه شيخ « قرى » أو « الحلفاية » ، ونوع يمارسه من دونه ،

---

(١) مجلة الفجر – المجلد الثالث – العدد الأول ، (ص ٢٠) – سنة ١٩٣٧ م – بحث بعنوان : صحيفة مطوية من تاريخ السودان القديم : القضاء .

وهو حاكم الاقليم ، أو شيخ الدار ، ونوع يقوم به القضاة المختصون . أما النوع الرابع فهو الذي يشترك فيه شيخ العبدلاب وقاضيه ، وكبار رجالات البلد ، والعسكر ، والفقهاء في شكل محكمة أقرب ما تكون في اختصاصها إلى محكمة استئناف عليا [١] .

فمن الأول :

أ) ما جاء في «الطبقات» من أن الشيخ عجيب المانجلك نظر في دعوى رفعت اليه من حمد بن عبد الجليل ضد خصم شيخ المسعوداب ، وقضى فيها بما رد الحق لصاحبه [٢] .

ب) وما رواه صاحب « واضح البيان [٣] » عن الشيخ عبدالله الرابع بن عجيب الذي جاءته قافلة تجارة تشكو من نازلة ألمت بها ، إذ سرقها لصوص وهي على أرض الشيخ عجيب في « الحلفاية » . وتحقيقاً للعدل جد في طلب السارقين الى أن عثر عليهم وعلى ما معهم ، وحينئذ رد البضاعة الى أهلها ، « وعاقب السارق بالشرع » .

جـ) كذلك قضى الشيخ عبدالله بن عجيب في قضية من نوع آخر ، وذلك حين تخاصم عنده الفقهاء أبناء الشيخ خوجلي ، والدانياب والمحمداب في قضية استحقاق أرض ، وبعد استعراض البينة والشهود حكم للخوجلاب على الدانياب والمحمداب [٤] .

---

(١) الفونج والارض (ص ٣٣ - ٣٤) .
(٢) طبقات ود ضيف الله (ص ١٣٩) .
(٣) ابن الارباب الحسن بن شاور (ص ١٧) .
(٤) الفونج والارض (ص ١٢٤ - ١٢٥) .

د) من النـوع الأول أيضاً قضاء الشيخ بادي بن مسمار[1] في نزاع بعض أفراد البيت الحاكم من العبدلاب من جهة ، وأولاد الشيخ دوليب من جهـة ثانيـة ، حيث انتصر فيه شيخ العبدلاب لأولاد الفقيه السيد دوليب ضد خصومهم من أهله العبدلاب .

ومن النوع الثاني :

مـا جاء في إحدى الوثائق الصادرة عن ملك الجموعية . فقد قررت هذه الوثيقة أن ملك الجموعية هذا – وهو حاكم اقليمي – نظر فيما عرضه عليـه أبنـاء الشيخ خوجلي من أحكام سابقة تثبت أحقيتهم في دار أبيهم الشيخ خوجلي ، ثم أصدر حكمه على من ناوأهم من المحمداب [2] .

ومن الثالث :

أ) القضية التي نظرهـا القاضي ضيف الله ، وكانت نزاعاً بين خوجلي والجلي في حوز وملكية الدار التي كان عليها عطية الله مملوك أولاد عجيب ، والتي ادعى أمامه فيهـا كل منهما الحوز والملكية ، وقدم بينته التي تثبت دعواه ، والتي قضى فيها –بعد أن فحص البينتين– للفقيه خوجلي وأبنائه[3].

ب) قضاء الحاج دفـع الله بن ضيف الله في نزاع وقع بين نور الدين بن الفقيه الأمين في خصومته لنفسه ، وبوكالة شرعية من أبناء عمه ، وعووضه بن ابراهيم بن حريحير في خصومته لنفسه ، وبوكالة مفوضة مقبولة من المحمداب

---

(١) المرجع نفسه (ص ٧٩ – ٨٠) .
(٢) الفونج والارض (ص ١٣٤) ، الوثيقة السابعة والعشرون .
(٣) المرجع نفسه (ص ٩٢ – ٩٥) ، الوثيقة الخامسة عشر .

والدانياب، وذلك في ملكية أرض ادعاها كل من الفريقين . وانتهت الدعوى بالحكم لصالح الفقيه نور الدين وأبناء عمه [١] .

جـ) ومن هذا النوع أيضاً : الحكم الذي أصدره القاضي محمد النور بن الفقيه ضيف الله في نزاع « المحمداب » و « الخوجلاب » في « فاصل الجزيرة قطعية الغربي » ، والقاضى باستحقاق « الخوجلاب » لفاصل الجزيرة موضوع النزاع [٢] .

د) قضاء الشيخ عبد الرحمن بن مشيخ النويري الذي أبطل بموجبه هبة امرأة بلغت ثلث مالها ، قاصدة بذلك ضرر زوجها ، معتمداً في قضائه هذا على قول الامام مالك ، واختيار ابن حبيب له [٣] .

هـ) ما فعله قاضي العدالة (دشين) قاضي مدينة أربجي من فسخ لأنكحة الشيخ محمد الهميم الذي تجاوزت أنكحته للنساء حدود الشرع ، لأنه تزوج خامسة وسادسة وعاشرة ، وجمع بين الاختين، وكلها محرمة في شريعة الله[٤].

أما النوع الرابع فمنه :

أ) ما ذكر من أن الشيخ عبد الله بن عجيب بعد أن أصدر حكماً لصالح « الخوجلاب » ضد المحمداب والدانياب عاد الأخيرون واستأنفوا الحكم لديه، وهنا شكل الشيخ عبد الله محكمة عالية برئاسته وضمت «كبار البلد» وعماره،

---

(١) المرجع نفسه (ص ١٠٨ – ١١٠) ، الوثيقة (٢٠) .
(٢) المرجع نفسه (ص ٢١ – ٢٣) . الوثيقة الثالثة والعشرون .
(٣) طبقات ود ضيف الله (ص ١١٤) .
(٤) المرجع نفسه (ص ١٠٥) .

وكبار « قرى » والعساكر، وفقراء الحلفاية، الى جانب قاضيه الفقيه محمد بن ضيف الله ، ونظرت في الاستئناف المقدم اليها ، ثم أصدرت حكمها بسلامة الحكم الأول ، وعدم وجود مقتض لنقضه [١] .

ب) وشبيه بهذا النوع ما جاء في ترجمة أحد شيوخ العبدلاب ، فقد ذكر أن الشيخ ناصر بن محمد الامين ألف محكمة برئاسته ، وعضوية قاضيه الحاج دفع الله ، وجمع العلماء الذين لهم دراية كافية بشؤون القضاء . وجرى الأمر فيها على غرار ما أسلفناه عن محكمة الشيخ عبد الله بن عجيب ، وانتهى نظرها الى ما انتهت اليه تلك المحكمة من قرار [٢] .

٣) تراجم القضاة :

جاء في بعض المصادر [٣] أن عدد القضاة الذين عينهم الشيخ عجيب الكبير وحده قد بلغ أربعين قاضياً ، وهذه الرواية — إن صحت — دلت على أن شيوخ العبدلاب قد عنوا عناية لا يستهان بها — بمؤسسات العدالة والأمن . وعلى كل فإن لدينا عدداً من أسماء القضاة نوجز ترجمة كل منهم فيما يلي [٤] :

١ — الشيخ عبدالله بن دفع الله العركي :

ولد « بأبيض ديري » ، وحفظ القرآن على أبيه ، ثم سافر إلى دار

---

(١) الفونج والارض (ص ١٢٥ — ١٢٦) ، الوثيقة الرابعة والعشرون ، والمراد « بالفقراء » : المقرئين للقرآن الكريم .
(٢) المرجع نفسه (ص ١٢٨ — ١٣٠) .
(٣) واضح البيان (ص ٢ — ٣) ، وانظر : السودان في رسائل (مج ١٧ ص ٦٢) .
(٤) لم نتمكن من مراعاة الترتيب التاريخي في الترجمة لمعظم هؤلاء القضاة ، وذلك لجهلنا بتاريخ وفاة كل منهم ، بسبب اغفال المصادر المتوفرة لدينا لهذا التاريخ .

الشايقية طلباً للعلم عند الشيخ عبد الرحمن بن جابر . وبعد سبع سنوات عاد أهله الذين كانوا قد سكنوا « غابة الهلالية » ، ومن ثمّ شرع في التدريس ، « وولاه الشيخ عجيب القضاء فباشره بعفة ونزاهة » [١] . ولما جاء الشيخ تاج الدين البهاري من بغداد لعرض « الطريقة القادرية » على الناس أخذها عنه الشيخ محمد الهميم ، والشيخ بان النقا الضرير . أما الشيخ عبدالله فقد امتنع عن أخذ الطريق قائلاً : لقد قرأت علماً لا أشتغل بغيره . ثم أسف على ذلك حين رأى أقرانه يتفوقون عليه بسبب أخذ الطريق ، وأراد أن يتدارك الأمر فلحق بالشيخ تاج الدين البهاري الذي كان قد رحل الى مكة ، ليجده قد مات ، ويأخذ الطريق على ابنه حبيب الله العجمي .

وقد حج الشيخ عبدالله العركي إلى بيت الله الحرام أربعاً وعشرين حجة ، واشتهر في الحجاز بالعلم ، ودرس في مقام الامام مالك رضي الله عنه ، «فلما طال مكثه في الحجاز سافر إليه أخوه الشيخ أبو ادريس ومعه الحاج سلامة الصبابي ، فحجا حجة الفريضة ، وأحضراه للبلد ، فمكث ما شاء الله وتوفي ودفن « بأبو حراز » وقبره كعبة محجوجة » [٢] .

ومن آثاره الفكرية : « كبرى السنوسي » نظماً . وكذلك نظم « المقدمات » نظماً بديعاً ، كما أنشأ قصيدة شعرية جمع فيها شيوخ الطرق الصوفية حتى وصلهم بالمصطفى عليه الصلاة والسلام [٣] .

وقد وصف قضاءه أحد الشعراء فقال :

---

(١) طبقات ود ضيف الله (ص ١١٢) .
(٢) طبقات ود ضيف الله (ص ١١٢ – ١١٣) . واضح البيان(ص ٢ – ٣) .
(٣) الطبقات (ص ١١٣ – ١١٤) .

ويحكم بالشريعة لا يبالي ويقضي بالنوازل والنقول [1]

كان حياً سنة ١٠٠٧ هـ ، وهي السنة التي فرغ فيها من نظم « المقدمات » [2] .

٢ – دشين قاضي العدالة :

هو دشين بن حمد بن الحاج محمد البصيلابي ، موطنه حلة البصيلاب غرب « عمارة طه » [3] . أما مولده فكان « بمدينة أربجي ، وكان شافعي المذهب ، وهو أحد القضاة الاربعة الذين قضاهم الشيخ عجيب » ، وقد كان قاضياً على مدينة أربجي والشافعية عموماً . أما سبب تسميته بقاضي العدالة فذلك لأنه فسخ نكاح الشيخ محمد الهميم [4] الذي تجاوز الشرع فنكح أكثر من أربع ، وجمع بين الاختين : كلثوم وخادم الله ابنتي الشيخ بان النقا الضرير. وقد أعلن القاضي دشين حكمه هذا في وجه محمد الهميم وهو من الأولياء المأذونين الذين لا يرد لهم دعاء ، وذلك حين خرج من جامع أربجي بعد صلاة الجمعة . ولم تنجح محاولات ادريس[5] الراميه لثنيه عن عزم هذا الفسخ ، ولا انكسر قلبه وجلا من دعاء الشيخ الهميم الذي تقول « الطبقات » إنه أجيب وكان من نتائجه أن مرض دشين حتى انفسخ جلده . من أجل هذا الموقف الصلب نعت بـ «قاضي العدالة» ، وقال فيه الشيخ فرح ود تكتوك أحد المشاهير[6] :

---

(١) واضح البيان (ص ٢) .

(٢) الطبقات (ص ١١٣) . وانظر في ترجمته كذلك : الفونج والارض (ص ٩٢) وما بعدها .

(٣) التعارف والعشيرة (ص ٢٥٩) .

(٤) انظر ترجمته في الطبقات (ص ١٤٨) .

(٥) انظر ترجمته في الطبقات (ص ٧ – ١٤) .

(٦) انظر ترجمته في الطبقات (ص ١٤٦) ، وعبارته معناها ان « دشين » عادل لا يميل الى الضلال أبداً ، وان ذريته الصالحة قامت لتدريس رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي.

وين دشين قاضي العدالة المـــا بيميل للضلالة
نسله نـعـــم السلالة الأوقـدوا نار الرسالة

* * *

توفي رحمه الله « بالداخلة » ، وقبره بها ظاهر يزار[1] .

٣ – عبد الرحمن بن مشيخ النويري :

طلب العلم مع الشيخ عبدالله العركي على الشيخ عبد الرحمن بن جابر، وكان أحد تلامذتـه الأربعين الذين نالوا درجة القطبية ، كما كان واحداً من الأربعة الكبار الذين ولاهم الشيخ عجيب القضاء لمعرفته الواسعة بأساليبه . وقد أشرنا – غير مرة – الى الحكم الذي أصدره في قضية امرأة تصدقت بثلث مالهـا بغية اضرار زوجها الذي رفع دعوى عليها مطالباً برد المال ، فكان أن قضى المشيخي برده ، ممـــا أثار نزاعاً قضائياً رفع للشيخ الأجهوري في مصر ، « فأجابهم بصحة الحكم ، مراعاة للعرف والمصلحة [2] » .

إلى جانب القضاء اشتغل الشيخ عبد الرحمن بالتدريس ، فكان من تلاميذه

---

(١) انظر ذلك مفصلاً في الطبقات (ص ٩٠) ، واضح البيان (ص ٣) . اما «الداخلة» فقد ذكر محقق « الطبقات » ابراهيم صديق (هامش ص ٩٠) انها جهة على نهر الدندر ، وقال إنّ على قبر القاضي دشين قبة من الطوب الأحمر . وذكر لي الاستاذ عبد الرحمن علي طه أحـــد رجال التربية البارزين في السودان عند زيارتي له في داره بأربجي في ١٩٦٩/٤/٢ م ان القاضي دشين مدفون في أربجي. وأيد روايته هذه كروفورد فقال : « شمال المرتفع (بأربجي) بقـــايا ثلاث قباب .. الوسطى لدشين ، والجنوبية القصوى لأبي زيد » (مملكة الفونج في سنار ص ٦٨). أما قبة أبي زيد فلا تزال بقاياها قائمة وقـــد وقفت عليها ، غير أني لم أشاهد في بقايا أربجي أثراً لقبة دشين ، ويبدو أنها درست في وقت لاحق لعهد كروفورد .

(٢) الطبقات (ص ١١٤) ، وانظر واضح البيان (ص ٣) .

« ولد أبي أمونة » والفقيـه ادريس ولد محسن شيخ الشيخ دفع الله العركي في « خليل » . « توفي ودفن بحلة الفقراء ضهرة أريجي، وقبره ظاهر يزار[1] ».

٤ – القاضي علي ود عشيب :

ترجم له صاحب « الطبقات » فقال : « مولده ببندر دنقلا ، وطلب العلم عند الشيخ محمد البنوفري بمصر ، وبرع فيه ، وسكن دار الصعيد[2] ، وبنى له الشيخ عجيب الكبير مسجداً ... وولي القضاء فعدل فيه ، وحكم بالمتفق عليه من القوي والخلاف ، وكان رفيق الشيخ ابراهيم البولاد بن جابر في طلب العلم بمصر . توفي ودفن «بالعيدي» أو «العيدج» بالجيم ، وقبره ظاهر يزار[3]».

٥ حمد النجيض :

« عوضابي جموعي » ، ولد بالجزيرة « اسلانج [4] » . وعند مجيء الشيخ تاج الدين البهاري للسودان أخذ عليه طريق الصوفية، وكان من المقربين للشيخ عجيب الكبير ، لذا بنى له مسجداً حيث ولد ، وأوقف على المسجد داراً . ومن مآثره أنــــه أوقف نفسه لتحفيظ الناس القرآن الكريم ، وواظب على ذلك طويلاً . حتى اذا كانت حرب الشيخ عجيب الكبير والفونج شارك فيها

---

(١) الطبقات (ص ١١٤) ، « وخليل » يكنى به عن المختصر الذي ألفه الشيخ خليل ابن اسحق في الفقه المالكي.

(٢) « الصعيد » تشمل المنطقة الواقعة جنوب شرقي الخرطوم (حوض النيـــل الأزرق) والجزء الشرقي من النيل الأبيض شمالي « كوستي » . وقد يتوسع فيه .

(٣) الطبقــات (ص ١١٤ – ١١٥) ، « والعيدي » بلدة بشاطىء النيل الأزرق بين الكاملين وولد الترابي .

(٤) تقع « جزيرة اسلانج » على بعد عشرين ميلاً شمال الخرطوم (كروفورد ص ٦٩) .

الى جانب شيخ العبدلاب ، وقتل معه وذلك سنة ١٠١٩ هـ [١] .

٦ - المصري محمد القناوي :

تلقى علومه على الشيخين : سالم السنهوري ، ويوسف الزرقـاني بن عبد الباقي، وكانا من أعلام السادة المالكية ، ثم قدم إلى السودان أول النصف الثـاني من القرن العاشر الهجري حيث كان على دولة العبدلاب الشيخ عجيب المانجلك ، وتنقل بين بلدان : بربر وأربجي وسنار ، ثم انتهى به المطاف الى بربر مرة أخرى حيث وافقه سكناها، لطيب هوائها الذي وصفه بأنه أطيب من هواء جميع البـلاد . وهناك بنى مسجده ، وشرع يلقي فيه دروساً في الفقه ، يشرح فيها الرسالة ، وأخرى في النحو والتوحيد وسائر العلوم . ثم اختير - لعفته ونزاهتـه وكفايته - لتولي قضاء بربر ونواحيها ، « فباشره بعفة ونزاهة ، وحرم الرشوة على الحكم ونهى عنها » وكانت وفاته ببربر عليه رحمة الله [٢] .

٧ - بقدوش بن سرور :

جموعي ، حصل علومه على الشيخ محمـد ولد عيسى ، وكان ذا قدر عند الشيخ عجيب الكبير ، لذلـك ولاه القضاء على دار الجموعية . فلما أنشبت الحرب بين الفونج والعبدلاب حارب في صفوف الشيخ عجيب المانجلك [٣] .

---

(١) الطبقات (ص٥٦) . وانظر: The Fung Kingdom of Sennar, p. 68.

(٢) تاريخ مختص بالنوبة (ص ٥) ، الطبقات (ص ٣١ - ٣٢) ، واضح البيان (ص٣).

(٣) الطبقات (ص ٤٤) .

٨ – يعقوب بن بان النقا :

معدود في الأولياء أصحاب الكرامات ، وفي تلاميذ شيخ الاسلام الشيخ عبد الرحمن بن جابر ، الاربعين الذين أقامهم أقطابا في بلادهم ، وكان قد أخذ علم الدين والشرائـــع عليه . أما طريق الصوفية فقد تلقاه عن ابيه الشيخ بان النقا . وبعـد أن أنهى تحصيله العلمي على شيخه وعاد الى بلده وجد أباه قد مات فقام مقامه ، وشرع يسلك القوم الطريق ، ويقوم بتربية المريدين ، في نفس الوقت الذي أوقد فيـــه نار القرآن الكريم ، وباشر بالقاء دروس الفقه والتوحيد .

« وممن أخـــذ عليه من الأجلة الشيخ موسى ولده ، ومرزرق أخوه ، والشيخ هجو ، والشيخ عبد الرازق أبو قرون ، والشيخ عبد الدافع « راجل ويركت » و « القربين[١] » . وأما المريدون فكثيرون[٢] » .

إن الشيخ يعقوب فوق ما كان يقوم به من التدريس وتربية المريدين كانت له « فتاوى وأحكام وأقضية حسنة [٣] ». ويدل على ممارسته القضاء – إضافة إلى النص السابق – ما وجده صاحب الطبقات بخطه ، وهو عبارة عن حكم أصدره في قضية تولى نظرها، ثم أرسله الى قاضي سنـــار « دياب بن القاضي عجيب[٤] » . ولكن الغرض من عرض الحكم عليه لم يعرف أهو للاطلاع أم للتصديق . وقد توفي القاضي يعقوب حول سنة ١٠٧٠ هـ [٥] .

---

(١) « القربين » مشيخة صغيرة تخضع لنفوذ الفونج أيام دولتهم ، وتقع في أرض الجزيرة على النيل الأزرق . أما « ويركت » فلم أهتد الى معرفة شيء عنها ، فلعلها بلد درست الآن .

(٢) الطبقات (ص ١٨٠) .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) الطبقات (ص ١٨٠) .

(٥) نفس المرجع والصفحة .

٩ - القاضي ضيف الله بن محمد ضيف الله :

حفظ القرآن عن أبيه ، وتفقه على الشيخ بلال والفقيه أبي الحسن . أما علم العقائد فقد حصله على الفقيه ادريس بن بلة الكناني. على أنه جمع الى علوم الظاهر علوم الباطن ، فأخذ طريق الصوفية على الشيخ خوجلي ، ثم « انتصب للفتوى و**الأحكام** وتدريس الفقه من سنة ثلاثين بعد المائة والألف الى أن توفي سنة اثنين وثمانين، وكان ممن جمع بين العلم والعمل والزهد والعبادة [1] ».

على أن نبوغه في الفقه المالكي وتفوقه فيه على أقرانه كان محل إجماع الأمة ، فالناس يقولون : « بعد ابراهيم الحجر الفقيه أبو الحسن ، وبعد الفقيه أبو الحسن ضيف الله . وكان تفوقه في الفقه هذا هو الذي أهله لتولي القضاء القائم على أحكام الشريعة الاسلامية ، فقد جاء في الوثيقة الصادرة عنه سنة ١١٨١ هـ أنه عقد « مجلس شرع » برئاسته ، وفق الأمر الصادر من شيخ العبدلاب عجيب بن الشيخ عبدالله لوكيله « مرناتي » ، والذي قضى بأن يقعد المتخاصمين الشرع عند ضيف الله هذا ، وكان ذلك عندما ثار خلاف حول أرض يدعي ملكيتها « الخوجلاب » وينازعهم فيها « الجلي » . وعلى هدى من النصوص الفقهية التي تعالج الصدقة وشروط صحتها ، ووفق قواعد الاثبات الشرعية حسم القاضي ضيف الله النزاع [2] .

وكان من تلامذته الأعيان الذين أخذوا الفقه عليه : « الفقيه اسماعيل شيخ القوز ، والشيخ عبد الرحمن بان النقا ، والفقيه بشير بن علامة ، والفقيه أحمد بن عيسى ، والفقيه عبد الرحمن بن أرباب ، وولداه ، ومؤلف هذا

---

(١) نفس المرجع (ص ١٠٩) .
(٢) الفونج والارض (ص ٩٢ - ٩٥) .

الكتاب ، والحاج دفع الله [1] » .

وكانت وفاته – على ما سبق – سنة ١١٨٢ هـ .

١٠ – القاضي محمد بن ضيف الله :

بدأ كما يبدأ أقرانه بحفظ القرآن الكريم على الفقيه حمد بن حميدان ، ثم جوّد عليه التلاوة حيث ألم بأحكام القرآن ، بعد ذلك ارتقى درجة في سلم المعرفة فقرأ علم الكلام على الشيخ أرباب الخشن الذي تفوق في هذه المادة حتى سمي « أرباب العقائد » . ثم انتقل ليتحصل على واحد من أهم العلوم المؤهلة للقضاء وهو الفقه المالكي ، فدرس « الرسالة » على الشيخ عبد الصادق ولد حسيب ، واستوعب « مختصر الخليل » على المشايخ « بقوز العلم » وبرع فيه تحقيقاً ، كما قرأ عليهم : أبا الحسن على الرسالة اثني عشرة مرة ، والمختصر ثمان . وقد انعكست هذه الثقافة على شخصيته فكان صداها تقى وزهداً وورعاً ، كما امتدت آثارها إلى المجتمع والقائمين بأمره فأصبح « مهاباً عند الفونج وأولاد عجيب ، وعند الخاص والعام ، مقبول الشفاعة [2] » . واذ كان على هذه الحال ، تتوفر فيه أهلية القضاء أُسند اليه من قبل شيوخ العبدلاب . تحدثنا الوثيقة الصادرة باسمه سنة ١٢١٤ هـ أن الشيخ عبد الله بن عجيب أحضره في وجهه حين تنازع أمامه المحمداب وأبناء الشيخ خوجلي في مسألة حدود أرض ، ووكل اليه القضاء في الأمر .

ونظرة على اجراءات التقاضي التي تأساها في نظر هذه القضية تكشف إلى أي مدى كان ملماً بأحكام القضاء المعمول بها آنذاك ، ومتعمقاً أصول

---

(١) الطبقات (ص ١١٠) .

(٢) نفس المرجع (ص ١٧٥) .

الشريعة ، وحذراً في تطبيق قواعدها [1] .

أما وفاته فيفهم من هذه الوثيقة أنها حدثت بعد صدورها بزمن يسير .

١١ - القاضي دفعالله بن ضيف الله :

جاء اسمه في الوثيقة الصادرة عنه سنة ١٢٢٦ هـ ، والتي جاء فيها : «والمحفوظ المبرور ، المؤيد المنصور ، الشيخ ناصر أرسل للمحمداب والدانياب أحضرهم ، وأحضر مكهم الأرباب ابراهيم في وجهه ، وقعد لهم ديوان ، وأرسل لقاضيه الحاج دفع الله » [2] .

من هذا النص يظهر : أن دفع الله كان قاضياً ثابتاً ، وكان يقضي في مدينة « الحلفاية » حاضرة العبدلاب ، وهو - لهذا - من القضاة الكبار ، وهو من قضاة المشيخة المتأخرين زمناً ، لأن ناصر الذي دعاه لنظر هذه القضية كان آخر شيوخ دولة العبدلاب .

١٢ - القاضي عبد العزيز الشريف محمد المهدي :

يبدو أنه من القضاة الكبار الذين تعرض عليهم الأحكام لمراجعتها ، وابداء الرأي فيها . يدل على ذلك أن الفقيه ضيفالله القاضي الذي سبقت ترجمته عرض حكماً أصدره في احدى القضايا على مجموعة من القضاة والعلماء كان منهم القاضي عبد العزيز هذا الذي علق على الحكم بقوله : « تصفحت الحكم

---

(١) الفونج والارض (ص ١٢١ - ١٢٣) .
(٢) المرجع نفسه (ص ١٢٨ - ١٣١) .

فوجدته صحيحاً ، وأمضيت العمل بموجبه » ، ثم وضع ختمه على الوثيقة[1] توفى بعد سنة ١١٨٣ هـ[2] .

١٣ – القاضي بلال بن محمد الأزرق :

جاء في ترجمة « شمة بن محمد بن عدلان الشايقي » أنه درس كتب الشافعية : المنهاج ، والمنهج على الفقيه بلال المصيقيع عالم أربجي وخطيبها وقاضيها[3] . وترجم له صاحب الطبقات فقال : « بلال ابن الفقيه محمد الأزرق بن الشيخ الزين ولد صغيرون ، تفقه على أبيه ، وجلس في حلقته بعده ، وانتفعت به الناس »[4] . وبعد أن عدّد تلامذته الذين تلقوا العلم عليه ، أشار إلى ولايته وقبول دعائه ، ومثل لهذا القبول بما حدث « لبقوي ولد عجيب » الذي امتهنه ، فدعا عليه فقتل – بسبب ذلك – مع « العجيل »[5] .

١٤– القاضي محمد النبيه :

ذكره صاحب « الطبقات » بهذا النعت عند ترجمته للشيخ محد بن حسن أبو حليمة فقال : « ... ووقعت منازعة بين الشيخ عبد القادر بن الشيخ إدريس وبين رجل من ناس ولد دليبة يقال له : شكرالله عند القاضي محمد النبيه »[6] .

---

(١) الفونج والارض (ص ٩٢ – ٩٥) ، الوثيقة (١٥) صادرة سنة ١١٨١ هـ .
(٢) المصدر السابق (ص ٩٥) .
(٣) الطبقات (ص ١٠٠ – ١٠١) .
(٤) المصدر السابق (ص ٤٣) .
(٥) المصدر السابق والصفحة . والعجيل هو محمد العقيل رابع شيوخ العبدلاب (انظر ترجمته في الباب الرابع) .
(٦) المصدر السابق (ص ٥٤) .

ولم تتوفر عنه أية معلومات أخرى .

١٥ – القاضي مالك حمدتو :

هو مالك بن عبد الرحمن بن مالك بن عبد الرحمن بن حمدتو ، ترجم له صاحب « الطبقات » بقوله: أما مالك فهو عالم الأبواب على الاطلاق ومدرسها ومفتيها وقاضيها ، كان صلب الأحكام ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، لا يباري فيها ولا يماري ولا يداري » . وقد ذكرنا أن بلدة الأبواب هي مدينة « كبوشيه » الحالية تقريباً ، وكانت حينذاك اقليماً تابعاً لمشيخة العبدلاب .

١٦ – حلالي بن محمد بن عيسى سوار الدهب :

ينحدر من جهة أمه من الأسرة الحاكمة في اقليم دنقلا الذي كان تابعاً لمشيخة العبدلاب ، فأمه ابنة الملك حسن بن كشكش ملك دنقلا . بلغ شأواً عظيماً في العلم ، وتحلى بحظ وافر من الدين والصلاح وتفوق على جميع أقرانه . فأهلته هذه النشأة الصالحة لتولي القضاء مثل أبيه ، والحكم بالمتفق عليه ، والقوي من الخلاف . وكان في أكثر أحكامه يميل إلى الصلح ولكن في غير حقوق الله ، كالأموال وما يقارب أحكامها [١] .

٤) مؤهلات القاضي ومذهبه في الحكم

بالتأمل في تراجم القضاة السابقة يتبين أن المعارف التي كان يتحتم توفرها في الشخص ليكون مؤهلاً لتولي القضاء تتلخص في الآتي :

---

(١) طبقات ود ضيف الله (ص ٧٠) .

أولاً : أن يكون حافظاً للقرآن الكريم ، عارفاً لأحكامه ، مجوداً له.

ثانياً : أن يكون قد ألم بطرف غير يسير من علم الكلام ، أي التوحيد.

ثالثاً : أن يكون على دراية كافية بعلوم العربية وفي مقدمتها النحو .

رابعاً : أن يسلك طريقاً صوفياً ، وهو في الأغلب الطريقة القادرية ومشتقاتها .

خامساً : أن يكون متبحراً في علوم الفقه ، ويغلب أن تكون دراسته قائمة على مذهب الامام مالك ، إذ هو السائد في السودان منذئذ والى اليوم ومن الكتب التي يتردد اسمها كثيراً في تراجم القضاة : رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، ومختصر الشيخ خليل بن اسحق، وكلاهما في مذهب الإمام مالك، كما كانت ترد في أثناء نظر القضايا اشارات واضحة الى كتاب « المدونة » للامام مالك ، وفي هذا دلالات جلية على أن مذهب الحكم في قضاء العبدلاب كان مذهب الامام مالك رضي الله عنه .

والسؤال هنا : لماذا كانت المؤهلات العلمية لمهنة القضاء تنحصر في علوم الدين وما يتصل بها من علوم اللغة العربية ؟

يرجع تفسير هذه الظاهرة الى طبيعة مجتمع مشيخة العبدلاب في ذلك الوقت ، فقد كان مجتمعاً اسلامياً إلى أبعد الحدود ، وكانت البلاد المحيطة به تأخذ بمقادير مختلفة من شريعة الاسلام، ولم تكن القوانين الوضعية قد عرفت طريقها بعد إلى دولة العبدلاب . لذا لم يكن أمام كل طامح لتسنم عرش غير حمل النفس على استيعاب كتب الفقه الاسلامي – وبخاصة فقه مالك – والتزود من العلوم الأخرى بما ييسر للقاضي تطبيق تلك النظريات الفقهية .

وإن النظرة المتأنية لأحكام أولئك القضاة تدل – في غير لبس – على

مدى الحاجة لهذا النوع من التحصيل بالنسبة للقضاة ، إذ كيف يتسنى لقاض أن يحكم برد ثلث ما تبرعت به امرأة رجل قاصدة به ضرره إن لم يكن يعلم قول مالك واختيار ابن حبيب أو من يماثلها في هذه الأمور ؟! وكيف يتسنى لفقهاء زمانه أن ينازعوه الحكم لولا ارتكازهم على ظاهر كلام « خليل » ، وقول مثل قول ابن القاسم ؟ ويقولون له حكمت بالمقابل ، حتى يفصل بينهم الأجهوري في مصر[1] ؟! ومن هنا كان السبب في إشارة القاضي – أثناء نظره القضية – الى السند القانوني في كل إجراء يتخذه .

فالقاضي ضيف الله عندما طلب من الخصمين: خوجلي والجلي، البينة على صحة دعواهما بحوز الأرض موضوع نزاعهما اعتمد في ذلك على قول ابن عبد السلام عن شرط صحة الصدقة : « القبول والحيازة معتبران ، إلا أن القبول ركن، والحيازة شرط » ، كما اعتمد على نص عبد الباقي والخراشي والتتائي ... الخ [2] .

وعندما طلب من أولاد الشيخ خوجلي تزكية البينة التي تقدموا بها ، واستند إلى علمه في بعض أفراد البينة اعتمد على قول المصنف [3] : « ولا يستند لعلمه إلا في التعديل فيستند له ، ولو شهدت بينة بجرحه لأن علمه أقوى من البينة ؛ نص عليه الشيخ عبد الباقي »[4].

ولما ادعى الطرف الآخر – وهو الجلي – الحوز طلب منه البينة على ثبوت

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في الطبقات (ص ١١٤) .

(٢) الفونج والارض (ص ٩٢ – ٩٣) ، وابن عبد السلام من علماء المالكية ، وشارح ابن الحاجب المسمى : « المختصر الفرعي » ، وعبد الباقي والتتائي والخراش من شراح مختصر خليل ، وكلهم من علماء المالكية أيضاً .

(٣) المصنف هو خليل بن اسحق صاحب « المختصر » المشهور في الفقه المالكي .

(٤) في هذا دلالة على انه يعني بالمصنف « خليل » وعبد الباقي أحد شراحه كما مر .

الحوز « وأنظره لها باجتهاده » اعتماداً على قول صاحب « المختصر » ، وعلى قول الخراشي الذي قيد اطلاق « خليل » بقوله : « ما لم يتبين لدده ، وإلا حكم عليه من الآن »[1] . وهكذا في بقية القضايا .

٥) نظام التقاضي

أ ـ الأمر بتشكيل المحكه ، والجهة الآمرة بذلك :

يحدث أن يذهب الشاكي أو المدعي إلى السلطان السناري ، فاذا كان المدعي والمدعى عليه يقيمان في المنطقة التي تخضع لنفوذه المباشر نظر ، وإذا كانت تحت نفوذ العبدلاب بعث لشيخهم ، للعلاقة الكائنة بينه وبين شيخ العبدلاب[2] .

ويغلب أن يذهب الشاكي رأساً لشيخ العبدلاب الذي قد ينظر الدعوى بنفسه ، وحده ، أو يشرك معه قاضيه وبعض رجال دولته . وأكثر ما يكون الأمر أن يأمر وكيله بتشكيل محكمة يرأسها قاضيه ، أو ينظر القاضي وحده في الدعوى ، سواء وكل إليه نظرها من شيخ العبدلاب مباشرة ، أو بواسطة وكيله[3] .

---

(١) الفونج والارض (ص ٩٣) ، وثيقة (١٥).

(٢) المصدر السابق (ص ٩٣ وما بعدها) ، الوثيقة (١٥) .

(٣) انظر : الفونج والارض (ص ٧٩ – ٨٠) ، الوثيقة (١٠) ، وانظر كذلك الوثيقة (١٥) (ص ٩٢ وما بعدها) ، والوثيقة (١٧ ، ص ٩٩ وما بعدها) .

وأحياناً أخرى ينظر الدعوى حاكم الاقليم من تلقاء نفسه ، أو بأمر من شيخ العبدلاب [1] .

ب – تكوين المحكمة:

وبعد أن تقبل الدعوى ويصدر الأمر بتكوين المحكمة تتشكل إما من شخص واحد ، يعاونه بعض العلماء ، وهذا قد يكون شيخ العبدلاب ، أو حاكم الاقليم ، أو القاضي [2] . أو من عدة أشخاص ، وهؤلاء إما أن يكونوا : شيخ العبدلاب وقاضيه وكبار البلد وأهل الرأي فيه ، والعسكر ، وفقهاء « الحلفاية » في شكل محكمة عالية للاستئناف – كما فعل الشيخ عبدالله بن عجيب [3] ، أو ينحصر هؤلاء الأشخاص في القاضي الذي يختاره الشيخ ومعه جملة من العلماء ممن لهم دراية بشؤون القضاء – كما فعل الشيخ ناصر بن محمد الأمين [4]. وقد يكون للمحكمة مستشار [5] .

ج – اسلوب المحاكم :

فإذا ما انعقدت المحكمة على أي من الصور التي قدمناها بدأت إجراءاتها القضائية باستدعاء المدعي لسماع دعواه . هذا إذا كان المدعي واحد، والمدعى

---

(١) المرجع نفسه (ص ١٣٤) ، الوثيقة (٢٧) .

(٢) المرجع نفسه (ص ١٣٢ وما بعدها) ، الوثيقة (٢٦) ، و (ص ١٣٤ وما بعدها). الوثيقة (٢٧) ، (و ص ١٢٤ وما بعدها) الوثيقة (٢٤) ، و (ص ١٢١ وما بعدها) ، الوثيقة (٢٣) .

(٣) المرجع نفسه (ص ١٢٥) وما بعدها ، الوثيقة (٢٤) .

(٤) المرجع نفسه (ص ١٢٨)وما بعدها ، الوثيقة (٢٥).

(٥) المرجع نفسه (ص ٩٤) .

عليه كذلك . أما إذا كان طرفا القضية متعددين فإن القاضي يلزم كل طرف بأن يختار وكيلاً عنه ليتحدث باسمه كما فعل القاضي دفع الله . ثم يبدأ وكيل المدعين بسؤال وكيل المدعى عليهم قائلاً : هل تلتزم بقبول ما يحكم به على موكليك ؟ فيجيب بالايجاب ، ثم يطلب وكيل المدعى عليهم من وكيل المدعين الاقرار بمثل ما أقر به هو فيجاب أيضاً بالالتزام . ويراعي القاضي ضرورة ثبوت هذه الوكالة المفوضة بالبينة الشرعية .

بعد هذا تنتقل المحكمة إلى سماع الدعوى والجواب عليها ، ثم تطلب من كل طرف إثبات دعواه إما بمستند أي وثيقة معتبرة شرعاً ، أو ببينة شهود ، ولا تقبل شاهداً غير مزكى إلا إذا اعتمدت في تعديله على علمها ، وعندئذ تقبله وان شهدت بينة بجرحه لأن علمها أقوى من البينة كما تقول قواعد الإثبات التي جرى عليها العمل حينذاك . فاذا رفضت بينة ـ وثيقة أو شهوداً لضعفها أنظرت صاحبها باجتهادها ليأتي ببينة مقبولة ، إلا إذا ظهر للمحكمة لدد صاحب البينة المرفوضة فانها عندئذ تحكم عليه من فورها . فاذا انتهت مدة الانظار وأعذرت له المحكمة ثانية باجتهادها ، ثم ثبت – بعد ذلك – تغيبه أو هروبه بالبينة العادلة قضى عليه وعجز كما لو كان حاضراً ، وحكم للطرف الآخر عليه . وفي خلال كل هذه الأطوار تستشهد المحكمة بنصوص قوانين الفقه الاسلامي المدلة على صحة اجراءاتها .

ويحدث أن تستشير المحكمة قبل إصدار حكمها من تراه أهلاً لذلك ، كما استشار القاضي ضيف الله الفقيه اسماعيل خليفة الشيخ صغيرون ، كما يحدث أن يعرض الحكم – بعد إقراره – على كبار القضاة والعلماء للنظر فيه وإمضائه إن كان صواباً بالتوقيع عليه [١] .

---

(١) انظر التفاصيل الوافية لذلك في كتاب : الفونج والأرض ، الصفحات : (٩٢ – ٩٥/ ١٠٨ – ١١٠ / ١٢٤ – ١٣٠) .

هذا وقد وصف « كرمب » إحدى محاكم العبدلاب التي شاهدها وكانت برئاسة شيخهم ، وهو وصف لا يخرج في مجموعه عن هذا الذي قدمناه ، ننقله – كما لخصه الدكتور شبيكة – حرفياً فيما يلي :

« ولعلّ أطرف ما شاهده كرمب هو محكمة المانجل التي تعقد في حضرته ومعه كبار رجال دولته . يختار الشاكي والمدعى عليه كل منهما محاميه من بين الحضور ، ويخبر الشاكي محاميه بالقضية ، وهذا يعرضها . ويرد المدعى عليه بأنه غير مذنب ، ثم يترافع كل محام عن جانبه الذي وكله . وقد يشترك بعض الحاضرين في المناقشة مؤيدين أو معارضين أحد المتخاصمين ، وأثناء ذلك ينصت المانجل وقد استوفت القضية الشرح وتقديم الأدلة من الجانبين ، سواء من المحامين ، أو من الحاضرين الذين اشتركوا في المناقشة . وعند الانتهاء يصدر حكمه الذي لا استئناف بعده »[1] . وفي هذه القضية بالذات صدر النطق بالحكم في كلمة واحدة هي : اضربه ، فما كان من الحاضرين إلا أن أخذ كل منهم عصاه ، وأخذوا يضربون المخطىء حتى قال الشيخ : كفاه[2] .

د – الاستئناف :

لا نوافق « كرمب »[3] فيما ذهب إليه من انتفاء الاستئناف في محاكم العبدلاب ، لأننا وقفنا على نماذج للحكم تدل على أن العبدلاب عرفوا أنواعاً من الاستئناف . منها أن يحكم القاضي حكماً يستأنف عند شيخ العبدلاب ، فيرده الشيخ إلى نفس القاضي لاعادة النظر فيه .

---

(١) مملكة الفونج الاسلامية (ص ٨٠ – ٨١) .

(٢) The Fung Kingdom of Sennar, pp. 221 - 2.

(٣) Ibid. pp. 221 - 2.

ومثاله : ما جاء في إحدى الوثائق من أن القاضي ضيف الله حكم حكماً استأنفه « الجلي » لدى الشيخ عجيب بن عبدالله الذي رده مرة أخرى لقاضيه ضيف الله للتصحيح [1] .

ومنها أن يصدر القاضي حكماً ثم يمهل المحكوم عليه بعض الوقت ليستأنف الحكم عند قاض آخر أو عالم يرتضيه . ومثاله ما فعله القاضي دفع الله مع وكيل المحمداب والدانياب : عووضة بن ابراهيم الذي رضي بذمة الفقيه محمد ولد الجبيل ، ولكن محمداً هذا قال : « أنا موافق وحاكم بصحة هذا الحكم » [2] .

ومن أنواع الاستئناف أيضاً أن يصدر شيخ العبدلاب حكماً ثم يستأنف إليه هو نفسه ، فيشكل محكمة عالية تجمع إلى جانبه قاضيه ، وكبار البلد ، وكبار مدينة قرى والحلفاية ، والعساكر لتعيد النظر في القضية التي سبق وأصدر حكماً بشأنها . ومثال ذلك ما جاء في إحدى الوثائق من أن الشيخ عبدالله بن عجيب أصدر حكماً لصالح « الخوجلاب » ضد الدانياب والمحمداب ، وقال فيه : « إن من تعدى بعد جوابي هذا عليه « الحسب » وفوقه ألف ، وصارت الدار ملكاً لأولاد الشيخ خوجلي ، لا يعارضهم فيها معارض ، ولا ينازعهم فيها منازع » [3] .

وبعد ذلك جاءه الدانياب والمحمداب مستأنفين حكمه ، فقبل استئنافهم ، وأعاد نظر القضية من جديد [4] .

---

(١) الفونج والأرض (ص ٩٩ — ١٠٠) .
(٢) المرجع نفسه (ص ١٠٨ — ١١٠) ، والوثيقة (٢٥ ، ص ١٢٨ — ١٣٠) .
(٣) الفونج والأرض (ص ١٢٤ — ١٢٥) .
(٤) المرجع نفسه والصفحات ، الوثيقة (٢٤) .

٦ – نماذج للأحكام :

تمثل الوثائق : ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ [١] – القضاء عند العبدلاب بصورته التي عرضناها على الصفحات السابقة تمثيلاً صادقاً وأميناً . ولا بأس من أن نضيف نموذجاً آخر يلقي مزيداً من الضوء على هذه الناحية وإن كان به بعض الاجمال وبعض الاختلاف :

جاء في « الطبقات » عند ترجمتها للشيخ يعقوب بن الشيخ بان النقا الضرير ما نصه : « وقد وجدت بخطه حكما حكمه ، وأرسله إلى قاضي سنار ولفظه : سلام الله تعالى ورحمته وبركاته ، وأزكى تحياته . من حضرة الفقير يعقوب إلى القاضي دياب بن المرحوم القاضي عجيب رحمة الله عليه . أما بعد فإن عمك الشيخ حمدان رفع الأمر إليك في الخلاف الذي بين أولاده ، وأنت أرسلت اليهم بالموافقة وترك الخلاف ، وسمع ذلك أولاد موسى وأخوهم محمد ، ونحن والجماعة حققنا جفاهم وعدم موافقتهم وخلافهم، وأنهم طاردون أخاهم. فذا الحين محمد ادعى عليهم بحضرتي ، وأشهد العدول ، وحلف أنه أنفق عليهم بنية الرجوع ، وعدد الرؤوس المنفق عليهم سبعة عشر نفساً ، والمدة ثلاث سنين ، وأثبت دعواه وحلف وحكمنا له . والشهداء على : الانفاق ، والرجوع ، والحكم : الفقيه عيسى ، والفقيه بدوي ، والفقيه يعقوب، وجميع أهل البلد . وصفة اليمين التي حلفها: بالله الذي لا إله إلا هو إني أنفقت عليهم بنية الرجوع »[٢].

ب – الحسبة :

ذكر ابراهيم عبد الدافع عن الشيخ عبدالله بن عجيب أنه أمر في أيامه

---

(١) المرجع نفسه الصفحات (٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٢) .
(٢) طبقات ود ضيف الله (ص ١٨٠) .

بتزويج النساء مع تقليل مهورهن ، وأمر أهـــالي السوق جميعهم – حتى الجزارين – بأنهم إذا سمعوا الأذان يتوجهون جميعاً الى المسجد لحضور الصلاة، كما أفنى الطغاة الذين أجمعوا أمرهم على نهب وسلب أموال العباد ، فكان يجمعهم جماعـة جماعة ويضرب رقابهم ، وأشرف بنفسه على منع السرقة ، ومراقبة قطاع الطرق ومعاقبتهم حتى انحسرت موجتهم التي كانت قد هددت أمن المجتمع [1].

وذكر ابن شاور عن هذا الشيخ أيضاً أنـه كان من عاداته أن يطوف بالليل خارج حاضرة ملكه خفية للوقوف على أحوال الرعية ، ولمنع وقوع ما يهدد أمن الناس واستقرارهم ، وبينما هو ذات ليـلة في هذا التطواف سمع رجلاً بذيء الخلق يدعى عبد الجليل يتغنى بأبيات فيها فحش ومجانة ، فأمر بمثوله بين يديه ، وسأله عن قوله فاعترف به ، وعندها أمر بضرب عنقه ، ثم عدل عن ذلك – حين شفع له بعض الشافعين – إلى النفي والإخراج [2].

وجاءت في وثائق العبدلاب ألقاب ثلاثة ، أحدهـا « الجندي » وثانيها « جندي السوق » ، وثالثهـــا « جندي قرى » ، و « قرى » هي العاصمة الأولى للعبدلاب [3] – كما هو معلوم –.

وقد حدد الدكتور أبو سليم وظيفة« جندي قرى » بقوله : « هوالشخص الذي يتولى حكم المدينـــة» [4] . وقد يصح – قياساً على ذلك – أن يسمى « جندي السوق » حاكم السوق أو ضابطه .

---

(١) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ١٩ / أ – ٢٠) ، تاريخ مختص بأرض النوبـــة (ص ٢٨) ، مخطوطة كاتب الشونة (ص ٤٣) ، جغرافية وتاريخ السودان (٢/٤٠٥) .

(٢) واضح البيان (ص ١٨) .

(٣) الفونج والأرض (الصفحات : ٥٣ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٣) .

(٤) نفس المرجع (ص ٥٣) .

ومن الأسماء التي كانت تحمل بعض هذه الألقاب :

١ – **الجندي حماد** : وجاء ذكره في الوثيقة الصادرة عن الشيخ محمد الأمين مسمار بعد سنة ١١٨٤ هـ [١].

٢ – **دفع‌الله جندي قوى** : ورد اسمه في الوثيقة الصادرة سنة خمس‌عشرة بعد المائتين والألف ، والوثيقة الصادرة سنة ١٢١٤ هـ، ووثيقة أخرى صادرة سنة ١٢١٣ هـ [٢].

٣ – **جابر جندي قوى** : وكان أحد الشهود في وثيقة شيخ العبدلاب ناصر بن الأمين الصادرة سنة ١٢٢٦ هـ [٣].

بالتأمل فيما سبق يظهر أن بعض شيوخ العبدلاب ، وبعض رجال الادارة في المشيخة كانوا يقومون بالأعمال التالية :

١ – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٢ – النظر في مراعاة تطبيق أحكام الشرع الاسلامي ، ومعاقبة من يعبث به ، أو يهدر حرماته .

٣ – المحافظة على الآداب والفضائل ، وفي مقدمتها الأمانة .

٤ – الإشراف على نظام السوق وضبطه .

---

(١) نفس المرجع (ص ٧٢ – ٧٣) .

(٢) الفونج والأرض ، الوثائق : (٨ ، ٢٤ ، ٢٦) . (صفحات: ٧٥ – ٧٦ ، ١٢٤ – ١٢٦ ، ١٣٢ – ١٣٣) .

(٣) المرجع نفسه (ص ١٢٨ – ١٣١) ، الوثيقة (٢٥) .

٥ – حمل الناس في المدينة على صون النظام العام ، والمحافظة على مصالح الناس ، وسرعة الفصل في القضايا التي تمس بطريق مباشر حياتهم .

وبمقارنة هذه الأعمال بالوظائف التي كان يؤديهـا المحتسب في العصور الاسلامية الوسطى[1] يتضح أن وجه الشبه بينها – في الزمانين – جد كبير ، لذا فإننا نرجح أن مـا يشبه الحسبة قد عرف في النظام القضائي لمشيخة العبدلاب .

---

(١) انظر الماوردي (ت ٤٥٠ / ١٠٥٧) ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ، الأحكام السلطانية ، (ص ٦١ – ٧٢ ، ٢٢٧ – ٢٣٠) ، (القاهرة ١٢٩٨ هـ) . وانظر: مقدمة ابن خلدون (ص ١٩٦ بيروت ١٩٠٠ م) .

خاتمة في :

سقوط المشيخة

١ ـــ تدهور المشيخة

إن أهم العوامل الداخلية والخارجية التي أدت الى سقوط دولة العبدلاب تتلخص فيما يلي :

أولاً – الأسباب الداخلية :

١ – **الحروب الكثيرة** : التي خاضتها المشيخة في آخر أربعين عاماً من عمرها [١] . وقد تنوعت تلك الحروب ، فمنها ما كان بين المشيخة وحلفائها ملوك الفونج ووزرائهم الهمج . ومنها ما كان بين الحكومة المركزية وحكومات الولايات التابعة لها ، ومنها ما كان بين ولايات المشيخة ذاتها .

أ – **فمن النوع الأول** : رأينا [٢] أن علاقة الحليفين : الفونج والعبدلاب بدأت تتدهور منذ ثورة الشيخ عجيب الكبير ، غير أن طابع الحرب لم يكن هو الغالب خلال عهد سيطرة ملوك الفونج على دولتهم ، ولكن الحال ما لبث أن تبدّل حين آلت السلطة الحقيقية لوزراء الهمج ، فعادت الحرب هي الطابع المميز لتلك العلاقات ، حتى قتل في عام واحد [٣] ثلاثة من ملوك الفونج في حربهم – ومعهم وزراؤهم – لشيوخ العبدلاب. وأولئك الملوك هم:

---

(١) Holt, A modern History of the Sudan, p. 22.

(٢) انظر الفصل الأول من الباب الثاني .

(٣) هو عام (١٢٠٣ – ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٨ – ١٧٨٩ م) .

الملك طبل ، والملك بادي ، والملك رباط [1] .

وتتابعت الحروب بين العبدلاب والفونج على هذا المنوال ، وزاد ضغط وزراء الهمج أصحاب الحول والطول في سنار – حين سادوها – على مشيخة العبدلاب التي كانت قد أنهكتها حروب الشايقية ، فأدى ذلك كله الى تضعضعها وذهاب ريحها ، وهيأها للسقوط .

ب – **ومن النوع الثاني** لهذه الحروب : تلك التي كان يخوضها العبدلاب مع بعض الممالك الصغيرة الخاضعة لسلطانهم ، كالحروب التي وقعت ضد مملكة الجعليين في شندي ، وذهب ضحيتها – في مرة واحدة – أكثر من مائة رجل ، فضلاً عن الغنائم الكثيرة التي حصل عليها العبدلاب [2] .

وكتلك التي وقعت بين هذه المشيخة وبين مملكة الجموعية وقتل خلالها ملك الجموعية نفسه [3] .

ومنها الحرب التي نشبت بين دولة العبدلاب ومشيخة أريجي في الجنوب ، وكانت حوادثها من الأسباب التي منعت « بوركهارت » [4] من الذهاب الى سنار حاضرة الفونج ، إذ كان الطريق – جراءها – محفوفاً بالخطر ، « ومن ثم كانت القوافل تؤثر الطريق الصحراوي الموازي للنهر على رحلة يوم في الداخل حتى تبلغ « أبو حراز » ثم تلتقي بالنهر ثانية » [5] .

غير أنه يبدو أن أشد هذه الحروب أثراً على مشيخة العبدلاب تلك التي

---

(١) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٣٧) .
(٢) طبقات ود ضيف الله (ص ٨٥ ، ١٠٥) .
(٣) المصدر السابق (ص ١٠٥) .
(٤) رحلات بوركهارت (ص ٢٤٥) .
(٥) نفس المصدر والصفحة .

كانت بينهم وبين مملكة الشايقية القوية ، وكانت من أقوى الأسباب التي أدت الى ضعف المشيخة ، ثم سقوطها على يد الأتراك الفاتحين .

وأشهر تلك الوقائع على الاطلاق الحرب التي نشبت بين الفريقين في أواخر القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) ، وكان من نتائجها استقلال الشايقية عن العبدلاب كما سبق أن أبنا [١] ، وبعدها بدأت غارات الشايقية القوية على الأقاليم الشمالية لدولة العبدلاب ، ثم تطورت فامتدت الى « الحلفاية » حاضرة المشيخة نفسها .

وقد وصف « نكولز » قوة هذه الغارات وما نتج عنها من آثار على مشيخة العبدلاب فقال : « وأفلت العبدلاب من ربقة الفونج فلم يجدوا أمامهم سوى الشايقية ، يثيرون في نفوسهم الذعر والفزع ، إذ قامت عصائب الشايقية من الفرسان بتخريب البلاد الواقعة على الضفة الغربية من نهر النيل حتى واجهوا « حلفاية » بل هاجموا « حلفاية » ودحروا العبدلاب [٢] » .

وأكمل « كايو [٣] » صورة ما أحدثته حروب الشايقية بمشيخة العبدلاب ، فذكر أن أهالي « حلفاية » كان عددهم تسعة آلاف نفس ، وبعد أن توالت عليهم غارات الشايقية تناقصوا حتى أصبح عددهم سنة ١٨٢٢ م (أي بعد سقوط مشيخة العبدلاب بعام واحد) ما بين ثلاثة الى أربعة آلاف .

وقد علق كروفورد على أثر حروب الشايقية هذه في سقوط مشيخة

---

(١) انظر : الفصل الثاني من الباب الثاني .

(٢) الشايقية (ص ٢٥) .

(٣) في كتابه : رحلة الى مروي (مج ٢ ، ص ١٩٤ – ١٩٥) . « وكايو » رحالة أجنبي رافق حملة اسماعيل باشا لغزو السودان . وانظر أيضاً :
The Fung Kingdom of Sennar, p. 69.

العبدلاب فذكر أنها قادتهم الى الضعف بعد سنوات من العدوان الذي وصل حتى أسوار عاصمتهم الجديدة « حلفاية » . وبيّن أنه لولا ذلك لكان يسيراً على الشايقية أن يرسلوا – حين دهمتهم جيوش اسماعيل – الى النجدة من « قرى » ، أو « شندي » ، « وكان في استطاعة قوة أن تقطع صحراء بيوضة في ظرف أسبوع وسوف يضطر اسماعيل الى التقهقر (عن أراضي دولة العبدلاب) أو يحارب معركة ميئوساً منها حينما يواجه هجوماً من جهتين ... وحددت معركة كورتي مصير السودان لمائة سنه تقريباً [١] » .

من هذا كله نستطيع أن ندرك الى أي مدى أثرت حروب الشايقية بصفة خاصة، وحروب الامارات التابعة لمشيخة العبدلاب بصفة عامة في قوة هذه الدولة ، وهيأتها للاستسلام دون أية مقاومة عندما دهمتها جيوش محمد علي الغازية سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢١ م .

جـ) أما النوع الثالث :

من هذه الحروب وهو الذي كان بين الممالك والمشيخات الصغيرة نفسها التي كانت تتبع للعبدلاب ، وأدى ضعف هذه الممالك بسبب هذه الحروب إلى سهولة غزوها من الشمال – فمن أشهره « قتال العواليب » ، وهي الحرب التي نشبت بين ملكي الجعليين: الملك نمر، والملك المساعد ، وجرت أحداثها سنة ١٢١٦هـ / ١٨٠١ م كما سبق أن شرحنا ذلك [٢] .

---

(١) The Fung Kingdom of Sennar, pp. 259 - 260.

(٢) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٤٤) . وانظر التفاصيل الوافية لجذور الصراع بين الملك نمر الذي كان يحكم شندي ، والملك المساعد الذي كان يحكم في « المتمة » على الضفة الغربية للنيل قبالة شندي وكالة – في : معالم تاريخ سودان وادي النيل (ص ١٣٥) .

ومنه قتال الشكرية والبطاحين ، وكان من نتائجه أن قتل الشيخ أبو سن شيخ الشكرية وغيره ، وذلك سنة ١٢١٧ هـ ١٨٠٣ م [١]

ومنه موقعة الجميعاب والسعداب المشهورة التي قتل فيها الأرباب بان النقا، وانتصر فيها الجميعاب [٢] سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م كما مر . ومن هذا النوع أيضاً الحروب التي كانت مشتعلة بين الملك نمر والشايقية الذين ما فتئوا يغيرون على أملاكه في «المتمة» على ضفة النيل الغربية ، وقد قتلوا بعضاً من أقاربه .

ثم لما وصل المماليك الى « دنقلا » — حيث مملكة الشايقية — بعد مذبحة القلعة الكبرى سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م اصطلح الفريقان ، وتفرغوا لقتال المماليك [٣] .

ومنه المعارك الرهيبة التي خاضها الشايقية ضد المماليك ، وقتل فيها مائة وخمسون ، كما قتل من المماليك خمسون ، وأدى ذلك — مع غيره من الحروب - الى تفتيت وحدة مشيخة العبدلاب ، وانفصام الصلات -- حتى التجارية منها - بين بعض الامارات مثل « بربر » و « بلاد الشايقية [٤]» .

ومن نوع هذه الحروب ما شاهده « بوركهارت » وهو في طريقه الى « شندي » حيث ذكر أن عرب « المكابراب » ، الذين كانوا يخضعون لأمراء شندي ثم استقلوا عنهم ، لا تزال الحرب قائمة بينهم وبين جيرانهم [٥] .

وفي سنة ١٢٣٣ هـ أي قبل سقوط المشيخة بثلاث سنوات وقع قتال آخر

---

(١) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٤٥) .
(٢) المرجع نفسه (ص ٧١) .
(٣) رحلات بوركهارت (ص ١٩٤ ، ٢١٥).
(٤) نفس المرجع والصفحات .
(٥) نفس المرجع (ص ٢١٠) .

بين الشكرية والبطاحيين ، قتل فيه شيخ الشكرية حمد بن أبي سن [١] .

وهكذا نجد أن السنوات الأربعين الأخيرة لعهد المشيخة حتى آخرها ، كانت سنوات فتن وقتال. « وبالجملة كانت هذه الفترة فترة حروب وقتل واضطراب داخلي[٢] » .

٢ - تفشي الأمراض والمجاعات :

تسببت تلك الحروب وما لازمها من اضطراب حبل الأمن في تفشي مجاعات وأمراض أنهكت الدولة وساعدت على سقوطها . ومن أشهر تلك المجاعات تلك التي حدثت سنة ١٠٩٥ هـ ، وسميت بسببها هذه السنة « سنة أم لحم »، « وقيل من شدة الغلاء أكل الناس الكلاب » [٣] ، كما عم البلاد فيها أيضاً داء الجدري [٤] . ومات بوباء الجدري أيضاً في سنة لاحقة الشيخ أحمد بن عبدالله الطريفي وستة عشر من أهل بيته [٥] ، وفي سنة ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ - ١٧٧١ م وقع غلاء آخر ومحل [٦] خرب البلاد وأضر بالعباد ، واجتاح وباء شديد جزءاً كبيراً من المشيخة سنة ١٢٢٤ هـ مات فيه عدد كبير « من التجار والمزارعين ... وقد سدت فيه بعض البيوت ، وخربت الحلال » [٧] . كما انتشرت الحمى الصفراء وفتكت بخلق كثير سنة ١٢٢٥ هـ ١٨١٠ م ، تلاها عام ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ م غلاء شديد « قاسى الناس من أجله الأهوال [٨] » ، « وذكر « بوركهارت » في السنة التالية : (١٢٢٩ هـ /

---

(١) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٧٥) .
(٢) التربية في السودان (ج ٢ ، ص ١) .
(٣) الطبقات (ص ٣٣) ، وانظر : مخطوطة كاتب الشونة (ص ١٧) .
(٤) كاتب الشونة (ص ١٧) .
(٥) الطبقات (ص ٣٠) .
(٦) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٢٧) .
(٧) المرجع السابق (ص ٦٥) .
(٨) التربية في السودان (ج ٢ . ص ١ - ٢) .

١٨١٤ م) أن مجاعة كبرى تفشت في بعض الأجزاء الشمالية من المشيخة عند « دنقلة » وهلك بسبب تلك المجاعة الرهيبة ثلث سكان المنطقة [١] .

٣ – وهناك أسباب داخلية أخرى : لسقوط المشيخة تتعلق بأشخاص الحكام ، وسياسة حكمهم ، ومدى ما كانوا يتمتعون به من أهلية لتولي مقاليد الحكم . يرجع أهمها إلى :

أ) ضعف سياسة الحكم الداخلية ، وعجزها عن إيجاد مقومات تكون أساساً تنهض عليه وحدة وطنية راسخة .

ب) عجز نظام الحكم عن خلق نظـام اقتصادي تتنوع على هدي منه مصادر الدخل ، ويغني الدولة عن الاعتماد الكامل على التجارة المرورية ومـا تدره من دخل محدود . هذا الى تأخر الصناعة واعتمادها في الأساس على اليد.

ج) ضعف السلطة المركزية، بسبب قيام سلطات دينية متعددة تستقطب ولاء الناس من دون الحكومة . مما شجع الامارات الصغيرة التي أحست من نفسها قوة على الانفصال مثل : مملكة الشايقية [٢] .

ولعلّ هذا الحال من الضعف الذي وصلت اليه مشيخـة العبدلاب بعيد سقوطها هو الذي دفع « بوركهارت » لكي يستعدي علينا أوروبا ، ويغريهـا بسهولة الاستيلاء على السودان ، وذلك في قوله : « واذا كان مائتان وخمسون من صعاليك المماليك قد فتحوا دنقلا [٣] وفرضوا عليها سلطانهم برغم مقاومة الدناقلة والشايقية مجتمعين ، فخليق بقوة مدربة من الأوروبيين ألا تخشى بأس

---

(١) رحلات بوركهارت في بلاد النوبة (ص ١١) .

(٢) انظر : الدكتور حسن سليمان : تاريخ السودان (ص ٦١ – ٦٢) .

(٣) « دنقلا » عاصمة الاقليم الشمالي الرئيسية وكانت تابعة لمشيخة العبدلاب .

هؤلاء الافريقيين وهم على حالهم من تشتت وانقسام الى إمارات صغيرة لا رابطة بينها ولا اتحاد » [1] .

ثانياً – الاسباب الخارجية :

علم محمد علي باشا – الذي كان قد عيّن والياً على مصر سنة ١٨٠٥ – [2] علم اليقين بحال السودان التي شرحناها آنفاً عن طريق جاسوس كان قد بعث به في قافلة سنار التي غادرت صعيد مصر سنة ١٢٢٨ هـ – ١٨١٣ م ، وكانت وجهة هذا المبعوث سنار عاصمة الفونج باعتبارهم أقوى الحكومات الموجودة آنذاك في السودان ، وكان غرض هـذه البعثة – في الظاهر – طلب طرد المماليك الذين كانوا قد فروا من مصر الى السودان .

أما الغرض الحقيقي من ورائها فكان اختبار الطريق من مصر حتى مدينة « سنار » ومعرفة مدى قوة أو ضعف حكومات البلاد التي تقع على هـذا الطريق ، والى أي مدى يمكن غزو هذه البلاد بجيش تركي [3] .

وقد أراد هذا الجاسوس ، حين وصل سنار ، أن يختبر تأثير المدفع التركي الذي كان يحمله على نفوس أهل السودان تمهيداً لاستخدام الجيش التركي له في الفتح إن تقرر . لذا طلب من ملك الفونج – كما روى هو بعد عودتـه الى مصر – أن يأذن له بعرض « تمرينات » من مدفعيتـه مع بعض جنوده ، « وما أن بدأوا يطلقون النار حتى فرّ معظم الأهالي ، وسقط كثيرون على

---

(١) رحلات « بوركهارت » في بلاد النوبة (ص ٢٢٢) .

(٢) عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي ١٢/٣ ، الشايقية (ص ٢٧) .

(٣) مخطوطة كاتب الشونة (ص ٧٢) ، رحلات بوركهارت (ص ٢٢٢) ، وانظر : نعوم شقير (٤٩٣/٣) .

الأرض مستغيثين »[1] .

وامعاناً من محمد علي في تمويه مهمة مبعوثه الحقيقية أرسل معه هدايا فاخرة لملك سنار قدرت قيمتها بنحو أربعة آلاف ريال اسباني، وعاد المبعوث يحمل هدايا مك سنار[2]، وما هو أقيم منها وهو أخبار السودان وسهولة الاستيلاء عليه . فقوى ذلك من عزم محمد علي على غزو السودان .

وكانت أخبار السودان وضعف حكوماته قد وصلت قبل ذلك الى محمد علي عن طريق التجـار المصريين ، وبعض حكام الأقاليم المخلوعين الذين كانوا يرجون من وراء ذلك استرداد عروشهم . وفي مقدمتهم « أبو مدين» المطالب بعرش دارفور ، والملك ادريس ود ناصر من البيت السناري ومعه زعماء من فازوغلي ، كما جاء الملك نصر الدين « أبو حجل زعيم الميرفاب[3] » . كذلك قدم على محمد علي أحـد أفراد أسرة الزبير المالكة في « أرقو » ، وشرح له أحوال « دنقلا » وموقف المماليك فيها[4].

بناء على هذه المعلومات أرسل محمد علي مبعوثه آنف الذكر إلى سنار . وما أن عـــاد هذا الرسول ، ورفع إليه تقريراً بإمكانية فتح السودان بأقل التكاليف حتى أخذ في إعداد خطته لتوجيه القوات اللازمة لإنجاز هـذا العمل الكبير[5] .

---

(١) رحلات بوركهارت (ص ٢٢٢) .

(٢) جغرافية وتاريخ السودان (٤٩٣/٣) .

(٣) معالم تاريخ سودان (ص ١٢٧) . وانظر مقال الأمير عمر طوسون بعنوان : « نهاية المماليك » ، مجلة المجمع المصري ، (مج ١٥ ، ص ١٨٧ – ٢٠٥) ، ويذكر الدكتور شبيكة أن نصر الدين قابل محمد علي في الحجاز وطلب مساعدته لاسترداد ملكه (السودان عبر القرون ص ٧٨ – ٧٩) .

(٤) نعوم شقير (٤٩١/٣) .

(٥) عمر طوسون : المرجع السابق والصفحات .

وقبل أن يرسل بجنوده بعث مهندسه « محمد خسرو بك » المعروف بالدفتردار » كي يكشف طريق الحملة فيما بين« مدينة أسوان »ومدينةدنقلة[1].

ولكن ، ما هي الأسباب الحقيقية التي دفعت محمد علي لفتح السودان ؟؟

تتلخص تلك الأسباب فيما يلي :

١ - رغبة محمد علي في اكتشاف مناجم الذهب والماس التي تناقل الناس أخبارها ، ونسجوا حول وجودها في السودان أغرب الأساطير .

٢ - تجنيد السودانيين في الجيش المصري النظامي ، فقد بلغه أنهم من شدة البأس ، وقوة المراس ، وتحمل المصاعب ، ثم الطاعة الكاملة لرؤسائهم ما يجعل منهم مثلاً أعلى للجندية الرشيدة[2].

٣ - الرغبة في التخلص من الفرق الباقية من معسكر « الأرناؤوط » وغيرهم من الجنود غير النظامية (الباشبوزق) ممن لم يقتلوا في حرب شبه الجزيرة العربية وكان نزوعهم الى العصيان والتمرد مما رغّب محمد علي في الخلاص منهم .

٤ - استئصال شأفة المماليك الذين فروا الى السودان ، وأنشأوا في شماله ما يشبه الإمارة . فقد خشي من ابتلاع الممالك الصغيرة ، ثم يتعاونوا مع « أثيوبيا » ، ويرتبطوا بدولة أوروبية بمعاهدة صداقة أو نحوها ، ثم يزحفوا على مصر لاسترداد ملكهم[3].

---

(١) نفس المصدر والصفحات .

(٢) عصر محمد علي (ص ١٥٨) ، ابراهيم فوزي : السودان بين يدي غردون وكتشنر ٥٨/١ ، السودان عبر القرون (ص ٧٨) ، شقير ٤٩١/٣ ، جبرائيل حداد : تاريخ الحرب السودانية (ص ٢ - ٣) .

(٣) السودان عبر القرون (ص ٧٩) ، عصر محمد علي (ص ١٥٩) ، معالم تاريخ سودان (ص ١٢٧) ، تاريخ الحرب السودانية (ص ٢ - ٣) .

٥ - الاستيلاء على شواطىء النيل وجزره ، وإخضاع الذين يشربون من مائه من بلاد الحبشة إلى البحر المتوسط لسلطانه [١]. وفي هذا توسيع لملكه، وتأمين له من الأخطار .

٦ - ترسيخ الروابط الاقتصادية بين مصر والسودان ، وتوسيع نطاق التجارة بينهما ، والانتفاع بموارد التجارة السودانية . وهذا بتعبيد الطرق بين البلدين ، وتأمينها من أخطار قطاع الطرق واللصوص . وبذلك تعوض مصر بعض ما فقدته من أموال في الإنفاق على حروب شبه الجزيرة العربية ضد الوهابيين [٢] .

٧ - « وربما فكر محمد علي في الاعتصام بالسودان إذا ألجأته الظروف لذلك » [٣] . ويرى « الرافعي » [٤] أن أهم تلك الأسباب في نظر محمد علي: « ضمان سلامة مصر وتأليف وحدتها السياسية ، والاطمئنان على منابع النيل » .

ومهما كانت بواعث محمد علي الحقيقية لغزو السودان فانه ما كاد يلم بالمعلومات الضرورية لتوفير قدر من النجاح لأي غزو حتى شرع في تجهيز الجيش اللازم للفتح عدة وعدداً .

وقد أفضى « عابدين بك » رئيس أركان حرب الجيش الذي قاده اسماعيل باشا (الابن الأصغر لمحمد علي) لغزو السودان - للمسيو « فردريك كايو »

---

(١) نكولز : الشايقية (ص ٣١) ، السودان عبر القرون (ص ٧٩) .
(٢) نعوم شقير (٣ / ٤٩٢) ، جبرائيل حداد تاريخ الحرب السودانية (ص ٢ - ٣) ، عصر محمد علي (ص ١٥٩) .
(٣) السودان عبر القرون (ص ٧٩) .
(٤) عصر محمد علي (ص ١٥٩) .

الذي صحب الحملة بعد فتح دنقلا ، بأن الحملة كانت تتكون – بادىء ذي بدء – من أربعة آلاف مقاتل ، منهم (١٢٠٠) من الفرسان العثمانيين ، و (٤٠٠) من فرسان العرب والمغاربة ، و (٦٠٠) من المشاة ، و (٣٠٠) من رجال المدفعية ، و (٨٠٠) من المشاة العرب والمغاربة ، و (٧٠٠) من عرب العبابدة[١] . ثم وصل مدد آخر بعد ذلك قوامه (١٤٠٠) مقاتل فأصبح عدد الجيش خمسة آلاف وأربعمائة مقاتل ، مزودين بأربع وعشرين مدفعاً . هذا عدا جيش الدفتردار الذي وجه لفتح كردفان وكان قوامه أربعة آلاف مقاتل[٢] .

٢ – سقوط المشيخة

هذه هي القوة التي وجهها محمد علي لاسقاط مشيخة العبدلاب ومن بعدها سلطنة سنار . وفي الثامن عشر من يوليو (تموز) سنة ١٨٢٠ م بدأ زحف جيش محمد علي على السودان من مصر القديمة حيث ركب المشاة – ومعهم الذخائر والمؤن والمهمات – نحواً من ثلاثة آلاف مركب مخرت بهم النيل نحو الجنوب . أما الفرسان ورجال المدفعية فقد بدأت تحركاتهم من « إسنا » وساروا بالبر الغربي، وكانت تتقدم الجيش – طليعة له – كوكبة مؤلفة من خمسمائة فارس .

أما اسماعيل باشا قائد الحملة فقد شرع في السير في العشرين من نفس

---

(١) رحلة في مروي والنيل الأبيض وفازوغلي (٢/٥٠) .
(٢) المرجع نفسه والصفحة .

الشهر أي بعد قيام الحملة بيومين ، وبلغت الحملة أسوان (قرب حدود مصر مع السودان) ، ثم أتت « وادي حلفا » ومن ثمّ بدأ الزحف على اقليم دنقلة أولى الممالك الصغيرة التابعة لمشيخة العبدلاب ، فسقطت بلدة « سكوت » ، « فالمحس » ، فأرقو ، ثم باقي اقليم دنقلة [١] دون كبير مقاومة من المماليك الذين كانوا يقطنون بعض هذه الديار، إذ استسلم بعضهم ، وفرّ بعضهم الآخر إلى « شندي » حيث تفرقوا أيدي سبأ [٢] . أما الأهالي فانهم لم يقاوموا لاعتقادهم أن الجيش المصري راجع لا محالة بعد أن حقق هدفه من الزحف على اقليم دنقلة وهو طرد المماليك [٣] .

ثم دخل الجيش بلاد الشايقية ، وهنا أترك « نكولز » يروي ما حدث : « كان أقوى ملوك الشايقية في ذلك الحين الملك شاؤس ... ملك العدلاناب ، وكانت عاصمتهم في مروي ، والملك صبير ملك الحنكاب ، وكانت عاصمتهم « حنك » . وكان هناك ملكان آخران أقل شأناً هما : الملك مدني كجبي ، والملك حمد ملك العمراب . فلما اقترب الأتراك من بلادهم تكتل الشايقية جميعاً تحت إمرة شاؤس وصبير ، وكان الأول قائدهم ... واصل اسماعيل التقدم بمحاذاة الضفة اليسرى من النيل دون أن يلقى مقاومة ما حتى بلغ قريباً من « كورتي [٤] » ، وفي ٤ فبراير (شباط) سنة ١٨٢٠ م حدثت واقعتها الشهيرة بين الحملة وملوك الشايقية .

ورغم هزيمة الشايقية في النهاية فانهم كبدوا الحملة خسائر كبيرة ،

---

(١) رحلة في مروي والنيل الأبيض وفازوغلي (٢/٥٢) .
(٢) المرجع نفسه والصفحة .
(٣) عصر محمد علي (ص ١٦٤) ، وانظر : الشايقية (ص ٣٣ – ٣٤) .
(٤) « كورتي » بلدة مهمة على ضفة النيل الغربية شمال خط العرض ١٨° بقليل .

وأظهروا من ضروب البسالة والشجاعة ما أثار اعجاب خصمهم اسماعيل باشا، وحمله على أن يعرض عليهم الخدمة في جيشه [١] .

لم يجد الجيش الغازي بعد اشتباكه مع الشايقية أية مقاومة ولعلّ من أهم أسباب ذلك : الخوف من « المدافع » التي لم يكن للناس بها عهد ، لذا أخذ الجيش طريقه الى « بربر » عاصمة « الميرفاب » ، وهناك قدم ملكها : نصر الدين خضوعه في ١٠ مارس (آذار) سنة ١٨٢١ م . ثم قدم الملك نمر ملك « شندي » ولاءه للحملة في ٨ مايو (أيار) معلناً تسليم « شندي » للفاتحين . بعدها تابع الجيش زحفه الى حاضرة العبدلاب « الحلفاية [٢] » فنزل بالضفة الغربية للنيل تجاهها ، وذلك في آخر شعبان سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢١ م وهناك قابله الشيخ ناصر بن الشيخ الأمين شيخ دولة العبدلاب بالطاعة ، « فأمنه وكساه كسوة فاخرة ، وتركه في بلده كونه سقيماً ، وأخذ ابنه الأمين معه الى سنار [٣] » بعد أن ترك « سنجقاً » وقوة قوامها (٤٠٠) جندي لاحتلال الحلفاية [٤] ، وكان « كايو » شاهداً لحظة تنازل شيخ العبدلاب الذي أمضى الليلة السابقة للتنازل في بيته [٥] وقد اعترف مؤرخو

---

(١) كايو (٢/٥٦ ، ٧٦) ، وانظر نكولز : الشايقية (ص ٣٣ – ٣٤ ، ٣٩–٤٢).

(٢) المرجع نفسه (٢/٢٣٠) ، رحلة الى دنقلة وسنار (ص ١٥٨ ، ١٦٩) ، معالم تاريخ سودان (ص ١٣٠) ، الشايقية (ص ٤٢) .

(٣) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (ص ٢٧) ، وانظر : كاتب الشونة (ص ٨٧) ، وعصر محمد علي (ص ١٦٥) . وقد جاء في واضح البيان (ص ١٩) ان الأمين كان وكيلاً لأبيه في حكم الحلفاية إذ كان أبوه قد بلغ من الكبر عتيا .

(٤) واضح البيان (ص ١٩) ، السودان في رسائل ومدونات (مج ١٧ ، ص ٧٩–٨٠)، تاريخ ملوك العبدلاب (ص ٢٨) .

(٥) كايو (١/١٩٤ – ١٩٥) .

العبدلاب بأن جيشهم لم يبد أية مقاومة بسبب ما لحق الدولة من ضعف أقنع شيوخها بألا جدوى من وراء المقاومة [1] .

ولعـــل انتصارات الحملة المتلاحقة على : « الشايقية » و « بربر » ، و «شندي» كانت العامل الحاسم في تسليم العبدلاب دون مقاومة أو شروط.

وهكذا سقطت مشيخة العبدلاب بعد أن عاشت أكثر من ثلاثة قرون ، أسهمت خلالها بجهد كبير في اسلام السودان وعروبته .

(١) واضح البيان (ص ١٩) ، السودان في رسائل (مج ١٧ ص ٧٩ – ٨٠) .

الملاحق

الملحق الأول

جداول أخرى في تسلسل شيوخ العبدلاب

القائمة (ب)[1]

الاسم	من	الى	مدة الحكم
عبدالله جماع	٩١٠هـ	٩٧٠هـ	٦٠
الشيخ عجيب الأول	٩٧٠هـ	١٠١٥	٤٥
« محمد العجيل	١٠١٥	١٠٤٥	٣٠
« عبدالله البرنس	١٠٤٥	١٠٦٢	١٧
« هجو ولد عثمان	١٠٦٢	١٠٦٧	٥
« عجيب ولد عربي الثالث	١٠٦٧	١٠٧٣	٦
« مسمار ولد عربي الأول	١٠٧٣	١٠٧٨	٥
« علي ولد عثمان	١٠٧٨	١٠٨٥	٧
« حمد السميح	١٠٨٥	١٠٩٥	١٠
« عجيب الثالث	١٠٩٥	١١٢٠	٢٥

---

(١) هذه هي قائمة شيوخ العبدلاب كما جاءت في متن مخطوط « واضح البيان في ملوك العرب بالسودان وملوك العبدلاب من الشيخ عجيب الأول الى تاريخه » ألفها : ابن الأرباب الحسن بن شاور بن عجيب بن أونسه بن الشيخ شمام بن عجيب الثالث كما مر .

الاسم	من	الى	مدة الحكم
« بادي بن عجيب الثالث	١١٢٠	١١٢٤	٤
« دياب أبو نائب	١١٢٤	١١٣٣	٩
« عبدالله الثالث بن الشيخ عجيب	١١٣٣	١١٥١	١٨
« مسمار بن عبدالله الثالث	١١٥١	١١٥٦	٥
« ناصر بن الشيخ شمام	١١٥٦	١١٦٤	٨
« عجيب الرابع الملقب بالفيل	١١٦٤	١١٨٤	٢٠
« عمر بن الشيخ عبدالله	١١٨٤	١١٨٦	٢
« الأمين مسمار	١١٨٦	١٢٠٦	٢٠
« عبدالله الرابع ابن عجيب الفيل	١٢٠٦	١٢١٠	٤
« ناصر بن الشيخ الأمين	١٢١٠	١٢٣٥	٢٥

القائمة (جـ) لشيوخ العبدلاب (١)

	الاسم	حكم من	الى
١	الشيخ عبدالله جماع	١٥٠٥	١٥٧٣م
٢	« عجيب بن عبدالله جماع	١٥٧٣	١٦١٤
٣	« عثمان بن عجيب	١٦١٤	١٦١٨
٤	« محمد العقيل بن عجيب	١٦١٨	١٦٤٨
٥	« عبدالله البرنس بن محمد العقيل	١٦٤٨	١٦٦٥

---

(١) أثبت هذه القائمة « كروفورد » في كتابه بالانجليزية :
« مملكة الفونج في سنار » (ص ٣٣٤) ، وله قائمة أخرى في (ص ٢٣٣) من نفس الكتاب ، كما أثبت قائمة ثالثة خاصة بشيوخ « قرى » فقط في (الصفحة ٣٣٢) .

	الاسم	حكم من	الى
٦	الشيخ عريبي بن عجيب	١٦٦٥	١٦٦٧
٧	« حماد بن عجيب	١٦٦٧	١٦٧٠
٨	« عجيب بن عريبي	١٦٧٠	١٦٧٦
٩	« مسمار بن عريبي (الأول)	١٦٧٦	١٦٨١
١٠	« علي عثمان	١٦٨١	١٦٨٨
١١	« عثمان(الثاني) بن علي عثمان مرقوب في الامأرأر	١٦٨٨	١٦٩٠
١٢	« حمد السميح	١٦٩٠	١٦٩٨
١٣	« عجيب بن محمد العقيل	١٦٩٨	١٧٢٣
١٤	« بادي الاول	١٧٢٣	١٧٢٧
١٥	« دياب بن نائب	١٧٢٧	١٧٣٦
١٦	« عبدالله عجيب (الثالث)	١٧٣٦	١٧٤٧
١٧	« مسمار عبدالله عجيب (الثاني)	١٧٤٧	١٧٥٢
١٨	« ناصر شمام الاول	١٧٥٢	١٧٦٠
١٩	« عجيب الرابع بن شمام عبدالله	١٧٦٠	١٧٨٠
٢٠	« عمر عبدالله عجيب	١٧٨٠	١٧٨٢
٢١	« الأمين ناصر وبادي	١٧٨٢	١٧٩١
٢٢	« عبدالله عجيب (الرابع)	١٧٩١	١٧٩٥
٢٣	« ناصر الأمين (الثاني)	١٧٩٥	١٨٢٠

القائمة (د) لشيوخ العبدلاب [١]

		الاسم	حكم من	الى
١		الشيخ عبد الله جماع	٩١٠	٩٧٠ هـ
٢	«	عجيب المانجلك	٩٧٠	١٠١٩
٣	«	عثمان بن عجيب المانجلك	١٠١٩	١٠٢٠
٤	«	محمد العقيل بن عجيب المانجلك	١٠٢٠	١٠٤٥
٥	«	عبد الله البرنس بن محمد العقيل	١٠٤٥	١٠٦٢
٦	«	هجو بن عثمان بن عجيب المانجلك	١٠٦٢	١٠٦٧
٧	«	عجيب بن عربي بن عجيب المانجلك	١٠٦٧	١٠٧٣
٨	«	مسمار بن عربي بن عجيب المانجلك	١٠٧٣	١٠٧٨
٩	«	علي بن عثمان بن عجيب المانجلك	١٠٧٨	١٠٨٥
١٠	«	حمد السميح بن عثمان بن عجيب المانجلك	١٠٨٥	١٠٩٥
١١	«	عجيب بن محمد العقيل بن عجيب المانجلك	١٠٩٥	١١١٠
١٢	«	بادي بن عجيب بن محمد العقيل بن عجيب	١١١٠	١١١٤
١٣	«	دياب أبو نائب بن بادي بن عجيب بن محمد العقيل	١١١٤	١١٢٣
١٤	«	عبد الله بن عجيب بن محمد العقيل بن عجيب المانجلك	١١٢٣	١١٤٤
١٥	«	شمام بن عجيب بن محمد العقيل بن عجيب المانجلك	١١٤٤	١١٤٨
١٦	«	مسمار بن عبد الله بن عجيب بن محمد العقيل المانجلك	١١٤٨	١١٥٣

---

(١) جاءت هذه القائمة في بحث نشره أحد أحفاد العبدلاب وهو الاستاذ : ابراهيم مصطفى عربي في جريدة الثورة السودانية بعنوان : شخصيات وقبائل من السودان ، العدد (٥٦١) ، بتاريخ ١٥/٦/١٩٦٢ م .

الاسم	حكم من	الى
١٧ الشيخ ناصر بن شمام بن عجيب بن محمد العقيل بن عجيب المانجلك	١١٥٣	١١٦١
١٨ « عجيب بن عبد الله بن عجيب بن محمد العقيل بن عجيب المانجلك	١١٦١	١١٨١
١٩ « عمر بن عبدالله بن عجيب بن محمد العقيل بن عجيب المانجلك	١١٨١	١١٨٣
٢٠ « الأمين بن مسمار بن عبدالله بن عجيب بن محمد العقيل	١١٨٣	١٢٠٣
٢١ « عبدالله بن عجيب بن عبدالله بن عجيب بن محمد العقيل	١٢٠٣	١٢١٠
٢٢ « ناصر بن الأمين بن مسمار بن عبدالله بن عجيب بن محمد العقيل	١٢١٠	١٢٣٥

قائمة (هـ) [١]

١ الشيخ عبدالله جماع : مؤسس المشيخة الذي دام حكمه الى أيام الملك عمارة رابع ملوك الفونج .

---

(١) جاءت هذه القائمة في كتاب الاستاذ نعوم شقير: «جغرافية وتاريخ السودان» (٣ أجزاء) (ج ٢ الصفحات ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩) . وقد قدم المؤلف لهذه القائمة بقوله : « وذكر (كايو) سلسلة شيوخ العبدلاب ، أتى فيها على البعض الذين لم يذكرهم عبد الدافع ، وفاته ذكر البعض الآخر ، فكان من مجموع سلسلتها ما يأتي » : (ثم أورد أسماء هذا الجدول) . ولما كانت سلسلة عبد الدافع وحدها لا تفيد شيئاً ، و (كايو) رحالة جاء السودان مع الفاتح اسماعيل باشا بعد أن سقطت بالفعل « مشيخة العبدلاب » فقـــد رأيت أن أكتفي بقائمة « شقير » هذه لانها جمعت بين السلسلتين .

٢ الشيخ عجيب الملقب بالمانجلك .
٣ « العجيل .
٤ « حمد السميح .
٥ « عثمان ابنه .
٦ « عبدالله الثاني بن العجيل .
٧ « مسمار بن عبدالله .
٨ « دياب – أرادب ود عجيب الذي قتله (١٤ – الملك بادي الأحمر) .
٩ « الأمين ود مسمار الذي عاش في أيام (١٧ – الملك بادي أبوشلوخ).
١٠ « عجيب بن عبدالله .
١١ « عبدالله الثالث ود عجيب الذي قتل في حرب المسبعات في أيام(١٧– بادي أبو شلوخ) .
١٢ « عمر أخو عجيب .
١٣ « محمد الأمين بن مسمار الذي عزله الشيخ ناصر في أيام (٢٠ – الملك عدلان الثاني) .
١٤ « بادي بن مسمار .
١٥ « عبدالله الرابع ود عجيب الذي قتله الشيخ ادريس في أيام (٢٦ – الملك بادي سنة ١٢١٥ هـ) .
١٦ « ناصر ود الأمين: الذي ذهب الوزير محمد عدلان لقتاله سنة ١٢٢٥هـ).
١٧ « أمين الثاني بن ناصر .
١٨ « ناصر ود عجيب الذي عزله اسماعيل باشا في مايو سنة ١٨٢١ م .

القائمة (و)[1]

١) الشيخ عبدالله جماع (١٥٥٤ – ١٥٦٢ م) .

٢) الشيخ عجيب الأول (المانجلك) (١٦٠٤ – ١٦١١ م) .

↓

٣) العقيل (........)

↓

٤) عجيب

↓ الامين أرادب (١٦٨٩ ١٧١٥م) | ↓ عبدالله الثاني | ↓ شمام (١٧٤٧ م)

↓ العقيل

↓ ٥) مسمار | ٦) عجيب (١٧٧٩ م) | ↓ عمر

١٠) عبدالله الثالث (١٧٩٩ م)

↓ ٧،٩) محمد الامين الأول (١٧٩٠ م) | ↓ ٨) بادي (١٧٨٤ م)

↓

↓ ١١) ناصر | ↓ عجيب

↓ ١٢) الامين الثاني | ↓ ١٣) عمر

---

(١) أورد هذه السلسلة الباحث هارولد ما كايكل في كتابه :

A History of Arabs in The Sudan, vol. I, p. 246.

←

القائمة (ز) [1]

١ — الشيخ عبدالله جماع
٢ — عجيب المانجلك
٣ — العجيل
٤ — الشيخ حمد السميح
٥ — » عثمان حمد السميح
٦ — » دياب
٧ — » الأمين ودمسمار
٨ — » عجيب عبدالله
٩ — » عبدالله الثالث ود عجيب
١٠ — » عمر أخو عجيب
١١ — » محمد الأمين بن مسمار
١٢ — » بادي بن مسمار
١٣ — » عبدالله الرابع ود عجيب
١٤ — » ناصر ود الأمين
١٥ — » أمين الثاني بن ناصر

← والأرقام تشير الى تسلسل اعتلاءالعرش . وقد نقلها عنه : أ . أ ، بن في مقدمة :«القصص التاريخية المتداولة لقبيلة العبدلاب » ، الواردة في : السودان في رسائل ومدونات ، مجلد (١٧ ص ٥٩ — ٨٢) . وذكر ماكايكل أنه أخذ هذه القائمة من أحد أفراد البيت المالك ، وقال عنها ، ما معناه . إنها تعتبر — منطقياً — صحيحة ولكنها ليست كاملة ، وربما تحوي أغلاطاً ، ولكنها على أسوأ تقدير هي أكثرهن صحة . (ج ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٦) (يشير « بأكثرهن » الى قوائم أخرى أوردها « كايو » وشقير « وبدج »:انظر القائمة (هـ) وقال عنها انها أكثر غلطاً».

(١) جاءت هذه القائمة على هذا النحو مجردة عن أي وصف أو اقتران بحادثة فضلاً عن تحديد لزمن التولية أو مدة الحكم .

انظر : عبدالله حسين في كتابه : « السودان القديم والجديد » (ص ٥٩ ، ٦٠) وتقويم السودان لسنة ١٩٤٩ للدكتور الريح العيدروس (ص ١٠٧) .

القائمة (ح) [1]

١ – عبدالله جماع
٢ – الشيخ عجيب الكبير
٣ – الشيخ عثمان
٤ – » محمد العجيل
٥ – » ضياب بن محمد العجيل
٦ – » عبدالله بن محمد العجيل
٧ – » مسمار
٨ – » الأمين مسمار
٩ – » عبدالله عجيب
١٠ – » ناصر الأمين [2]

---

(١) جاءت هذه القائمة في أحد مصادر العبدلاب المهمة ، وهو : « تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية » (ص ٨٥) وهي الرواية التي اعتمدها الناشر كرواية أساسية ، وهناك أكثر من اثني عشر رواية احتوى عليها هذا المصدر تذكر تسلسل شيوخ العبدلاب على انماط مختلفة (انظر المصدر نفسه ص ٨٥ – ٨٦) .

(٢) تذكر هذه الرواية : أن « ناصر » هذا هو الذي سلم الحكم « لغردون » في « الحلفاية » والمقصود من ذلك – بطبيعة الحال – اسماعيل باشا بن محمد علي الذي أسقط مشيخة العبدلاب ، وليس « غردون » ، ومن السهل الخلط في الروايات السماعية .

الملحق الثاني

وثيقة عن أوقاف العبدلاب في المدينة (١)

الحمد لله تعالى(٢) . هذه حجة شرعية ، ووثيقة محررة مرعية ، صدرت بمجلس الشريعة المطهرة ، بمحكمة طيبة الطيبة المعطرة ، لدى سيدنا ومولانا الحاكم الشرعي الهمام ، محرر القضايا والأحكام ، خادم شريعة خير الانام ، محمد عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأزكى السلام ، يعرب مضمونها ، ويوضح مكنونها ، أنه حضر الرجلين العاقلين الكاملين المكرمين (كذا !) الشيخ علي مونه بن محمد ، والشيخ إدريس بن ضوا ، الوكيلين الشرعيين عن الجناب العالي ، الراقي رتب المجد والمعالي ، الشيخ ذياب بن المرحوم بادي بن المرحوم الشيخ عجيب بن عبدالله ، الثابتين وكالتهما عنه بشهادة الشيخ محمد بن عبد .... ومحمد الزين .... في الوقف الآتي ذكره ، وأقرا إقراراً صحيحاً شرعياً بحسب وكالتهما الثابتة الشرعية ، بأنهما قد أوقفا وحبسا وسبلا وتصدقا وأكدا وأبدا ما هو في حوزة موكلهما وملكه وتحت تصرفه ، والآيل اليه

---

(١) حصلت على نسخة مصورة من الوثيقة الأصلية من عثمان أونسه كبير العبدلاب الآن .

(٢) قبل هذه الجملة جمل أخرى مكتوبة في أعلى الصحيفة على الجانب الأيسر ، تبدأ بعبارة : « حكمت بصحة هذا الوقف ولزومه في خصوصه وعمومه ... حرره العبد الفقير الى بر ربه »... وتنتهي بـ « المدينة المنورة » ، وفي مكان هذه النقط كلمات عجزت عن قراءتها ، ويظهر أنها تعبر عن الجهة والمكان اللذين صدرت عنهما هذه الوثيقة .

بالشراء الشرعي ، وذلك جميع البيت الكائن بزقاق الطوال الشهير ببيت أبناء القفاص ، المحدود قبلة بالدرب السالك ، وشاماً بحوش المرزوقي وقف السادة الأغوات ، وفيه باب للبيت المذكور ، وشرقاً بوقف السادة الأشراف آل حياد ، وغرباً بالدرب الموصل لباب البيت، ومنه الباب والاستطراق الملاصق بملك المكرم البائع أبو بكر المذكور وشركائه بتمام البيت وكماله ، وكافة حقه وحقوقه ، وتوابعه ولواحقه ولوازمه ومراحيضه الداخلة فيه والخارجة عنه ، ذكرت أم لم تذكر ، كل ذلك رغبة في الأجر والثواب ، وابتغاء فيما عند الله تعالى عن الزلفى وحسن المآب . أولاً على طائفة البرارة والأحرار والمعتوقين من ذلك البر ، وذلك بالسوية يعم منهم الصغير والكبير الذكر والأنثى من أولاد الذكور دون أولاد الإناث على حد سواء ، إلا المعتوقين بأرض الحرمين الشريفين فلا يكونوا مستحقين لهذا الوقف . ولا لمن غاب عن المدينة المنورة إلا لحج بيت الله الحرام ، ولا لمن قطن بمكة وغير المدينة فانه لا يستحق منه شيء (كذا !) ولا أهالي التتجر فانهم غير مستحقين في الوقف .

ومعرفة حد البرارة المستحقة للوقف المذكور من جهة الغرب الكاب ، وشرقاً سواكن ، ومن جهة الصعيد الحبشة ، وشمالاً بندر أسوان يكون داخلاً في الحد لا داخلاً في الوقف . وغير هؤلاء لا يستحقون . وإن لم يوجد في هذه الطائفة أحد كان ذلك وقفاً على الفقراء والمساكين القاطنين بمدينة سيد المرسلين. والشيخ عثمان الفادني منهم يكون معهم في الوقف المذكور مدة حياته ، وعلى أغوات الحرم الشريف النبوي تقسم الغلة بينهم بالسوية .

ثم بعد تمام الوقف شرطا شروطاً عن موكلهما ، وأكدا عليها ، وجعلا المصير اليها ، منها : أنهما جعلا النظر على وقفه للجناب المكرم المحترم عبد الرحمن أغا نقيب السادة الأغوات حالا مدة حياته ، ومن بعده يكون النظر للمكرم عبد الكريم أغا تابع عبد الرحمن أغا المذكور ، ومن بعده

يكون النظر لأغوات الحرم النبوي من كان ، فأتباع مولانا السلطان سلطان سنار المحفوظة الأرشد فالأرشد ، فإن انقرضوا - والعياذ بالله تعالى - يعود النظر إلى نقيب السادة الاغوات المذكورين كائناً من كان .

ومنها أنهما جعلا الجباية للمكرم الشيخ عبد الرحمن بن محمد البري شريف بني علوان حالا ، ومنها أنهما جعلا من غلة الوقف يوم القسمة للناظر كل عام أحمرين وللجاني أحمراً واحداً . ومنهما أنهما شرطا قبل القسمة من الغلة بعمارة الوقف إن احتاج الوقف لذلك ، والمقصود إبقاؤه ووجوده عامراً لينتفع من غلته ، ومـــا تبقى بعد ذلك من الغلة يوزع على أرباب الاستحقاق المعنيين المذكورين حسب ما شرطا . ومنها أن يؤجر البيت المذكور على ذي شوكة ولا ظالم ولا مماطل ولا أكثر من سنة .

لسابـع ... من ربيع الاول من شهور سنة تسع وأربعين ومائة وألف من هجرة من له العز والشرف وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

السيد ابراهيم محمد دياب ....؟ الشيخ عبده [1]

---

(١) ملحوظة : مكان النقط كلمات غير مقروءة، وأسماء الشهود وتوقيعاتهم غير واضحة تماماً.

الملحق الثالث

نموذج للقضاء في عهد العبدلاب [1]

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا الأمين ، الحمد لله الذي أيد الشريعة المحمدية بالقواطع القرآنية ، والأدلة الشرعية ، التي نزلت على خير البرية محمد صاحب النفس الرضية ، والخلق العلية ، صلى الله عليه وعلى آله بكرة وعشية ، فهذه حجة شرعية ، قاطعة مالكية ، محررة مرضية بالديار الفنجية ، بنواحي قرى المحروسة المحمية ، أجلها الله لدى متوليها والحاكم بما فيها الفقيه ضيف الله .

أما بعد فقد حضر لديه ، وتخاصم بين يديه ، بمجلس الشرع الشريف السالم من الزيغ والتحريف ، الرشيدان العاقلان ، خوجلي والجلي متنازعين عنده بأمر من السلطان ناصر بن السلطان بادي ، للشيخ عجيب بن الشيخ عبد الله ، والشيخ عجيب كتب إلى عبده مرناتي ، أن يقعدهم الشرع عند الفقيه ضيف الله ومن امتنع منهم فليحكم عليه باللدد ، وحين حضرا بين يديه فادعا كل منهما الملك والحوز في الدار التي كانت بيد عطية الله عبد أولاد عجيب

(١) هذا النموذج هو الوثيقة (١٥) من كتاب : « الفونج والأرض » الذي نشرته شعبة أبحاث السودان وحققه الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم (انظر ص ٩٢ – ٩٥ وهي منقولة بالحرف).

بعد ثبوت الوكاله المفوضة بالبينة الشرعية،خوجلي بوكالة من آبائه أولاد الفقيه خوجلي والجلي بوكالة من أبيه الفقه مقبول واخوانه وأولاد عمه حاضرين معه في مجلس الشرع ، وأمر الحاكم كلا منهما بالبينة على صحة دعواه بالحوز، لأن الصدقة بلا حوز باطلة،بدليل قول المصنف: وجيز وان بلا اذن،قال ابن عبد السلام : القبول والحيازة معتبران إلا أن القبول ركن والحيازة شرط ، نص عليه عبد الباقي عند قول المصنف وباقطاع الامام لأرض فهو تمليك ، فله بيعه وهبته ويورث عنه ويفتقر الى حيازة على المشهور كسائر العطايا ، ومثله أيضاً الخراشي . وأقام خوجلي البينة المدلة على أن الدار من زمن حماد ولد عجيب في يد السواكرة وظائف السلطنة عليها أولاد الفقه حمد ما حازها (لم يحزها) الى أن ملكها وحازها أولاً الفقه خوجلي في زمن مسمار ، فارتفعت الوظائف وتصرفوا فيها التصرف التام بالملك والحوز ، والبينة المذكورة منهم الفقه عبد الدافع بنقل عدلين منه شرف الدين الزرقاني والفقه محمد ولد راد الله والفقه جميل الله ولد مكي والفقه الصافي ولد بشارة ، والشيخ بركات خليفة الشيخ ادريس ، والشيخ ادريس ولد ناصر، والشيخ ادريس ولد نصار، والفقه السيد ولد حمد السيد والحاج محمد القنيو ، والفقه محمد ولد مضوي ، ولد ابراهيم ، والفقه سليمان ولد النور ، وسنوسي ولد حمدان ، والفقه مضوي المشهور بي ولد (بولد) الشيخ ادريس ، ومحمد بربر وحمودة ولد سرور وجمع كثير من الركابية والمحس وغيرهم . والبينة التي شهدت لأولاد الفقه خوجلي منهم من زكي ، ومنهم من استند فيه الحاكم لعلمه ، بدليل قول المصنف : ولا يستند لعلمه إلا في التعديل فيستند له ، ولو شهدت بينة بجرحه ، لأن علمه أقوى من البينة نص عليه الشيخ عبد الباقي . وادعى الجلي الحوز في زمن حماد ، وأمره الحاكم بالبينة على ثبوت حوزه ، وأنظره لها باجتهاده كما قال صاحب المختصر . قال الخراشي ما لم يتبين لدده والا حكم عليه من الآن .

ثم أتى ببينة لم يقبلها الشرع ، ثم أعذر له ثانية باجتهاده والحال أنه تغيب وهرب من حكم الشرع بعد استيفاء الحجة ، وهرب من القضاء فانه يقضي عليه ويعجزه ولا يكون له اذا قدم أن يقوم بحجته ، بمنزلة ما لو قضى عليه وهو حاضر . ثم بعد ثبوت التغيب والهروب والعجز عن البينة وانقضاء مدة التلوم حكم لأولاد الفقه خوجلي بالدار المذكورة بحدودها المعلومة فحدها من جهة الصعيد الحاج عالم يمر على الدرب السافل القوز الطالع الى الضنيقيلة ومن جهة السافل دار الزروقاب ومن جهة الصبح درب الجمل المعتاد ومن جهة الغرب البحر . وعجز الجلي وقطع نزاعه هو واخوانه وأولاد اعمه (عمه) المخاصمين معه عن كل حجة يقومون بها في ما سجل وسطر لعجز الجميع عن البينة بدليل قول المصنف وبعجزه وبدليل قول الشيخ عبد الباقي المتقدم في هذه المسألة وبدليل قول الخراشي عند قول المصنف وأنظره لها باجتهاده ما لم يتبين لدده وإلا حكم عليه من الآن ووقع هذا الحكم بحضرة العلماء منهم الفقه محمد بن الفقه محمد السيد والفقه محمد ولد السلمة وبمشورة الفقه اسماعيل خليفة الشيخ صغيرون شيخ القوز.حضر ذلك الحكم وشهد به الفقه أبو ادريس خليفة الفكي عبد الدافع والشيخ أخيه والفقه أحمد بن عيسى والفقه محمد بن علي بساطي أرباب والفقه محمد ولد حاج والفقه ابراهيم بن الحاج قرشي والفقه صالح ولد الزين والفقه الخليل ولد الزين والفقه بشير ولد كبوشية والفقه مدني ولد موسى والفقه الأمين ولد الحاج والفقه محمد بن الفقه عبد المحمود والفقه محمد ولد الحاج عشير ومسطر الأحرف الحاج السيد رحمة كاتب وشاهد بذلك والله خير الشاهدين ، تحرير ذلك بيوم الأحد أربعة حلة (خلت) من ربيع الثاني من شهور سنة ١١٨١ إحدى وثمانين بعد المائة والألف من الهجرة النبوية على صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام » .

يقول المحقق : « ثم يرد بعد ذلك في هامش هذه الوثيقة ما يأتي :

« نعم أنا فقير الله أحمد نظرت هذا الحكم فوجدته صحيح لا خلل فيه ولا ينقض حكم الحاكم إلا في مخالفة الكتاب والسنة والاجماع كما قال المصنف ما خالف قاطع أو جلي قياس ... ولا شك أني نظرت في هذا الحكم فوجدته صحيحاً لا خلل فيه بدليل قول الشيخ خليل : ولا ينقضه ... والعدل العالم قال الشيخ ... أي لا ينظر فيه ليلا بكثير ... والخصام وتفاقم الحال وأنا حامد أبو أمونه وهذا خطي بيدي فأنا فقير الله تعالى يوسف بن محمد الطريفي نظرت في هذا الحكم فوجدته صحيحاً وهذا خطى بيدي . نعم أنا فقير الله عبدالله أبي بكر سبط الشيخ محمد نظرت في هذا الحكم فوجدته صحيحاً وهذا خطي بيدي وأيضاً أن حكم العلما عرض علينا ونظرنا ما فيه وعلمنا أنه على حق بدليل المتن والشرح وأنا فقير الله مدني بن محمد نعم أنا فقير الله أحمد حمد السيد نظرت هذا الحكم فوجدته صحيحاً لا خلل فيه وهذا خطي بيدي . نعم هذا الحكم صحيح وأنا فقير الله أحمد بن الفقه سالم الماجدي فأنا فقير الله محمد بن أبو آمنة نظرت في هذا الحكم فوجدته صحيحاً وهذا خطي بيدي (هنا شهادة غير ظاهرة) . نعم إن الأمر كما ذكر والشأن كما سطر وحكمت بذلك وأنا فقير الله محمد بن الفقه حمد السيد حضرت هذا الحكم وأتممته وهذا خطي بيدي ، نعم أنا فقير الله محمد بن عبد الكافي حضرت هذا الحكم وتمت وهذا خطي بيدي . تصفحت الحكم فوجدته صحيحاً وأمضيت العمل بموجبه (انتهى نص الوثيقة) .

وقال المحقق إن : الشهادة الأخيرة صادرة من القاضي عبد العزيز بن الشريف محمد المهدي ، وقد وضع ختمه في نهاية شهادته والختم ظاهر في الأصل إلا أن الكتابة فيه غير واضحة » .

الفهرس

الصفحة

الباب الأول

سقوط سوبا وقيام قرى

الصفحة

الباب الثاني

علاقات المشيخة السياسية

الصفحة

الباب الثالث

شيوخ العبدلاب وأهم آثارهم

الصفحة

الباب الرابع

نظام الحكم والادارة

الصفحة

خاتمة في سقوط المشيخة